الجهاد الإسلامي

ضد الصليبيين

« في العصر الأيوبي »

تأليف

دكتور فايد حماد محمد عاشور

دكتوراه فى التاريخ الإسلامى « جامعة عين شمس »
دكتوراه فى تاريخ العصور الوسطى جامعة « الإسكندرية »

دار الاعتصام

الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين

«فى العصر الأيوبى»

تأليف

د. فايد حماد محمد عاشور

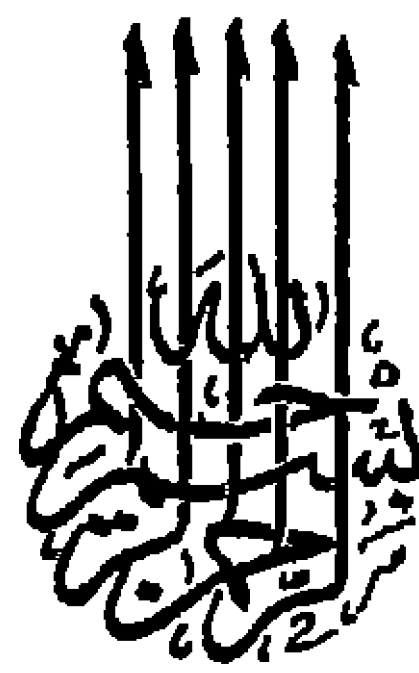
دكتوراه فى التاريخ الإسلامى «جامعة عين شمس»

دكتوراه فى تاريخ العصور الوسطى جامعة «الإسكندرية»

الطبعة الأولى

دار الاعتصام

دارالإعتصام
٨ شــارع حسـين حجــازى ـ تليفون ٣١٧٤٨/٢٦٠٣١ ـ ص.ب ٤٧٠ ـ القــاهرة
للطبـع والنشـر والتـوزيع



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

الحمد لله الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، والصلاة والسلام على معلم الإنسانية ، وهادى البشرية الرسول محمد بن عبد الله القائل فى حديث شريف : « ذروة سنام الإسلام ، الجهاد فى سبيل الله » وموضوع هذا الكتاب (الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين فى العصر الأيوبى) ، وموضوع الجهاد من الموضوعات الهامة التى تشغل بال المسلمين وخصوصاً أنهم يرون اليوم أن ما كان فى عصر الحروب الصليبية يتكرر فى حاضرهم ، فإن إسرائيل التى أقامها خصوم الإسلام والمسلمين – تحتل جزءا هاماً من أرض الإسلام (فلسطين) وتحصل إسرائيل على الدعم والتأييد والمعاضدة من دول العالم وشعوبه لتحارب المسلمين وتتوسع على حسابهم ، وتستولى على القدس الشريف ، وتدعى ملكيتها لثالث الحرمين وأولى القبلتين ، وهذا الوضع الذى نعيشه اليوم فى القرن العشرين صورة تتكرر كما فعل الصليبيون من قبل حينما استولوا على القدس سنة ١٠٩٩ م ، وادعاؤهم أن القدس وما حولها ملكاً لهم يؤيدهم فى ذلك أعداء الإسلام فى الشرق والغرب. فقد تعاضدت الأمم المسيحية فى العالم على قتال المسلمين ، ونجحوا فى إقامة بعض الإمارات الصليبية فى الشرق الإسلامى ، وجاهد المسلمون سنوات طويلة دون كلل أو ملل وذلك تلبية لنداء الجهاد ، ونجحوا فى تحرير القدس والبلاد التى أخذها العدو الصليبى فى الشرق الإسلامى .

والملاحظ أن المسلمين اليوم فى انقسام وفرقة واختلاف وعدم ائتلاف ، فأعطى هذا الوضع الغير طبيعى العدو اليهودى فرصة النجاح والبقاء والتوسع وأصبح المسلمون فى حيرة من أمرهم فيما يفعلون مع أنهم يملكون الأسباب المعينة على الجهاد لو اتبعوا ما أنزل الله ، ولهم مما حدث زمن الاحتلال

الصليبي الموعظة والعبرة واستخلاص الخبرة ، فقد استطاع المسلمون العبور من مرحلة الضعف والانقسام إلى مرحلة القوة ووحدة الصفوف والعودة إلى ميادين الجهاد الحقيقية بصدق وإخلاص ، يدفعهم إلى ذلك الإيمان العميق الذى لا يقبل روح اليأس أو الانهزام ، ومن ثم فإنهم لم ينتظروا إلى أن تصبح قوتهم المادية والعددية تفوق ما عند عدوهم لأن هذا المعنى لا يتفق مع الإيمان الذى يؤكد على أن النصر من عند الله بعد أن يقوم الناس بواجبهم قدر استطاعتهم والآية الكريمة : « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » ، وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

وما كان نجاح القوى الصليبية إلا رمزاً وبرهاناً على ضعف المسلمين فى أواخر القرن الخامس الهجرى . فقد كان المسلمون فى انشغال بمشاكلهم الداخلية ، وظهر الوهن فى صفوفهم واضحاً ، وأن هذا الضعف والانقسام قد أتاح للعدو الصليبي الفرصة فى أن يفكر فى غزو بلاد الإسلام وتحقيق الانتصارات على حساب القوى الإسلامية الموجودة آنذاك ، وما نتج عن ذلك من ضياع بيت المقدس وجزء كبير وهام من أرض الإسلام وسيطرتهم على فلسطين ومنها بدأوا يفكرون فى التوسع فى المناطق المجاورة فى شرق نهر الأردن وسوريا ولبنان ومصر والبحر الأحمر وبلاد الحجاز ، وبات الخطر يهدد مكة والبيت الحرام ، فبذل المسلمون جهوداً كبيرة لمقاومة الصليبيين ، ولكن تلك الجهود كانت تحتاج إلى مزيد من التنظيم وتوحيد القوى الإسلامية والارتفاع بالمسئولية عن طريق إيثار المصلحة العامة للإسلام والمسلمين على المصالح الإقليمية والشخصية ، وبقيت تلك الجهود تواجه العقبات فى الداخل ومقاومة الصليبيين فى الخارج حتى استطاع الأتابك عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود من بعده أن يبعثوا فى المسلمين روح الجهاد من جديد والعبور بالمسلمين من مرحلة الانهيار المعنوى وخصوصاً بعد أن استولى عماد الدين زنكى على إمارة الرها الصليبية عام ١١٤٤ م ، وأخذت حركة الإفاقة الإسلامية فى الظهور والنمو ونشطت فى عهد نور الدين محمود ، الذى عقد العزم على توحيد القوى الإسلامية من أجل الجهاد ضد

الصليبين وأحرز فى هذا المجال انتصارات عديدة أثارت مخاوف الصليبيين من ناحية وبعض الحكام والأمراء المسلمين من ناحية أخرى ، فتعاضد الطرفان ضد نور الدين محمود ، بل طمع الصليبيون فى مصر ورغبوا فى الاستيلاء عليها يدفعهم إلى ذلك ضعف الخلافة الفاطمية التى تحكم البلاد من ناحية وطمعاً فى خيرات مصر الاقتصادية وموقعها الهام من ناحية ثانية ومنع وقوعها فى قبضة نور الدين محمود من جهة ثالثة ولأنها كانت مورداً بشرياً ومالياً هاماً يدعم حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين ، ولهذا لم تتوقف المحاولات الصليبية للاستيلاء على مصر ، ولكن نور الدين من واقع إحساسه بمسئولية الحاكم المسلم ، أرسل الجيوش من بلاد الشام إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين وذلك بهدف دفع العدو الصليبى عن مصر ، وتكررت تلك الحملات ثلاث مرات حتى نجح جيش نور الدين فى المرة الثالثة فى السيطرة على البلاد المصرية وطرد القوات الصليبية منها ، وبوفاة الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ثم وفاة نور الدين محمود بعد قليل جدت ظروف جديدة ، تلك الظروف التى هيأت لصلاح الدين أن يحكم فى مصر أولا والشام ثانياً وتبدأ الدولة الأيوبية دوراً جديداً فى حركة الجهاد الإسلامى ضد أعداء الإسلام .

واجهت الدولة الأيوبية صعوبات كثيرة ، بعضها داخلية تمثلت فى مقاومة بعض الأمراء المسلمين للسلطان صلاح الدين وعدم رغبتهم فى الانضمام إليه ويؤثرون مصالحهم الشخصية ولا يعنيهم الصالح العام ، ويظهرون المعاضدة للمسلمين ظاهراً ، وأكثر من ذلك أن بعض الحكام تعاونوا مع الصليبيين وتحالفوا معهم من أجل مقاومة صلاح الدين وذلك لاعتقادهم أن قوة السلطان صلاح الدين تهدد الصليبيين والمتعاونين معهم وهذا موقف خيانة للإسلام والمسلمين ، ومن ثم كان موضوع توحيد القوى الإسلامية معضلة أكثر خطورة من مواجهة العدو الصليبى ، بل كلف هذا الأمر السلطان صلاح الدين جهوداً كبيرة وسنوات طويلة ، ولكنه كان يدرك أهمية توحيد القوى الإسلامية المجاورة للصليبيين على الأقل، سيكون له أثره الكبير فى زيادة قوة المسلمين وإضعاف الصليبيين ، فالمعركة من أجل البناء

والإصلاح الداخلى تؤتى ثمارها أيضاً فى ميدان الجهاد ضد الأعداء ، وتأتى أهمية دراسة تاريخ الدولة الأيوبية لاعتبارات كثيرة :

ـ الأمر الأول أن الأيوبيين جاهدوا فى سبيل الله وقاتلوا أعداء الإسلام ، وكانت معركتهم معركة إسلامية ، شارك فيها المسلمون من جميع الجنسيات ، فأعطوا بذلك المسلمين قوة جديدة استطاعت أن تحقق الانتصارات فى حطين والقدس وتمكنت من تحرير القدس ومعظم فلسطين من الاحتلال الصليبى فى أقل من سنة هى سنة ٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م وترتب على ذلك ارتفاع الروح المعنوية عند المسلمين وانهيارها عند الصليبيين وبالتالى تغير ميزان القوى فى الشرق الإسلامى وأصبح فى صالح المسلمين .

ـ الأمر الثانى : أن القوى المسيحية فى الشرق والغرب تعاضدت على حرب المسلمين ، فكانت متفقة فى الرأى والتخطيط والهدف والتعاون العسكرى ضد المسلمين ، وكانت هذه القوى تمد الحركة الصليبية بالمال والرجال والسلاح من أجل محاربة المسلمين ، ولذلك كان الموقف أشبه بمعسكرين : الأول معسكر الإسلام فى ناحية ، ومعسكر غير المسلمين فى ناحية ثانية ويبدو ذلك واضحاً فى الحملات الصليبية التى جاءت من الغرب الأوربى لنجدة الصليبيين فى الشرق .

ـ الأمر الثالث : أن الغرب الأوربى فى عصر الحروب الصليبية هو الذى قام بالحروب الصليبية ، واستمر فى إمداد الممالك التى أقامها الصليبيون فى الشرق بالسلاح والرجال والمال فكانوا يردفونهم بالإمدادات كأمواج البحر المتصلة (كلما هلك منهم واحد فى البر جاء عوضه ألف من البحر) : أى من بلاد الغرب عن طريق البحر ، وبذلك كان الوجود الصليبى فى الشرق مرهون بالدعم والإمدادات التى كانت تأتيه من الغرب كما هو الحال مع إسرائيل اليوم .

ـ الأمر الرابع : أن المسلمين فى العصر الأيوبى جاهدوا بقدر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا وبذلوا جهدهم المستطاع ولم يتعللوا بقوة عدوهم وتفوقه ولم يرهبوا حلفاءه وإمداداته ولكن كان المسلمون ينظرون إلى

عدوهم المغتصب لجزء من أرض المسلمين وضرورة مجاهدته بكل الوسائل الممكنة واعتقادهم بأن النصر مقرون بالجهاد والصبر والثبات عند لقاء الأعداء إيماناً منهم بأن الله يدافع عن الذين آمنوا ، ومن ثم فإن إدراك المسلمين للعوامل الإيمانية الروحية دورها الفعال فى إحراز النصر على الأعداء وعدم خشية العدو مهما بلغت قواته وأسلحته .

ـ الأمر الخامس : إن ظروفاً صعبة مرت بالدولة الأيوبية فى بعض الأحيان ، وقد اضطرت للدخول مع العدو فى هدنة مؤقتة لما تقتضيه المصلحة ولكن الملاحظ أن هذه المهادنات التى عقدوها اضطراراً كانت فى إطار الشريعة الإسلامية ، إذ لم تتضمن شرطاً يرفضه الإسلام ، ومصادر التاريخ الأيوبى تقدم الأدلة على ذلك وتعطى تفسيراً عملياً من خلال التجربة التاريخية .

ـ الأمر السادس : إن العدوان الصليبى لم يكن يهدف إلى السيطرة على فلسطين والقدس فقط ، بل كان يريد السيطرة على الشرق الإسلامى كله ودليل ذلك أنهم استولوا على مناطق واسعة إضافة إلى فلسطين فى الشام وشرق الأردن ولبنان وحاولوا أخذ مصر باعتبارها مركز القوة الإسلامية ، وإذا استولوا عليها يمكنهم الاستقرار فى المنطقة كما حاولوا الاستيلاء على البحر الأحمر وبلاد الحجاز ، ويلاحظ أن هذا المخطط هو نفسه الذى تسعى لتحقيقه الصهيونية الآن .

وجدير بالذكر الإشارة إلى أن مادة هذا الكتاب اعتمدت على مصادر عديدة ، منها المخطوطات العربية والمصادر التاريخية المطبوعة ثم مجموعة من المصادر الأجنبية ومراجع عديدة وذلك بهدف توثيق هذا الكتاب ، كما جعلت للمؤرخين المسلمين المعاصرين لحروب الصليبية دوراً بارزاً فى الشواهد ، فقد جعلت للاستشهاد بالنصوص التاريخية من مصادرها الأصلية مجالا كبيراً ، لأن ذلك أدق فى تصوير روح العصر الأيوبى وأكثر نزاهة فى التعبير .

وإذا كانت الدولة الأيوبية قد قامت على أساس الجهاد فى سبيل الله ضد الغزاة والمعتدين ، فقد عاشت سنواتها الطوال وهى فى جهاد فى جميع الجبهات

والمجالات ، وانتهت هذه الدولة الفتية وهى فى ميدان الجهاد ، حيث كانت هزيمة لويس التاسع فى المنصورة فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى .

وبعـد : فأرجو أن أكون قد وفقت فى إخراج هذا الكتاب المتواضع ليفيد منه المؤمنون الراغبون فى الجهاد فى سبيل الله والاستفادة من تجربة المسلمين فى مواجهة العدو الصليبى بالأمس فيواجهون اليهود اليوم على هدى من شريعة الإسلام ويجاهدوا أعداء الله حتى يستحقوا نصر الله الذى وعد به عباده المؤمنين : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ، وقوله تعالى : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

المؤلف

الدوحة فى ١/١/ ١٤٠٣ هـ

* * * *

الفصل الأول

ظهور صلاح الدين الأيوبى

مولده ونسبه — مواظبة صلاح الدين على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية — مواظبته على الصلاة — صلاح الدين وصوم رمضان — صلاح الدين والحج — صلاح الدين وتعظيمه للأحاديث النبوية الشريفة — جلوسه للقضاء وعدله — صلاح الدين الأيوبى والكرم فى العطاء — شجاعة صلاح الدين الأيوبى — اهتمامه بأمر الجهاد — صلاح الدين والصبر احتساباً فى سبيل الله — اهتمامه ومحافظته على أسباب المروءة — صلاح الدين وعفوه وحلمه — صلاح الدين ومسيره إلى مصر مع عمه أسد الدين — توليه أسد الدين شيركوه منصب الوزارة للخليفة العاضد — وفاة أسد الدين وانتقال منصب الوزارة إلى صلاح الدين — أثر توليه صلاح الدين الوزارة فى مصر — مؤامرة أنصار الفاطميين مع الصليبيين ضد صلاح الدين — عودة المذهب السنى إلى مصر — وفاة الخليفة العاضد وانتهاء الدولة الفاطمية — أول غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية — ابتداء الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين — هجوم صلاح الدين على الكرك والشوبك سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٣ م — وفاة نور الدين محمود وقيام الدولة الأيوبية .

* * *

الفصل الاول

ظهور صلاح الدين الأيوبى

مولده ونسبه :

كان مولده فى شهور سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة وذلك بقلعة تكريت(١) وكان والده نجم الدين أيوب وأخاه أسد الدين شيركوه من بلدة دوين (٢) وهم من الأكراد فى أرجح الأقوال . وذكر أبو المحاسن نسبهم فقال : (هو من الأكراد الروادية وهو الأصح)(٣) ، وقال المقريزى : (والحق أنه من الأكراد الروادية أحد بطون الهذبانية من بلد دوين فى آخر أذربيجان من جهة إران وبلاد الكرج)(٤) . وكان جده له أبناء أكبرها أيوب ثم شيركوه قدم — بهما والدهما شادى إلى بلاد العراق وخدما مجاهد الدين بهروز الخادم شحنة بغداد ، فرأى بهروز من نجم الدين رأياً وعقلا فولاه دزداراً بتكريت وكانت تكريت لبهروز أعطاها له السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاة السلجوقى ، فأقام نجم الدين بتكريت ومعه أخوه أسد الدين شيركوه إلى أن انهزم الأتابك عماد الدين زنكى بن آق سنقر من الخليفة العباسى المسترشد فى سنة ست وعشرين وخمسمائة ووصل إلى تكريت . وبه نجم الدين أيوب فأقام له المعابر فعبر زنكى بن آق سنقر دجلة من هناك وبالغ نجم الدين فى إكرامه (فرأى له زنكى ذلك وأقام نجم الدين بعد ذلك

---

(١) تكريت بلدة مشهورة بين بغداد والموصل وهى إلى بغداد أقرب ولها قلعة حصينة فى طرفها الأعلى راكبة على دجلة وهى غربى دجلة بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخاً ولها قلعة حصينة . انظر : ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٢) .

(٢) دوين : وهى بلدة صغيرة فى بلاد العجم فى أران فى آخر حدود أذربيجان بقرب تفليس . انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص (٦٣٢) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤ — ٥) .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٢) .

بتكريت إلى أن خرج منها بغير إذن بهروز)(١) وذكر أن خروجه من تكريت كان سببه أن نجم الدين أيوب كان يرمى يوماً بالنشاب فوقعت نشابه فى مملوك بهروز . فقتله من غير قصد، فاستنحى نجم الدين من بهروز فخرج هو وأخوه إلى الموصل(٢) (وقد ولد يوسف بن أيوب تلك الليلة فلحقا بزنكى)(٣) (وانتقل ولده المذكور معه وأقام بها إلى أن ترعرع وكان والده محترماً مقدماً وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكى)(٤) وكان الأتابك زنكى صاحب الموصل محترمهما (فأحسن إليهما زنكى وأقطعهما إقطاعات كثيرة ، وصارا من حملة أجناده إلى أن فتح زنكى مدينة بعلبك وولى نجم الدين أيوب دزدارا بقلعتها)(٥) وأقام بها مدة فنقل ولده المذكور رحمهما الله تعالى إلى بعلبك المحروسة ، وأقام بها فى خدمة والده يتربى تحت حجره ويرتضع ثدى محاسن أخلاقه ، حتى بدت منه إمارات السعادة ، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة فقدمه الملك العادل نور الدين محمود ابن زنكى . . . وعوّل عليه ونظر إليه وقربه وخصصه ، ولم يزل كلما تقدم قدماً تبدو منه أسباب تقتضى تقديمه إلى ما هو أعلى)(٦) .

مواظبة صلاح الدين على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية :

ورد فى الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام » وكان صلاح الدين (حسن العقيدة ، كثيراً لذكر الله تعالى ، قد أخذ عقيدته عن الدليل

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤) .

(٢) المصدر السابق ص (٤) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٢) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٦) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٨) .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٦) .

(٥) دزدارا : معناها بالعجمى ماسك القلعة . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة — ج ٦ ص (٥) .

(٦) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٦) .

بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا أجرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسناً . وإن لم يكن بعبارة الفقهاء ، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه . جارية على خط الاستقامة : موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء)(١) . وذكر المقريزى صلاح الدين بقوله : (ونشأ يوسف وعليه لوائح السعادة وجالس مشايخ أهل العلم ، فجمع له الشيخ الإمام قطب الدين أبو المعالى مسعود ابن محمد بن مسعود النيسابورى عقيدة تحوى جميع ما يحتاج إليه . فمن شدة حرصه عليها كان يعلمها صغار أولاده ويأخذها عليهم)(٢) .

مواظبته على الصلاة :

وكان يواظب على الصلاة مع الجماعة حتى قال يوماً : (لى سنين ما صليت إلا فى جماعة) . (وكان إذا مرض استدعى الإمام وحده وصلى خلفه)(٣) وقال ابن شداد : (وكان يواظب على السنن الرواتب وكان له ركعات يصليها إن استيقظ بوقت فى الليل وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح وما كان يترك الصلاة ما دام عقله عليه . ولقد رأيته قدس الله روحه ، يصلى فى مرضه الذى مات فيه قائماً وما ترك الصلاة إلا فى الأيام الثلاثة التى تغيب فيها ذهنه ، وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى)(٤) .

أما الزكاة :

(فإنه مات رحمه الله تعالى — ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة) وأما صدقة النفل فإنها استنفذت جميع ما ملكه من الأموال ، فإنه ملك

---

(١) ابن شداد : المصدر السابق ص (٧) ، ثم انظر العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٦٥٦) ، ثم انظر أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢١٨ - ٢١٩) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٧) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٢-٤٣)

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٣) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٦٦٠) .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٧ - ٨) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٢٩) .

ما ملك ومات ولم يخلف فى خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية وجرماً(١) واحداً ذهباً صورياً. ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك)(٢)، وكان السلطان صلاح الدين (شجاعاً شهماً مجاهداً فى سبيل الله، وكان مغرماً بالإنفاق فى سبيل الله . وحسب ما أطلقه ووهبه مدة مقامه على عكا مرابطاً للفرنج من شهر رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصاله عنها فى شعبان سنة ثمان وثمانين . فكان اثنى عشر ألف رأس من الخيل العراب ، والأكاديش الجياد للحاضرين معه للجهاد ، غير ما أطلقه من الأموال) . قال العماد الكاتب : (لم يكن له فرس يركب إلا وهو موهوب ولا جاءه قول إلا وهو مطلوب ، وما كان يلبس إلا ما يحل لبسه كالكتان والقطن والصوف ، وكانت مجالسه منزهة عن الهزء والهزل ومحافله حافلة بأهل العلم والفضل ويؤثر سماع الحديث، وكان من جالسه لا يعلم أنه جالس سلطاناً لتواضعه قال: ورأى معى يوماً دواة محلاة بفضة فأنكر على وقال: ما هذا ؟ فلم أكتب بها عنده بعدها وكان محافظاً على الصلوات فى أوقاتها لا يصلى إلا فى جماعة، وكان لا يلتفت إلى قول منجم ، وإذا عزم على أمر توكل على الله)(٣).

صلاح الدين الأيوبى وصوم رمضان :

قال القاضى ابن شداد : (فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه فى رمضانات متعددة ، وكان القاضى الفاضل قد تولى تلك الأيام وشرع رحمه الله فى قضاء تلك الفوائت بالقدس فى السنة التى توفى فيها وواظب على الصوم مقداراً زائداً على شهر ، فإنه كان عليه فوائت رمضانين شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها، وكان الصوم لا يوافق مزاجه

---

(١) لفظ جرم ربما كان يعنى ديناراً .

انظر : أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢١٧) ، ثم العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٢٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٢٦) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٩) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢١٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٢٦) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٨ - ٩) .

فألهمه الله تعالى الصوم بقضاء الفوائت فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التى يصومها لأن القاضى كان غائباً ، وكان الطبيب يلومه وهو لا يسمع ويقول : « لا أعلم ما يكون » فكأنه كان ملهماً ببراءة ذمته رحمة الله عليه ولم يزل حتى قضى ما كان عليه)(١) .

صلاح الدين الأيوبى والحج :

فأنه لم يزل عازماً عليه وناوياً له سيما فى العام الذى توفى فيه فإنه صمم العزم عليه وأمر بالتأهب وعملت الزوادة ولم يبق إلا المسير فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وفراغ اليد عما يليق بأمثاله فأخره إلى العام المستقبل ، فقضى الله ما قضى وهذا شيء اشترك فى العلم به الخاص والعام ، وكان السلطان صلاح الدين يحب سماع القرآن العظيم (حتى أنه كان يستخير إمامه ويشترط أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم متقناً لحفظه)(٢) وكان يستقرئ من يحضره فى الليل — وهو فى برجه — الجزئين والثلاثة والأربعة وهو يسمع وكان يستقرئ فى مجلسه العام — من جرت عادته بذلك الآية والعشرين الزائد على ذلك ، ولقد اجتاز على صغير بين يدى أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته فقربه وجعل له حظاً — من خاص طعامه ووقف عليه وعلى أبيه جزءا من مزرعة)(٣) .

صلاح الدين الأيوبى وتعظيمه للأحاديث النبوية الشريفة :

كان صلاح الدين (شديد الرغبة فى سماع الحديث ومتى سمع من شيخ ذى رواية عالية وسماع كثير ، فإنه إن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، فأسمع من يحضره فى ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالا له . وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور فى مجالسهم سعى إليه وسمع عليه وتردد إلى الحافظ الأصفهانى بالإسكندرية — حرسها

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨) .
(٢) ابن شداد : المصدر السابق ص (٩) .
(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٩) .

الله تعالى وروى عنه أحاديث كثيرة)(١)(وكان رقيق القلب خاشع الدمعة إذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه فى معظم أوقاته)(٢) . وقال ابن شداد أيضاً : (وكان رحمه الله تعالى يحب أن يقرأ الحديث بنفسه وكان يستحضر فى خلوته ويحضر شيئاً من كتب الحديث . ويقرؤها هو فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه)(٣) ، (وكان رحمه الله كثير التعظيم لشعائر الدين) قائلا ببعث الأجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنة والمسىء بالنار مصدقاً بجميع ما وردت به الشرائع منشرحاً بذلك صدره مبغضاً للفلاسفة والمعطلة والدهرية ومن يعاند الشريعة . . . وكان حسن الظن بالله ، كثير الاعتماد عليه ، عظيم الإنابة إليه(٤) وكان صلاح الدين فى وقت الشدة يدعو الله فى سجوده ويقول : (إلهى قد انقطعت أسبابى الأرضية فى نصرة دينك ، ولم يبق إلا الأخلاد إليك ، والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك أنت حسبى ونعم الوكيل) (٥) وهكذا نرى صلاح الدين الأيوبى الذى تربى تربية إسلامية جعلت منه السلطان القائد المنتصر المؤمن بأن من اعتز بغير الله فقد ذل .

جلوس السلطان صلاح الدين الأيوبى للقضاء وعدله :

روى أبو بكر الصديق رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الوالى العادل ظل الله فى أرضه ، فمن نصحه فى نفسه أو فى عباده أظله الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، ومن خانه فى نفسه أو فى عباد الله خذله الله يوم القيامة ، ويرفع للوالى العادل فى كل يوم عمل ستين صديقاً كلهم عابد مجتهد لنفسه » . ولقد كان السلطان صلاح الدين (عادلاً رؤوفاً رحيماً ، ناصراً للضعيف على القوى ، وكان يجلس للعدل فى كل يوم اثنين وخميس

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٩) . مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٣٢) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٩) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩) .

(٤) المصدر السابق ص (١٠) .

(٥) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٢) .

فى مجلس عام ، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء . ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد ، من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً)(١) وقال صاحب النجوم الزاهرة : (وما استغاث إليه أحد إلا أجابه وكشف ظلامته)(٢) . وكان السلطان صلاح الدين شديد الحرص على إشاعة العدل بين الناس لأن ذلك من العوامل الهامة فى تحقيق التوفيق فى سياسة الملك والدولة وسبباً رئيساً للنصر على الأعداء ولم يغفل عن العدل ساعة . على أنه كان فى جميع أزمانه قابلا لجميع ما يعرض عليه من القصص كاشفاً لما ينتهى إليه من المظالم ، وكان يجمع القصص فى كل يوم ويفتح باب العدل ، ولم يرد قاصداً وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما فى الليل أو فى النهار ، ويوقع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه ولم يرد قاصداً أبداً ولا منتحلا ولا طالب حاجة وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة . . . ولقد كان رؤوفاً بالرعية ، ناصراً للدين ، مواظباً على تلاوة القرآن العزيز عالماً بما فيه عاملا به ، لا يعدوه أبداً رحمة الله عليه(٣) .

صلاح الدين الأيوبى والكرم فى العطاء :

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا عثر الكريم فإن الله آخذ بيده » وهل بعد وفاته دون أن تجب عليه الزكاة من دليل على الكرم والعطاء على الرغم من كونه سلطان المسلمين لمدة قاربت الربع قرن من الزمان فإنه مات . .

(ولم يوجد فى خزائنه من الفضة إلا سبعة وأربعون درهماً ناصرية ومن الذهب إلا جرم واحد صورى)(٤) ويقول ابن شداد : (ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ، ولم يكن فى الخزانة ما يعطى الوفود ، فلم أزل أخاطبه فى أمرهم

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٣) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢١٨)
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٠) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٤).
(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٣) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٢٩ - ٤٣١) .
(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٧) .

حتى باع قرية من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد (، وقال أيضاً : (وكان يعطى فى وقت الضيق كما يعطى فى حال السعة وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال . حذراً أن يفاجئهم مهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه(١)) وكان صلاح الدين يقول فى معرض حديث جرى : (يمكن أن يكون فى الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب . . وهذا يعكس ما فى نفس صلاح الدين عن الثراء والأموال ولهذا كان يعطى فوق ما يؤمل الطالب ، وكان يعطى الكثير ويبسط وجهه للمعطى بسطه لمن لم يعطه شيئاً)(٢) وقال أبو المحاسن فيه : (مارس فى البلاد أهل الفقه والعلم والتصوف والدين والناس يهرعون إليه من كل صوب ويفدون عليه من كل جانب وهو لا يخيب قاصداً ولا يعدم واحداً)(٣) .

شجاعة صلاح الدين الأيوبى :

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله يحب الشجاعة ولو قتل حية » . ولقد كان السلطان صلاح الدين من المؤمنين الشجعان ، قوى النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، ولا يهوله أمر ، ويقول ابن شداد : (ولقد رأيته . . . مرابطاً فى مقابلة عدة عظيمة من الفرنج ونجدهم تتواصل ، وعساكرهم تتواتر وهو لا يزداد إلا قوة نفس وصبر ولقد وصل فى ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركباً على عكا وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس وهو لا يزداد إلا قوة نفس ، ولقد كان رحمه الله — يعطى دستوراً فى أوائل الشتاء ويبقى فى شرذمة يسيرة فى مقابلة عدتهم الكثيرة)(٤).

---

(١) ابن شداد : المصدر السابق ص (١٧) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٨) ، ثم انظر : أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢١٨ – ٢٢٠) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٥) .

(٤) أما كلمة الدستور هنا فإنها تعنى إعطاء العسكر الإذن بالانصراف لقضاء فترة الشتاء فيما يريدون ثم يعودون بعد انقضاء فصل الشتاء وتعنى أيضاً انتهاء الاجتماع والسماح بالانصراف .

انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٩ ، ٢١٦) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٣٢) .

وكان لا يخشى العدو . وكان لابد له من أن يطوف حول العدو فى كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم ، وكان رحمه الله تعالى إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد وعلى يده جنيب ويخترق العساكر من الميمنة إلى الميسرة . ويرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف فى مواضع يراها . وكان يشارف العدو ويجاوره(١) ويقول أيضاً ابن شداد : (ما رأيته استكثر العدو أصلا ولا استعظم أمرهم قط . وكان مع ذلك فى حال الفكر والتدبير تذكر بين يديه الأقسام كلها ويرتب على كل قسم بمقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه) وكان محباً للحديث الشريف وقراءته بين صفوف المجاهدين ويقول ابن شداد : (ولقد قرئ عليه جزء من الحديث بين الصفين وذلك أنى قلت له : قد سمع الحديث فى جميع المواطن الشريفة ولم ينقل أنه سمع بين الصفين ، فإن رأى — المولى أن يؤثر عنه كان حسناً . فأذن فى ذلك . فأحضر جزءاً وهناك أحضر من له به سماع ، فقرئ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين نمشي تارة ونقف أخرى)(٢) .

وكانت الحروب التى خاضها صلاح الدين ضد أعداء الإسلام خير دليل على شجاعته بالفعل لا بالقول وما نال هذه الشهرة العظيمة فى الشرق والغرب إلا لشجاعته وقوة إيمانه وصبره وحبه للحق . فكان من الذين قال القرآن فيهم : « **والعصر إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** » .

اهتمام صلاح الدين بأمر الجهاد :

قال الله سبحانه وتعالى : « **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** » وقال ابن شداد فى صلاح الدين واهتمامه بأمر الجهاد : (ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه عظيم الاهتمام به ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا فى الجهاد أو فى الإرفاد لصدق وبر فى يمينه . ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٩) .
(٢) المصدر السابق ص (٢٠) .

وسائر جوانحه استيلاء عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه . ولا نظر إلا فى آلته ولا كان له اهتمام إلا برجاله . ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه . ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح يمنه ويسره . ولقد وقعت عليه الخيمة فى ليلة ريحة على مرج عكا فلو لم يكن فى البرج وإلا قتلته ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً . وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد . ولقد ألف له كتب عدة فى الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتاباً جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فى فضله ، وشرحت غريبها وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل — عز نصره)(١) .

وكان ابن شداد يخاف البحر وأهواله وبينما هو فى صحبة صلاح الدين على الساحل (وكان الزمان شتاء عظيماً والبحر هائجاً هياجاً شديداً وموجه كالجبال كما قال الله تعالى) . وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عندى حتى خيل إلى أنى لو قال لى قادر : إن جزت فى البحر ميلا واحداً ملكتك الدنيا . لما كنت أفعل . واستخففت رأى من ركب البحر رجاء لكسب دينار أو درهم ، واستحسنت رأى من لا يقبل شهادة راكب بحر . هذا كله خطر لى لعظم الهول الذى شاهدته من حركة البحر وتموجه ، فبينما أنا فى ذلك إذ التفت إلى رحمه الله وقال :

(أما أحكى لك شيئاً ؟ قلت : بلى . قال فى نفسى إنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت) فعظم وقع هذا الكلام عندى حيث ناقض ما كان خطر لى وقلت له : ليس فى الأرض أشجع نفساً من المولى . ولا أقوى منه نية فى نصرة دين الله تعالى . فقال : فكيف ؟

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢١) .

فقلت : أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهوله ، وأما نصره دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الأرض حتى تطهر جميع الأرض منهم واستأذنت في أن أحكي له ما كان خطر لي ، فأذن فحكيت له ثم قلت : ما هذه إلا نية جميلة . ولكن المولى يسير في البحر العساكر ، وهو سور الإسلام ومنعته ، فلا ينبغي له أن يخاطر بنفسه ، فقال : أنا أستفتيك : ما أشرف الميتات ؟

فقلت : الموت في سبيل الله .

فقال : غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات)(١) .

صلاح الدين والصبر احتساباً في سبيل الله :

قال الله سبحانه وتعالى : « **ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** » . يقول ابن شداد عنه : (ولقد رأيته رحمه الله في مرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه بحيث لا يستطيع الجلوس وإنما يكون متكئاً على جانبه إن كان بالخيمة . وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس وكان يأمر أن يفرق على الناس وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو . وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلبا تعبية القتال . وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الطلاب ، ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الألم وقوة ضربان الدماميل وأنا أتعجب من ذلك ، فيقول : إذا ركبت يزول عني ألمها حتى — أنزل وهذه عناية ربانية)(٢) وكان صلاح الدين شديد العزم في قتال العدو لا يحول بينه وبين الجهاد سبب ويقول ابن شداد أيضاً : (ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها وقد قال : « ولا ننام الليلة حتى تنصب لنا خمس مناجيق » ورتب لكل منجنيق قوماً يتولون نصبه وكنا طول الليل في خدمته — قدس الله روحه في ألذ فاكهة وأرغد عيش ، والرسل تتواصل تخبره بأن قد نصب من

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢٢ — ٢٣) .

(٢) المصدر السابق ص (٢٤) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٢١) .

المنجنيق الفلانى كذا ومن المنجنيق الفلانى كذا حتى أتى الصباح وقد فرغ منها . ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها . وكانت من أطول الليالى وأشدها برداً ومطراً)(١) وهو يصبر فى الأمور كافة حتى فى وفاة أقرب الناس إليه وهكذا فعل عندما وصله خبر وفاة ابن أخيه تقى الدين عمر أثناء وجوده فى مقابلة الإفرنج على الرملة وكتم خبر وفاته وقال : أستغفر الله ، وأخذ يكررها ثم قال : لا يعلم بهذا أحد . . . ولم يعلم ذلك أحد حتى عاد العدو إلى يافا . . . وكان رحمه الله شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار وهو صابر على مفارقتهم ، راض ببعدهم عنه ، وكان صابراً على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتساباً لله تعالى)(٢) .

صلاح الدين وعفوه وحلمه :

قال الله سبحانه وتعالى : **« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين »** .

وكان صلاح الدين حليماً متجاوزاً قليل الغضب شديد الرحمة بالمؤمنين ولذلك يفعل الإحسان والعفو حتى مع الأعداء ،(وكان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج بالليل ويسرقونهم ، فسرقوا ليلة صبياً رضيعاً فباتت أمه تبكي طول الليل فقال لها الفرنج : إن سلطانهم رحيم القلب فاذهبي إليه ، فجاءته وهو على تل الخروبة راكب ، فعفرت وجهها وبكت . فسأل عنها فأخبر بقصتها ، فرق لها ودمعت عيناه وتقدم إلى مقدم اللصوص بإحضار الطفل ولم يزل واقفاً حتى أحضروه ، فلما رأته بكت وشهقت وأخذته وأرضعته ساعة وضمته إليها ، وأشارت إلى ناحية الفرنج ، فأمر أن تحمل على فرس وتلحق بالفرنج ففعلوا)(٣) .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢٦ - ٢٧) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢٧) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٧) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١١) ، وقد ذكر ابن شداد أن الطفل المسروق كان طفلة أنثى : سيرة صلاح الدين ص (٣٢ - ٣٣) .

اهتمامه ومحافظته على أسباب المروءة :

قال صلى الله عليه وسلم : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وكان السلطان صلاح الدين يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوى الأقدار وكان يوصينا بأن لا نغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى نحضرهم عنده ، وينالهم من إحسانه . . . ولقد رأيته وقد قدم بين يديه أسير إفرنجى وقد هابه بحيث أنه ظهرت عليه امارات الخوف والجزع فقال له الترجمان : (من أى شىء تخاف ؟ فأجرى الله على لسانه أن قال : كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه ، فبعد رؤيتى له وحضورى بين يديه أيقنت أنى ما أرى إلا الخير فرق له ومن عليه وأطلقه)(١) .

وكان السلطان صلاح الدين حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيب الفكاهة ، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بسيرهم وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيلهم ، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره وكان حسن الخلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد إلا بالخير ، وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا الخير وطاهر اللسان ، فما رأيته ولع بشتم ، وطاهر القلم فما كتب بقلمه إيذاء مسلم قط ، وكان حسن العهد والوفاء ، فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفيه وجبر قلبه ، وأعطاه خبز مخلفه . وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه إليه وإلا أبقى له من الخبز ما يكفى حاجته وسلمه إلى من يعتنى بتربيته ويكفلها . وكان لا يرى شيخاً إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه ، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله إلى مقر رحمته ومكان رضوانه)(٢).

صلاح الدين ومسيرة إلى مصر مع عمه أسد الدين :

صار صلاح الدين فى خدمة نور الدين محمود بن زنكى ، فخرج مع

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٣٢) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٣٣ - ٣٤) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١١ - ١٢) .

عمه أسدالدين شيركوه إلى مصر فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وسبب ذلك أن شاور الوزير الفاطمى سار إلى الشام بعد أن هزمه ضرغام وغلب على الوزارة واستغاث بنور الدين أن يرده إلى وزارته (وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب وعجز صاحب المنصب عن دفعه وعرفوا عجزه ، وقعوا للقاهر منهم ورتبوه ومكنوه ولأن قوتهم إنما كانت بعسكر وزيرهم . وهو ملقب عندهم بالسلطان وما كانوا يرون المكاشفة وأغراضهم مستتبة وقواعدهم مستقرة من أول زمانهم على هذا المثال) ولما تأهب أسد الدين شيركوه وسار بقواته إلى مصر استصحب معه صلاح الدين (عن كراهية منه . . . وجعله مقدم عسكره ، وصاحب رأيه وساروا حتى وصلوا إلى محروسة مصر ، وشاوز معهم فى الثانى من جمادى الآخرة سنة ثمان المذكورة)(١) .

وبعد أن عاد شاور إلى وزارته وتخلص من خصمه ودخول الصليبيين إلى مصر لإخراج جيش نور الدين بطلب من شاور ، تقرر عودة أسد الدين وصلاح الدين بالجيش إلى بلاده الشام على أن يعود الصليبيون إلى بلادهم أيضاً . وكان صلاح الدين عظيم القدر عند عمه أسد الدين (وكان لا يفعل أمراً ولا يقرر حالا إلا بمشورته ورأيه ، ولما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة والفكرة الصحيحة ، واقتران النصر بحركاته وسكناته فأقام بالشام مدبراً لأمره . مفكراً فى كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية محدثاً بذلك ، مقرراً لقواعد ذلك مع الملك العادل نور الدين)(٢) وكان لابد من عودة أسد شيركوه إلى مصر ولم يزل يتحدث فى هذا الأمر بين الناس حتى بلغ شاور ذلك ، فداخله الخوف على البلاد من الأتراك (يقصد آل زنكى والأيوبيين) وعلم أن أسد الدين قد طمع فى البلاد وأنه لابد له من قصدها ،

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٣٦) ، أبو المحاسن : النجوم الزهرة ج ٦ ، ص (٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٣) ، ابن واصل : ومفرج الكروب ج ١ ص (١٣٧ - ١٣٩) ، ثم انظر : Guillaume de Tyre, p. 890, Michel Le syrien, III, p. 317 .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٣٦ - ٣٧) .

فكاتب الإفرنج وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكيناً كلياً ويعينونه على استئصال أعدائه بحيث يستقر قلبه فيها وبلغ ذلك أسد الدين والملك العادل نور الدين فاشتد خوفهم على مصر أن يملكها الكفار ، فيستولوا على البلاد كلها ، فتجهز أسد الدين ، وأنفذ معه الملك العادل نور الدين العساكر وألزم السلطان – صلاح الدين – بالمسير معه على كراهية منه لذلك ووصل جيش نور الدين إلى مصر سنة اثنتين وستين وخمسمائة وجرى بينه وبين شاور وحلفائه الصليبيين قتال فى معركة البابين حيث انتصر أسد الدين شيركوه ، كما استولى أسد الدين على الإسكندرية ، ثم وقع الصلح بين الطرفين على أن يعود الصليبيون وأسد الدين إلى بلادهم أيضاً(١) وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره بسبب اتفاق الإفرنج والمصريين وما عانوه من الشدائد وعاينوه من الأهوال (وعاد إلى الشام فى بقية السنة وقد انضم إلى قوة الطمع فى البلاد شدة – الخوف من الإفرنج ، لعلمه أنهم كشفوها كما كشفها وعرفوها من الوجه الذى عرفها ، فأقام – فى الشام على مضض وقلبه مقلقل ، والقضاء يجره إلى شىء قد قدر لغيره وهو لا يشعر بذلك)(٢) .

وأما مسير القوات النورية إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه فقد كان سنة أربع وستين وخمسمائة هـ (١١٦٨ م) ، (وكان سبب ذلك أن الإفرنج خذلهم الله – جمعوا راجلهم وفارسهم وخرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين لجميع ما استقر مع المصريين وأسد الدين من الصلح والقواعد طمعاً فى البلاد)(٣) ولما علم نور الدين وأسد الدين بأخبار الصليبيين (لم يسعهما الصبر دون أن سارعا إلى قصد البلاد) .

أما نور الدين فبالمال والرجال ولم يسر بنفسه خوفاً على البلاد من الصليبيين وأما أسد الدين فبنفسه وماله وأهله ورجاله ولقد قال لى السلطان –

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٣٧ – ٣٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٤٨ – ١٥٢) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٣) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٣٨) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٣٨) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٩) .

قدس الله روحه — : (كنت أكره الناس للخروج فى هذه الدفعة . وما خرجت مع عمى باختيارى (وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : « **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم** »(١) وكلن الخليفة الفاطمى العاضد وشاور قد كاتبوا نور الدين مرات عديدة يطلبون الغوث والنجدة لإنقاذ البلاد المصرية من الوقوع فى أيدى الصليبيين (وكان شاور لما أحس بخروج الإفرنج إلى مصر على تلك القاعدة أنفذ إلى أسد الدين يستصرخه ويستنجده مسرعاً (وكان وصولهم إلى محروسة مصر فى أثناء ربيع الأول سنة أربع وستين وخمسمائة (ديسمبر ١١٦٨ م)(٢) .

ولما علم الصليبيون بوصول قوات أسد الدين إلى مصر (عن اتفاق بينه وبين أهلها رحلوا راجعين وعلى أعقابهم ناكصين (وأدرك أسد الدين أن الصليبيين متى وجدوا فرصة أخذوا البلاد (وأن ترددهم إليها فى كل وقت لا يفيد وأن شاور يلعب بهم تارة وبالإفرنج تارة أخرى (ولهذا كان من المصلحة القضاء على شاور (فلم يجسر عليه أحد منهم إلا صلاح الدين) وقبض على شاور ، وطلب الخليفة العاضد رأس شاور فقتلوه وأنفذوا رأسه إلى العاضد واستراح الناس من شره وسوء فعله(٣) .

أسد الدين شيركوه وزيراً للخليفة العاضد :

ثم خلع الخليفة العاضد على أسد الدين شيركوه خلع الوزارة فلبسها ، وسار ودخل القصر وفوضت إليه الوزارة والتقدم على الجيوش ولقب الملك المنصور أمير الجيوش ، وقصد دار الوزارة فنزلها ، واستقر فى الأمر ولم يبق له منازع ولا مناوئ وكتب الخليفة العاضد تفويضاً لأسد الدين جاء فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم — من عبد الله ووليه عبد الله أبى محمد الإمام العاضد

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٣٨ — ٣٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٥٩) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٣٩) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٣٩ — ٤٠) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٥٧ — ١٦٣) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٣) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٦) .

لدين الله أمير المؤمنين إلى السيد الآجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الأئمة مجير الأمة أسد الدين ، كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبى الحرث شيركوه العاضدى – عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته : سلام عليك ، فإنه يحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ويسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين والأئمة المهديين وسلم تسليماً كثيراً) . ثم مضمون بقية المنشور تفويض أمور الخلافة إليه والقيام بإعباء حفظها والدفاع عنها ، والتوصية بتقوى الله تعالى ، والعمل بفرائضه والانتهاء عن مناهيه وغير ذلك من الوصايا .

وكتب العاضد فى هذا المنشور بخطه : (هذا عهد لم يعهد لوزير مثله فتقلد أمانه رآك أمير المؤمنين أهلا لحملها والحجة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سبله ، فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن خدمتك إلى بنوة النبوة واتخذ للفوز سبيلا **« ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا »**(١) .

انتقال الوزارة إلى صلاح الدين بعد وفاة أسد الدين :

لم يمض على تعيين أسد الدين شيركوه فى الوزارة الفاطمية وقت طويل حتى وافته المنية فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ الموافق ٢٣ / ٣ / ١١٦٩ م بعد شهرين من ولايته لها (فولى الخليفة العاضد صلاح الدين هذه الوزارة ولقبه الملك الناصر وذلك فى العشر الأخير من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة (١١٦٩ م) واستولى على الديار المصرية ومهد أمورها ، وصار يدعى للعاضد ثم من بعده للملك العادل نور الدين محمود ثم من بعدهما لصلاح الدين هذا)(٢) . وكان انتقال السلطة

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٦٤ – ١٦٥) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٠) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٦٨ – ١٦٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٣) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٦) .

إلى صلاح الدين يعنى أنه تقلد أمراً يخص المسلمين فشكر الله على نعمته (وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد ، وما عاد عنه . ولا ازداد إلا جداً إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته) ويقول ابن شداد : (ولقد سمعت منه يقول : (لما يسر الله لى الديار المصرية – علمت أنه أراد فتح الساحل ، لأنه أوقع ذلك فى نفسى) ومن حين استتب له الأمر ما زال يشن الغارات على الإفرنج إلى الكرك والشوبك وبلادها ، وغشى الناس من سحائب الأفضال والنعم ما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام هذا كله وهو وزير متابع للقوم ولكنه مقو لمذهب السنة ، غارس فى أهل البلاد العلم والفقه والتصوف والدين ، والناس يهرعون إليه من كل صوب ويفدون عليه من كل جانب ، وهو لا يخيب قاصداً ولا يعدم وافداً إلى سنة خمس وستين وخمسمائة(١) .

وكان الخليفة العاضد قد كتب له منشوراً من جملته (فأنت راضع دره وناشئة حجره وظهور الخيل مواطنك وظلال الخيام مساكنك وفى ظلمات قساطله تجلى محاسنك وفى أعقاب نوازله تتلى مناقبك ، فشمر له عن ساق من القنا ، وخض فيه بحوافر الظبا واحلل فى عقد كلمة الله وثيقات الحبى ، واسل الوهاد بدم العدا ، وارفع برؤوسهم الربا حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين أن يكون مذخوراً لأيامك ، ومشهوداً لك يوم مقامك) . وكتب الخليفة العاضد لدين الله فى المنشور بخطه : (هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته عند الله سبحانه عليك فاوف بعهدك يمينك وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ولمن مضى بجدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أحسن أسوة ولمن بقى بقربنا سلوه : **« وتلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين »**)(٢) . ولقد أدرك صلاح الدين المسئولية الضخمة التى حملها ومن ثم بدأ فى الترتيب والإعداد ليكون الرجل المؤمن القوى على تحمل المسئولية) واستقرت القواعد واستتبت

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٠ – ٤١) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٤ – ١٥) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٧٠ – ١٧١) .

الأحوال على أحسن نظام وبذل المال وملك الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها)(١).

أثر تولية صلاح الدين الوزارة فى مصر :

ويمكن معرفة الخطر الذى شكله صلاح الدين على الصليبيين من موقفهم من خلال تطور الحوادث فى مصر وتولى صلاح الدين منصب الوزارة للخليفة الفاطمى العاضد ، فقد انزعجوا انزعاجاً شديداً ويصف ابن شداد هذا الموقف بقوله : (ولما علم الإفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم ، وما تم للسلطان من استقامة الأمر فى الديار المصرية علموا أنه يملك بلادهم ويخرب ديارهم ويقلع آثارهم ، لما حدث له من القوة والملك فاجتمع الإفرنج والروم جميعاً ، وحدثوا أنفسهم بقصد الديار المصرية والاستيلاء عليها وملكها ورأوا قصد دمياط ، لتمكن القاصد لها من البر والبحر ولعلمهم أنها إن حصلت لها حصل لهم مغرس قدم يأوون إليه فاستصحبوا المنجنيقات والدبابات وآلات الحصار وغير ذلك)(٢) وكان الامبراطور البيزنطى مانويل قد أرسل فى يوليه سنة ١١٦٩ م إلى عمورى ملك مملكة بيت المقدس الصليبى أسطولا قوياً بقيادة أندرونيك كونستفانوس بعد أن مر بجزيرة قبرص وتزود بالمؤن الذى يكفى لثلاثة أشهر وانضمت إليه هناك ستون سفينة بيزنطية أخرى ، كما أرسل مانويل قوة كبيرة من الفرسان والمشاة والميرة وآلات الحرب من أقوى رجاله لأن الامبراطور كان يطمع فى أن تدخل مصر ضمن دائرة النفوذ البيزنطى .

الموقف الصليبى هذا يدل بوضوح على رغبة أعداء الإسلام فى بقاء مصر ضعيفة فى أشخاص حكامها وبالتالى ضعيفة فى جميع المجالات العسكرية والاقتصادية والاجتماعية ، وإثارة الخلافات بين أربابها ولهذا سارعوا إلى دمياط قبل أن يتمكن صلاح الدين فى البلاد وكانت تلك المشكلة الأولى التى يواجهها صلاح الدين فى مصر بعد توليه منصب الوزارة ، ولما رأى نور

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٠) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤١ – ٤٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٧٩ – ١٨٠) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٤ – ١٥) .

الدين محمود ظهور أمر الإفرنج وبلغه نزولهم على دمياط) قصد شغل قلوبهم فنزل على الكرك محاصراً لها فى شعبان من هذه السنة (٥٦٤ هـ) فقصده إفرنج الساحل فرحل عنها ، وقصد لقاءهم ، فلم يقفوا له)(١) وأمد نور الدين صلاح الدين بعسكر فيهم الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب وهو أكبر من صلاح الدين – وقال له نور الدين لما أراد أن يسيره إلى أخيه : (إن كنت تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذى كان يقوم فى خدمتك وأنت قاعد ، فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائم فيها مقامى ، وتخدمه بنفسك كما تخدمنى ، فسر إليه ، وشدد أزره ، وساعد على ما هو بصدده) . قال : (افعل معه من الخدمة والطاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى فكان كما قال)(٢) . ولما علم صلاح الدين (شدة قصد العدو دمياط أنفذ إلى البلد وأودعه من الرجال وأبطال الفرسان والميرة وآلات السلاح وما آمن معه عليه ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات وإزعاج العدو عنهم إن نزل عليهم وبالغ فى العطايا والهبات . وكان وزيراً متمكناً لا يرد أمره فى شىء ، ثم نزل الإفرنج عليها فى التاريخ المتقدم المذكور ، واشتد زحفهم عليها وقتالهم لها ، وهو يشن الغارات عليهم من خارج والعساكر تقاتلهم من داخل ونصر الله للمسلمين يؤذيهم ، وحسن قصده فى نصرة دين الله يسعدهم وينجدهم حتى بان لهم الخسران وظهر على الكفر الإيمان ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم ، ويسلمون بأنفسهم فرحلوا خائبين خاسرين ، فحرقت مناجيقهم ونهبت آلاتهم وقتل منهم خلق عظيم ، وسلم البلد بحمد الله ومنه عن قصدهم وظهر بتوفيق الله فل حدهم واستقرت قواعد السلطان)(٣) . ومن الأسباب الهامة فى فشل الصليبيين شجاعة

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٢ – ٤٣) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٥) ، ثم انظر :

Guillaume dc Tyre. p261 ; schlumberger : Les Campagnes du roi Amoury. p. 258 .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٧٤) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٣) ، ابن الأثير الكامل ج ١١ ص (٣٥١ – =

المجاهدين المسلمين واهتمام صلاح الدين بدفع العدو هذا بالإضافة إلى ما قام به نور الدين محمود من إرسال النجدات إلى صلاح الدين وتقويته على قتال الصليبيين (فجهز إليه نور الدين العساكر أرتالا . فكلما تجهزت طائفة أرسلها فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً ، ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر ودخل بلاد الفرنج فنهبها وأغار عليها واستباحها لتتحرك الفرنج إلى حفظ البلاد الشامية ويشتغلوا عن دمياط . وذكر أنه بلغ من اهتمام نور الدين بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط أنه قرئ بين يديه جزء من حديث كان له به رواية ، فجاءه فى جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم ، فطلب منه بعض طلبه الحديث أن يبتسم ليتم السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك وقال : (إنى لأستحى من الله تعالى أن يرانى مبتسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج)(١) . هكذا ينبغى أن يكون المسلم الحقيقى ، يشغله حال الإسلام والمسلمين ، فمجرد أن يعيش المسلم دون الاهتمام بالآخرين يكون آثم قلبه ونور الدين أعطى المثال الأوفى والنموذج الرائع للمؤمن الذى صوره الحديث الشريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ومن دلائل الإيمان عند السلطان نور الدين محمود ما روى أن له إماماً (رأى ليلة رحل الفرنج عند دمياط فى منامه النبى — صلى الله عليه وسلم — وقال له : « اعلم نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط فى هذه الليلة » . قال : فقلت : « يا رسول الله لا يصدقنى . فاذكر لى علامة يعرفها » . قال : فقل له : « بعلامة ما سجدت على تل حارم ، وقلت : يارب انصر دينك ولا تنصر محموداً من محمود الكلب حتى ينصر ؟ » قال : « فانتبهت ، ونزلت إلى المسجد ، وكان من عادة نور

=٣٥٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٨١ - ١٨٣) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٣) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٥ - ١٦) ، ثم انظر :

Guillaume de Tyre : p. 968 - 999; schlumberger : Les Gampegnes du roi Amouryen EgyPte , p. 278-282 .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٨١ - ١٨٢) .

الدين أن ينزل إليه بغلس ولا يزال يركع فيه حتى يصلى الصبح » قال : « فتعرضت له ، فسألنى عن أمرى ، فأخبرته بالمنام ، وذكرت له العلامة كلها ، إلا أننى لم أذكر لفظ ــ الكلب » فقال نور الدين : (أذكر العلامة كلها) وألح على ، فقلتها ، فبكى ، وصدق الرؤيا ، وأرخت تلك الليلة » فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك فى تلك الليلة(١) .

ومن العوامل التى ساعدت على فشل المحاولة الصليبية فى احتلال دمياط اهتمام صلاح الدين بهذا الأمر وما قام به الخليفة العاضد من دفع الأموال من أجل الجهاد وكان صلاح الدين قد أنفق فى هذه (النوبة أموالا عظيمة) وذكر عنه أنه قال : (ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل إلى مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها)(٢) . وكان من آثار هذا الكرم وهذا الإيمان والجهاد الصادق وتتابع الإمداد إلى دمياط من القاهرة والشام ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتدميرها أن رجعوا إلى بلادهم خائبين وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً فقد رحلوا لتسع بقين من ربيع الأول سنة خمس وستين وخمسمائة(٣) وأرسل صلاح بالبشائر إلى بلاد الشام فكتب نور الدين إلى العاضد صاحب مصر يهنئه برحيل الصليبيين عن دمياط ، ولقد ثبتت قدم صلاح الدين فى مصر بعد نجاحه فى صد هذا الهجوم(٤) .

وكان الخليفة العاضد أرسل إلى نور الدين يطلب منه أن يقوم بسحب العساكر الأتراك خوفاً منهم (ويطلب الاقتصار على صلاح الدين وخواصه والزامه) .

فكتب نور الدين إلى الخليفة العاضد (يمدح الأتراك ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات (نوع من الرمح) الفرنج ليس لها

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٨٢) .
(٢) ابن واصل : المصدر السابق ص (١٨٣) .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٨٢ ــ ١٨٣) ، ثم انظر :
Heyed : Histoire de commerce, p. 399-400 .
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٨٣) .

الإ سهام الأتراك وأن الفرنج لا يخافون إلا منهم. ولولاهم لزاد طمعهم فى الديار المصرية ولعل الله سبحانه وتعالى ييسر بهم فتح بيت المقدس)(١).

التآمر مع الصليبيين ضد صلاح الدين :

وكان بالقاهرة خصى يقال له : مؤتمن الخلافة ، وكان متحكماً فى قصر الخليفة العاضد ، ولما ثقلت وطأة الملك الناصر صلاح الدين على أهل القصر وعلموا أن دولتهم زائلة بسببه أحبوا الراحة منه ، فأجمعوا على مكاتبة الفرنج ليصلوا إلى البلاد فإذا خرج صلاح الدين إلى لقائهم قبضوا على من بقى من أصحابه بالقاهرة واجتمعوا هم والفرنج على حربه وحرب أصحابه ، واستئصالهم ويكون بعد ذلك البلاد بينهم وبين الفرنج يقتسمونها ، فسير مؤتمن الخلافة رجلا وحمله كتاباً إلى الفرنج فحرز عليه نعله وظنوا أن ذلك يخفى عن صلاح الدين والمسلمين « . . . **ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** »(٢) واتفق أن ذلك القاصد الذى يحمل الرسالة إلى الصليبيين لما عبر بالبئر البيضاء (قريبة من بلبيس) رآه رجل تركمانى وعلى القاصد خلقان وفى يده النعلان اللذان أخفيت فيها الرسالة وليس فيها أثر شيء فأنكرهما التركمانى فأخذهما وأحضرهما إلى صلاح الدين ، ففتقهما فوجد مكاتبة الفرنج فيها من أهل القصر ، فأخذ صلاح الدين الكتاب وقال : (دلونى على كاتب هذا الخط) فدلوه على رجل يهودى فلما أحضروه ليسألوه ويعاقبوه ويقابلوه نطق بالشهادتين واعتصم بهما ، واعترف أنه كاتب الكتاب عن أهل القصر ، فأخفى صلاح الدين الحال واستشعر مؤتمن الخلافة وخاف على نفسه ولازم القصر لا يخرج منه ، فإذا خرج لم يبعد وصلاح الدين معرض عن ذكره البته فغض عنه لا يأمر فيه ببسط ولا قبض فاسترسل حينئذ وظن أنه لا يقدم عليه ، وكان له قصر يقربه على شاطىء النيل بقرب قليوب تعرف بالخرقانية ذات منتزة وبساتين فخرج إليها للتنزه ، فلما علم صلاح الدين أرسل إليه جماعة من أصحابه فاغتالوه من مأمنه وقتلوه وأتوا برأسه

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق ص (١٨٣).

(٢) سورة التوبة الآية ٣٢ .

وذلك يوم الأربعاء لخمس بقين من ذى القعدة من هذه السنة – أعنى سنة أربع وستين وخمسمائة ، فلما قتل ثار السودان (الفرق السودانية ومن انضم إليهم من القصرين) عبيد القصر وكانوا يزيدون على خمسين ألفاً . وكانوا إذا – قاموا على وزير قتلوه واجتاحوه ، فلما ثاروا ندب إليهم الملك الناصر صلاح الدين أبا الهيجاء السمين ووقعت الحرب بين الفريقين – بين القصرين بالقاهرة واشتد القتال بين الفريقين واستمر ذلك يومين ، وصاروا كلما لجأوا إلى محلة أحرقت عليهم ، وكانت لهم محلة عظيمة على باب زويلة تعرف بالمنصورة فأرسل صلاح الدين إليها من أوقع الحريق فيها على أموالهم وأولادهم وحريمهم ، فلما أتاهم الخبر بذلك ولوا منهزمين وركبتهم السيوف وأخذت عليهم أفواه السكك ، فطلبوا الأمان بعد أن كثر فيهم القتل فأجيبوا إلى ذلك وذلك يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة فمضوا إلى الجيزة ، فعبر إليهم الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين فى طائفة من العسكر فأبادهم بالسيف فلم يبق منهم إلا الشريد . وضعف أمر العاضد بالكلية وتلاشى أمره ، وأمر صلاح الدين بتخريب محلة السودان وأعفى أثرها ، فخربها بعض الأمراء واتخذها بستاناً ، وأصبح أمر السودان كأن لم يكن قط)(١) وبعد هذه الحادثة ضعفت الخلافة الفاطمية وأخذ صلاح الدين يعمل على إسقاطها وقطع دابرها ومحو آثارها فأعانه الله على ذلك وبعد هذا التآمر الذى شارك فيه اليهودى وبعض العناصر فى قصر الخليفة الفاطمى ومراسلتهم للصليبيين فى صقلية وبلاد الشام للاتفاق على قتال صلاح الدين ولكن الله أيد بنصره المؤمنين وانتصر صلاح الدين على المتآمرين وقرر التضييق على العناصر الفاطمية حتى لا يعودوا إلى التآمر ضده .

ولما وقعت الواقعة المذكورة تلاشى أمر العاضد خليفة الفاطميين إلا أن الخطبة باقية له وبعده لنور الدين ويقول ابن واصل فحكى لى الأمير حسام الدين بن أبى على قال : (كان جدى فى خدمة الملك الناصر صلاح الدين ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٣٤٥ – ٣٤٦) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٧٤ – ١٧٧) .

فحكى أنه لما وقعت هذه الواقعة شرع صلاح الدين يطلب كل يوم من العاضد شيئاً من الخيل والرقيق والأموال ليقوى بذلك ضعفه فسيرنى يوماً إليه أطلب منه فرساً ولم يبق عنده إلا فرس واحد . فأتيت إليه وهو راكب فى بستانه المعروف بالكافورى الذى يلى القصر الغربى ، فقلت : صلاح الدين يسلم عليك . ويطلب منك فرساً فقال : ما عندى إلا الفرس الذى أنا راكبه ، فنزل عنه وشق خفيه ورمى بهما ، وسلم إلى الفرس ، فأتيت به صلاح الدين ، ولزم العاضد بيته ولم يعد الركوب حتى كان منه ما كان)(١) وبعد ذلك أرسل صلاح الدين إلى الملك العادل نور الدين يطلب منه أن يرسل إليه والده نجم الدين أيوب فوافق نور الدين على هذا المطلب وجهز نجم الدين وسير معه عسكراً (واجتمع معهم من التجار خلق كثير وانضاف إليهم من كان له مع صلاح الدين أنس وصحبه) ، وخاف نور الدين عليهم من الصليبيين (فسار إلى الكرك فى عساكره فحصره وضيق عليه ونصب عليه المجانيق ليشغل الفرنج عنهم)(٢) . وأما نجم الدين أيوب فإنه وصل إلى مصر سالماً هو ومن معه وخرج العاضد الخليفة فالتقاه إكراماً له وذلك فى اليوم الرابع والعشرين من رجب سنة خمس وستين وخمسمائة ، ولما اجتمع صلاح الدين بأبيه سلك معه من الأدب ما جرت به عادته وفوض إليه الأمر كله . فأبى ذلك عليه أبوه وقال : (يا ولدى ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت كفوء له فلا ينبغى أن تغير مواقع السعادة فحكمه فى الخزائن بأسرها)(٣) . وأخذ صلاح الدين يعمل باجتهاد من أجل القضاء على معارضيه فى مصر (واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه . وضعف أمر العاضد وكان العاضد كالباحث عن حتفه بظلفه)(٤) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٧٨ – ١٧٩) .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ص (١٨٥) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٣٥٢ – ٣٥٣) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٤) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (١٨٥ – ١٨٦) .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٨) .

عودة المذهب السنى إلى مصر :

كان الملك العادل نور الدين : (لما تحقق ضعف الدولة المصرية وأنه لم يبق لهم منعة كتب إلى صلاح الدين يأمره أن يقطع خطبة العاضد ويخطب للخليفة من بنى العباس فاعتذر صلاح الدين بن أيوب بالخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى العلوية، فلم يصغ نور الدين إلى قوله وأرسل إليه يلزمه إلزاماً لا فسحة فيه، ثم اتفق مرض العاضد، فاستشار صلاح الدين الأمراء فى قطع الخطبة له ، وكيف يكون الابتداء بالخطبة العباسية فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها ، ومنهم من خاف من الإقدام على ذلك إلا أنه لم يمكنه إلا الامتثال لأمر نور الدين وكان قد رحل إلى مصر رجل أعجمى يعرف بالأمير العالم ، فلما رأى ما بهم من الأحجام قال : (أنا أبتدئ بها) ، فلما كان يوم الجمعة من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة / سبتمبر ١١٧١ م صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للخليفة العباسى الإمام المستضىء بنور الله ، فلم ينكر ذلك أحد عليه ، فلما كانت الجمعة الآتية أمر صلاح الدين بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضىء بنور الله ، ففعلوا ذلك فلم يتحرك مخالف لذلك ولا منكر له وانتظم الأمر وكوتب الخطباء فى ذلك فى سائر الأقاليم فخطبوا)(١) .

وفاة الخليفة العاضد وانتهاء الدولة الفاطمية :

وبعد إعلان الخطبة للعباسيين فى مصر وقطع الخطبة للفاطميين ، كان العاضد قد اشتد عليه المرض فلم يكلمه أهله وأصحابه بذلك وقالوا : إن سلم فهو يعلم فلا ينبغى أن ننغص عليه هذه الأيام التى قد بقيت من أجله) ، ثم توفى العاضد فى يوم عاشوراء العاشر من محرم سنة سبع وستين وخمسمائة الموافق ١٣ / ٩ / ١١٦٧ م وجلس صلاح الدين للعزاء وأظهر البكاء والحزن عليه ومشى فى جنازته إلى قبره ثم تسلم القصر بما فيه من الخزائن والدفاتر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٣٦٨ – ٣٦٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (٢٠٠ – ٢٠١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٤) .

والدواوين واستقر الملك للسلطان صلاح الدين(١) . وأخذ فى نشر العدل بين الناس ويقول المقريزى عن أعماله فى هذه السنة : (وفيها فرقت الزكوات فى ثالث ربيع الأول على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين ورفع إلى بيت المال سهم العاملين والمؤلفة وفى سبيل الله وفى الرقاب ، وأخذت الزكاة من البضائع وعلى ما اقتدر عليه من المواشى والنخل والخضروات ، وقررت السكة باسم المستضىء بأمر الله ، وباسم الملك العادل نور الدين ، فنقش اسم كل منهما فى وجه) .

ولما وصلت البشارة إلى بغداد وعلم الخليفة العباسى المستضىء بوفاة العاضد وإقامة الدعوة والخطبة للعباسيين فى مصر ضربت البشائر فى بغداد عدة أيام وزينت بغداد وأظهروا من الفرح والسرور ما لا حد عليه، وسيرت الخلع مع أحد الأمراء نائباً عن الخليفة لنور الدين وصلاح الدين ، فلما حضر إلى نور الدين ألبسه الخلعة وسير خلعة أخرى إلى صلاح الدين وللخطباء بالديار المصرية ، والأعلام السود شعار الدولة العباسية وعادت مصر لتصبح من البلاد التى تنضوى تحت لواء الخلافة العباسية السنية وكان من أهم أعمال صلاح الدين إعادة المذهب السنى إلى مصر والقضاء على المذهب الفاطمى الذى جانب الصواب وابتعد عن الإسلام فيقول ابن واصل : (وأما مذاهبهم فدعوتهم باطنية إسماعيلية وعنهم انتشر دعاة الملاحدة الباطنية فى الآفاق وهذه المقالة معروفة فى كتب المقالات والأحوال)(٢) وعلى الرغم من وفاة الخليفة العاضد وانقراض الدولة الفاطمية واستقرار الأمور بيد صلاح الدين إلا أنه لا زال يحكم نيابة عن سيده نور الدين ، وأخذ يعمل على إشاعة العدل بين الناس لاعتقاده أن العدل من مصادر القوة عند المسلمين وخفف عن الناس ما كانوا يعانون منه أيام الفاطميين (وغشى الناس من

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (٢٠١ - ٢٠٣ ، ٢١٨) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٥) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٣٦٨ - ٣٧١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٤) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٠) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (٢٠٦) ، ثم انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٤ - ٤٥) .

سحائب الأفضال والأنعام ما لم يؤرخ غير تلك الأيام مارس فى البلاد أهل الفقه والعلم والتصوف والدين . والناس يهرعون إليه من كل صوب ويفدون إليه من كل جانب وهو لا يخيب قاصداً ولا يعدم وافد)(١) .

أول غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية :

وبعد أن اطمأن صلاح الدين إلى استقرار ملكه فى مصر شرع فى الإعداد للقوة بكل ما استطاع إلى ذلك سبيلا ولم يزل على بسط العدل ونشر الإحسان وإقامة الإنعام على الناس إلى سنة ثمان وستين وخمسمائة فعند ذلك خرج بعساكره إلى ناحية بلاد الكرك وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت فى الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية (وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها بلاد العدو فأراد توسيع الطريق وتسهيله لتتصل البلاد ببعض وتسهل على السابلة)(٢) . ولهذه الأسباب خرج صلاح الدين بقواته إلى الكرك فحاصرها وجرى بين المسلمين والصليبيين قتال ولكن صلاح الدين آثر العودة إلى مصر ، ولم يظفر منها بشىء فى تلك الدفعة وحصل ثواب القصد(٣) .

ابتداء الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين :

حدث فى سنة ٥٦٨ هـ — ١١٧١ م أمور أوجبت أن تأثر نور الدين من صلاح الدين ولم يظهر ذلك وكان سببه أن صلاح الدين يوسف بن أيوب سار بقواته من مصر ونازل حصن الشوبك الصليبى وكان بينه وبين الكرك مسيرة يوم واحد وضيق صلاح الدين الحصار على حصن الشوبك ودام القتال وطلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيام فأجابهم إلى ذلك ، فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصداً بلاد الصليبيين أيضاً ليدخل إليها من جهة أخرى فقيل لصلاح الدين : إن دخل نور الدين بلاد

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٥) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٤ - ١٥) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٥) .

(٣) ابن شداد : المصدر السابق ونفس الصفحة .

الفرنج على هذه الحال أنت من جانب ونور الدين من جانب ملكها ، ومتى زال الفرنج عن الطريق وأخذ ملكهم لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين وإن جاء نور الدين إليك وأنت ها هنا فلابد بذلك من الاجتماع به وحينئذ يكون المتحكم فيك بما شاء إن شاء تركك وإن شاء عزلك فقد لا تقدر على الامتناع عليه ، والمصلحة الرجوع إلى مصر (فرحل صلاح الدين عن حصن الشوبك إلى مصر وكتب إلى نور الدين يعتذر باختلال البلاد المصرية لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويين وأنهم عازمون على الوثوب بها فإنه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلف بها فيخرجوهم وتعود ممتنعة) . وأطال الاعتذار فلم يقبلها نور الدين منه وتغير عليه وعزم على الدخول إلى مصر وإخراجه عنها ، فعلم صلاح الدين بالخبر (فجمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين ومعهم سائر الأمراء وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين وحركته إليه ، واستشارهم . فلم يجبه أحد بكلمة واحدة فقام تقي الدين عمر بن أخي صلاح الدين فقال : إذا جاءنا قاتلناه ومنعناه عن البلاد) . ووافق غيره من الأمراء على هذا فشتمهم نجم الدين وأنكر ذلك واستعظمه (وشتم تقي الدين وأقعده وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا خالك شهاب الدين ، ونحن أكثر محبة لك من جميع من ترى ، ووالله لو رأيت أنا وخالك هذا نور الدين ، لم يمكنا إلا أن نقبل الأرض بين يديه ولو أمرنا أن تضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا نحن هكذا ، فما ظنك بغيرنا ؟ وكل من تراه عندك من الأمراء لو رأوا نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم ، وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها ، فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا والرأي أن تكتب كتاباً مع نجاب تقول فيه : بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأي حاجة إلى هذا ؟ يرسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلا ويأخذني إليك ، وما ها هنا من يمتنع عليك) ، وتفرق الأمراء الذين حضروا هذا المجلس ، فلما خلا به أبوه نجم الدين قال له : بأي عقل فعلت هذا ؟ أما تعلم أن نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهم الوجوه إليه وحينئذ لا تقوى به . وأما الآن ، إذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والأقدار تعمل عملها ، فعقل صلاح الدين ما أشار به ،

فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره ، فكان الأمر كما ظنه أيوب(١) وتوفى نجم الدين أيوب فى أواخر شهر ذو الحجة من سنة ثمان وستين وخمسمائة هـ قبل عودة صلاح الدين من غزوة ضد الأعداء الصليبيين)(٢) .

منازلة صلاح الدين للكرك والشوبك سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٣ م :

خرج صلاح الدين الأيوبى بقواته فى شهر شوال قاصداً الجهاد ومعه ما هو برسم الهدية إلى نور الدين ، فوصل إلى بلاد الكرك والشوبك وكان يلحق المسلمين منهما أذى كثير ، فنازلها وخرب عماراتهما وشن الغارات على أعمالها ، وأرسل الهدية إلى نور الدين وكتب إليه بالإنشاد بقلم القاضى الفاضل : (سيب هذه الخدمة إلى مولانا السلطان الملك العادل أعز الله سلطانه . وقد أبدى إحسانه ومكن بالنصر إمكانه وشيد بالتأييد أركانه ، ونصر أنصاره ، وأعان أعوانه : علم الملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم ، ويفل أسلحتهم ، ويقطع موادهم ويخرب بلادهم وأكبر الأسباب المعينة على ما يرونه من هذه المصلحة أن لا يبقى فى بلادهم أحد من العربان ، وأن ينتقلوا من ذل الكفر إلى عز الإيمان ، ومما اشتهر فيه عامة الاشتهار ، وعدة من أفضل أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم والحرص فى تبديل دارهم إلى أنصار العدو اليوم إذا نهض لا يجد بين يده دليلا ، ولا يستطيع حيلة ولا يهتدى سبيلا)(٣) ووصل الرسول بالهدية إلى نور الدين فشكر صلاح الدين ووصف فضيلته وقال : (ما كان بنا حاجة إلى هذا المال . وهو يعلم أن ما أنفقنا الذهب فى ملك مصر وبنا فقر إلى هذا الذهب ومال لهذا المحمول فى مقابلة ما وجدنا به مقدار . . . لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى وفود العدد من الجند ، وقد عم البلاء بالفرنج

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٣٧١ - ٣٧٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (٢٢١ - ٢٢٣) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٦) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (٢٣٠) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (٢٢٤ - ٢٢٥) .

فينبغى أن تقع المساعدة والمعاونة بالإمداد)(١) . وكان السلطان نور الدين (من حين ملكه الديار المصرية يؤثر أن يقرر له حمل يحمل إليه منها يستعين به على كلف الجهاد . والأيام تماطله ، وهو ينتظر من صلاح الدين أن يبتديه ذلك من تلقاء نفسه . ويفعل فى ذلك ما يؤثره ويريده . فلما حمل صلاح الدين ما تقدم ذكره استقله ولم يعجبه)(٢) .

وفاة نور الدين محمود :

توفى نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر يوم الأربعاء حادى عشر من شوال سنة ٥٦٩ هـ — ١٥ / ٥ / ١١٧٤ م وكان قد اتسع ملكه جداً . وخطب له بالحرمين الشريفين وباليمن لما دخلها شمس الدولة بن أيوب ، وملكها وكان مولده سنة احدى عشرة وخمسمائة وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله وقد طالعت سير الملوك المتقدمين ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحرياً منه للعدل . . . كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فى الذى يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين . . . وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبى حنيفة ليس عنده فيه تعصب وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر . . . وأما عدله . فإنه لم يترك فى بلاده على سعتها ، مكساً ولا عشراً بل أطلقها جميعها فى مصر والشام والجزيرة والموصل وكان يعظم الشريعة ويقف عند أحكامها . . . وبنى دار العدل فى بلاده وكان يجلس هو والقاضى فيها ينصف المظلوم ولو أنه يهودى من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده . . . وأما شجاعته فإليها النهاية وكان فى الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بها ، فقال له أحد الفقهاء فى إحدى المعارك : بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين ، فإن أصبت فى معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف ، فقال له نور الدين : — ومن محمود حتى يقال له هذا ؟ من قبلى من حفظ البلاد

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق ص (٢٢٦) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (٢٣٢) .

والإسلام ؟ ذلك الله الذى لا إله إلا هو . ؟ . وكان يكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويعطيهم ويقوم إليهم ويجلسهم معه وينبسط معهم ولا يرد لهم قولا ويكاتبهم بخط يده وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه وبالجملة فحسناته كثيرة ومناقبه غزيرة)(١) . وأما صلاح الدين فقد ذكر ابن شداد أن السلطان صلاح الدين قال له : (كان بلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالديار المصرية وكان جماعة أصحابنا يشيرون بأن يكاشف ويخالف ويشق عصاه يلقى عسكره بمصاف يرده ، إذا تحقق قصده ، وكنت وحدى أخالفهم وأقول : لا يجوز أن يقال شيء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته)(٢) .

والملاحظ أن الأحداث كانت تهيئ صلاح الدين للظهور وأن يقود المسلمين فى جهاد طويل ضد الصليبيين فقد مات عمه أسد الدين ثم تبعه الخليفة العاضد وانقراض الدولة الفاطمية ثم توفى والده نجم الدين وبعده مات نور الدين محمود صاحب البلاد فأراد الله أن يضع صلاح الدين فى المسئولية فكيف يمضى بالسفينة ويعبر بالمسلمين إلى بر النصر والأمان .

وما سر شهرة صلاح الدين فى العالم وعظمته ، كل ذلك يتضح من خلال الأحداث التى شهدها وقام بها صلاح الدين فى مدة زمنية قاربت ربع قرن من الزمن تقريباً .

* * *

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٠٢ – ٤٠٥) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٧) ، ابن أيبك : درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ص (٣٧٠) ، ابن دقماق الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ص (٩٢) ، الذهبى : تاريخ الإسلام ص (٢٥١) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٧) .

الفصل الثانى

جهاد السلطان صلاح الدين قبل موقعة حطين

استراتيجية صلاح الدين بعد وفاة نور الدين - التآمر فى مصر ضد صلاح الدين - حصار بانياس من قبل الصليبيين سنة ٥٦٩ هـ - هجوم أسطول صقلية الصليبية على الإسكندرية سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م - ثورة الكنز أحد قادة الفاطميين فى الصعيد سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م - تحالف الباطنية مع الصليبيين - تحرك صلاح الدين إلى الشام سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م - تحالف أهل حلب مع الملاحدة والصليبيين ضد صلاح الدين - صلاح الدين يطلب تفويضاً من الخليفة العباسى بالحكم - تحالف أهل الموصل مع الحلبيين ضد صلاح الدين - استيلاء صلاح الدين على قلعة بقرين سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م - التحالف بين حلب والموصل ضد صلاح الدين - حصار صلاح الدين لمدينة حلب سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م - موقف صلاح الدين من مملكة بيت المقدس فى الفترة ٥٧٣ - ٥٧٦ هـ (١١٧٧ - ١١٨٠ م) - موقعة الرملة سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م - عودة صلاح الدين إلى الشام سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م هجوم الصليبيين على حماة سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م - موقعة مرج العيون وفتح حصن بيت الأحزان سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م - جهود صلاح الدين من أجل توحيد المسلمين - السلطان صلاح الدين يغزو بلاد الأرمن بسبب اعتدائهم على المسلمين - موقف صلاح الدين من أرناط ومحاولاته الصليبية - محاولة صلاح الدين الاستيلاء على بيروت سنة ١١٨٢ م - قتال صلاح الدين ضد حلب والموصل من أجل الجهاد - الاستيلاء على سنجار - الراعى مسئول عن رعيته - تحالف أمراء المسلمين مع الصليبيين ضد صلاح الدين - غارة صلاح الدين على الصليبيين فى بيسان سنة (٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م) - هجوم الصليبيين على الحجاز سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م - السلطان صلاح الدين يهاجم الصليبيين فى حصن الأكراد.

الفصل الثانى

جهاد السلطان صلاح الدين قبل موقعة حطين

لما توفى نور الدين محمود حكم ابنه الملك الصالح من بعده ولم يكن تجاوز الحادية عشرة من عمره (وحلف له الأمراء والمقدمون بدمشق وأقام بها وأطاعه الناس بالشام وصلاح الدين بمصر وخطب له بها . وضرب السكة باسمه) . وتولى تربية الملك الصالح الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم (وصار مدير دولته) وكان بعض الأمراء مع ابن المقدم المذكور يريدون استغلال الظروف لمصالحهم على حساب المصلحة العامة للإسلام والمسلمين فقال لهم القاضى كمال الدين بن الشهرزورى : (قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر هو من مماليك نور الدين ونوابه أصحاب نور الدين والمصلحة أن نشاوره فى الذى نفعله ولا نخرجه من بيننا فيخرج عن طاعتنا ، ويجعل ذلك حجة علينا وهو أقوى منا ، لأنه قد انفرد اليوم بملك مصر ، فلم يوافق هذا القول أغراضهم وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجهم فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح يعزيه ويهنئه بالملك، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه)(١) .

استراتيجية صلاح الدين بعد وفاة نور الدين :

أدرك صلاح الدين الأيوبى طبيعة المهام التى ينبغى القيام بها وعلم أن (الملك الصالح لا يستقل بالأمر ولا ينهض بأعباء الملك ، واختلفت الأحوال بالشام) ومن ثم كانت خطة صلاح الدين تقضى بتأمين البلاد الإسلامية من

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ١١ ص (٤٠٥) ؛ المقريزى : السلوك ج ١ ص (٥٥) ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٧) .

خطر الصليبيين من ناحية وعدم الانقسام من ناحية أخرى علاوة على الاستعداد لتحرير بلاد الإسلام التي لازالت تحت سيطرة الصليبيين ولهذا شرع صلاح الدين في اتخاذ الخطوات اللازمة في هذا المجال .

فتح اليمن :

وكان صلاح الدين وأسرته يعتقدون أن نور الدين محمود يريد قصد الديار المصرية سنة ٥٦٨ هـ — ١١٧٢ م وأخذها (فاستقر الرأى بينهم أنهم يمتلكون إما بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه عن البلاد ، فإن قووا على منعه أقاموا بمصر ، وإن عجزوا عن منعه ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي قد افتتحوها) ويقول ابن شداد : (ولما كانت سنة تسع وستين رأى السلطان قوة عسكره وكثرة عدد إخوته وقوة بأسهم وكان بلغه أن باليمن إنساناً استولى عليها وملك حصونها ، وهو يخطب لنفسه ويسمى بعبد النبي بن مهدى(١) وزعم أن ينتشر ملكه في الأرض كلها ويستتب الأمر له ، فرأى أن يسير إليها أخاه الأكبر شمس الدولة الملك المعظم تورانشاه)(٢) وكان عبد الملك المذكور من الخوارج فرأى السلطان القضاء عليه استكمالا لنشر مذهب السنة بعد أن قضى على مذهب الفاطميين في مصر وكان صاحب اليمن قطع الخطبة العباسية ، كما أن صلاح الدين كان يعلم مدى الأهمية الاستراتيجية لبلاد اليمن وخصوبتها ، ولهذا خرج شمس الدولة الملك المعظم تورانشاه بقواته إلى بلاد اليمن في أثناء شهر رجب سنة تسع وستين وخمسمائة ووصل إلى مكة وسار منها إلى زبيد فخرج عبد النبي حاكم زبيد وعسكره فقاتلهم شمس الدولة ومن معه فلم يثبت أهل زبيد وانهزموا فملك شمس الدولة وعساكره البلد عنوة ونهبوه وأكثروا النهب وأخذوا عبد النبي أسيراً وزوجته المدعوة بالحرة (وأقيمت فيها الخطبة العباسية) وسارت

---

(١) المهديون : أسرة حكمت زبيد بين سنتى ٥٥٤ — ٥٦٩ هـ ، ١١٥٩ — ١١٧٣ م وحكم من هذه الأسرة ثلاثة فقط : على بن مهدى ، ومهدى بن على ، وعبد النبى بن على .

انظر : Lane Poole : MOHAMMADAN Dynasties, p. 96

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٦) .

القوات إلى عدن وهى على البحر ولها مرسى عظيم ، وهى فرضة الهند والزنج والحبشة وعمان وكرمان وكيش وفارس وغير ذلك وهى من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها وصاحبها اسمه ياسر وتمكنت قوات شمس الدولة من دخول عدن ولم يخربها شمس الدولة وقال : ما جئنا لنخرب البلاد وإنما جئنا لنملكها ونعمرها وننتفع بدخلها فلم ينهب أحد منها شيئاً فبقيت على حالها وثبت ملكه واستقر أمره وبعد ذلك ملك القلاع والحصون فى بلاد اليمن كلها حتى أصبحت بلاد اليمن جزءاً من الدولة الأيوبية ويحكمه المعظم شمس الدولة شقيق صلاح الدين(١) .

التآمر فى مصر ضد صلاح الدين :

كان قد اجتمع فى القاهرة طائفة من أنصار الدولة الفاطمية منهم عمارة ابن أبى الحسن اليمنى الشاعر وعبد الصمد الكاتب والقاضى العويرسى متولى ديوان النظر (المالية والأرزاق) وداعى الدعاة وغيرهم من جند المصريين ورجالهم السودان وحاشية القصر ووافقهم جماعة من أمراء صلاح الدين وجنده واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج من صقلية ومن ساحل الشام إلى ديار مصر على شىء يبذلوه لهم من المال والبلاد ، فإذا قصدوا البلاد فإن خرج صلاح الدين بنفسه إليهم ثاروا هم فى القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العلوية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم عنه فلا يبقى له مقام مقابل الفرنج ، وإن كان صلاح الدين يقيم ويرسل العساكر إليهم ثاروا به وأخذوه أخذاً باليد لعدم الناصر له والمساعد ، وقال لهم عمارة : (وأنا قد أبعدت أخاه إلى اليمن خوفاً أن يسد مسده وتجتمع الكلمة عليه بعده)(٢) . وكان عمارة اليمنى قد شجع شمس الدولة شقيق صلاح الدين على فتح اليمن لهدف فى نفسه ولم يكتف عمارة اليمنى بذلك بل اتفق مع المتآمرين على استدعاء الصليبيين من الشام وصقلية بعد أن تعهدوا لهم بدفع المال مقابل حضورهم للقضاء على دولة صلاح الدين

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٣٩٧ – ٣٩٨) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٥٢ – ٥٣) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٣٩٨ – ٣٩٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٥٣) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٧ – ٤٨) . أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٤) .

وهذا الموقف موقف خيانة صريح ، وكيف يستعين مسلم بالصليبيين على قتال المسلمين من أجل تحقيق المصالح الشخصية من ناحية وتحطيم دولة صلاح الدين الإسلامية التى تجاهد ضد أعداء الإسلام. بل أكثر من هذا يشجعون العدو ويدفعون له المال مقابل هذا الدعم والمسألة من جميع الوجوه غير شرعية ، ويقول ابن الأثير : (وأرسلوا إلى الفرنج بصقلية والساحل فى ذلك ، وتقررت القاعدة بينهم ولم يبق إلا رحيل الفرنج ، وكان من لطف الله بالمسلمين أن الجماعة المصريين أدخلوا معهم فى هذا الأمير زين الدين على ابن نجا الواعظ المعروف بابن نجية ورتبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعى والقاضى إلا أن بنى رزيك قالوا : يكون الوزير منا ، وبنى شاور قالوا : يكون الوزير منا ، فلما علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين وأعلمه حقيقة الأمر ، فأمر بملازمتهم ، ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون أن يفعلوه . وتعريفه ما يتجدد أولا بأول ففعل ذلك وصار يطالعه بكل ما عزموا عليه) .

ثم وصل رسول من ملك الفرنج بالساحل الشامى إلى صلاح الدين بهدية ورسالة وهو فى الظاهر إليه ، والباطن إلى أولئك الجماعة وكان يرسل إليهم بعض النصارى وتأتيه رسلهم ، فأتى الخبر إلى صلاح الدين من بلاد الفرنج بجلية الحال فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق به من النصارى وداخله فأخبره الرسول بالخبر على حقيقته فقبض حينئذ على المقدمين فى هذه الحادثة فهم : عمارة وعبد الصمد والعويرس وغيرهم وصلبهم)(١) . وذلك فى اليوم الثانى من شهر رمضان سنة ٥٦٩ هـ ونودى فى أجناد المصريين بالرحيل من ديار مصر ومفارقتها إلى أقاصى الصعيد ووضع من بقى من أهل العاضد تحت الاحتياط (وأما الذين نافقوا على صلاح الدين من جنده فلم يعرض لهم ولا أعلمهم أنه علم بحالهم)(٢) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٣٩٩ — ٤٠٠) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٥٣ — ٥٤) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (٢٤٣ — ٢٤٥) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٠٠ — ٤٠١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٥٤) .



الشرق الأدنى زمن الحروب الصليبية

حصار بانياس من قبل الصليبيين سنة ٥٦٩ ﻫ :

وسبب ذلك أن الصليبيين لما علموا بموت السلطان نور الدين (اجتمعت الفرنج وساروا إلى قلعة بانياس من أعمال دمشق فحاصروها . فجمع شمس الدين محمد بن المقدم العسكر عنده بدمشق . فخرج عنها فراسلهم ولاطفهم ثم أغلظ لهم فى القول وقال : (إن أنتم صالحتمونا وعدتم عن بانياس فنحن على ما كنا عليه ، وإلا فنرسل إلى سيف الدين صاحب الموصل ونصالحه ونستنجده . ونرسل إلى صلاح الدين بمصر فنستنجده . ونقصد بلادكم من جهاتها كلها ولا تقومون لنا وأنتم تعلمون أن صلاح الدين كان يخاف أن يجتمع بنور الدين ، والآن فقد زال ذلك الخوف وإذا طلبناه إلى بلادكم فلا يمتنع . فعلموا صدقه فصالحوه على شىء من المال أخذوه وأسرى أطلقوا لهم كانوا عند المسلمين وتقررت الهدنة)(١) .

فلما سمع السلطان صلاح الدين بذلك (أنكره واستعظمه) وأرسل إلى الملك الصالح والأمراء الذين معه يقبح لهم ما فعلوه ويبذل نفسه لقصد بلاد الفرنج ومقارعتهم وإزعاجهم عن قصد بلاد الملك الصالح (وكان أمراء الشام صالحوا الصليبيين خوفاً من صلاح الدين ومن سيف الدين غازى صاحب الموصل ، فإنه كان قد أخذ البلاد الجزرية وخافوا من أن يعبر إلى الشام فرأوا صلح الفرنج خوفاً من أن يجىء هذا من الغرب ، وهذا من الشرق وهم مشغولون عن راهم)(٢) .

هجوم أسطول صقلية الصليبية على الإسكندرية سنة ٥٧٠ ﻫ / ١١٤٧ م :

وكان سبب تحرك الصليبيين فى هذا العام سماعهم بتغيرات الأحوال بالديار المصرية وتقلبات الدول بها . وكان المتآمرون على صلاح الدين قد أرسلوا إلى ملك الصليبيين بساحل الشام وإلى صاحب صقلية ليقصدوا مصر (ليثوروا بصلاح الدين ويخرجوه من مصر) وأعد وليم الثانى ملك صقلية

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٠٨) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٠٨) .

أسطولا كبيراً) عدته مائتا شيني تحمل الرجال ، وست وثلاثون طريدة تحمل الخيل ، وستة مراكب كبار تحمل آلة الحرب ، وأربعون مركباً تحمل الأزواد ، وفيها من الراجل خمسون ألفاً ومن الفرسان ألف وخمسمائة)(١)

وكان يقود هذا الأسطول ابن عم ملك صقلية ، وساروا إلى الإسكندرية (فوصلوا إليها فى السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين وخمسمائة على حين غفلة من أهلها وطمأنينة ، فخرج أهل الإسكندرية بسلاحهم وعدتهم ليمنعوهم من النزول وأبعدوا عن البلد فمنعهم الوالى عليهم من ذلك وأمرهم بملازمة السور ونزل الفرنج إلى البر مما يلى البحر والمنارة وتقدموا إلى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمجانيق وقاتلوا أشد قتال وصبر أهل البلد ، ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل ورأى الفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية وحسن سلاحهم ما راعهم) .

وأرسلوا إلى السلطان صلاح الدين يطلبون الإمدادات ويستدعونه لدفع العدو عنهم . ودام القتال أول يوم إلى آخر النهار ، ثم عاود الصليبيون القتال فى اليوم التالى وجدوا فى الحرب ولازموا الزحف نحو المدينة حتى وصلت الدبابات الصليبية إلى قرب سور المدينة ووصل فى ذلك اليوم من العساكر الإسلامية من كان قريب من الإسكندرية (فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر ، فلما كان اليوم الثالث فتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الفرنج واشتد القتال فوصل المسلمون إلى الدبابات فأحرقوها وصبروا للقتال فأنزل الله نصره عليهم وظهرت إماراته ، ولم يزالوا مباشرين القتال إلى آخر النهار ، ودخل أهل البلد إليه وهم فرحون مستبشرون بما رأوا من تباشير الظفر وقوتهم وفشل الفرنج وفتور حربهم وكثرة القتل والجراح فى رجالتهم)(٢) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤١٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٥٦) ، وذكر ابن شداد صاحب سيرة صلاح الدين أن عدة مراكبهم ستمائة قطعة ما بين شينى وطرادة وبطسة وغير ذلك وأنهم كانوا فى ثلاثين ألفاً – سيرة صلاح الدين ص (٤٨ – ٤٩) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤١٣) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٥٦ – ٥٧) .

وكان السلطان صلاح الدين على فاقوس فبلغه الخبر ثالث يوم نزول الصليبيين على الإسكندرية فشرع فى إعداد العساكر وأرسل أحد أتباعه إلى الإسكندرية ليبشر بوصوله وسير طائفة من العسكر إلى دمياط خوفاً عليها واحتياطاً لها ، فلما وصل رسول صلاح الدين إلى الإسكندرية من يومه وقت العصر ، والناس قد رجعوا من القتال فنادى فى البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين ، فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعب وألم الجراح وكل منهم يظن أن صلاح الدين معه . وسمع الفرنج بقرب صلاح الدين فى عساكره فسقط فى أيديهم وازدادوا تعباً وفتوراً فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا إلى خيامهم فغنموها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والتحملات العظيمة وكثر القتل فى رجالة الفرنج فهرب كثير منهم إلى البحر . وقربوا شوانيهم إلى الساحل ليركبوا فيها ، فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم وغاص بعض المسلمين فى الماء وخرق بعض شوانى الفرنج فغرقت ، فخاف الباقون من ذلك فولوا هاربين)(١) بعد أن تركوا عدداً كبيراً من القتلى والأسرى وغنم المسلمون من الآلات والأمتعة والأسلحة ما لا يقدر على مثله إلا بعناء وكان ذلك (من أعظم النعم من الله تعالى على المسلمين وإمارة كل سعادة ونجاح ولله الحمد والمنة)(٢) .

ثورة الكنز أحد قادة الفاطميين فى الصعيد سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م :

والكنز إنسان مقدم من المصريين ويعرف باسم كنز الدولة وتمكن فى أسوان من جمع بعض العناصر (الفاطمية) وزحف برجاله من النوبة إلى الصعيد وأعمالها ، ولما علم السلطان صلاح الدين بما فعل الكنز جرد قوة عسكرية بقيادة شقيقه الملك العادل سيف الدين (وسار بهم حتى أتوا القوم فلقيهم بمصاف فكسرهم ، وقتل منهم خلقاً عظيماً واستأصل شأفتهم وأخمد نايرتهم وذلك فى السابع من صفر سنة سبعين واستقرت قواعد الملك واستقرت

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤١٣ - ٤١٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٥٦ - ٥٧) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٩) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٩) .

أموره ولله الحمد والمنة)(١) . وقتل الكنز فى حين مات عمورى الأول ملك بيت المقدس بعد ذلك بعد أن وصلته الأنباء بفشل ثورة الكنز كما وصل أسطول صقلية إلى الإسكندرية كما ذكرنا بعد فوات الأوان وهكذا أيد الله السلطان صلاح الدين بنصره على القوم الظالمين .

تحالف الباطنية مع الصليبين :

كان عمورى الأول ملك الصليبيين فى القدس يحاول القضاء على المسلمين بكل الوسائل ويبذل جهوداً كبيرة فى سبيل تمزيق وحدة المسلمين وساعده على ذلك انقسام المسلمين ، وسعى بعض الجماعات والأفراد لحصول على مكاسب شخصية عن طريق الاستعانة بالصليبيين(٢) وكانت طائفة الباطنية فى بلاد الشام التى بلغت من الانحراف حداً لا مثيل له وكانوا قد انزعجوا لسقوط الخلافة الفاطمية وأحسوا بالخطر من جراء انتصار مذهب السنة فى مصر على يد صلاح الدين ، ولهذا طلب الباطنية المعونة من الصليبيين لاعتقادهم أن الصليبيين أقل خطراً عليهم وعلى كيانهم من السلطان نور الدين محمود فى الشام من ناحية ومن صلاح الدين فى مصر من ناحية ثانية . ورحب الملك عمورى بالتحالف مع الباطنية ضد الإسلام مقابل أن يعفى الباطنية من دفع ضريبة مالية قدرها ألفى دينار كانوا يؤدونها لفرسان الداوية من الصليبيين ، وكان هدف الصليبيين من هذا التحالف استغلال خبرات الباطنية (الإسماعيلية والحشاشين) للانتقام من المسلمين فى حين رفض جماعة الداوية الصيليبيين إعفاء الباطنية من الضرائب مما أثار نزاعاً خطيراً بينهم وبين عمورى الأول لدرجة عرض فيها النزاع على البابا للفصل فيه(٣) .

تحرك صلاح الدين إلى الشام ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م :

كان لابد للسلطان صلاح الدين من الاطمئنان على بلاد الشام وعدم

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٤٧ – ٤٨) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص(٤١٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٥٧ – ٥٨) .

(٢) Grousset : Histoire des Croisades, II p. 598 .

(٣) Gaillaume de Tyr, p. 997 ;

ضياعها لأن ورثة نور الدين محمود كانوا لايستطيعون الاحتفاظ بوحدة بلاد الشام وخصوصاً أن سيف الدين غازى الثانى ابن قطب الدين مودود ابن زنكى أتابك الموصل الذى (فرح بوفاة عمه نور الدين . وأظهر الفسق وأمر بإعادة المكوس وتظاهر بالمنكرآت)(١) بل أكثر من ذلك ما أن علم بوفاة نور الدين محمود حتى أسرع واحتل نصيبين والخابور وحران والرها وسروج والرقة وبعض الأماكن الأخرى التابعة لدولة نور الدين . هذا ومن ناحية أخرى فإن النزاع الذى نشب بين الأمير ين شمس الدين على بن الداية والأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم حول الوصاية على الملك الصالح إسماعيل فاحتل ابن الداية قلعة حلب فى حين احتفظ الأمير ابن المقدم بالملك الصالح إسماعيل فى دمشق وتحفظ عليه وكان هذا الموقف من الأمير ين يعنى الاختلاف والانقسام على الرغم من أن القاضى كمال الدين الشهرزورى أشار على الأمير ابن المقدم فى دمشق وعلى بقية الأمراء بالرجوع إلى رأى صلاح الدين فى مصر لحل مشاكلهم وقال القاضى كمال الدين للأمراء : (قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر وهو من أصحاب نور الدين ونوابه والمصلحة أن يشاور فى الذى نفعله ولا نخرجه من بيننا ، فيخرج عن طاعتنا ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لانفراده بملك ديار مصر)(٢) .

ولكن الأمراء رغم رجاحة ما قاله القاضى كمال الدين (فلم يوافق هذا القول أغراضهم) وزاد فى سوء الحال أن الملك الصالح إسماعيل سار إلى حلب واستقر بها واستبد به الأمير سعد الدين الذى قام بأتابكية الملك الصالح فى حين أقام الأمير شمس الدين محمد بن المقدم بدمشق وإليه قيادة العساكر بها (ولما تحقق السلطان وفاة نور الدين وكان ولده طفلا لا ينهض بإعباء الملك ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد ، تجهز للخروج إلى الشام إذ هو أصل بلاد الإسلام . فتجهز بجمع كثير من العساكر وخلف فى الديار

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ١ ص (٩) .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣) .

المصرية من يستقل بحفظها وحراستها ونظم أمورها وسياستها وخرج هو سائراً مع جمع من أهله وأقاربه وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها ، واختلفت كلمة أصحاب الملك الصالح واختلت تدابيرهم ، وخاف بعضهم من بعض ، وقبض على جماعة منهم ، وكان ذلك سبب خوف الباقين من فعل ذلك ، وسبباً لتغير قلوب الناس عن الصبى فاقتضى الحال أن كاتب شمس الدين ابن المقدم السلطان ، ووصل السلطان البلاد مطالباً بالملك الصالح ليكون هو الذى يتولى أمره ويرعى حاله فيقوم له ما اعوج من أمره . فوصل محروسة دمشق ولم يشق عليه عصا ، ودخلها بالتسليم فى يوم الثلاثاء سلخ ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة (١١٧٤ م (وتسلم قلعتها)(١) .

وأنفق صلاح الدين فى الناس مالا جزيلا وأمر فنودى فى دمشق بإطابة النفوس وإبطال المكوس وإبطال ما أحدث بعد نور الدين محمود من القبائح والمنكرات والضرائب . وأظهر للناس أنه إنما جاء لدمشق بهدف تربية الصالح إسماعيل بن نور الدين وأنه ينوب عنه ويدبر دولته وكاتب الأطراف بذلك وتسلم قلعة دمشق بعد امتناع متوليها فأنزل أخاه ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب وبعث بالبشارة إلى القاهرة .

كان هذا الموقف من صلاح الدين يعنى تحمله المسئولية وعليه يقع واجب الجهاد وحفظ البلاد والدفاع عن العباد وأخذ فى تثبيت أقدامه فى بلاد الشام والعمل على توحيدها مع مصر لتكون جبهة متحدة فى وجه العدو الصليبى وكان تحركه إلى بلاد الشام من أجل تلافى عوامل الانقسام وتحقيق الوحدة الإسلامية بقصد مواجهة الأعداء عامة والصليبيين على وجه الخصوص .

ومن هذا المنطلق سار صلاح الدين من دمشق إلى حمص فى مستهل جمادى الأولى سنة ٥٧٠ هـ/ ديسمبر ١١٧٤ م ، فلما وصلها فارقها والبها

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٥٠) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٩ – ١١) . ابن الأثير : التاريخ الباهر ص (١٦٣) ، الكامل ج ١١ ص (٤١٥ – ٤١٦) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٤ – ٢٥) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٥٨) .

الأمير فخر الدين مسعود بن الزعفراني وذلك لسوء سيرته في الرعية وتسلم صلاح الدين مدينة حمص فنزل بها من يحفظها ومنع من بالقلعة من التصرف وأن لا يصعد إليهم ميرة لامتناعها ثم سار إلى حماة فملكها في مستهل جمادى الآخرة من سنة ٥٧٠ هـ / ١٠/ ١٢/ ١١٧٤ م وراسل الأمير عز الدين جرديك في تسليم القلعة إليه ، فامتنع عليه فأرسل صلاح الدين إليه يعرفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح (وإنما يريد حفظ البلاد عليه . فاستحلفه جرديك على ذلك فحلف) وسيره رسولا إلى حلب يدعوهم إلى اجتماع الكلمة في طاعة الملك الصالح ، فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه الأمير سعد الدين كمشتكين ، فلما علم أخوه بذلك سلم القلعة إلى السلطان صلاح الدين وبعدها سار إلى حلب وحاصرها فقاتله أهلها أشد قتال وكان بها الملك الصالح الذى ركب وهو صبي عمره اثنتا عشرة سنة وجمع أهل حلب وقال لهم : (قد عرفتم إحسان أبي إليكم ، ومحبته لكم ، وسيرته بينكم ، وأنا يتيمكم وقد خان هذا الظالم الجاحد إحسان والدى إليه بأخذ بلادى ولا يراقب الله والخلق ، وقال من هذا الكلام كثيراً وبكى وأبكى الناس . فبذلوا له الأموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه ، والمنع عن بلاده وجدوا في القتال فكانوا يخرجون ويقاتلون عند جبل جوشن فلم يقدر السلطان على القرب من البلد)(١) .

تحالف أهل حلب مع الملاحدة والصليبيين ضد صلاح الدين :

ولم يكتف أهل حلب بهذا الموقف المعارض لصلاح الدين وإنما أرسل الأمير سعد الدين كمشتكين إلى زعيم طائفة الإسماعيلية (وبذل له أموالا كثيرة ليقتل السلطان) فأرسلوا جماعة من الإسماعيلية إلى عسكر صلاح الدين واختلطوا فيهم فعرفهم الأمير ناصح الدين خمارتكين فقال لهم : (لأى شيء

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٢ - ٢٣) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤١٧ - ٤١٨) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٥٨) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٤ - ٢٥) .

جئتم ؟ وكيف تجاسرتم على الوصول ؟) فجرحوه جراحات مثخنة مات منها وجاء من يدافع عنه فقاتلوه وجرحوه وهاجم أحدهم السلطان صلاح الدين وقد شهر سكيناً يريد قتله ، فتصدى له طغرل أحد أمراء السلطان صلاح الدين فقتله بالسيف (وما قتل الباقون حتى قتلوا عدة من الأجناد)(١) .

وبعد فشل محاولة اغتيال السلطان صلاح الدين أرسل أهل حلب إلى صاحب طرابلس الصليبي وطلبوا منه العون على صلاح الدين فسار بقواته إلى حمص ، فلما سمع صلاح الدين بذلك ترك حصار حلب وعاد إلى حماة فى الثامن من رجب سنة ٥٧٠ هـ بعد نزول الصليبيين على حمص بيوم ، فلما سمع الصليبيون بقرب وصول صلاح الدين رحلوا عن حمص التى وصلها صلاح الدين وحاصر قلعتها إلى أن ملكها فى الحادى والعشرين من شعبان من السنة (فصار أكثر الشام بيده) ثم تقدم إلى بعلبك وحاصرها حتى طلب أهلها الأمان فأمنهم صلاح الدين واستقرت الأحوال بها(٢) .

صلاح الدين يطلب تفويضاً من الخليفة العباسى بالحكم :

شعر السلطان صلاح الدين بتحالف قوى الشر والصليبيين ضد الإسلام ولا سيما بعد وفاة نور الدين محمود وطمع كثير من الأمراء فى أن يكون لكل منهم مملكة خاصة مستقلة ولو كان ذلك على حساب المصلحة العامة للإسلام والمسلمين بل حاولوا الاستعانة بالصليبيين لأجل هذا الغرض ، ومن ثم أراد السلطان صلاح الدين أن يحيط خليفة بغداد العباسى بحقيقة ما هو فيه من جهاد الأعداء وما يقع عليه من مسئولية الجهاد وحفظ البلاد ، وأرسل الخطيب شمس الدين بن أبى المضاء رسولا إلى الخليفة الإمام المستضىء بنور الله ابن المستنجد برسالة تتضمن ما للسلطان من الآثار الجميلة ، والقيام بخدمة الدولة العباسية ، من جهاد العدو فى أيام نور الدين ثم فتح مصر واليمن وبلاد جمة فى أطراف المغرب وإقامة الخطبة للخليفة العباسى بها ، وأنه لم تخل سنة من غزو الفرنج براً وبحراً ومركباً وظهراً . وفتح معاقل لهم من جملتها

---

(١)،(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٤) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤١٩ – ٤٢٠) .

قلعة كانت بثغر أيلة قد بناها العدو فى خليج العقبة فى الطريق المسلوك منا إلى الحرمين واليمن وغزا ساحل الحرم فسبى منه خلقاً وفرق الكفر فى ذلك الجانب فرقاً . ففتحت هذه القلعة وصارت معقلا لجهاد المسلمين وموئلا للمسافرين وتضمنت رسالة السلطان صلاح الدين إلى الخليفة العباسى إضافة إلى ما سبق ما يلى :

فصل فى ذكر أهل مصر :

(ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير ، وسوادهم كبير . وأموالهم واسعة وكلمتهم جامعة) وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر ، والحيلة فى السر فيهم أنفذ من العزيمة فى الجهر ، وبها راجل من السودان يزيد عن مائة ألف رجل كلهم أغنام أعجام إن هم إلا كالأنعام لا يعرفون رباً إلا ساكن قصره ، ولا قبلة إلا ما يتوجهون إليه من ركنه وامتثال أمره ، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية موضوعة عنهم الجزية ، ولهم شوكة وشكة وحمة وحمية ، لهم حواش لقصرهم من بين داع تتطلف فى الضلال مداخله وتصيب العقول مخاتله ، ومن كتاب تفعل أقلامهم فعل الأسد ، وخدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النمل ، ودولة قد كبر عليها الصغير ولم يعرف غيرها الكبير . ومهابة تمنع من خطرات الضمير . فكيف بخطوات التدبير ، هذا إلى استباحة للمحارم ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائزة ، وتحريف للشريعة بالتأويل وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل ، وكفر يسمى بغير اسمه وشرع يتستر به ويحكم بغير حكمه ، فما زلنا نسحتهم تحت المبارد للشفار وتحيفهم تحيف الليالى والنهار بعجائب تدبير لا تحملها المساطير ، وغرائب تقدير لا تحملها الأساطير ، فشرعنا فى تلك الطوائف من الأجناد والسودان والأرمن فأخرجناهم من القاهرة حتى بقى القصر ومن به من خدم وذرية قد تفرقت شيعة وتمزقت بدعه وأخفيت دعوته وخفتت ضلالته ، فهناك تمت لنا إقامة الكلمة والجهر بالخطبة والرفع للواء الأعظم الأسود . وعجل الله للطاغية الأكبر بفنائه ، وبرأنا من عهده عين كان إثم حنثها أيسر من إثم إبقائه ، إلا أنه عوجل لفرط دعوته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته) .

فصل : (وكان باليمن ما علم من أمر ابن مهدى (يقصد حاكم اليمن) الضال الملحد المبتدع . . . لأنه سبا الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البخس واستباح منهن كل ما لا تقر عليه نفس ، ودان ببدعة صعبة ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأباحها ، وأهل الفروج المحرمة وأباحها) .

فصل : (ولنا بالمغرب أثر أغرب ، قد ملكنا مما تجاوز منه بلادنا بلاداً تزيد مسافتها على شهر وسيرنا إليها عسكراً بعد عسكر رجع بنصر بعد نصر من مشاهيرها : برقة ، قفصة قسطيلة ، توزر ، كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا المستضىء بنور الله ، سلام الله عليه) .

ثم ذكر السلطان صلاح الدين فى هذه الرسالة ما تشتت إليه بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ، وطمع العدو الصليبى فيها لاختلاف الآراء (وإن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع إليه طالب وساءت السيرة وخبثت السريرة) .

فصل : (وعرفنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم نجرد العزم لقلعه ، وإلا ثبت عروقه ، واتسعت على المسلمين خروقه ، وكانت الحجة قائمة ،وهم القادرين بالقعود آثمة وإنا لا نتمكن بمصر منه مع بعد المسافة وانقطاع العمارة وكلال الدواب التى بها على الجهاد مقره وإذا جاوزناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة والميسرة متسعة ، والخيل مستريحة والعساكر كثيرة الجموع) ، (وإذا شد رأينا حسن الرأى ضربنا بسيف يقطع فى غمده وبلغنا المنى بمشيئة الله ، ويد كل مسلم تحت برده ، واستنقذنا أسيراً من المسجد الأقصى الذى أسرى الله إليه بعبده) .

ثم ذكر فى الرسالة (إنه قدم الشام لإصلاح الأمور وحفظ الثغور وخدمة ابن نور الدين وكفالته وتخليصه من قوم يأكلون الدنيا باسمه ويبالغون فى ظلمه) . .

ثم طلب صلاح الدين من الخليفة المستضىء بنور الله تقليداً جامعاً بمصر

والمغرب واليمن والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفه وسيوف عساكره ولمن يقيمه من أخ أو ولد من بعده تقليداً يتضمن للنعمة تخليداً وللدعوة تجديداً)(١) .

تحالف أهل الموصل مع الحلبيين ضد صلاح الدين :

كان السلطان صلاح الدين قد أرسل إلى عماد الدين زنكي بن مودود ابن زنكي صاحب سنجار وأطمعه فى الملك لأنه كبير البيت الزنكي فمال إلى السلطان وصار من جهته ، ولما أخذ السلطان صلاح الدين دمشق وحمص وحماة وبعلبك كتب أهل حلب إلى سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الموصل يستنجدونه على السلطان صلاح الدين وطلبوا منه أن يعبر الفرات ليقصدوا السلطان ويقاتلوه فجمع صاحب الموصل قواته وأرسل إلى أخيه عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار وأمره أن ينزل إليه من سنجار بعساكره ليجتمعا على حرب السلطان صلاح الدين فامتنع عماد الدين ولم يقبل الانضمام إلى التحالف المعادى لصلاح الدين ، وقام سيف الدين غازي صاحب الموصل بالتضييق على أخيه وحاصر سنجار — سنة ٥٧٠ هـ — ١١٧٤ م وجد فى قتالها (فامتنع بها أخوه عماد الدين وأحسن حفظها والذود عنها) وتحرك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكى بعساكر الموصل إلى حلب ثم جاءوا إلى حماة فحاصروها وأرسلوا إلى السلطان صلاح الدين فى الصلح فأجابهم إلى ذلك على شرط أن يرد عليهم الحصون التى أخذها وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصالح وأن تكون الخطبة والسكة له ، وأن يرد عليهم كل ما أخذ من الخزانة ، فلما رأوه مجيباً لكل ما يلتمس منه وقلة عساكره اشتطوا عليه وطمعوا ، وطلبوا الرحبة وأعمالها فقال : (هى لابن عمى ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ولا سبيل إلى الإضرار به) ، فاختلفوا وتفرقوا وجمعوا العساكر وأظهروا الرغبة فى الحرب فاضطر السلطان لخوض هذه الحرب فعبر إلى سفح قرون حماة ، ثم كانت الوقعة بين الفريقين فى تاسع عشر شهر رمضان سنة ٥٧٠ هـ ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٥ — ٢٩) .

فلم يثبت عسكر الموصل وانهزموا لا يلوى أحد على أحد وتمت الهزيمة عليهم وتبعهم السلطان وعسكره حتى جاوز معسكرهم وغنم كل ما معهم وأسر جماعة منهم ، ثم من عليهم وأطلقهم وعادوا منهزمين إلى حلب وتبعهم السلطان صلاح الدين بنية حصار حلب ومنازلتها (وقطع حينئذ خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة فى بلاده) فأرسل الحلبيون إلى السلطان يطلبون منه الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم منها ، فأجابهم إلى ذلك وانتظم الصلح ووقعت الإيمان على وثائق الصلح ورحل صلاح الدين بقواته عن حلب فى العشر الأول من شهر شوال سنة ٥٧٠ هـ ووصل إلى حماة فوافته الرسل من جهة الخليفة العباسى المستضىء بنور الله أمير المؤمنين بالتشريفات السلطانية ، والتقليد بما أراد من الولايات وأفاضوا الخلع على السلطان وأقاربه وكان هذا يعنى أن صلاح الدين الأيوبى أصبح السلطان الحقيقى وصاحب السلطة الشرعية فى كل الولايات التى كانت تابعة لنور الدين محمود وهذا يعنى أن بلاد الشام ينبغى أن تخضع لصلاح الدين وعليه يقع عبء توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين(١) .

استيلاء صلاح الدين على قلعة بقرين سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م :

كان يحكم بقرين الأمير فخر الدين مسعود بن على الزعفرانى من عهد نور الدين محمود ، فلما رأى معزة السلطان صلاح الدين نزل من قلعته واتصل بصلاح الدين (وظن أنه يكرمه ويشاركه فى ملكه ولا ينفرد عنه بأمر مثل ما كان مع نور الدين فلم ير من ذلك شيئاً ففارقه) ، فلما صالح السلطان صلاح الدين الملك الصالح إسماعيل بحلب عاد إلى حماة وسار منها إلى بقرين وهى قريبة منها « فحصرها ونصب عليها المجانيق وأدام قتالها) فاضطر واليها إلى التسليم بالأمان فأقطعها صلاح الدين خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٠ – ٣٤) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٢٠ – ٤٢٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٥٩ – ٦٠) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٥ – ٢٦) .

وأقطع حمص ناصر الدين محمد ابن عمه شيركوه وسار منها إلى دمشق ثم خرج منها إلى مرج الصفر فعلم به الصليبيون فأرسلوا رسلهم إليه يطلبون الهدنة وذلك فى مطلع سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م فأجابهم السلطان بعد أن اشترط عليهم أموراً التزموها(١) .

التحالف بين حلب والموصل ضد صلاح الدين :

لما انتظم الصلح بين السلطان والحلبيين وسمع بذلك سيف الدين غازى ابن مودود صاحب الموصل (عتب على الحلبيين ووبخهم ونسبهم إلى العجلة فى ذلك وإلى الضعف وسلوك غير طريق الحزم وحملهم على النقض والنكث وأنفذ إليهم من أخذ عليهم المواثيق) ، ثم سار رسول الأمير سيف الدين غازى إلى دمشق ليأخذ لسيف الدين من السلطان صلاح الدين عهداً ، ويكشف ما عنده . فلما خلا به السلطان بنسخة اليمين فغلط الرسول وأخرج من كمه يمين الحلبيين لسيف الدين وناولها له فتأملها وأخفى سره وأطلع على ما اتفقوا عليه وردها إليه . وقال : (لعلها قد تبدلت) . فعرف الرسول أنه قد غلط ، ولم يمكنه تلافى الغلط منه وقال السلطان : (كيف حلف الحلبيون لسيف الدين ومن شرط أيمانهم أنهم لا يعتمدون أمراً إلا بمراجعتهم لنا واستئذانهم ؟) وتحقق السلطان صلاح الدين أن أهل حلب قد نقضوا العهد والصلح الذى أبرموه معه قبل ذلك وأنهم دخلوا مع سيف الدين غازى فى حلف ضد السلطان صلاح الدين ومن ثم رأى السلطان ضرورة الاستعداد لمقاومة أولئك الذين يحاولون التحالف ضده من أجل مصالحهم الذاتية ويتركون الجهاد الحقيقى ضد الصليبيين . فأرسل إلى نائبه بمصر وهو أخوه العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب يعلمه بذلك ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد والخروج من مصر إلى الشام فى شهر شعبان سنة ٥٧١ هـ .

أما سيف الدين غازى صاحب الموصل فقد صالح أخاه عماد الدين صاحب

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٥ - ٣٦) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٢٢ - ٤٢٣) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٦٠) .

سنجار وجمع العساكر والقوات وأنفق الأموال (واستنجد بصاحب الحصن وصاحب ماردين وغيرهما) .

ثم سار بقواته إلى نصيبين فى ربيع الأول سنة ٥٧١ هـ وأقام بها حتى انسلخ فصل الشتاء ، ثم سار متوجهاً إلى حلب فعبر الفرات من البيرة وخيم على الجانب الغربى وراسل الحلبيين واستقرت القاعدة بعد مفاوضات كثيرة بين الطرفين على أن يسير إلى حلب . فلما وصلها خرج إليه ابن عمه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين واستقبله (واعتنقه وضمه إليه وبكى) واستقر سيف الدين غازى بقواته خارج حلب وعسكر حلب يخرجون إلى خدمته كل يوم .

ووصلت من مصر العساكر إلى السلطان صلاح الدين فسار بهم متوجهاً إلى حلب فوصل حماة ثم رحل إلى مرج أبو قبيس وجاء الخبر إلى السلطان أن الحلبيين والمواصلة فى عشرين ألف فارس سوى سوادهم وأنهم موعودون من الفرنج بالنجدة وإمدادهم متواصلة ولم يكن اجتمع من عسكر السلطان سوى ستة آلاف فارس — فرتب السلطان عسكره ، وأطلق — الحلبيون من فى الأسر من ملوك الفرنج ، منهم إرناط برنس صاحب الكرك ، وجوسلين خال الملك ، وقرروا معهم المساعدة لهم ورحل سيف الدين بالعساكر إلى تل السلطان الواقعة بين حلب وحماة .

وكان سيف الدين غازى الثانى قد أرسل سفارة إلى ريموند الثالث صاحب طرابلس والوصى على بيت المقدس يطلب محالفته ضد صلاح الدين وكان هذا التحالف بين الزنكيين والصليبيين من أخطر العوامل التى هددت الجبهة الإسلامية تهديداً خطيراً وأعطى هذا الموقف الصليبيين فرصة لمهاجمة صلاح الدين . فقد قام بلدوين الرابع ملك مملكة بيت المقدس الصليبية بهجوم على المناطق التابعة لدمشق سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٥ م منتهزاً فرصة انشغال صلاح الدين بالزنكيين فى شمال بلاد الشام ، واضطر صلاح الدين سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م إلى تجديد الهدنة مع مملكة بيت المقدس وذلك حتى يتفرغ لمشاكله الداخلية ، وحتى لا يحارب عدوين فى وقت واحد ولكى يستكمل الإعداد للقوة اللازمة لإرهاب العدو مع الأخذ فى الاعتبار أن القضاء

على الانقسامات الداخلية والمحاولات المبذولة من أجل تمزيق وحدة المسلمين وملاحقة دعاة الانفصال والقضاء عليهم كل ذلك من عوامل الإعداد للقوة التي يمكن الاستفادة منها في قتال العدو الصليبي . وبلغ السلطان صلاح الدين خبر استعداد الحلبيين والمواصلة وتحالفهم مع الصليبيين من أجل قتاله . فعبر نهر العاصي عند شيزر ورتب العسكر وأعاد الأثقال إلى حماة . ثم سار حتى أتى قرون حماة فبلغ الحلبيين أنه قد قارب عسكرهم فأخرجوا طلائع الجيش للاستطلاع وكشف أخبار صلاح الدين فوجدوه في التاسع من شوال سنة ٥٧١ هـ قد تأهب للحرب ، ثم دارت المعركة بين الطرفين في تل السلطان في اليوم العاشر من شوال سنة ٥٧١ هـ / ٢٢ / ٤ / ١١٧٦ م وحمل السلطان صلاح الدين بنفسه عليهم فانكسروا بين يديه (فلم يقف منهم أحد على أحد) وأسر جماعة من الأمراء الأكابر فمن عليهم السلطان وأطلقهم في حين أن سيف الدين غازي ومن معه وصلوا إلى حلب وترك سيف الدين غازي بها أخاه عز الدين مسعود في جمع من العساكر وعاد إلى الموصل وهو لا يصدق بالنجاة (وكانت هذه الكسرة من الله تعالى بغير حرب ولا قتال . ولم يقتل في هذا المصاف مع كثرته إلا رجل واحد)(١) . وفي تلك المعارك هلك من الحلبيين والمواصلة جماعة كثيرة واستولى صلاح الدين على (أموال وذخائر وفرش وأطعمة وتحف تجل عن الوصف)(٢) .

وهكذا فشلت محاولة الزنكيين في أخذ دمشق من صلاح الدين واستغل صلاح الدين هذا النصر في انتزاع بعض القلاع الهامة مثل بزاغة . فقد حاصرها صلاح الدين وقاتله من بالقلعة ثم تسلمها وجعل فيها من يحفظها . وسار إلى مدينة منبج فحاصرها في آخر شوال سنة ٥٧١ هـ (وبها صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي ، وكان شديد العداوة لصلاح الدين والتحريض عليه والإطماع فيه) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٦ - ٤١) ؛ ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٢٧ - ٤٢٩) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٥١ - ٥٢) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٥ - ٢٦) ، المقريزي : السلوك ج ١ ص (٦١) ، ثم انظر : Guillaume de Tyre, p. 1019–1021 .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص (٦٠) .

واستسلمت المدينة فى حين اعتصم صاحبها بالقلعة (فحصرها صلاح الدين وضيق عليه وزحف إلى القلعة فوصل النقابون إلى السور فنقبوها وملكوها عنوة وغنم العسكر الصلاحى كل ما فيها وأخذ صاحبها ينال أسيراً) . ثم أطلقه صلاح الدين فسار إلى الموصل ولما فرغ صلاح الدين من منبج سار إلى قلعة إعزاز فنازلها فى الثالث من شهر ذى القعدة سنة ٥٧١ هـ وهى من أحصن القلاع وأمنعها فضيق عليها صلاح الدين ونصب عليها المجانيق واستشهد عليها كثير من عسكر صلاح الدين وفى أثناء حصارها حاول الباطنية اغتيال صلاح الدين وقتل ثلاثة من الباطنية الإسماعيلية فى هذه المحاولة وركب صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور لا يصدق بنجاته (ولازم حصار إعزاز ثمانية وثلاثون يوماً) كل يوم أشد قتالا مما قبله ، حتى اضطر أهلها إلى الاستسلام فى الحادى عشر من ذى الحجة سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م(١) .

حصار حلب سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م :

بعد أن أخذ صلاح الدين قلعة إعزاز سار إلى حلب فى منتصف ذى الحجة سنة ٥٧١ هـ / يونية ١١٧٦ م وكان الأمير سعد الدين كمشتكين قد خرج إلى حصن حارم فحيل بينه وبين العودة إلى حلب (ثم تضرع فى الدخول إليهم واحتال ، فتم له ما أراد بالسؤال) وانقضت سنة ٥٧١ هـ والسلطان صلاح الدين محاصر لمدينة حلب) فراسلوه وتذللوا له ولاذوا بعفوه وصلحه فأجابهم إلى الصلح وأبقى للملك الصالح حلب وأعمالها) ، ولم يكتف الحلبيون بذلك بل أخرجوا إلى صلاح الدين ابنة صغيرة لنور الدين) فرق لها وأكرمها وأطلق لها شيئاً كثيراً ، وقال لها : (ما تريدين ؟) فقالت : (أريد قلعة عزاز) فسلمها إليهم ثم حلف لهم وحلفوا له ودخل فى الصلح المواصلة وأهل ديار بكر وكتب فى نسخة اليمين : إنه إذا غدر واحد منهم وخرج عن مقتضى اليمين كان الباقون يداً واحدة عليه)(٢) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٢٩ – ٤٣٠) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٢ – ٤٥) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٥١ – ٥٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٦١) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٧) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١=

سار صلاح الدين بعد هذا الصلح إلى مصياف وهى بلد الباطنية (ليقابلهم على ما فعلوه من الوثوب عليه) وذلك فى المحرم سنة ٥٧٢ هـ فنازل حصنهم ونصب عليه المجانيق الكبار وأوسعهم قتلا وأسراً وساق أبقارهم وخرب ديارهم . حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة وكانوا قد راسلوه فى ذلك لأنهم جيرانه ، فرحل السلطان صلاح الدين عنهم وقد انتقم منهم لأنهم أعداء الإسلام ويقفون مع الصليبيين ويقتلون القادة والأبطال من شجعان المسلمين . وكان الصليبيون فى أثناء ذلك قد اجتمعوا وأغاروا على إقليم البقاع فخرج إليهم الأمير شمس الدين محمد ابن عبد الملك المعروف بابن المقدم صاحب بعلبك (فقتل منهم وأسر أكثر من مائتى أسير وأحضرهم عند السلطان وهو محاصر مصياف) . وكان هدف الهجوم الصليبى منع صلاح الدين من الاستيلاء على حلب ومساعدة الزنكيين ضد صلاح الدين العدو المشترك للصليبيين والزنكيين والإسماعيلية . وقد تحالفوا ضده وحاولوا القضاء عليه . وبعد هذه المعارك وارتداد الصليبيين فضل السلطان صلاح الدين العودة إلى الديار المصرية (ليتفقد أحوالها ويقرر قواعدها) بعد أن تزوج من أرملة نور الدين وكان مسيره إلى مصر فى ربيع الأول من شهور سنة اثنين وسبعين وخمسمائة واستخلف أخاه شمس الدولة بدمشق فقام بتقرير قواعدها وسد خللها(١) ولكن القوات الصليبية هاجمت أعمال دمشق فسار إليهم شمس الدولة تورانشاه شقيق صلاح الدين ولقيهم عند عين الجر فلم يثبت لهم وانهزم عنهم فظفروا بجمع من أصحابه فأسروهم واجترأ الصليبيون بعدها (وانبسطوا فى تلك الولاية وجبروا الكسر الذى ناله منهم ابن المقدم)(٢) .

ص (٤٣١) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٥٢) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٧) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٦٢) .

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٥٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٧ – ٤٨) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٣٦ – ٤٣٧) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٧) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٦٢ – ٦٣) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٣٧) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٦٣) .

موقف صلاح الدين من مملكة بيت المقدس فى الفترة ٥٧٣ – ٥٧٦ هـ / (١١٧٧ – ١١٨٠ م) :

وصلت إلى بلاد الشام حملة صليبية سنة ١١٧٧ م بقيادة فيليب الإلزاسى كونت فلاندرز لدعم القوات الصليبية ضد صلاح الدين الأيوبى . ولما سمع الامبراطور البيزنطى بهذه الحملة أرسل سفارة إلى بيت المقدس لتعرض على الملك بلدوين الرابع ملك القدس فكرة التحالف بين الامبراطور البيزنطى والصليبيين للقيام بحملة مشتركة لغزو مصر ولكى يثبت الامبراطور صدقه فى هذا العرض أرسل إلى عكا أسطولا من سبعين سفينة تحمل قوة كبيرة من المحاربين استعداداً لغزو مصر والانتقام من صلاح الدين ، ولكن بلدوين الرابع ملك بيت المقدس كان مريضاً لا يستطيع المشاركة بنفسه فى هذه الحملة . وحدث أن باءت محاولات الامبراطور البيزنطى فى توجيه حملة صليبية بيزنطية لغزو مصر بالفشل وانسحب الأسطول البيزنطى إلى بلاده . وأما الحملة الفلمنكية المذكورة فقد استفاد الصليبيون منها فى بعض الأعمال الحربية ضد المسلمين على الحدود الشرقية لإمارتى طرابلس وأنطاكية مستغلين فى ذلك غياب صلاح الدين فى مصر ، وهاجم الصليبيون إقليم حمص . ثم حاصروا حماة فى منتصف نوفمبر سنة ١١٧٧ م ولكنهم فشلوا فى الاستيلاء عليها وتراجعوا عنها بعد أربعة أيام من الحصار(١) .

وقام صاحب أنطاكية بالهجوم على قلعة حارم الواقعة شرقى نهر العاصى والتابعة للزنكيين فى حلب وحاصر الصليبيون حارم فى أوائل جمادى الآخرة سنة (٥٧٣ هـ) نهاية نوفمبر ١١٧٧ م واستمر الحصار أربعة أشهر بدون جدوى وأمام صمود أهل حارم وهجمات أهل حلب على الصليبيين ووصول الأخبار بوصول صلاح الدين إلى الشام ليهاجم مملكة بيت المقدس اضطروا إلى رفع الحصار عن أهل حارم ، فلما تركوها هاجمها جيش الملك الصالح

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٦٤) .
Setton : part. I. p. 595; Michel Le Syrien, pp. 367-372; Richard. Le Reyoume Latin. p. 56; Guillaume de Tyre. p. 1033-1038; Brehier : p. 341; Groussét, II, pp, 644-645 .

إسماعيل ولم يستطع أهل حارم هذه المرة الصمود فى مقاومة الحصار بعد أن (بلغ الجهد منهم لحصار الفرنج وصاروا كأنهم طلايح (وتمكنت قوات الملك الصالح من الاستيلاء على حارم واستناب بها أحد مماليكه(١) .

وكان السلطان صلاح الدين الأيوبى لما وصل إلى القاهرة أمر ببناء سور القاهرة ومصر لأنه كان يتوقع هجوماً صليبياً بيزنطياً ضد مصر ولهذا شرع فى عمل هذا السور الضخم (ودوره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وذراعان بذراع العمل)(٢) فتولى ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى وشرع فى بناء القلعة وحفر حول السور خندقاً عميقاً وحفر فى القلعة بئر عمقاً يضمن لمن فيها الحصول على الماء واهتم صلاح الدين بالإسكندرية فسار إليها (وأمر بتعمير الأسطول بها)(٣) .

وأراد السلطان صلاح الدين الاطمئنان على الموانىء والسواحل فسار إلى ثغر دمياط ثم إلى ثغر الإسكندرية وتفقد تحصيناتها وأمر بتعمير الأسطول بها(٤) وكان السلطان صلاح الدين يحب عمل الخير ، فقد أمر ببناء مدرسة بجوار قبر الإمام الشافعى بالقرافة ، وأمر أن تعمل خزانة الأشربة التى كانت للقصر الفاطمى مارستاناً للمرضى . وكان السلطان صلاح الدين يحب الاستماع إلى الفقهاء والعلماء وسماع الحديث وفى الإسكندرية (تردد إلى الشيخ الحاكم أبى طاهر أحمد بن محمد السلفى فى كل جمعة ثلاثة أيام : الخميس والجمعة والسبت ، وإنما استصحب ولديه فى هذه السفرة ليسمعهما الحديث النبوى وتعمهما البركة)(٥) . وكان السلطان يعلم أن صلته بالله وتمسكه بالعدل يعطيه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٤٤ — ٤٤٦) ، ثم انظر :
Guillaume. de Tyre, p. 1048-1049.

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٦ ص (٥٢ — ٥٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٦٣) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٦٣) ، ابن واصل مفرج الكروب ج ٢ ص (٥٣ — ٥٤) .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٦٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٥٦) .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٦٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٦٣).

قوة فى الجهاد ضد الأعداء فعندما عاد من الإسكندرية إلى القاهرة صام فيها بقية شهر رمضان سنة ٥٧٢ هـ (ووفر نهاره بها على نشر العدل وإفاضة الجود وسماع حديث النبي صلى الله عليه وسلم وإشاعة قواعد الشرع المطهر)(١). وكان من استراتيجية صلاح الدين أن يقوى نفسه بكل ما يستطيع ، ففى جانب أداء الفرائض كان يجمع الزكاة من القادرين عليها ويوزعها على المستحقين فيقول المقريزى فى حوادث سنة ٥٦٧ هـ : (وفيها فرقت الزكوات فى ثالث ربيع الأول على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين ورفع إلى بيت المال سهم العاملين والمؤلفة وفى سبيل الله وفى الرقاب . وأخذت الزكاة من البضائع وعلى ما أقتدر عليه من المواشى والنخل والخضروات)(٢).

وأما بالنسبة لأهل الذمة فإن السلطان كان يخشى من استخدامهم فى الوظائف الحكومية الهامة فأمر السلطان (بصرف أهل الذمة والمنع من استخدامهم فى أمر سلطانى ولاشغل ديوانى ، فصرف جماعة ، ولم ينصرف واحد منهم من كتابة الغز ، وأرجف بإخراجهم من البلد وأخذ مساكنهم ، فلما كان الخامس عشر منه (رجب) صرفت جماعة من وجوه أهل الذمة من الأشغال السلطانية وبقى بعضهم وكتاب الغز على حالهم وامتنعوا من صرفهم بأنهم قد دربوا أمرهم ويخشون بإخراجهم ضياع أمورهم)(٣) . وكان الذميون رغم أنهم من عرب البلاد لا يؤمن جانبهم فقد شعر السلطان صلاح الدين بسوء نواياهم وتآمرهم . ومن ثم أخذ فى الاحتياط والحذر وعدم جعل أحدهم يتمكن فى منصب هام ، فعل صلاح الدين هذا بهدف الاحتياط والإعداد المعنوى والمادى من أجل الجهاد ولقول الله سبحانه : « ولا تأمنوا إلا لمن تبع دينكم » . وهذا تحذير عام للمسلمين بأن يأخذوا حذرهم .

موقعة الرملة سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م :

تأكد السلطان صلاح الدين من فشل محاولة التحالف الصليبى البيزنطى

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٥٦) .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٤ – ٤٥) .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٧ – ٤٨) .

من أجل الهجوم على مصر . ومن ثم شرع فى الإعداد والتأهب لقتال مملكة بيت المقدس الصليبية (ثم خرج السلطان الملك الناصر صلاح الدين من القاهرة على نية الجهاد يوم الجمعة ثالث جمادى الأولى بعد الصلاة وخيم ببلبيس خامسة ، ثم تقدم إلى السدير . . . ، ثم نودى أن خذوا زاد كم عشرة أيام أخرى للاستظهار)(١) وأسرع صلاح الدين بقواته يقطع المسافة بين القاهرة وفلسطين وهاجم الصليبيين فى الداروم وغزة) ثم رحل بعساكره فنزل على عسقلان يوم الأربعاء لليلة بقيت من جمادى الأولى فسبا وغنم ، وجمع هناك من كان معه من الأسرى فضرب أعناقهم وتفرق العسكر فى الأعمال مغيرين فلما رأوا أن الإفرنج خامدون انبسطوا واسترسلوا وتوسط السلطان البلاد)(٢) ولكن بلدوين الرابع خرج بقواته إلى عسقلان ومعه حشد كبير من القادرين على حمل السلاح بالإضافة لرجال الدين الذين يحملون صليب الصلبوت شعار الحرب الصليبية . ودخل بلدوين الرابع مدينة عسقلان ، ومن ثم أصبحت مملكة بيت المقدس فى خطر بسبب حصار بلدوين الرابع وقواته داخل عسقلان وكان المسلمون قد حصروا ملك القدس فى داخل عسقلان . ويقول ابن الأثير : (فلما رأوا أن الفرنج لم يظهر لهم عسكر ولا اجتمع لهم من يحمى البلاد من المسلمين طمعوا وانبسطوا وساروا فى الأرض آمنين مطمئنين) ، فقل حذرهم من العدو واعتمدوا على أن بلدوين الرابع وقواته محصورين فى داخل عسقلان (ولما كان يوم الجمعة ثانى جمادى الآخرة استقل السلطان بعساكره راحلا ليقصدوا بعض المعاقل ، واعترضه نهر عليه تل الصافية فازدحمت على العبور أثقال العساكر ، فما شعروا بالفرنج إلا وقد أتوهم فى أطلابهم وهاجموهم بينما جماعة من سرايا المسلمين متفرقون فى الضياع للإغارة ، وكان مقدم الفرنج البرنس أرناط صاحب الكرك وكان أسيراً بحلب من أيام نور الدين ثم أطلقه الحلبيون (لاتفاقهم مع الصليبيين ضد صلاح الدين) فجرى على المسلمين خلل ذلك اليوم وانكسروا)(٣) . وكان بلدوين الرابع

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٥٨) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٧) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٥٨ - ٥٩) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٤٢ - ٤٤٣) ، ابن واصل : مفرج =

ملك بيت المقدس الصليبي قد استطاع أن يشق طريقه إلى خارج عسقلان بعد أن علم بابتعاد صلاح الدين عنها ، فخرج واجتمعت لديه القوات الصليبية وقاموا بالهجوم على صلاح الدين بغتة (وتمت الهزيمة على المسلمين ، وحمل بعض الفرنج على صلاح الدين فقاربه حتى كاد يصل إليه ، فقتل الفرنجى بين يديه ، وتكاثر الفرنج عليه ، فمضى منهزماً يسير قليلا ويقف ليلحقه العسكر إلى أن دخل الليل فسلك طريق البرية إلى أن مضى فى نفر يسير إلى مصر ولقوا فى طريقهم مشقة شديدة وقل عليهم القوت والماء وهلك كثير من دواب العسكر جوعاً وعطشاً وسرعة السير . وأما العسكر الذى كانوا دخلوا بلاد الفرنج فى الغـــارة ، فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير)(١) . وفى أسباب الهزيمة ترك الحذر والاحتياط والاستهانة بالعدو مما يخالف القواعد العسكرية .

ووصل صلاح الدين إلى القاهرة فى ١٥ / ٦ / ٥٧٣ هـ / ٨ / ١٢ / ١١٧٧ م (وحلف لا تضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج)(٢) . أما ملك الصليبيين بلدوين الرابع فإنه رأى فى هذا الانتصار ما يدعم مركزه بين الصليبيين وإعادة الثقة إلى نفوسهم ، ومن ثم باشروا فى مهاجمة المسلمين فى شمال الشام ويدعمون وجودهم فى الجنوب ، ويروى ابن الأثير أن الصليبيين قاموا بهجوم على إقليم حماة (وسبب ذلك أنه وصل من البحر إلى الساحل الشرقى جند كبير من الفرنج من أكبر طواغيتهم ، فرأى صلاح الدين بمصر قد عاد منهزماً فاغتنم خلو البلاد لأن شمس الدولة ابن أيوب كان بدمشق ينوب عن صلاح الدين وليس عنده كثير من العسكر ، وكان أيضاً كثير الانهماك فى اللذات مائلا إلى الراحات ، فجمع ذلك الكند الفرنجى من بالشام من الفرنج وفرق فيهم الأموال وسار إلى مدينة حماة فحصرها وبها صاحبها شهاب

=الكروب ج ٢ ص (٥٨ – ٥٩) .

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٤٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٥٩ – ٦١) ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٧) ، ثم انظر :
Guiliaume dc Tyr. p. 1037-1047 .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٦٤) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٤٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٦١ – ٦٢) .

الدين محمود الحارمى ، خال صلاح الدين وهو مريض شديد المرض وكان طائفة من العسكر الصلاحى بالقرب منها فدخلوا إليها وأعانوا من بها) (١) ؛ وشدد الصليبيون الهجوم على حماة (وكادوا يملكون البلد قهراً وقسراً) ؛ وكان لابد من الصبر فاجتمع أهل حماة من العسكر وقاتلوا أشد قتال (وأعظم الخطب على الفريقين واستقل المسلمون وحاموا عن الأنفس والأهل والمال فأخرجوا الفرنج من البلد إلى ظاهرة . ودام القتال ظاهر البلد ليلا ونهاراً وقويت نفوس المسلمين حين أخرجوهم من البلد وطمعوا فيهم وأكثروا فيهم القتل)(٢) ونصر الله أهل الإسلام ورحل الصليبيون خائبين وكان مدة حصارهم لمدينة حماة أربعة أيام ، ثم ساروا إلى حارم وحاصروها أربعة أشهر (ولما سمع السلطان بنزول الفرنج على حارم عزم على التوجه إلى البلاد الشامية ليدفع عنها العدو)(٣) .

عودة صلاح الدين إلى الشام سنة ٥٧٤ ﻫ / ١١٧٨ م :

وكان العدو الصليبي بعد هزيمة المسلمين فى موقعة الرملة قد طمع فى المسلمين وشرع بلدوين الرابع ملك مملكة بيت المقدس الصليبية فى تحصين مملكته ضد أى هجوم منتظر عن طريق دمشق ، فشيد قلعة جديدة قرب بانياس بمكان يعرف بمخاضة الأحزان وهى القلعة التى صار اسمها فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى حصن جسر بنات يعقوب وكان لهذا الحصن أهمية كبرى لوقوعه على الطريق بين طبرية وصفد من ناحية ودمشق من ناحية أخرى ، وشرع الصليبيون فى بناء هذا الحصن فى أكتوبر سنة ١١٧٨ م وبلغ عرض حائطه زيادة عن عشر أذرع (وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع أذرع إلى ما فوقها وما دونها ، وعدتها تزيد عن عشرين

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٦٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٦٤)، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٤٤) ، ثم انظر
Guillaume de Tyr. pp. 1015-1047 .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٤٤) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٦٤) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٤٤) .

ألف حجر)(١) . وقد تخوف أمراء السلطان صلاح الدين من بناء هذا الحصن وبينوا له خطورة هذا الحصن على طرق المواصلات الإسلامية ، ولكن السلطان صلاح الدين لم يضطرب لهذا الرأى وقال : (إذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه إلى الأساس) وعهد بلدوين الرابع إلى الفرسان الداوية بالدفاع عن الحصن المذكور وأن يتخذوه مركزاً (لقطع الطرقات على قوافل المسلمين) . ولمس صلاح الدين خطورة حصن بيت الأحزان فطلب صلاح الدين من الصليبيين هدمه ولكنهم طلبوا منه دفع النفقات التى بذلوها فى تشيده فعرض عليهم ستين ألف دينار مقابل هدمه ثم رفع المبلغ إلى مائة ألف دينار ولكنهم رفضوا ذلك بل أدركوا من ناحية أخرى أهمية هذا الحصن فى الحرب ضد المسلمين)(٢) .

وأقام الصليبيون حصناً آخر سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م إلى الشمال الغربى من بحيرة الحولة على جبل هونين يتحكم فى منابع نهر الأردن وسهوله العليا فى مواجهة بانياس – وظهرت خطورة هذه الحصون عندما هاجم الصليبيون فى أبريل سنة ١١٧٩ م ذى القعدة ٥٧٤ هـ بعض الدماشقة الذين خرجوا لرعى مواشيهم فى المراعى القريبة من بانياس وترتب على ذلك أن حدثت معركة بين الصليبيين بقيادة بلدوين الرابع ومعه هنغرى دى تورون صاحب حصن بانياس من ناحية وبين القوات الإسلامية بقيادة عز الدين فرخ شاه ابن أخى صلاح الدين من ناحية أخرى ، ولما سمع صلاح الدين بأخبار هذه المعركة وهو فى دمشق أسرع ليشارك فى الجهاد ضد الصليبيين ومساعدة ابن أخيه ، ووقعت الهزيمة على الصليبيين (ورجعت الفرنج خائبين ليس فيهم إلا متخن بالجراح وكل يوم ترد البشرى بموت مقدم من جراحة إصابته ويقول ابن واصل عن هذه المعركة : (ووردت البطاقة فى ذلك اليوم بالبشرى ، وخرج السلطان فما وصل إلى الكسوة إلا ورؤوسهم وأسراؤهم قد جىء بهم ورجع منصوراً مظفراً ، ومات الهنغرى – فذل العدو لموته ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٧٢) ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص (٧٥٩) .

(٢) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص (٧٥٩ – ٧٦٠) .

ثم سار السلطان إلى بيت الأحزان، فأزعجهم وذعرهم ثم عاد إلى دمشق)(١).

هجوم الصليبيين على حماة سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م :

سارت قوات الصليبيين فى شهر ربيع الأول سنة ٥٧٤ هـ / ١١٧٨ م إلى مدينة حماة (وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة طمعاً فى النهب والغارة فشنوا الغارة ونهبوا وخربوا القرى وأحرقوا، وأسروا، وقتلوا)، فلما سمع العسكر الإسلامى بمدينة حماة بما فعل الصليبيون ساروا إليهم (وهم قليل متوكلين على الله تعالى فالتقوا واقتتلوا وصدق المسلمون القتال فنصرهم الله تعالى وانهزم الفرنج وكثر القتل والأسر فيهم، واستردوا منهم ما غنموه من السواد)(٢) (وكان السلطان صلاح الدين يقيم بظاهر حمص) فحملت الرؤوس والأسرى والأسلاب إليه فأمر بقتل الأسرى فقتلوا(٣). وذلك لخطورة الاحتفاظ بهم فى ذلك الوقت وخوفاً من معرفتهم للبلاد وكشف أسرارها وطرقاتها.

موقعة مرج العيون وفتح حصن بيت الأحزان سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م :

كان السلطان صلاح الدين بعد العمليات العسكرية المذكورة قد اتخذ معسكره عند تل القاضى غربى بانياس وعهد إلى ابن أخيه تقى الدين عمر مراقبة تحركات القوات الصليبية عند حماة خوفاً من اعتداء بوهيمند الثالث أمير أنطاكية وكذلك عهد صلاح الدين إلى ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه بالدفاع عن جبهة حمص ضد ريموند الثالث أمير طرابلس. كما أرسل صلاح الدين إلى أخيه العادل فى مصر يطلب منه إرسال الإمدادات، وكان السلطان صلاح الدين (يركب كل يوم بحجة الصيد وينزل على النهر ويجرد العساكر وقبائل العرب إلى صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات العدو وما يبرح مكانه حتى يعودوا بجمالهم وأحمالهم حتى خف زرع الفرنج)(٤)

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٧٢)، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٥٢ – ٤٥٣)، المقريزى : السلوك ج ١ ص ٧٧)، ثم انظر.
King : The Knights Hospitallers. p. 132 ;
Guillaume de Tyr. p. 1052.

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٥٠).

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٥)، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٦٦).

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٧٣ – ٧٤)، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٥٥)، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٦٧).

وذلك ضمن خطة إنهاك العدو اقتصادياً . وجدير بالذكر أن الأمطار في هذه السنة قد انقطعت(بالكلية فى سائر البلاد الشامية والجزيرة والبلاد العراقية والديار بكرية والموصل وبلاد الجبل وخلاط وغير ذلك ، واشتد الغلاء وكان عاماً فى سائر البلاد . . . واستسقى الناس فى أقطار الأرض فلم يسقوا وتعذرت الأقوات ، وأكلت الناس الميتة وما ناسبها . . . ثم تبعه بعد ذلك وباء شديد عام أيضاً كثر فيه الموت)(١) . ومع سوء الأحوال الاقتصادية فإن السلطان صلاح الدين لم يترك الجهاد ولم يتعلل بسبب للإهمال ، فرأى بلدوين الرابع ملك مملكة بيت المقدس الصليبية ضرورة وضع حد لإغارات المسلمين على الصليبيين ولكن (أجمع رأى السلطان ومن معه من المسلمين على أن يقتحموا على الفرنج بلادهم ويستوعبوا ما بقى فى أيديهم من الغلات فى يوم واحد ثم يرجعوا فرحلوا صوب البقاع ليلة الأحد ثانى المحرم سنة خمس وسبعين وخمسمائة (ووصلت الأخبار إلى صلاح الدين بأن الصليبيين بقيادة بلدوين الرابع قادمون لقتاله (فسار فى العسكر مجداً حتى وافاهم فقاتل الفرنج قتالا شديداً وحملوا على المسلمين عدة حملات كادوا يزيلونهم عن مواقفهم ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين وهزم المشركين وقتلت منهم مقتلة كثيرة ونجا ملكهم فريداً وأسر منهم كثير منهم ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلا بعد الملك ، وأسروا أيضاً أخاً لصاحب جبيل ، وصاحب طبرية ومقدم الداوية ، ومقدم الأسبتارية ، وصاحب جينين وغيرهم من مشاهير فرسانهم وطواغيتهم)(٢) ولم ينج بلدوين الرابع من القتل إلا بصعوبة فى حين أسر عدد كبير من المقدمين الصليبيين بلغ (ما يزيد على مائتين ونيف وسبعين سوى غيرهم) ونقل هؤلاء الأسرى إلى دمشق فبذل ابن بيرزان مائة وخمسين ألف دينار صورية لإطلاق سراحه ، كما تعهد بإطلاق ألف أسير من المسلمين وهلك بعض الأسرى فى السجن ومنهم من فك أسره وكانت عدة الصليبيين فى هذه المعركة عشرة آلاف مقاتل

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٥١ – ٤٥٢)، المقريزى: السلوك ج ١ ص (٦٧) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٥٥ – ٤٥٦) ، المقريزى : مفرج الكروب ج ٢ ص (٧٤ – ٧٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٦٧) .

Guillaume de Tyr., p 1054 .

لحقت بهم الهزيمة ويقول ابن واصل : (ومن غريب الاتفاق أن فى هذا اليوم بعينه ظفر الأسطول المصرى ببطسة (سفينة حربية) كبيرة . فاستولى عليها المسلمون ، وعلى أخرى ، وعاد إلى الثغر مستصحباً ألف رأس من السبى)(١) .

وفى هذه الوقعة مدح الشعراء السلطان صلاح الدين ومن هؤلاء أبو على الحسن بن على الجوينى الذى مدح السلطان صلاح الدين فى قصيدة طويلة وصف فيها مآثر السلطان وهنا يجب أن نؤكد على أن ما قيل من أشعار فى مدح صلاح الدين كان بناء على تقرير للحقائق التاريخية والصفات الواقعية التى تحلى بها البطل صلاح الدين(٢) . وأما حصن بيت الأحزان الصليبى فإن السلطان صلاح الدين بعد الانتصار الذى أحرزه فى معركة مرج العيون عاد إلى بانياس واستعد لتدمير حصن بيت الأحزان (فسار إليه فى ربيع الأول من هذه السنة (٥٧٥ هـ) وأحاط به ، وقوى طمعه بالهزيمة المذكورة فى فتحه . وبث العساكر فى بلد الفرنج للإغارة ففعلوا ذلك وجمعوا من الأخشاب والزرجون شيئاً كثيراً ليجعله متاريس للمجانيق ، فقال له أحد الأمراء الكبار : الرأى إننا نجربهم بالزحف أول مرة ونذوق قتال من فيه وننظر الحال معهم ، فإن استضعفناهم ، وإلا فنصب المجانيق ما يفوت) .

فقبل السلطان صلاح الدين هذا الرأى ، وأمر القوات الإسلامية بالزحف على حصن بيت الأحزان والجد فى قتاله (فزحفوا واشتد القتال ، وعظم الأمر) وصعد أحد المجاهدين إلى سور الحصن وتبعه غيره من إضرابه ، ولحق بهم الجند فملكوا الباشورة (فصعد الفرنج حينئذ منها إلى أسوار الحصن ليحموا نفوسهم إلى أن يأتيهم المدد) .

وكان صلاح الدين يريد تدمير الحصن بسرعة واقتحامه قبل أن تصل الإمدادات الصليبية إلى الحصن ، وكان الصليبيون قد جمعوا قواتهم فى طبرية

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٧٦ – ٧٧) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٥٦) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٠ – ١١) .

(٢) انظر القصيدة فى ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٧٨) .

(فألح المسلمون فى قتال الحصن خوفا من وصول الفرنج إليهم وإزاحتهم عنه وأدركهم الليل فأمر صلاح الدين بالمبيت بالباشورة إلى الغد ففعلوا ، فلما كان الغد أصبحوا وقد نقبوا الحصن وعمقوا النقب وأشعلوا النيران فيه وانتظروا سقوط السور فلم يسقط لعرضه فإنه كان تسعة أذرع بالنجارى ، يكون الذراع ذراعاً ونصفاً فانتظروه يومين فلم يسقط . فأمر السلطان بإطفاء النار التى فى النقب فحمل الماء وألقى عليها فطفئت . وعاد النقابون فنقبوا وخرقوا السور وألقوا فيه النار فسقط يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول ودخل المسلمون الحصن عنوة وأسروا كل من فيه وأطلقوا من كان فيه من أسارى المسلمين ، وقتل صلاح الدين كثيراً من أسرى الفرنج . وأدخل الباقين إلى دمشق وأقام صلاح الدين بمكانه حتى هدم الحصن وعفى أثره ، وألحقه بالأرض)(١) .

وكان فتح حصن بيت الأحزان فى أغسطس سنة ١١٧٩ م الموافق عشر ربيع الآخرة سنة ٥٧٥ هـ بعد قتال وحصار (فغنم منهم مائة ألف قطعة حديد من أنواع الأسلحة وشيئاً كثيراً من الأقوات وغيرها . وأسر عدة نحو السبعمائة وخرب الحصن حتى سوى به الأرض ، وسد البئر التى كانت به وعاد بعد ما أقام عليه أربعة عشر يوماً)(٢) .

وكان من نتائج سقوط حصن بيت الأحزان فى يد المسلمين وتدميره أن الصليبيين الذين اجتمعوا بطبرية بهدف حماية الحصن (فلما أتاهم الخبر بأخذه فت فى أعضادهم وتفرقوا إلى بلادهم)(٣) فى حين تابع صلاح الدين غاراته على البلاد الصليبية فأغار على طبرية وصور وبيروت ، كما أغار الأسطول فى سنة ٥٧٥ هـ / أكتوبر ١١٧٩ م على عكا ذاتها والتى تعتبر (قسطنطينية الفرنج) وكان من أثر هذه الانتصارات التى حققها صلاح الدين

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٥٦ - ٤٥٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٨٠ - ٨٢) ، المقريزى : السلوك جـ ١ ص (٦٧) .
Guillaume de Tyre, p. 1058-1064 .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٦٧) ، ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص(٨٢)

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٥٧) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٣) .

والسرعة التى تمت بها أن اضطر بلدوين الرابع ملك بيت المقدس إلى طلب الهدنة من صلاح الدين فوافق السلطان على ذلك فى شهر ذى الحجة ٥٧٥ هـ / مايو ١١٨٠ م ، وكان هذا الصلح خاصاً بمملكة بيت المقدس فقط وهذا يعنى أن صلاح الدين الأيوبى يستطيع مهاجمة الصليبيين فى شمال الشام فى طرابلس على وجه الخصوص . وفى محرم سنة ٥٧٧ هـ / يونية ١١٨٠ م تعرضت أنطرطوس لهجمات الأسطول المصرى وأنزل بها كثيراً من الخسائر لدرجة دفعت ريموند الثالث أمير طرابلس إلى عقد هدنة مع السلطان صلاح الدين ليضمن عدم الاعتداء على بلاده أسوة بما فعل بلدوين الرابع فى المهادنة السابقة(١) . ورأى السلطان صلاح الدين بعد هذه العمليات أن يوقف مؤقتاً هجماته ضد الصليبيين وذلك لأسباب منها سماعه لأخبار ومحاولات لتجديد التحالف بين الصليبيين والبيزنطيين من ناحية ولأنه كان يريد القيام بحملة حربية ضد قلج أرسلان صاحب قونيه وحملة أخرى ضد أرمينيا الصغرى(٢) .

وكان صلاح الدين يهدف إلى توحيد القوى الإسلامية فى شمال الشام والعراق ليكون هذا التوحيد من أسباب قوته على الصليبيين من ناحية ولكى لا تبقى بعض القوى الإسلامية التى تتعاون مع الصليبيين وخصوصاً أنه رأى أن الاستيلاء على حلب يجب أن يسبق أية محاولة للاستيلاء على بيت المقدس . وأنه من الخطأ أن يعرض نفسه لهجوم من جانب الصليبيين أثناء قيامه بمهاجمة حلب ، ولذلك أتاحت له الهدنة التى عقدها مع مملكة بيت المقدس وإمارة طرابلس فرصة طيبة لتحقيق سياسته تجاه حلب والموصل وفى نفس الوقت لم يغفل الجانب الصليبى ، إذ كان لابد من إشعار الصليبيين باستمرار قوة المسلمين وردعهم إذا ما حاولوا مهاجمة المسلمين أو الاعتداء عليهم(٣) .

---

(١) Guillaume de Tyre. p. 1064

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٠ - ٧١) ، انظر :
Guillaume de Tyr. p.1066-1067 .
المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٠ - ٧١) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٩٦ - ١٠٠) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٠) ، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص (٧٦٣) ، ثم انظر :
Guillaume de Tyr. p. 1066-1067 ; Kunciman, vol. 2, p. 421

جهود صلاح الدين من أجل توحيد المسلمين :

توفى فى الثالث من صفر سنة ٥٧٦ هـ / أواخر يونية ١١٨٠ م سيف الدين غازى بن مودود زنكى أتابك الموصل وديار الجزيرة وعمره حينئذ نحو الثلاثين سنة ، وكانت ولايته عشر سنين وثلاثة أشهر ، وكان لما اشتد به المرض أراد أن يعهد بالملك لابنه معز الدين سنجر شاه وكان عمره حينئذ اثنى عشرة سنة (فخاف على الدولة من ذلك لأن — صلاح الدين يوسف ابن أيوب كان قد تمكن بالشام ، وقوى أمره وامتنع أخوه عز الدين مسعود ابن مودود من الأذعان لذلك والإجابة إليه ، فأشار الأمراء الأكابر ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل الملك بعده فى عز الدين أخيه لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والفعل وقوة النفس ، وأن يعطى ابنه بعض البلاد ، ويكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما والمتولى لأمرهما مجاهد الدين قايماز ، ففعل ذلك وجعل الملك فى أخيه ، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه وقلعة عقر الحميدية لولده الصغير ناصر الدين(١) جرى هذا فى الموصل فى حين توفى الملك الصالح إسماعيل بن محمود أتابك حلب فى الخامس والعشرين من رجب سنة ٥٧٧ هـ / أوائل ديسمبر ١١٨١ م وكان قد ابتدأ به المرض فى (تاسع رجب وفى الثالث منه أغلقت أبواب قلعة حلب لشدة مرضه . واستدعى الأمراء واحداً واحداً ، واستحلفوا لابن عمه عز الدين مسعود ابن مودود بن زنكى صاحب الموصل) وذلك حتى تتألف من حلب والموصل جبهة واحدة لمواجهة صلاح الدين .

ومن دلائل وقوف أتابك الموصل وصاحب حلب ضد صلاح الدين أن أمراء الملك الصالح إسماعيل لما أحضرهم واستحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه فقال إليه بعضهم :

(إن ابن عمك عز الدين له الموصل وغيرها من همذان إلى الفرات فلو أوصيت بحلب لعماد الدين ابن عمك كان أحسن ، ثم هو تربية والدك وزوج أختك وهو أيضاً عديم المثل فى العقل والتدبير والخلال والشجاعة التى تفرد بها) :

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٦٢ — ٤٦٣) .

فقال : (إن هذا لم يغب عنى . ولكن قد علمتم تغلب صلاح الدين على عامة بلاد الشام سوى ما بيدى ومعى . فإن سلمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها منه فإن ملكها صلاح الدين لا يبقى لأهلنا معه مقام . وإذا سلمتها إلى عز الدين أمكنه أن يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله)(١) .

وفعلا أرسل أمراء حلب إلى عز الدين يدعونه إلى حلب ليسلموها إليه فحضر إلى حلب وحلف له الأمراء وجددوا اليمين له ونودى به ملكاً على حلب فى أواخر ديسمبر سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م . وواضح من هذه التطورات فى الموصل وحلب أن لدى آل زنكى الرغبة فى توحيد جهودهم ضد صلاح الدين وهدفهم فى الدرجة الأولى المحافظة على ممتلكاتهم وممالكهم دون الاهتمام بأمر الجهاد ضد الصليبيين فكان هذا الموقف من جانب الزنكيين يعنى الوقوف فى وجه مشاريع صلاح الدين الخاصة بالجبهة الإسلامية المتحدة ومحاربة الصليبيين وكان السلطان صلاح الدين (حينئذ بمصر . ولولا ذلك لزاحمهم عليها) حلب (وقاتلهم)(٢) .

ومن الأدلة على مجابهة الزنكيين لصلاح الدين أن عز الدين ملك الموصل لما اجتاز الفرات فى طريقه إلى حلب كان تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين بمدينة منبج (فسار منها هارباً إلى حماة ، وثار أهل حماة . ونادوا بشعار عز الدين . فأشار عسكر حلب على عز الدين بقصد دمشق وأطمعوه فيها وفى غيرها من بلاد الشام وأعلموا محبة أهلها له ولأهل بيته . فلم يفعل وقال : بيننا يمين فلا نغدر به ، وأقام بحلب عدة شهور ثم سار عنها إلى الرقة)(٣) .

وكان سبب مسير عز الدين إلى الرقة أنه لما أصبح حاكماً على حلب

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٠٧ - ١٠٨) . ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٦٢ - ٤٦٣ ، ٤٧٢ - ٤٧٣) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٧٤) . ابن واصل . مفرج الكروب ج ٢ ص (١٠٨) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٧٣ - ٤٧٤) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٠٨) . ابن العديم : زبدة الحلب سنة ٥٧٧ هـ . ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٥٥ - ٥٦) .

(استولى على الخزائن والذخائر . وتزوج أم الملك الصالح ، وأقام بقلعة حلب إلى سادس عشر شوال من هذه السنة وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام مع الموصل لأجل صلاح الدين وألح عليه الأمراء فى طلب الزيادات فى إقطاعهم . وفى طلب الأموال وأكثروا أدلالهم عليه بسبب اختيارهم إياه)(١) فرحل عز الدين من حلب إلى الرقة وخلفه فيها ولده مظفر الدين بن زين الدين (ولقيه عماد الدين زنكي بالرقة على قرار بينهما . واستقر الأمر بينهما أن يسلم حلب إلى عماد الدين . ويأخذ عز الدين عنها عوضاً سنجار) ، ولقد تردد عز الدين فى بداية الأمر حول هذا التبادل ولم يقبل التنازل عن حلب لعماد الدين (ولج عماد الدين وقال : إن سلمتم إلى حلب . وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين . فأشار حينئذ جماعة من الأمراء بتسليمها إليه . فوافق عز الدين فسار عماد الدين إلى حلب فتسلمها وسلم سنجار إلى أخيه عز الدين الذى عاد إلى الموصل بعد هذا الاتفاق)(٢) .

وأما السلطان صلاح الدين فى هذه الفترة فقد بلغه خبر ملك عز الدين حلب (فعظم الأمر عليه وخاف أن يسير منها إلى دمشق وغيرها ، ويملك الجميع وأيس من حلب (ولكن صلاح الدين بدأ يتخذ الاستعدادات اللازمة للتحرك إلى بلاد الشام لمواجهة الأوضاع الجديدة .

ومما تقدم نرى أن محاولات بعض القوى الإسلامية إضعاف الجبهة الإسلامية . كان يعنى إتاحة الظروف المناسبة للأعداء بالتفوق على المسلمين . بل تحالف بعض هذه القوى مع الأعداء من أجل المصالح الذاتية دون الأخذ فى الاعتبار المصلحة العامة للإسلام والمسلمين ، ويكفى بذلك سبباً لصلاح الدين أن يعود إلى بلاد الشام مجاهداً ضد مراكز القوى الإسلامية فى الموصل وحلب التى تريد بث الوهن فى الجانب الإسلامى وخصوصاً أن أمراء حلب

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٠٩) . ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٧٤) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٠٩ – ١١٠) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٧٤ – ٤٧٥) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٨ – ٢٩) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٥٥) .

حاولوا الدخول فى مفاوضات مع الصليبيين وراسلوا الباطنية لعمل تحالف ضد صلاح الدين(١) .

وكان السلطان صلاح الدين فى هذه الأثناء كتب رسالة إلى الخليفة الناصر لدين الله يسأل أن يفوض إليه أمر حكم البلاد الشامية حتى يدعم مركزه فى مواجهة الزنكيين وحمل رسالة السلطان الشيخ صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ ومن فصوله (فصل : قد عرف اختصاصنا من الطاعة والعبودية للدار العزيزة النبوية ، بما لم يختص به أحد وامتدت إليه منا فى إقامة الدعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم تمتد إليه يد وأزلنا من الأقاليم الثلاثة أدعياء وخلفناهم للردى حيث دعوا بلسان الغواية خلفاً ، ولا خفاء أن مصر ، إقليم عظيم وبلد كريم ، بقيت مائتين وخمسين سنة مضيمة وعانت كل هضيمة وعاينت كل عظيمة ، حتى أنقذها الله بنا من بنى عبيد ، وأطلقها بمطلقات اعتنتنا إليها من عناء كل قيد . وفيها شيعة القوم ، وهم غير مأمونى الشر إلى اليوم ، وطوائف أقاليم الروم ، والفرنج من البر والبحر بها مطيفة فمن حقها أن يتوافر عسكرها ، فلو حصل والعياذ بالله — بها فتق لأعضل رتقه ، واتسع على الراقع خرقه ، واحتجنا لحفظ بلاد الشام وثغور الإسلام إلى استصحاب العسكر المصرى إليها وله مدة خمس سنين فى بيكارها منتقماً من كفارها متحملاً لمشاقها على غلاء أسعارها ، وإنما أحوج إلى ذلك أن بلاد هذا الثغر قد اقتطعت عنه وعساكرها أخذت منه)(٢) . وأدرك الخليفة حقيقة الموقف وضرورة تدعيم نفوذ صلاح الدين وتقوية سلطانه وأرسل الخليفة رداً على رسالته حملها شيخ الشيوخ صدر الدين أبو القاسم عبد الرحيم ، وشهاب الدين بشير الخاص تتضمن التفويض والتقليد والتشريف وذلك فى شهر رجب سنة ٥٧٦ هـ — يناير ١١٨١ م واستقبلهم السلطان صلاح الدين (وترجل لهم ونزلوا له وبلغوه سلام الخليفة فقبل الأرض ودخل دمشق

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٠) ، ابن الأثير : الكامل — ج ١١ ص (٤٧٤) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٩٤ — ٩٥) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٠) .

بالخلع وأعاد الجواب مع بشير وصحبته ضياء الدين الشهرزورى)(١) .

السلطان صلاح الدين يغزو بلاد الأرمن بسبب اعتدائهم على المسلمين :

فى سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م تقدم صلاح الدين بقواته إلى بلاد الأرمن (لقمع ملكهم ابن لاون) وسبب ذلك أن ملك الأرمن كان قد استمال قوماً من التركمان المسلمين وبذل لهم الأمان وأمرهم أن يرعوا مواشيهم فى بلاده (وهى بلاد حصينة كلها حصون منيعة ، والدخول إليها صعب ، لأنها مضايق وجبال وعرة ، ثم غدر بهم وسبى حريمهم وأخذ أموالهم وأسر رجالهم بعد أن قتل منهم من حان أجله) (٢) ووصل فى نفس الوقت رسل قليج أرسلان ملك قونيه إلى صلاح الدين (يلتمسون من السلطان الموافقة ويستغيث إليه من الأرمن)(٣) .

فسار السلطان بقواته نحو الأرمن لتأديبهم وكف عاديتهم عن المسلمين وأوغل فى بلادهم (وأحرق السلطان قلعة شامخة حصينة تعرف بالمناقير ، وبادر المسلمون إلى إخراج ما فيها من الغلات والآلات ، وتقووا وتمموا هدمها إلى الأساس ، فخضع ابن لاون وذل ودخل تحت طاعة السلطان ، وأطلق ما بيده من الأسارى ، ورجع السلطان مؤيداً مظفراً منصوراً) (٤) .

ويلاحظ هنا أن السلطان صلاح الدين كان مستعداً باستمرار لدفع البلاء عن المسلمين والجهاد ضد أعدائهم وإشعار العدو بين الحين والآخر بقوة المسلمين وإرهاب الأعداء حتى تكون حدود الإسلام مصونةوالبلاد مأمونة وذلك من واجبات الدولة الإسلامية التى لا تهاون فيها .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٩٥) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص(٧٠).

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٦٦) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٩٨ - ٩٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٠ - ٧١) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٥٤) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٩٩) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٦٦ - ٤٦٧) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٥٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٠ - ٧١) .

وكان السلطان صلاح الدين أثناء عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م قد اتخذ عدة إجراءات لتقوية بلاده ومنع العدو من الاستفادة من المسلمين . فى محرم سنة ٥٧٧ هـ مايو ١١٨١ م أمر السلطان بالحوطة على مستغلات العربان بالشرقية وأمروا بالتعدية إلى البحيرة ، ووقعت الحوطة على عرب جذام وثعلبة لكثرة حملهم الغلال إلى بلاد الفرنج(١) .

وكان هذا التصرف من صلاح الدين مشروعاً ، فكيف يتعاون هؤلاء الأعراب مع العدو ويمدونه بالغلال وهم فى حالة حرب مع المسلمين ويحتلون بلاداً واسعة من أرض الإسلام . وفى نفس السنة قدم رسول الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين الثانى إلى القاهرة يطلب الصلح فوافقه السلطان صلاح الدين حتى يتفرغ لجهاد الصليبيين من ناحية ولكى لا يتيح للصليبيين فرصة التحالف مع البيزنطيين ضد المسلمين من ناحية أخرى وترتب على هذا الصلح إطلاق سراح (مائة وثمانين أسيراً من المسلمين) كانوا أسرى عند البيزنطيين(٢) وأمر السلطان بعمل الترتيبات اللازمة فى دمياط للدفاع عن البلاد ضد أى هجوم يقوم به العدو) وكتب إلى دمياط بترتيب المقاتلة على البرجين . وسد مراكب السلسلة وتسييرها ليقاتل عليها ، ويدافع عن الدخول من بين البرجين بها)(٣) .

وفى شهر ربيع الأول من سنة ٥٧٧ هـ / سبتمبر ١١٨١ م هاجم الصليبيون ساحل تنيس بالقرب من بور سعيد وأخذوا مركباً للتجار ، فأمر السلطان بمسير خمسين من المراكب الحربية من دمياط إلى تنيس والسواحل المصرية وحمايتها ، كما اهتم السلطان ببناء برج بالسويس يسع عشرين فارساً ورتب فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد التى يجلب منها الشب إلى بلاد الصليبيين ، كما طلب السلطان من الأجناد البطالين المتقاعدين العودة إلى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧١) .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧١ - ٧٢) .
(٣) المصدر السابق ص (٧٢) .

الخدمة وأنفق فيهم أموالا كثيرة (وجردهم إلى الثغور وأنفق فى رجال الشوانى (الأسطول) وجردهم للغزو)(١) .

وهكذا نلاحظ أن السلطان يستغل كل وقته من أجل الإعداد للجهاد والدخول مع العدو فى معركة فاصلة ويقول المقريزى : (وانتصب السلطان ليلا ونهاراً فى ترتيب أحوال الأجناد)(٢) ، كما اهتم بالأسطول والتحصينات (ورتبت المقاتلة على البرجين بدمياط ، وجهزت خمسمائة دينار لعمارة سورها والنظر فى السلسلة التى بين البرجين وعمل تقدير برسم ما يحتاج إليه سور تنيس وإعادته كما كان فى القديم فجاء ثلاثة آلاف دينار)(٣) ، وكان السلطان يهتم بكل الأطراف سواء كان ذلك فى اليمن أو فى المغرب ، فقد جرد العساكر إلى بلاد اليمن لحفظها (وأنشئت أربع حراريق بصناعة مصر برسم من يحرر بلاد اليمن وجردت أمراء العساكر السائرين إلى اليمن . . . وسيرت مراكب بالزاد والعلوفات والأسلحة إلى اليمن)(٤) ، وكان صلاح الدين يعتقد أن الصليبيين لهم أطماع فى بلاد اليمن وزاد فى صحة اعتقاده محاولات الصليبيين الدخول إلى البحر الأحمر والوصول إلى بلاد الحجاز ، ومحاولاتهم قطع طريق التجارة فى البحر الأحمر ، ولأن الصليبيين كانوا يحاولون إضعاف الاقتصاد الإسلامى فهم يعرقلون التجارة بين مصر والشام وفى البحر المتوسط وفى البحر الأحمر ، كما أنهم فى جمادى الآخرة سنة ٥٧٧ هـ هاجموا صحراء سيناء ووصلوا إلى العريش (وقطعوا أكثر نخل العريش وحملوه إلى بلادهم)(٥) كل ذلك والسلطان يقوم بتحصين البلاد وزيادة عسكره وتدعيم الأسطول ويقول المقريزى : (وفى رجب استقرت عدة الأجناد ثمانية آلاف وستمائة وأربعون وأمراء مائة أحد عشر وطواشية ستة آلاف وتسعمائة وستة وسبعين ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٢ - ٧٣) .

(٢) المصدر السابق ص (٧٣) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٤) .

(٤) المصدر السابق ج ١ ص (٧٤) .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٤) .

وقرا غلامية(١) ألف وخمسمائة وثلاثين وخمسين، المستقر لهم من المال ثلاثة آلاف وستمائة ألف وسبعون ألفاً وخمسمائة دينار . خارج عن — المحلولين(٢)وعن العربان المقطعين بالشرقية والبحيرة والكنانيين(٣)والمصريين والفقهاء والقضاة والصوتية والدواوين ، ولا يقصد ما معهم عن ألف ألف دينار)(٤).

كانت مملكة بيت المقدس الصليبية تعانى من التدهور بسبب سوء حالة ملكها بلدوين الرابع الصحية ، كما أخذ يساوره الشك فى كل من حوله وأعتقد أن بوهيموند الثالث أمير أنطاكية اشترك مع ريموند الثالث أمير طرابلس فى زيارة بيت المقدس سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م بهدف التآمر على عرشه واتهمها بأنهما يسعيان لبرثانه فى حياته ، وكان قد قاما بزيارة لبيت المقدس دون موعد سابق ، فلما علما بسوء ظن بلدوين الرابع بهما أسرعا فى العودة إلى بلديهما .

وكانت إمارة أنطاكية تعانى من الاضطراب بسبب مسلك أميرها بوهيموند الثالث واهتمامه بشهواته وأهوائه فى الدرجة الأولى وتزوج أكثر من واحدة مما أثار عليه رجال الكنيسة المسيحية فأصدروا ضده قرار الحرمان . وقد أدى ذلك إلى ثورة بوهيموند ضد الكنيسة ورجال الدين المسيحى وتطور الأمر إلى انشقاق خطير وحرب أهلية أدت إلى ضعف الصليبيين فى إمارة أنطاكية وأضعف ذلك موقف الصليبيين فى شمال بلاد الشام فى حين كان صلاح الدين يدعم جبهة الإسلام ويزيد فى قوته لينتقم من الصليبيين فى الوقت المناسب(٥) .

---

(١) القراغلامية : هم جماعات الضبطية ، وعملهم مراقبة الطرق أثناء سير الجيوش . المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٥) .

(٢) المحلولين : هنا معناها الذين انحلت عنهم إقطاعاتهم أو رواتبهم فأصبحوا بطالين . انظر : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٠٦ ، ٣٣٨ ، ٤٨٥) ، وكذلك المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص (٢١٧) .

(٣) انظر القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص (٦٧ – ٧٢) لمعرفة قبائل العربان بديار مصر منذ الأيوبيين .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٥) .

(٥) Guillaume de Trye. p. 1062-1078; Richard : le Royanme latin, pp. 65-66. ; Ernoul, pp.59-60 .

فى هذه الآونة ظهر على مسرح الأحداث رينودى شاتيون (رجنالد) الذى عرف عند المؤرخين المسلمين باسم ارناط وأخذ زمام النشاط الصليبى فى مملكة بيت المقدس ينتقل إلى ارناط بدلا من بلدوين الرابع وكان ارناط قد وقع أسيراً فى قبضة المسلمين سنين طويلة بعد أن أسره المسلمون عندما كان أميراً لأنطاكية ولما أطلق سراحه سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م تزوج من وريثة صاحب الأردن مما مكن ارناط من القيام بدور فعال فى الحروب الصليبية وخصوصاً أنه كان رجلا متعصباً ضد الإسلام والمسلمين ، وكانت له السيطرة على حصنى الكرك والشوبك الذين امتلكهما ارناط وكانا يتحكمان فى طريق حجاج المسلمين إلى الحرمين من ناحية ، كما يتحكمان فى الطريق البرى الرئيسى بين شطرى دولة السلطان صلاح الدين فى مصر والشام . وكثيراً ما حاول الاعتداء على المسلمين والحجاج والقوافل التجارية ولم يكن صلاح الدين يقبل السكوت على مثل هذا العمل العدوانى وخصوصاً عندما تناسى ارناط فى صيف سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس الصليبية وخرج ارناط على رأس قواته وأوغل فى صحراء العرب حتى تيماء ، وكانت تيماء عبارة عن واحة لها أهميتها لوقوعها فى منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة ويؤكد أهميتها وصف صلاح الدين الأيوبى لها فى رسالته إلى الخليفة العباسى بأنها (دهليز المدينة(١)) وكانت خطة ارناط أن يزحف بعد ذلك من تيماء إلى المدينة المنورة ذاتها (للاستيلاء على تلك النواحى الشريفة)(٢) فسمع عزالدين فرخشاه ابن أخى صلاح الدين ونائبه فى دمشق وأسرع إلى غزو الأردن ونهب بلاد ارناط وخربها (وعاد إلى طرف بلادهم وأقام بها ليمنع البرنس (ارناط) من بلاد الإسلام فامتنع بسببه من مقصده ، فلما طال مقام كل واحد منهما فى مقابلة الآخر علم البرنس أن المسلمين لا يعودون حتى يفرق جمعه ، ففرقهم وانقطع طمعه من الحركة (وعاد ارناط إلى إمارته بعد أن نهب قافلة إسلامية كبيرة كانت متجهة من دمشق إلى مكة وسلب منها ثروة ضخمة فأثار هذا العدوان

---

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٣) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٧٠) .

غضب المسلمين وصلاح الدين وخصوصاً أن ارناط كان يريد الهجوم على المدينة المنورة وبلاد الحجاز ، ولهذا أرسل صلاح الدين إلى ملك القدس يلومه على ما حدث ويذكره بالهدنة المعقودة بين الطرفين ويطلب منه أن يرغم ارناط برد ما أخذه من المسلمين من أموال وبضائع ، فأرسل بلدوين الرابع إلى ارناط يلومه على فعلته ويطلب منه إرجاع كل ما سلبه من أموال المسلمين وفك أسرهم ، ولكن ارناط هزأ من بلدوين الرابع ملك القدس المريض ورفض الاستجابة لمطالبه وأعلن أنه لن يرد شيئاً من أسرى المسلمين وأموالهم(١) .

ولما عجز بلدوين الرابع ملك مملكة بيت المقدس على إرغام ارناط للانصياع لأوامره ورفض طلبه برد الأسرى والأموال الإسلامية إلى صلاح الدين شرع السلطان في المسير إلى بلاد الشام في الخامس من المحرم — سنة ٥٧٨ هـ / مايو ١١٨٢ م (وجعل طريقه على أيله . وكان قبل سفره قد غدر الفرنج ، ونقضوا عهدهم واستولوا على تجار فى البحر وغيرهم ، فقدر الله سبحانه بطسة للمسلمين عظيمة من المراكب مقلعة للفرنج من بلد لهم يقال له : بوليه ، يحتوى على ألفين وخمسمائة من رجال القوم وأبطالهم وأتباعهم على قصد زيارة القدس ، فألقتهم الريح على ثغر دمياط فغرق شطرهم وأسر الباقون وكان عدة من أسر ألفاً وستمائة وتسعين نفساً) (٢) وعندئذ وجد صلاح الدين الفرصة مواتية للانتقام من العدو وأعلن أنه لن يطلق سراح أولئك الأسرى من الصليبيين إلا إذا أطلق ارناط من عنده من أسرى المسلمين ، ولكن ارناط الصليبى المتعصب رفض هذا العرض ولم يقبل التخلى عن أسرى الحجاز فاضطر صلاح الدين إلى الإبقاء على الأسرى الصليبيين فى الاعتقال .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٧٠) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٠١ — ١٠٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٥) ، ثم انظر :

Schlumberger : Renauld de Chatillon,pp 148–149; Grousset, II p.700 ; Runciman; II p. 431, Michaud : II, pp, 254–256; setben: History of the crusades,vol, I. p, 581; Ernoul : pp 52–56, Cambrtdge Medieyal History, vol 5 p 309 .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٣ — ١١٤) .

وتابع صلاح الدين تحركه من مصر إلى بلاد الشام وتبعه من التجار وأهل البلاد ومن كان قصد مصر من الشام بسبب الغلاء بالشام وغيره ، وكانت تلك السفرة المرة الأخيرة التى يغادر فيها السلطان بلاد مصر إذ قدر له أن ينشغل طوال حياته فى بلاد الشام بجهاد الصليبيين ولم يدخل مصر ثانياً ، وأثناء الطريق إلى الشام علم بأن الصليبيين (قد جمعوا له ليحاربوه ويصدوه عن المسير ، فلما قارب بلادهم سير الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملك بورى إلى دمشق وبقى هو فى العساكر المقاتلة لا غير ، فشن الغارات بأطراف بلادهم وأكثر ذلك ببلد الكرك والشوبك ، فلم يخرج إليه منهم أحد ولا أقدم على الدنو منه ، ثم سار فأتى دمشق ، فوصلها حادى عشر صفر من السنة (٥٧٨ هـ)(١) وبذلك فشلت محاولات الصليبيين فى قطع الطريق على صلاح الدين ومنع وصوله إلى بلاد الشام والاعتداء عليه وعلى من معه من القوافل والعساكر ووصل إلى الشام سالماً بعد أن دمر مزارع القمح التابعة للصليبيين)(٢) .

وكان فرخ شاه ابن أخى صلاح الدين ونائبه فى دمشق قد استغل فرصة حشوذ الصليبيين فى الأردن وهاجم طبرية وعكا ، واستولى على حصن الشقيف أرنون (وعاد بألف أسير وعشرين ألف رأس غنم وأنزل فيه طائفة من المسلمين)(٣) ، ولم يكتف فرخشاه بذلك بل تابع هجماته ضد الصليبيين فى الضفة الشرقية للأردن شرقى بحيرة طبرية وأغار على السواد واستولى على حصن حبيس جلدك الصليبى بعد أن حاصره خمسة أيام رغم حصانته (وأسكنه المسلمين وبقى عيناً على الفرنج بعد ما كان لهم)(٤) وكانت تلك

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٧٨ - ٤٧٩) ، ثم انظر أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٣٨) ؛ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٧ - ٧٨) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٨ - ٢٩) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٥) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٤ - ١١٥) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٧٩) .

العمليات الحربية تهدف للانتقام من الصليبيين من ناحية ولإرهابهم من ناحية أخرى .

وعندما علم بلدوين الرابع وقادته بوصول صلاح الدين إلى الشام رأوا أن إقليم الجليل مكشوفاً أمام المسلمين فاتجه الجيش الصليبي إلى صفورية فى إقليم الجليل حيث أخذ يترقب ما قد يقوم به صلاح الدين من أعمال انتقامية . ولم يكن السلطان يهاب الجهاد ولم يطل الإقامة فى دمشق بل خرج بقواته فى ١١ / يولية / ١١٨٢ م ربيع الأول سنة ٥٧٨ هـ (فقصد طبرية فنزل بالقرب منها،وخيم فى الاقحوانة من الأردن وجاءت الفرنج بجموعها فنزلت طبرية فسير صلاح الدين فرخشاه ابن أخيه إلى بيسان ، فدخلها قهراً وغنم ما فيها وقتل وسبى . وعم الغور غارة شعواء ، فعم أهله قتلا وأسراً ، وجاءت العرب فأغارت على جينين والجون وتلك الولاية حتى قاربوا مرج عكا)(١) .

وأتى صلاح الدين بقواته وانضم إلى قوات فرخشاه وشرع الاثنان فى مهاجمة حصن كوكب الذى يشرف على إقليم الغور والطريق المؤدى إلى الناصرة(٢) ولكن القوات الصليبية أسرعت لمواجهته عند كفر بلا ودارت معركة بين الطرفين (استشهد فيها جماعة من المسلمين وكان النصر لأهل الإسلام)(٣) وأدرك السلطان صلاح الدين عدم جدوى المعارك الجانبية ورغب فى توفير جهوده لمعركة فاصلة ضد الصليبيين ويقول ابن الأثير : (فلما رأى صلاح الدين قد اثخن فيهم وفى بلادهم عاد عنهم إلى دمشق)(٤) .

محاولة صلاح الدين الاستيلاء على بيروت سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م :

ولقد فكر صلاح الدين فى إضعاف الصليبيين وراودته فكرة فصل

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨١) .
(٢) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص (٧٧٣ - ٧٧٤) .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٥) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨١) .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨١) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٨ - ٢٩) .

إمارتى طرابلس وأنطاكية عن مملكة بيت المقدس و ذلك عن طريق الاستيلاء على بيروت ، واتخذ الاستعدادات لهذا المشروع ، فقد جمع قواته فى سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م جنوبى إقليم البقاع لمهاجمة بيروت ، وفى نفس الوقت أرسل إلى أخيه الملك العادل فى مصر يطلب إرسال أسطول حربى فأرسل الملك العادل أسطولا من دمياط والإسكندرية من ثلاثين سفينة حربية لمهاجمة بيروت من ناحية البحر ، ولم يكتف العادل بذلك بل أرسل بعض قواته من مصر لمهاجمة الداروم وغزة وعسقلان حتى يشغل مملكة بيت المقدس عن مساعدة بيروت ويهدد قوة الصليبيين ، وأشاع السلطان صلاح الدين قبل هذه العملية أنه يريد الحركة إلى جهة حلب والموصل وذلك بهدف تضليل العدو ، وفى أول أغسطس سنة ١١٨٢م وصل الأسطول المصرى إلى مياه بيروت فى نفس الوقت الذى هاجم فيه صلاح الدين المدينة من ناحية البر بقواته الكثيرة وحوصرت المدينة براً وبحراً (وحصرها عدة أيام وكان عازماً على ملازمتها إلى أن يفتحها) ولكن بلدوين الرابع ملك القدس أسرع وأمر بتشكيل أسطول صليبي فى عكا وصيدا لتخليص بيروت من الحصار البحرى ، وتخفيض الضغط على من بها فى حين تابع صلاح الدين هجماته على بيروت مرة بعد أخرى ولكن بيروت بسبب الإمدادات الصليبية أظهرت عناداً شديداً (فرأى أن أمر بيروت يطول) ، فقرر صلاح الدين ترك حصارها والعودة إلى دمشق وأمر الأسطول بالعودة إلى مصر فعاد بعد أن (كان قد سبى منها وسلب وظفر من غنيمتها بما طلب)(١) .

قتال صلاح الدين ضد حلب والموصل من أجل الجهاد ضد الصليبيين :

وكان سبب توقف صلاح الدين عن قتال الصليبيين مؤقتاً وانصرافه إلى قتال الزنكيين فى حلب والموصل وتوابعهما أن السلطان بلغه (أن المواصلة كاتبوا الفرنج ورغبوهم فى قصد الثغور الإسلامية ليشغلوا السلطان عن

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨٢) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٥ — ١١٦) ، ثم انظر :
Guillaume de Tyr pp. 1099-1101 .

قصدهم (أضف إلى ذلك أن انقسام الزنكيين وعدم اتحادهم واختلاف الأخوين عز الدين مسعود الأول صاحب الموصل سنة (١١٧٦ - ١١٩٣ م) وعماد الدين زنكى الثانى صاحب حلب سنة (١١٨٢ - ١١٨٣ م) كل ذلك شجع صلاح الدين على قتالهم لأن وجودهم بهذه الكيفية فيه وهن للإسلام وللمسلمين ، ولهذا خرج السلطان صلاح الدين بقواته من دمشق يريد حلب (فنزل عليها يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى ونازلها ثلاثة أيام) (١) ولكن صلاح الدين رأى تغيير خطته ورأى أن يبدأ بالموصل ، فسار بقواته إلى إقليم الجزيرة ولما نزل السلطان على البيرة كاتب ملوك الأطراف : (من جاء مستسلماً سلمت بلاده ، على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة) ، فجاء رسول نور الدين بن قرا أرسلان ابن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا بالإذعان(٢) وبعد أن عبر السلطان صلاح الدين الفرات (على الجسر الذى عند البيرة) عاد عز الدين صاحب الموصل وأرسل إلى الرها عسكراً يحميها ويمنعها ، وكان عز الدين صاحب الموصل ومجاهد الدين لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام قد جمعا العسكر وسارا إلى نصيبين ليكونا على أهبة واجتماع لئلا يتعرض صلاح الدين إلى حلب ، ثم تقدما إلى دارا فنزلا عندها حتى بلغهما عبور صلاح الدين نهر الفرات فعادا إلى الموصل . كما ذكرنا ، فلما سمع صلاح الدين ذلك قوى طمعه فى البلاد وسار إلى مدينة الرها فحصرها فى جمادى الأولى سنة ٥٧٨ هـ) وقاتلها أشد قتال فحدثنى بعض من كان بها من الجند أنه عد فى غلاف رمح أربعة عشر خرقاً وقد خرقته السهام)(٣) ووالى صلاح الدين الزحف والقتال حتى اضطر صاحبها الأمير فخر الدين مسعود بن الزعفرانى إلى التسليم وطلب الأمان . وسلم البلد وصار فى خدمة صلاح الدين . ثم استسلمت القلعة وزحف بعدها إلى الرقة فملكها صلاح الدين وسار إلى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٥ - ١١٦) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٦ - ١١٧) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨٣) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨٣) .

الخابور وتسلمها وأخذ مشهد الرمان وعربان ورأس عين ودورين وماكسين والشمسانية والغدين والمجدل والحصين ، ثم عبر نهر الخابور على قنطرة (ونازل نصيبين فامتنعت القلعة عليه أياماً ثم استسلم من فيها ، فملكها ، وولاها حسام الدين أبا لهيجاء السمين وأقام الحكام فى تلك البلاد)(١) ، وأقام السلطان صلاح الدين فى نصيبين ليصلح أمورها وأتاه الخبر أن الصليبيين قصدوا دمشق ونهبوا القرى ووصلوا إلى داريا وأرادوا تخريب جامعها (فأرسل النائب بدمشق إليهم جماعة من النصارى يقول لهم : إذا خربتم الجامع جددنا عمارته وخربنا كل بيعة لكم فى بلادنا ولا نمكن أحداً من عمارتها) فتركوه وعادوا ولما وصل الخبر بهذا إلى السلطان أشار عليه بعض أصحابه بضرورة العودة إلى دمشق لدفع الصليبيين عنها فقال السلطان : (يخربون قرى ونملك عوضها بلاداً ، ثم نعود فنعمرها ونقوى على قصد بلادهم) وقرر الهجوم على الموصل(٢) .

وكان السلطان صلاح الدين لا يبرم أمراً ولا يقرر حرباً إلا بعد عرض مشروعه على أهل الرأى والمشورة ، فلما أخذ نصيبين (جمع الأمراء الأكابر واستشارهم : أى البلاد يبدأ بها بالموصل أم بسنجار أم بالجزيرة ؟ فاختلفت آراؤهم فقال مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين : لا ينبغى أن يبدأ بغير الموصل لأنها فى أيدينا لا مانع لها ، فإن عز الدين ومجاهد الدين حتى سمعا مسيرنا إليها تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية (ووافقه ناصر الدين محمد ابن عمه شيركوه . وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيراً ليقطعه الموصل إذا ملكها ، وقد أجابه صلاح الدين إلى ذلك)(٣) ، فسار صلاح الدين بقواته إلى الموصل . وكان صاحبها عز الدين ومجاهد الدين قد جمعا

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٧ - ١١٨) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨٣ - ٤٨٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٨) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨٤) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٨) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨٤ - ٤٨٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٨ - ١١٩) .

بالموصل (العساكر الكثيرة ما بين فارس وراجل. وأظهر من السلاح وآلات الحصار ما حارت له الأبصار)(١) وشحنوا ما بقى بأيديهم من البلاد. كالجزيرة وسنجار واربل وغيرها بالرجال والسلاح والأموال. وتابع صلاح الدين السير حتى قارب الموصل وترك عسكره وانفرد هو ومظفر الدين وابن عمه ناصر الدين بن شيركوه ومعهما نفر من أعيان دولته، وتقدموا نحو البلد (فلما قربوا رآه وحققه فرأى ما ها له وملأ صدره وصدور أصحابه فإنه رأى بلداً عظيماً كبيراً ورأى السور والفصيل قد ملئا من الرجال وليس فيه شرافة إلا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المتفرجين، فلما رأى ذلك علم أنه لا يقدر على أخذه وأنه يعود خائباً)(٢).

وقال لمن معه من الأمراء: (لو قصدت غيره قبله كان أسهل أخذاً بالاسم والهيبة التي حصلت لنا فى قلوب الناس ومتى نازلنا وعدنا ولم نأخذه ينكسر ناموسنا ويفل حدنا وشوكتنا)(٣)، ثم عاد صلاح الدين إلى معسكره وبات تلك الليلة وفى الصباح تحرك بالعساكر إلى الموصل وأحاطها بالعساكر من كل جانب (وعين لكل مقدم مقاماً ونزل هو وراء البلد) وكان بدء الحصار يوم الخميس حادى عشر شهر رجب سنة ٥٧٨ هـ/ ديسمبر ١١٨٢ م وأيقن صلاح الدين صعوبة الأمر وعدم القدرة على اقتحام المدينة ومن ثم لجأ إلى طريق الحيلة (وترددت الرسل إلى عز الدين ومجاهد الدين فى الصلح فطلب عز الدين إعادة البلاد التى أخذت منهم فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط أن تسلم إليه حلب، فامتنع عز الدين ومجاهد الدين، ثم نزل عن ذلك وأجاب إلى تسليم البلاد بشرط أن يتركوا إنجاد صاحب حلب عليه فلم يجيبوه إلى ذلك أيضاً، وقال عز الدين: هو أخى وله العهود والمواثيق ولا يسعنى

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٩).

(٢) ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص (٤٨٧)، ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٩).

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص (١٢٠)، ابن الأثير: الكامل ج ١١ ص (٤٨٥).

نكثها) . ووصلت أيضاً رسل قزل أرسلان صاحب أذربيجان ورسل شاه أرمن صاحب خلاط للتوسط من أجل الصلح (فلم ينتظم أمر ولا تم صلح ، فلما رأى صلاح الدين أنه لا ينال من الموصل غرضاً ، ولا يحصل على غير العناد والتعب وأن من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصدونه من عساكره وأصحابه ، سار من الموصل إليها)(١) . وكان عز الدين صاحب الموصل عندما علم بزحف صلاح الدين إلى بلاده سير القاضي بهاء الدين بن شداد رسولا إلى الخليفة العباسي من أجل النجدة على صلاح الدين ويقول ابن شداد : (فسرت مسرعاً إلى دجلة وأتيت بغداد فى يومين وساعتين فى اليوم الثالث مستنجداً بهم ، فلم يحصل منهم سوى الإنفاذ إلى صدر الدين شيخ الشيوخ — وكان فى صحبة السلطان صلاح الدين — يأمرونه بالحديث معه فى الصلح) فسار إلى صلاح الدين قبل نزوله على الموصل ومعه بشير الخادم وهو من خواص الخليفة الناصر لدين الله ، وكان الشيخ صدر الدين وبشير الخادم يقومان بمفاوضات الصلح بين الطرفين ولكن دون جدوى وانقضى هذا الاتصال بدون اتفاق ورأى صلاح الدين ترك الموصل والتحول إلى سنجار ، بعد أن تأكد (أنه بلد عظيم لا يتحصل منه شيء بالمحاصرة على هذا الوجه ورأى أن طريق أخذه يكون بأخذ قلاعه وما حولها من البلاد ، وإضعافه بطول الزمن)(٢) .

الاستيلاء على سنجار :

سار صلاح الدين من الموصل إلى سنجار ، فأرسل إليها مجاهد الدين (عسكراً قوة لها ونجدة) فسمع بهم صلاح الدين قبل أن يدخلوها فمنعهم من الوصول إليها وأوقع بهم وأخذ سلاحهم ودوابهم وسار إليها ونازلها

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨٦ — ٤٨٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٩ — ١٢٣) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨٦ — ٤٨٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٨) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٨ — ٢٩) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٢ — ٢٣) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٥٧) .

(وكان فيها شرف الدين بن قطب الدين وجماعة ، واشتد عليه الأمر حتى كان ثانى شهر رمضان فأخذها عنوة)(١) ولم يكن صلاح الدين يرغب فى قتل المسلمين فأحسن إلى أهل سنجار ومتوليها ويقول ابن شداد : (وخرج شرف الدين وجماعة محترمين محفوظين إلى الموصل)(٢) وذكر ابن الأثير أن جماعة من الأكراد الذين كانوا بسنجار كاتبوا السلطان صلاح الدين وأشاروا عليه بقصد بعض النواحى (فقصدها فسلموا تلك الناحية إليه ، فملك الباشورة فضعف إذ ذاك قلب صاحبها ، فسلمها بالأمان)(٣) . وكان من آثار استيلاء صلاح الدين على سنجار أن استقر جميع ما ملكه صلاح الدين فى المنطقة ولم يكن فى استطاعته الاحتفاظ بالحصون ، لأن المواصلة يستردونها إذا فارقها (فلما ملك سنجار صارت على الجميع كالسور) وبعد أن رتب أمور سنجار ولاها الأمير سعد الدين مسعود بن معين الدين أنر (وكان من أكابر الأمراء وأحسنهم صورة ومعنى)(٤) .

الراعى مسئول عن رعيته :

بعد أن أقر السلطان أحوال سنجار سار إلى نصيبين (فلقيه أهلها شاكين من أبى الهيجاء السمين باكين من ظلمه ، متأسفين على ظلمه ، وعزله عنهم وأخذه معه وسار إلى حران)(٥) ولم يكن صلاح الدين يسمح بظلم الناس ، لأن الظلم يؤدى إلى فساد البلاد والعباد .

تحالف بعض أمراء المسلمين مع الصليبيين ضد صلاح الدين :

إن موقف الزنكيين فى الموصل وحلب ضد صلاح الدين شكل عقبة

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٥٧) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٢٣) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٨) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٩) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٥٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٢٣) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨٧ - ٤٨٨) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨٧) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٢٤) .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٨٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٢٤) .

خطيرة فى وجه حركة الجهاد التى بدأها صلاح الدين ضد الصليبيين . فهم لم ينازعوه السلطة فى بلاد الشام فقط وإنما أعماهم حب السلطة والرغبة فى السيطرة على بلاد الشام أن يطلبوا من الصليبيين أعداء الإسلام أن يتحالفوا معهم ضد صلاح الدين ، ولقد أشار السلطان فى رسالته سنة ٥٧٨ هـ - ١١٨٢ م إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله بالاتصالات بين أتابك الموصل والصليبيين من أجل عقد تحالف بينهما ضد السلطان صلاح الدين وأن أهل الموصل كاتبوا الصليبيين ورغبوهم فى الخروج إلى الثغور ليشغلوا السلطان عن قصدهم ، وأن رسل الموصل ساروا إلى الصليبيين يحثونهم على قتال صلاح الدين لدرجة أن (المواصلة قد واصلوا الفرنج مواصلة أخلصوا فيها الضمائر ولم يستطيعوا فيها كتمان السرائر)(١) وكان الزنكيون أرسلوا سفارة من الموصل إلى بيت المقدس للاتفاق مع ملكها ضد صلاح الدين وعرضوا على ملك بيت المقدس أن يدفعوا جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار للصليبيين وتسليم بانياس وحصن حبيس جلدك للصليبيين هذا بالإضافة إلى تعهد المواصلة بإطلاق سراح جميع الأسرى الصليبيين الذين هم فى أسر المسلمين فى مقابل أن يقوم الصليبيون بطرد صلاح الدين من دمشق ، ولا شك أن هذه الشروط فيها مصلحة للصليبيين وخصوصاً إبعاد صلاح الدين من دمشق . واستغل الصليبيون فرصة وفاة فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق وجمع بلدوين الرابع ملك بيت المقدس جيوشه وسار معه البطرق وصليب الصلبوت وأغار على الجهات الواقعة جنوبى دمشق وهاجموا منطقة بصرى فى إقليم حوران وذلك فى سبتمبر سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م . ولقد كانت تلك الغارات الصليبية تتصف بالعنف والوحشية فدمروا كل ما صادفوه من زرع ، وضرع)(٢) واضطر صلاح الدين إلى العودة إلى الشام وترك حصار الموصل وذلك فى مايو سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٣ م ليكون على مقربة من العدو الصليبى :

---

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٣١) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٣١ - ٣٢) ؛ المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٩) ، ابن واصل مفرج الكروب ج ٢ ص (١١٨) ، ثم انظر :
Guillarume de Tyr pp. 1102-1103; Runciman, II p. 434

حصار صلاح الدين لمدينة حلب :

بعد أن فشلت محاولة صلاح الدين فى أخذ مدينة الموصل كما ذكرنا فكر فى الاستيلاء على حلب وهى المركز القوى الثانى للزنكيين ويحكمها عماد الدين زنكى الثانى . ونزل عليها السلطان صلاح الدين بكرة يوم السبت ٢٦ / ١ / ٥٧٩ هـ / ٢١ / ٥ / ١١٨٣ م واستدعى صلاح الدين العساكر من (الأطراف فاجتمع إليه خلق كثير) وكان مع عماد الدين أتابك حلب عسكر كثير (وهم مجتهدون فى القتال مجدون فيه) ولكن كثرة عساكره وما تحتاجه من نفقات أدت إلى قلة ماله . وحضر عنده بعض الأجناد وطلبوا منه شيئاً فاعتذر بقلة المال عنده فقيل له :

(من يريد يحفظ مثل حلب يخرج الأموال ولو باع نساءه) ولم يكن الأتابك عماد الدين الثانى ذكياً لدرجة تمكنه من الصمود أمام صلاح الدين وضعف عن المقاومة ومال إلى تسليم حلب ولم يقبل الاستنجاد بأخيه عز الدين صاحب الموصل أو بالصليبيين وآثر الدخول فى مفاوضات مع صلاح الدين فأرسل الأمير حسام الدين طمان الياروقى سراً إلى السلطان من أجل تسليم حلب : ويرد صلاح الدين على عماد الدين سنجار بلده ، فأجابه السلطان إلى ذلك وزاده الخابور ونصيبين والرقة وسروج ، واشترط عليه إرسال العساكر فى خدمته إلى الغزاة)(١) . ولم يكن أهل حلب يعلمون بهذا الاتفاق السرى . فلما علموا به أذن عماد الدين الثانى لهم فى تدبير أنفسهم (فانفذوا عنهم وعن الرعية عز الدين جورديك وزين الدين بلك فبقوا عنده إلى الليل واستحلفوه للعسكر وأهل البلد فحلف لهم ولعماد الدين وذلك فى السابع عشر صفر من السنة (وخرجت عساكر حلب إلى السلطان صلاح الدين واجتمعوا به وخرج إليه بعض الأمراء من حلب فخلع عليهم وطيب قلوبهم . ولكن أهل حلب انتقدوا عماد الدين على بيع حلب بسنجار وهو أبخس الأثمان مع قدرته على حفظ حلب والامتناع بها ، حتى أن بعض عامة حلب صخر

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٤١ – ١٤٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ق (٨١) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٥٩) ، ثم انظر :
Grousset, II. p. 720 .

من عماد الدين وناداه: (أنت لاتصلح للملك بل تصلح أن تغسل الثياب) وسمعوه المكروه (وكان بعض العامة إذا رأوا عماد الدين الثانى صاحوا وقالوا : يا حمار ، يا من باع حلب بسنجار) وذلك تعنيفاً له على خضوعه للسلطان صلاح الدين بدون قتال ومع ذلك بقى بقلعة حلب يقضي أشغاله وينقل أقمشته وخزائنه إلى يوم الخميس ثالث عشر صفر سنة ٥٧٩ هـ ، ثم تركها إلى سنجار فى حين كان دخول السلطان لمدينة حلب فى ١٢ / ٦ / ١١٨٣ / صفر سنة ٥٧٩ هـ(١) وكان ضم حلب إلى السلطان صلاح الدين يعنى ضعف مركز الزنكيين من ناحية وقوة جبهة صلاح الدين من ناحية أخرى ، وكانت قلعة حارم تابعة لحلب وقد امتنع صاحبها من التسليم فى بداية الأمر فقال له السلطان : (اطلب من الاقطاع ما أردت ووعده الإحسان فاشتط فى الطلب وترددت الرسائل بينهما ولم يكتف بهذا صاحب حارم بل رغب فى محالفة الصليبيين من أجل عرشه (وراسل الفرنج ليحتمى بهم ، فسمع من بها من الأجناد أنه راسل الإفرنج فخافوا أن يسلمها إليهم فوثبوا عليه وقبضوه وحبسوه وأرسلوا إلى السلطان يطلبون منه الأمان والإنعام فأجابهم إلى ما طلبوا وحلف لهم)(٢) وسار صلاح الدين من حلب إلى حارم ودخلها فى يوم ٢٩ / ٢ / ٥٧٩ هـ / ٢٤ / ٧ / ١١٨٣ م . وقرر قواعدها وأطلق صاحبها الذى حبسه جنوده لمحاولته الاستعانة بالصليبيين (ووفى للأجناد الذين كانوا بها بما وعدهم وزادهم) ، ثم عاد إلى حلب وكان من نتيجة استيلاء صلاح الدين على حلب وحارم أن ارتبك الصليبيون (وخاف أهل أنطاكية من السلطان فأرسل صاحبها جماعة من أسرى المسلمين وانقاد وسارع إلى العياذ بعفو السلطان وأمانه فقبله السلطان)(٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٤٢) ، ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص (٥٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٨١) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٩)

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٤٦) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٩٨ - ٤٩٩) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٥٩) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٤٧) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٤٢ - ٤٣) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٩٩) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٦٠) .

وكان إن ذهب بوهيموند أمير أنطاكية وصحبته ريموند الثالث أمير طرابلس إلى بيت المقدس لدراسة ما يمكن أن يفعلوه فى الموقف الناجم عن دخول حلب وحارم فى دولة صلاح الدين والتى أصبحت تمتد من جبال طوروس شمالا حتى النوبة جنوباً لدرجة أرهبت الصليبيين ، وكما يقول المؤرخ أبو شامة : (رجفت أنطاكية بعد ذلك رعباً) مما دفع أميرها إلى استرضاء صلاح الدين فى حين أن اجتماع أميرى أنطاكية وطرابلس مع بلدوين الرابع ملك مملكة بيت المقدس لم يأت بنتائج عملية فعقد أمير أنطاكية هدنة مع صلاح الدين لتجنب الحرب معه مدة من الزمن حتى تتمكن إمارة أنطاكية من إحكام إجراءاتها الدفاعية وحتى تتطور الأمور فى مصلحة الصليبيين(١) .

غارة صلاح الدين على الصليبيين فى بيسان سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م :

لما فرغ صلاح الدين من مسألة حلب جعل فيها ولده الملك الظاهر غازى ويعاونه الأمير سيف الدين يازكج ، وسار السلطان صلاح الدين إلى دمشق واستعد للغزو (ومعه عساكر الشام والجزيرة وديار بكر) وعبر نهر الأردن إلى بلاد الصليبيين (فرأى أهل تلك النواحى قد فارقوها خوفاً فقصد بيسان فأحرقها وخربها) ولم يقف الصليبيون مكتوفى الأيدى بل اجتمعوا وجاءوا فى مواجهة صلاح الدين (فحين رأوا كثرة عساكره لم يقدموا عليه وقد أسندوا إلى جبل هناك وخندقوا عليهم فأحاط بهم وعساكر الإسلام ترميهم بالسهام وتناوشهم القتال) . وكان هدف المسلمين أن يخرج الصليبيون من معسكرهم لقتال المسلمين فلم يفعلوا وأقاموا كذلك خمسة أيام ورفع المسلمون الحصار عنهم ليستدرجوهم (فلما رأى الفرنج ذلك لم يطمعوا أنفسهم فى غير السلامة) وكان عددهم يزيد على ألف وخمسمائة من حملة الرماح وخمسة عشر ألف راجل(٢) وعلى الرغم من كثرة عددهم قرروا العودة إلى بلادهم دون الدخول فى معركة مع صلاح الدين الذى آثر العودة إلى دمشق بعد أن نال

---

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٤٢ – ٤٧) .

Gaillume de Tyr p. 1114, Stevenson, p. 230

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٤٩ – ١٥٠) .

منهم قتلا وأسراً(١) ويقول ابن شداد معلقاً على تلك الغزوة بقوله : (فانظر إلى هذه الهمة التى لم يشغلها عن الغزاة أخذ حلب ولا الظفر بها ، بل كان غرضه الاستعانة بالبلاد على الجهاد)(٢) .

هجوم الصليبيين على الحجاز سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م :

كان حصن الكرك من المواقع الصليبية الهامة (وكان على المسلمين منه ضرر عظيم ، فإنه كان يقطع عن قصد مصر بحيث كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجمة الغفيرة فاهتم السلطان بأمره ليكون الطريق سابلة إلى مصر)(٣) وكان يحكم هذا الحصن ارناط (ريجنالد) شديد التعصب ضد المسلمين ، ولم يحسن تقدير الظروف من ناحية واستهان بالمسلمين ومشاعرهم وفكر ودبر فى أن يهاجم بلاد الحجاز والبحر الأحمر ، ولكن كان يوجد حصن أيلة — وهى فى وسط البحر لا سبيل للفرنج بها وقد ألحق المسلمون فى هذا الحصن بالصليبيين خسائر كثيرة فى كثير من الأحيان ، ومن ثم فكر ارناط فى فتح هذا الحصن أولا حتى يؤمن الطريق إلى البحر الأحمر وبلاد الحجاز ولهذا شرع فى بناء أسطول فى الكرك (ولم يبق إلا جمع قطعة بعضها إلى بعض ، وحملها إلى بحر أيلة وجمعها فى أسرع وقت) ، ثم شحن هذا الأسطول بالرجال وآلات القتال ووضعوا خطة بحيث افترق الصليبيون فرقتين : (فرقة أقامت على حصن أيلة وهو للمسلمين يحصرونه ويمنع أهله من ورود الماء فنال أهله : شدة شديدة وضيق عظيم ، وأما الفرقة الثانية فإنهم ساروا نحو عيذاب فى صعيد مصر على ساحل البحر الأحمر . وقال ابن الأثير : وأفسدوا فى السواحل ، ونهبوا وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار . وبغتوا الناس فى بلادهم على حين غفلة منهم فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً لا تاجراً ولا محارباً) (٤)

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٤٨ — ١٥١) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٠١ — ٥٠٢) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٦١ — ٦٣) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٨١) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٦٣) .

(٣) ابن شداد : المصدر السابق ص (٦٦) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٩٠) .

وقال ابن واصل : (فقطعوا طريق التجارة وشرعوا فى القتل والأسر والنهب) ولم يكتف الصليبيون بذلك وطمعوا فى البلاد (ثم توجهوا إلى أرض الحجاز ، فعظم البلاء وأعضل الداء وأشرف أهل المدينة النبوية منهم على خطر عظيم)(١) ويقول ابن الأثير (إن خطة الصليبيين كانت أكبر من ذلك ، وكانوا عازمين على الدخول إلى الحجاز مكة والمدينة ، حرسهما الله تعالى ، وأخذ الحجاج ومنعهم عن البيت الحرام ، والدخول بعد ذلك إلى اليمن)(٢) وقال المقريزى : (فقتلوا وأسروا وأحرقوا فى بحر القلزم نحو ست عشرة مركباً وأخذوا بعيذاب مركباً يأتى بالحجاج من جدة ، وأخذوا فى الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب وقتلوا الجميع ، وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن ، وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لميرة الحرمين ، وأحدثوا حوادث لم يسمع فى الإسلام بمثلها ولا وصل قبلهم رومى إلى ذلك الموضع فإنه لم يبق بينهم وبين المدينة النبوية سوى مسيرة يوم واحد)(٣) وكان الصليبيون قد استعانوا ببعض الخونة من البدو الذين أرشدوهم إلى الطرق المؤدية إلى داخل البلاد الحجازية(٤) .

ووصل الخبر إلى مصر وبها نائب السلطان صلاح الدين وهو أخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب فأمر على الفور بإعداد أسطول قوى فى خليج السويس ليقوم بالجهاد ضد هذه الحملة الصليبية ويقول ابن الأثير : (فعمر أسطولا وسيره وفيه جمع كثير من المسلمين ، ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ ، وهو متولى الأسطول بديار مصر ، وكان مظفر فيه شجاعاً وكريماً) فتقدم حسام الدين لؤلؤ بالأسطول وابتدأ بالهجوم على الصليبيين فى أيلة (فانقض عليهم انقضاض العقاب على صيدها) فقاتلهم وظفر بالمركب الفرنجى عند أيلة فأحرقه وأسر من فيه وسار من وقته بعد هذا الظفر (يقص إثر الذين قصدوا عيذاب وبحث عنهم حتى عرف طريقهم فوقع عليهم بعد أيام وقاتلهم) وأطلق المأسورين من التجار ورد عليهم ما أخذ منهم (ثم

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٢٧) .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٩٠) .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٩) .
(٤) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٢٧) .

سار يقتفى آثار الباقين من ناحية رابغ) فأدركهم بساحل الجوزاء، فأوقع بهم هناك ، فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خرجوا إلى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب فنزل لؤلؤ من مراكبه إليهم وقاتلهم أشد قتال وأخذ خيلا من الأعراب الذين هناك فركبها وقاتلهم فرساناً ورجالة فظفر بهم قتل أكثرهم وأخذ الباقين أسرى(١) .

وأما الأسرى فقد أرسل اثنين منهم إلى منى بأرض الحجاز وقتلا أمام المسلمين (عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم وعاد الباقين إلى مصر فقتلوا جميعهم)(٢) وذلك حتى يكونوا عبرة لمن يفكر فى الاعتداء على بلاد الإسلام عامة وبلاد الحرمين خاصة . والمدقق فى محاولة الصليبيين الاعتداء على بلاد الحجاز للكيد للإسلام ، والمسلمين يرى أن أهداف الحروب الصليبية كانت فى الدرجة الأولى حرب المسلمين وطعنهم فى مقدساتهم وإلا بماذا يفسر حادث الاعتداء الصليبى مع العلم أن بلاد الحجاز فى ذلك الوقت لم تشكل خطراً عسكرياً على الوجود الصليبى فى بلاد الشام من ناحية ولم يكن مورداً بشرياً يزود الجيوش الإسلامية المجاهدة ضد الصليبيين من ناحية أخرى هذا بالإضافة إلى أن بلاد الجزيرة العربية عامة والحجاز خاصة فى ذلك الوقت لم تكن مورداً اقتصادياً يثير شهية الطامعين ومن ثم لم يبق إلا التأكيد على التعصب الدينى عند الصليبيين ومحاولتهم طعن المسلمين فى قبلتهم وتدمير الحرمين الشريفين ، ولقد كتب الملك العادل إلى أخيه السلطان صلاح الدين يعرفه بما جرى فى هذا الحادث فورد عليه كتاب السلطان صلاح الدين يأمره بضرب رقاب الأسرى الصليبيين الذين شاركوا فى هذا الحادث (بحيث لا يبقى منهم أحد يخبر عن ذلك البحر وطريقه) ، ففعل الملك العادل ذلك (وكفى الله الحرمين الشريفين شر عدو الدين) وكتب القاضى عن السلطان بالبشارة بهذا النصر ومنه :

وكان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكراً ، وافتضوا من البحر بكراً وعمروا مراكب بحرية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد وضربوا بها

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٩٠ – ٤٩١) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٩١) ، ثم انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٢٧ – ١٢٨) .

سواحل اليمن والحجاز وأثخنوا وأوغلوا فى البلاد واشتدت مخافة أهل تلك الجوانب بل أهل القبلة (ومضى إليهم من خلل العواقب وما ظن المسلمون إلا أنها الساعة ، وقد نشر مطوى أشراطها ، والدنيا وقد طوى منثور بساطها وانفطر غضب الله لفناء بيته المحرم ، ومقام خليله الأكرم ، وتراث أنبيائه عليهم الصلاة والسلام الأقدم ، وضريح نبيه الأعظم صلى الله عليه وسلم . ورجوا أن تشحذ البصائر آية كآية هذا البيت إذ قصده أصحاب الفيل ، ووكلوا إلى الله الأمر وكان حسبهم ونعم الوكيل ، وكان للفرنج مقصدان : أحدهما قلعة أيلة التى هى على فوهة بحر الحجاز ومداخله والأخرى الخوض فى هذا البحر الذى تجاوره بلادهم من سواحله وانقسموا فرقتين وسلكوا الطريقين ، فأما الفريق الذى قصد قلعة أيلة فإنه قدر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذى به قوام الحياة ويقابلهم بنار العطش المشبوب الشباه ، وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدر أن يمنع طريق الحاج عن حجه ويحول بينه وبين حجه ويأخذ تجار اليمن وأكارم عدن ويلم بسواحل الحجاز فيستبيح — والعياذ بالله — المحارم ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظام) .

(وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكب وفرقها على الفرقتين وأمرها بأن تطوى وراءهم الشقتين ، فأما السائرة إلى قلعة أيلة فإنها انقضت على مرابطى منع الماء انقضاض الجوارح على نبات الماء فقذفتها قذف شهب السماء مسترقى سمع الظلماء ، فأخذت مراكب العدو برمتها وقتلت أكثر مقاتلتها إلا من تعلق بهضبة وما كاد أو دخل فى شعب وما عاد فإن العربان اقتصوا آثارهم ، والتزموا إحضارهم فلم ينج منهم إلا من ينهى عن المعاودة ومن قد علم أن أمر الساعة واحدة) .

(وأما السائرة إلى بحر الحجاز فتمادت فى الساحل الحجازى إلى غابر (رابغ) إلى سواحل الحوراء فأخذت تجاراً وأضافت زفافاً ودلها على غوارب البلاد من الأعراب من هو أشد كفراً ونفاقاً ، فهناك وقع عليها أخذت المراكب بأسرها ، وفر فرنجها بعد إسلام المراكب فسلكوا فى طريق الجبال مهاوى المهالك ، ومواطن المعاطب وركب أصحابنا وراءهم

خيل العرب ، فشلوهم شلا حتى لم يتركوا منهم مخبراً ولم يبقوا لهم أثراً « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً » ، وقيد منهم إلى مصر مائة وسبعون أسيراً)(١) وكان السلطان صلاح الدين قد أرسل بهذا الكتاب إلى الخليفة العباسى فى بغداد يبشر بنصر الله فى هذه الوقعة .

وبعد هذا الحادث شرع الأسطول الإسلامى فى مصر فى الحركة وسار فى البحر المتوسط ليرهب العدو من ناحية وليقطع الإمداد عن الصليبيين من ناحية أخرى فظفر المسلمون ببطسة من مراكب الصليبيين تحمل (أخشاباً منجورة إلى عكا ومعها نجارون ليبنوا بها شوانى فأسر النجارون ومن معهم وهم نيف وسبعون ، وأما الأخشاب فقد انتفع بها المجاهدون . وتوقى شرها المؤمنون)(٢) .

السلطان صلاح الدين يهاجم الصليبيين فى حصن الأكراد :

كان السلطان صلاح الدين لا ينتهى من غزوة حتى يبدأ فى غزوة أخرى وكان حصن الكرك يشكل خطراً على طريق المواصلات بين مصر والشام ويلحق الأضرار بقوافل الحجاج والتجار ولحق المسلمون منه أذى كبيراً، وكان السلطان قد أرسل نائبه بدمشق إلى أعمال الكرك ونهبها وذلك فى سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م وسبب ذلك أن ارناط صاحب حصن الكرك جمع عساكره وأراد نكاية المسلمين (وعزم على السير فى البر إلى تيماء ومنها إلى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، للاستيلاء على تلك النواحى الشريفة)(٣) .

ولكن فرخشاه نائب السلطان سار بالقوات من دمشق وهاجم بلاد الكرك فاضطر ارناط إلى إرجاء مشروعه إلى وقت آخر وحدث فى عام ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م ، كما ذكرنا أن هاجم الصليبيون بلاد الحجاز وفشلوا فى تحقيق أهدافهم ولكن السلطان صلاح الدين لم يترك هذا الحادث يمر بدون أن يعطى الصليبين درساً لن ينسوه ، فهاجم حصن الكرك —

---

(١) انظر نص هذا الخطاب ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٢٩ — ١٣١) .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٣١)، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٧٩).
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٧٠) .

سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م وعاد عنه فى منتصف شعبان سنة ٥٧٩ هـ ولكنه عاد ونازل الكرك فى ١٤/ ٥/ ٥٨٠ هـ أواخر أغسطس سنة ١١٨٤ م ونصب عليها تسعة مجانيق صفاً قدام الباب . فهدمت السور المقابل لها ، ولم يبق مانع إلا الخندق الواسع العميق ، وهو من الأودية الهائلة ولم يكن من الحيلة إلا هدمه وردمه بكل ممكن فعد ذلك من الأمور الصعاب ، فأمر السلطان بضرب اللبن وجمع الأخشاب وبناء الحيطان المقابلة من الربض إلى الخندق وتسقيفها وتلفيق ستائرها فتمت دروباً واسعة لا يزحم فيها الجائى والذاهب . واجتمع رجال العسكر على نقل ما يرمى فى الخندق بالدبابات التى قدمت ونقب الأسراب وأحكامها فوجد الناس إلى الخندق طريقاً واسعاً وأصبح فى إمكان المسلمين مهاجمة الحصن ، ولما رأى الصليبيون الذين بالكرك ما فعل السلطان صلاح الدين فى سبيل ردم الخندق خافوا أن يملك الحصن وكاتبوا (ملوكهم وفرسانهم يستنجدونهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن فسارت الفرنج فى حدهم وحديدهم)(١) وسارت القوات الصليبية إلى مكان يعرف بالوالة (وهى مواضع ضيقة المسالك فسار السلطان صلاح الدين حتى نزل البلقاء على قرية يقال لها : حسبان ، ثم رحل منها إلى ماء عين وأحجم الصليبيون عن الخروج من الوالة والسلطان ينتظر خروجهم من المكان الذى هم به ليتمكن منهم ، فلم يبرحوا خوفاً على أنفسهم) . ولذلك تركهم السلطان ورحل عنهم عدة فراسخ (وجعل بإزائهم من يعلمه بمسيرهم فساروا ليلا إلى الكرك) ، فلما علم السلطان بدخول القوات الصليبية إلى الكرك آثر ترك حصاره بعضاً من الوقت وسار بقواته إلى (الساحل لخلوه من العساكر) وهاجم نابلس ونهب كل ما على طريقه من البلاد وأحرق نابلس وقتل وأسر وسبا من وجده بها من الصليبيين وهاجم سبسطية وفيها جماعة من أسرى المسلمين فاستنقذهم ورحل إلى جينين ونهبها وخربها وعاد إلى دمشق (وبث السرايا يميناً وشمالا ينهبون ويخربون)(٢) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٥٧ – ١٥٨) ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٦٨) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ص (١٥٧ – ١٥٩) ، ثم انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٦٦ – ٦٧) .

ولقد وصف العماد الكاتب المسلمين وهم يحاصرون حصن الكرك فقال : (ولولا الخندق المانع من الإرادة وأنه ليس من الخنادق المعتادة بل هو واد من الأودية واسع الأقنية لسهل المسرع وهجم الموضع ، فلم يبق إلا تدبير طم الخندق ، والأخذ بعد ذلك من العدو بالمخنق فعملنا دبابات قدمناها ، وبنينا إلى شفير الخندق ثلاث أسراب باللبن سقفناها وأحكمناها ، فصارت إلى طرف الخندق طرق آمنة وشرع الناس فى طم الخندق منها ونفوسهم مطمئنة وقلوبهم ساكنة ، وكان الشروع فيه يوم الخميس سابع جمادى الأولى وقد تسنى طمه وتهيأ ردمه وتسارع الناس إليه وازدحموا عليه ، ولم يبق صغير ولا كبير إلا هو مستبشر بالعمل ، منتظر لبشرى نجح الأمل ، قد تحاشدوا حتى ازدحموا على تلك القلعة نهاراً كازدحامهم فى المصلى يوم العيد ، وليلا كحضورهم فى جامع دمشق ليلة النصف السعيد ، وهم بحمد الله من الجراح سالمون وبنصر الله موقنون وإن أبطأ العدو عن النجدة فالنصر سريع ، والحصن ومن فيه صريع وقد خرقت الحجارة حجابه وقطعت بهم أسبابه ، وناولته من الأجل كتابه ، وحسرت لثام سوره وحلت نقابه فأناف الأبراج مجدوعه وثنايا الشرفات مقلوعه ورؤوس الأبوان مجزورة ، وحروف العوامل مهموزة — وبطون الشقوف مبقوره وأعضاء الأساقف معقورة ، ووجوه الجدر مسلوخة ، وجلود البواشير مبشوره ، والنصر أشهر من نار على علم والحرب أقوم وساق على قدم)(١) وعاد السلطان صلاح الدين بعد هذه الغزوة إلى دمشق يوم السبت سابع جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ / سبتمبر ١١٨٤ م .

ولكن السلطان صلاح الدين لم يهمل مسألة الكرك وخصوصاً أن ارناط صاحب الكرك كثير الغدر بالمسلمين رغم مهادنته للسلطان صلاح الدين بعضاً من الوقت (ثم لاحت له فرصة فى الغرر بقافلة عظيمة فيها نعم جليلة فأخذها بأسرها وكان معهم جماعة من الأجناد فأسرهم وحملهم إلى الكرك وأخذ خيلهم وعدتهم) وذلك فى سنة ٥٨٢ هـ فأرسل إليه السلطان

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٥٩ – ١٦٠) .

صلاح الدين ينذره ويقبح فعله وطلب إليه إطلاق سراح الأسرى المسلمين فامتنع ارناط (وأصر على عصيانه فنذر السلطان دمه وأعطى الله عهداً إن ظفر به أن يستبيح مهجته)(١) . ولهذا أمر السلطان العساكر بالاجتماع (ولما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة عزم على قصد الكرك وأقام السلطان بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامى إلى الشام وأمنوا غائلة العدو)(٢) وأخذ السلطان فى الإعداد من أجل معركة فاصلة مع الصليبيين ولكنه أراد أن يطمئن على الأوضاع الداخلية أولا ويأمن جانب بعض الأمراء المسلمين الذين يظهرون العداء لصلاح الدين ومن هؤلاء حكام الموصل وآمد وشاه أرمن صاحب خلاط وكان هؤلاء قد اجتمعوا سنة ٥٧٨ هـ على قتال صلاح الدين ولهذا فإن السلطان ندب نور الدين محمد بن قرا أرسلان للهجوم على آمد فى سابع عشر ذى الحجة سنة ٥٧٨ هـ / ١٣ / ٤ / ١١٨٣ م وكان المتولى لأمرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان وشدد نور الدين الحصار والقتال فاضطر آمد إلى التسليم (ولما فرغ صلاح الدين من آمد سار إلى الشام وقصد تل خالد وهى من أعمال حلب ، فحصرها ورماها بالمنجنيق فنزل أهلها وطلبوا الأمان فأمنهم وتسلمها فى المحرم سنة ٥٧٩ هـ / مايو ١١٨٣ م ولم يبق أمامه من المواضع الخطرة سوى الموصل)(٣). وفى أواخر سنة ٥٨٠ هـ شرع السلطان صلاح الدين فى المسير نحو البلاد الشرقية واستقر السلطان فى حماة إلى أن دخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، ثم سار منها إلى حلب حيث اجتمعت العساكر بها وتقدم السلطان صلاح الدين من حلب إلى الفرات (وقطع الفرات وأقام العسكر ثلاثة أيام للعبور)(٤) . ثم وصل إلى حران وصاحبها مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على كوجك — وكان خرج لمقابلة السلطان فى بلدة البيرة (وكان راسل السلطان فى وقت ، ويشير عليه بقصد الموصل ويقوى عزمه على أخذها حتى أنه بذل له خمسين ألف

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٨٥) .
(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٧٤) .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٩٣ – ٤٩٥) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٣٤ – ١٣٩) .
(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٦٥) .

دينار وأن يقوم بكل ما يحتاج إليه من النفقات والغرامات ، فلما وصل السلطان إلى حران لم يف له بما بذل من المال ، فأنكر ذلك وارتاب به وظن أن ميله إلى أصحاب الموصل(١) وقبض عليه السلطان ليتبين أمره وشاور فيه أصحابه (فأشار بعضهم بإتلافه وبعضهم باستبقائه ، فعفا عنه على أن يسلم إليه قلعتى الرها وحران ، ففعل ذلك وهو مسرور ببقاء نفسه ثم رضى عنه بعد ذلك ، وأعيدت له القلعتان فى آخر السنة لما حقق براءته)(٢) . ورحل السلطان صلاح الدين من حران فى الثانى من ربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ/يونية ١١٨٤ م إلى رأس عين وقدم عليه فى ذلك رسول الملك قليج أرسلان بن مسعود — صاحب بلاد الروم — (يخبره أن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصده إن لم يعد عن الموصل وماردين وأنهم على عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك)(٣) . ولكن السلطان صلاح الدين تابع تقدمه نحو الموصل (وخيم على الإسماعيليات) وقبل أن يهاجم الموصل أرسل إلى الخليفة العباسى — يخبره بما عزم عليه من حصر الموصل وحمل تلك الرسالة القاضى ضياء الدين أبا الفضائل القسم ابن يحيى بن عبد الله بن الشهرزورى وذكر صلاح الدين فى رسالته أن أهل الموصل (يخطبون لسلطان العجم وينقشون السكة باسمه ، وأنهم يراسلون الفرنج ويغرونهم على قصد بلاد المسلمين ، وأنه لم يأت لأجل الازدياد فى الملك ولا لقلع البيت القديم وقطع أصله وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الخليفة ونصرة الإسلام ، وردهم عما اعتادوه من الظلم واستحلال المحارم وقطعهم عن مواصلة العجم وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الرحم)(٤) وأرسل صلاح الدين العساكر إلى تلك الجهات لافتتاح بعض القلاع واقترب جيش السلطان من الموصل (وكان الحر إذ ذاك شديداً فأمر السلطان بالكف عن القتال إلى أن يطيب الزمان وتقدم بتحويل دجلة ، وكان ماؤها قد قل ، وذكر من له خبرة

(١) المصدر السابق ص (١٦٥) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٦٥) .

(٣) ابن واصل : المصدر السابق ص (١٦٥ – ١٦٦) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٦٧ – ٦٨) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٦٦) .

ونظر في علم الهندسة أنه يمكن سدها ونقلها وتحويلها إلى دجلة نينوى ويعطش أهل الموصل إذا انقطع الماء عنها فلا يبقى إلا تسليمها ، وكان أهل الموصل يعبرون إلى الجانب الشرقي فيقاتلون العسكر ثم يعودون)(١) . وفي أثناء ذلك ورد الخبر إلى صلاح الدين بوفاة شاه أرمن ابن سكمان صاحب أخلاط (فطمع السلطان في ملك أخلاط والاستيلاء عليها ورحل عن الموصل في آخر شهر ربيع الآخر)(٢) . ولما أيس من أمر خلاط ولم يأخذها استولى على ميافارقين بدون قتال في ٢٩ / ٥ / ٥٨١ هـ وقرر العودة إلى الموصل في شعبان من السنة وعزم أن يشتي في ذلك المكان فخرج إليه من الموصل أتابكيات وفيهن ابنه الملك العادل نور الدين يشفعن في الكف عن الموصل والرحيل عنها فأنزلهن وأكرمهن وأحضر أصحابه واستشارهم فيما يفعل ، فأشار أكثرهم بإجابتهن إلى ما طلبن ، فقال له الفقيه ضياء الدين عيسى وعلى ابن أحمد المشطوب : (مثل الموصل لا تترك لامرأة فإن عز الدين ما أنفذهن إلا وقد عجز عن حفظ البلد) فوافق ذلك هواه وقال لهن : (قد قبلت شفاعتكن ، لكن لابد أن نعمل ما تقتضيه المصلحة (واعتذر إليهن فرجعن خائبات ، ولكن السلطان صلاح الدين مرض بعد ذلك) فندم على رد النساء الأتابكيات وعدم قبول شفاعتهن (فأرسل صلاح الدين إلى عماد الدين زنكي ابن مودود صاحب سنجار وطلب منه التوسط بين صلاح الدين وصاحب الموصل عز الدين من أجل الصلح) فرحل رسوله وهو وزيره شمس الدين ابن عبد الكافي ، وشمس الدين قاضي العسكر من جانب السلطان إلى الموصل)(٣) ويقول ابن شداد : (وكان سبب ذلك أن عز الدين أتابك — صاحب الموصل سيرني إلى الخليفة يستنجد به ، فلم يحصل منه زبده وسير

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٦٧) .

(٢) المصدر السابق ص (١٦٨ — ١٦٩) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٦٩) ، المقريزي : السلوك ج ١ ص (٨٩) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥١١) ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص (٦٩) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٧١) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٦٩ — ٧٠) ، المقريزي : السلوك ج ١ ص (٨٩) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥١١ — ٥١٥) ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص (٦٩) .

إلى العجم فلم يحصل منهم زبدة فلما وصلت من بغداد وأديت جواب الرسالة أيس من نجدة فلما بلغهم مرض السلطان رأوا ذلك فرصة وعلموا سرعة انقياده ورقة قلبه فى ذلك الوقت ، فندبونى لهذا الأمر وبهاء الدين الربيب ، وفوض إلى أمر النسخة التى يحلف بها ، وقالوا : أمضيا ما يصل إليه جهدكما وطاقتكما فسرنا حتى أتينا إلى السلطان فى أوائل شهر ذى الحجة سنة ٥٨١ هـ / مارس ١١٨٥ م ويقول ابن شداد : فاحترمنا احتراماً عظيماً وجلس لنا ، وكن أول جلوسه من مرضه وحلف فى يوم عرفة . . . وحلفته يميناً تامة ، وحلفت أخاه الملك العادل ، ومات قدس الله روحه وهو على ذلك الصلح لم يتغير عنه)(١) وتقرر الصلح بينهم وخطب فى جميع بلاد الموصل للسلطان وقطعت خطبة السلاطين السلجوقية بها ، وخطب له فى ديار بكر وجميع البلاد الارتقية وضربت السكة باسمه (ولما تم الصلح بينه وبين المواصلة أهدى لعز الدين هدايا عظيمة ولوالدته ولزوجته ولابنه نور الدين وقوم ما سيره إليهم بما يوفى على عشرة آلاف دينار سوى الخيل والملبوس والطيب والأشياء المستطرفة)(٢) وذلك بهدف تدعيم الصلح وإزالة ما فى النفوس من كدر الشقاق والاختلاف لأن صلاح الدين كان يريد التفرغ للجهاد ضد الصليبيين . وعاد السلطان إلى الشام ودخل دمشق فى ٢ / ٣ / ٥٨٢ — أواخر مايو ١١٨٦ م (٣).

* * *

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٧٠) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٧٠ — ١٧٢) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥١٦ — ٥١٧) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٧٣) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٨٩ — ٩٠) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٧١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩١) .

الفصل الثالث

إنتصارات إسلامية وهزائم صليبية

تنظيم الدولة الأيوبية قبل حطين – اضطراب الأحوال فى مملكة بيت المقدس الصليبية – مقدمة موقعة حطين ، فتح طبرية – موقعة حطين – فتح قلعة طبرية سنة ٥٨٣ ﻫ / ١١٨٧ م – فتح مدينة عكا سنة٥٨٣ ﻫ / ١١٨٧ م – فتح مجدليابة – فتح مدينة نابلس – فتح مدينة يافا وإذلال الصليبيين سنة ٥٨٣ ﻫ / ١١٨٧ م – فتح تبنين سنة ٥٨٣ ﻫ / ١١٨٧ م – فتح صيدا – فتح بيروت – تسليم جبيل سنة ٥٨٣ ﻫ / ١١٨٧ م – فشل المحاولات الإسلامية لأخذ مدينة صور – فتح عسقلان وما يجاورها سنة ٥٨٣ ﻫ / ١١٨٧ م – فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣ ﻫ / ١١٨٧ م – هجوم صلاح الدين على صور سنة ٥٨٣ ﻫ / ١١٨٧ م – هزيمة المسلمين فى حصن الكوكب بسبب الغفلة سنة ٥٨٣ ﻫ / ١١٨٧ م – فتح حصن هونين سنة ٥٨٣ ﻫ / ١١٨٧ م – استيلاء صلاح الدين على أنطرطوس سنة ٥٨٤ ﻫ / ١١٨٨ م – جهاد السلطان صلاح الدين ضد إمارتى طرابلس وأنطاكية سنة ٥٨٤ ﻫ / ١١٨٨ م – فتح قلعة صهيون – فتح الشغر وبكاس سنة ٥٨٤ ﻫ / ١١٨٨ م – فتح سرمينية سنة ٥٨٤ ﻫ / ١١٨٨ م – فتح قلعة برزية سنة ٥٨٤ ﻫ / ١١٨٨ م – استسلام قلعة درب سلك سنة ٥٨٤ ﻫ / ١١٨٨ م – الهدنة مع إمارة أنطاكية الصليبية سنة ٥٨٤ ﻫ / ١١٨٨ م – فتح صفد سنة ٥٨٤ ﻫ / ١١٨٨ م – سقوط حصن كوكب الصليبى سنة ٥٨٤ ﻫ / ١١٨٨ م – استيلاء المسلمين على حصن الشقيف سنة ٥٨٥ ﻫ / ١١٨٩ م :

* * *

الفصل الثالث

إنتصارات إسلامية وهزائم صليبية

تنظيم الدولة الأيوبية قبل حطين :

يقول ابن الأثير : (إن هذه السنة (٥٨٢ هـ) أخرج صلاح الدين ولده الأفضل علياً من مصر إلى دمشق وأقطعها له ، وأخذ حلب من أخيه العادل وسيره مع ولده العزيز عثمان إلى مصر ، وجعله نائباً عنه واستدعى تقى الدين منها)(١) ، كما أجرى بعض التعديلات فى بلاد الشام فأقطع ما كان لناصر الدين — وهى حمص — لولده الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ولم يزل مالكاً لحمص وبلادها إلى أن توفى بها فى سنة ٦٣٧ هـ — ١٢٣٩ م (٢) ، وأما حلب فقد أخذها صلاح الدين من أخيه العادل وأعطاها لابنه الملك الظاهر غياث الدين غازى (ثم أعطى أخاه العادل حران والرها وميافارقين)(٣) وكان هدف السلطان صلاح الدين من هذه التنظيمات الاطمئنان إلى مستقبل البلاد بعد وفاته من ناحية وعدم حدوث خلاف بين أبنائه بالإضافة إلى تدريبهم على سياسة الملك وصيانة البلاد من الإنشقاق لا سيما أن السلطان صلاح الدين كان يريد الدخول فى معركة فاصلة مع الصليبيين بعد أن تم الصلح بينه وبين أهل الموصل واستقرت الأحوال فى البلاد الشرقية لصالحه وكان السلطان قد أفاض على البلاد من عدله وإحسانه (وأمر بالصدقات جميع ممالكه)(٤) ويقول ابن واصل : (وأكثر السلطان فى مرضه من

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٢٣) ، ثم انظر فى هذا ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٧٧) ، ثم انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩١ — ٩٢) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٧٤) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٢٥) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣١) .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٠) .

الصدقات وكتب بذلك إلى الشام والديار المصرية ، فلم يبق فى سائر ممالكه من الفقراء والمساكين إلا من وصل إليه نصيب من بره وصدقته)(١) .

وهكذا نظم صلاح الدولة وجعل أولاده قوائم الملك فى حين لم يترك شقيقه العادل بدون سلطة ، فقد جعله نائبه فى مصر ، لأن الملك العادل كان عظيم المكانة عند أخيه صلاح الدين ، فقد وضح ذلك خلال مرض صلاح الدين عندما حلف السلطان الناس لأولاده (وجعل لكل منهم نصيباً معلوماً وجعل أخاه العادل وصياً على الجميع)(٢) .

أثر وفاة بلدوين الرابع ملك مملكة بيت المقدس الصليبية :

كانت مملكة بيت المقدس الصليبية تشكل قوة رئيسية للصليبيين فى بلاد الشرق الإسلامى ولكن مرض ملكها بلدوين الرابع جعله يضعف أمام ضغوط الشخصيات الصليبية فى مملكته فأبعد جاى لو زجنان زوج أخته الأميرة سيبل عن الوصاية على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ، ثم أعلن بلدوين الخامس ملكاً على مملكة بيت المقدس وشريكاً للملك بلدوين الرابع فى الحكم ووريثاً له بعد وفاته ، وكان هدف بلدوين الرابع من هذا الإجراء إبعاد جاى لوزجنان عن البلاد وعدم إتاحة الفرصة له بتولى السلطة فى المملكة الصليبية ، ولما شعر جاى لوزجنان بهذا العداء من قبل بلدوين الرابع ورجال مملكته ، اعتصم بولايته فى عسقلان ويافا وأظهر العصيان والثورة على خصومه ولم يكتف بلدوين الرابع بهذا وإنما تحرك إلى ناحية عسقلان ليطرد جاى لوزجنان منها ولكنه استعصم بها فاضطر بلدوين الرابع إلى دخول مدينة يافا وهناك أعلن عزل جاى لوزجنان ، كما تقرر اختيار ريموند الثالث أمير طرابلس وصياً على بلدوين الرابع وذلك فى ١٢ / ١٢ / ٥٨٠ هـ - ١٦ / ٣ / ١١٨٥ م ، ثم أعلن بلدوين الخامس ابن الأميرة سيبل من زوجها الأول وليم دى مونتفرات ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية وتحت وصاية الأمير ريموند الثالث أمير إمارة طرابلس ، وإزاء

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٧٣) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٧٢ - ١٧٣) .

هذا الموقف فى المملكة الصليبية وخشية الصليبيين من صلاح الدين الذى اشتد ساعده وزادت قواته . فكر أمير طرابلس فى طريقة تمكنه بها تجنب الصدام مع صلاح الدين حتى يتفرغ لمشاكله الداخلية ويدعم قواته العسكرية فعقد مع صلاح الدين من أجل هذا الغرض هدنة لمدة أربع سنوات — من (٥٨١ — ٥٨٥ هـ — ١١٨٥ — ١١٨٩ م)(١) ، ويقول ابن الأثير : (وجاهر بالمشاقة والمباينة وراسل صلاح الدين ، وانتمى إليه ، واعتضد به وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة ، والسعى له فى كل ما يريد ، وضمن له أنه يجعله ملكاً مستقلا للفرنج قاطبة ، وكان عنده جماعة من فرسان القمص أسرى فأطلقهم ، فحل ذلك عنده أعظم محل ، وأظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلمتهم وتفرق شملهم من أعظم الأسباب الموجبة لفتح بلادهم ، واستنقاذ البيت المقدس منهم)(٢) ويبدو أن أمير طرابلس كان يريد الاستفادة من المهادنة فى تجنب الصدام المسلح مع صلاح الدين من ناحية وتقوية دولته من ناحية ثانية والاستعانة به ضد خصومه الصليبيين من ناحية ثالثة ، فى حين كان السلطان صلاح الدين يهدف إلى إثارة الانقسام بين صفوف الصليبيين وضربهم بأنفسهم وإيقاع الوهن فى نفوسهم ، وقد اختلف الصليبيون (وضعفوا وتجرأ المسلمون عليهم وطمعوا فيهم)(٣) وزاد فى سوء أحوال الصليبيين أن توفى الملك بلدوين الخامس فى مدينة عكا أوائل جمادى الآخرة سنة ٥٨٢ هـ — أواخر شهر أغسطس ١١٨٦ م وأدى هذا الموقف إلى اشتداد الصراع حول وراثة العرش فى مملكة بيت المقدس الصليبية واستطاعت سيبل شقيقة بلدوين الرابع وزوجها جاى لوزجنان السيطرة (على بيت المقدس والموانى الساحلية)(٤) وساعدها فى ذلك بطرق

---

(١) انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٨٤ — ١٨٥) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٢٦ — ٥٢٧) ، د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ — ص (٧٩٢ — ٧٩٣) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٢٧) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٢٧) .

(٤) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص (٧٩٤ — ٧٩٦) .

بيت المقدس هرقل وأرناط صاحب حصن الكرك فى حين كان ريموند وبعض الأمراء من مؤيديه يعارضون ذلك وهذا الحال زاد فى انقسام الصفوف الصليبية وأصبح الصليبيون قسمين الأول يؤيد جاى لوزجنان وزوجته سيبل ، والثانى يؤيد ريموند ومعه أمير أنطاكية بوهيموند الثالث ، جرى ذلك والهدنة مع صلاح الدين سارية المفعول وريموند على صلة طيبة بالسلطان ويقول ابن واصل : (فقويت مناصحته للمسلمين (ريموند) وباين أهل ملته)(١) .

مقدمة موقعة حطين :

كان أرناط عقب محاولته الاعتداء على بلاد الحجاز قد هادن صلاح الدين (فأمنت الطريق بين مصر والشام وتواصلت القفول ، حتى كان يمكن الذاهب والجائى)(٢) ولكن البرنس أرناط صاحب الكرك كان كثير الغدر والخبث فاختار هذا الوقت لتجديد غاراته على المسلمين ، وكأن الله شاء أن يدفع السلطان صلاح الدين إلى نبذ مسالمة الصليبيين والهجوم عليهم وهم فى مثل هذا الحال من الاختلاف والانقسام وحدث أن لاحت فرصة لأرناط وهاجم قافلة (عظيمة فيها نعم جليلة ، فأخذها وأسرها ، وكان معهم جماعة من الأجناد فأسرهم وحملهم إلى الكرك)(٣) ، وأرسل السلطان إلى أرناط وقبح فعله وطلب إليه إطلاق سراح الأسرى ورد ما أخذ من المسلمين فامتنع أرناط (وأصر على عصيانه) فغضب صلاح الدين ونذر (أن يقتله إن ظفر به)(٤) وشرع السلطان فى الاستعداد للجهاد وكتب (إلى جميع البلاد يستنفر الناس للجهاد وكتب إلى الموصل وديار الجزيرة وأربل وغيرها من بلاد الشرق وإلى مصر وسائر بلاد الشام ، يدعوهم إلى الجهاد

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٨٥) ، ثم انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٢) .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٨٥) .
(٣) ابن واصل : المصدر السابق ص (١٨٥) ، ثم انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٢٧ - ٥٢٨) .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٢٨) .

ويحثهم عليه ، ويأمرهم بالتجهيز له بغاية الإمكان)(١) ، ثم خرج السلطان في أواخر شهر المحرم سنة ٥٨٣ هـ ــ الموافق النصف الأول من إبريل ١١٨٧ م ومعه عسكر دمشق وسار إلى رأس الماء (وتلاحقت به العساكر الشامية) وأمر ولده الأفضل بالبقاء عند رأس الماء ليجتمع إليه من يرد من العساكر والمجاهدين وسار السلطان إلى بصرى ، لأنه علم بأن أرناط (يريد أن يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم وأظهر أنه إذا فرغ من أخذ الحجاج يرجع إلى طريق العسكر المصرى يصدهم عن الوصول إلى صلاح الدين)(٢) وكان تحرك السلطان إلى بصرى يهدف إلى منع أرناط من طلب الحجاج (ويلزم بلده خوفاً عليه)(٣) . وكان من الحجاج جماعة من أقارب صلاح الدين ومحمد بن لاجين ابن أخته ، ولما علم أرناط بحركة السلطان لتأمين سلامة الحجاج لم يترك الكرك (وانقطع عما طمع فيه) ووصل الحجاج سالمين فسار السلطان إلى الكرك وضيق عليه الحصار ووصلته العساكر من مصر وأرهب الصليبيين (وبث سراياه من هناك على ولاية الكرك والشوبك وغيرهما فنهبوا وخربوا وأحرقوا،والبرنس محصور لا يقدر على المنع عن بلده ،وسائر الفرنج قد لزموا طرف بلادهم خوفاً من الجيش الذى مع ولده الأفضل ، فتمكن من الحصر والنهب والتحريق والتخريب)(٤) . ولم يكتف صلاح الدين بذلك بل شدد الغارات على الصليبيين وأرسل إلى ولده الأفضل يأمره أن يرسل فرقة من الجيش إلى مدينة عكا (ينهبونه ويخربونه) فسارت تلك القوات بقيادة الأمير مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين وبعض الأمراء الأكابر ، فساروا ليلا وفي صبيحة النهار خرج إليهم الصليبيون في من فرسان الداوية والاسبتارية وغيرها (وجرت بينهم حرب تشيد المفارق السود)(٥) وبعد قتال شديد صبر فيه المسلمون (أنزل الله

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ص (٥٢٩) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٨٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٢) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٢٩ – ٥٣٠) .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ص (٥٣٠) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٠) .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٠ – ٥٣١) .

نصره على المسلمين (وانهزم الصليبيين وقتل منهم جماعة وأسر الباقون) ، وفيمن قتل مقدم الاسبتارية وغنم المسلمون وسبوا وعادوا سالمين (فكان فتحاً كثيراً ، فإن الداوية والاسبتارية هم جمرة الفرنج)(١) ،وقال ابن واصل : (وكانت هذه الغارة مقدمة الفتوح)(٢) ، وجاءت البشائر بهذا النصر إلى السلطان صلاح الدين وهو مقيم بنواحي الكرك والشوبك فتحرك إلى عشترا وأقام معسكره هناك واجتمعت العساكر الإسلامية ، (وقد غص بها الفضاء ، وعرض العسكر فكان فى اثنى عشر ألف مقاتل)(٣) . هذا سوى المتطوعة والراغبين فى الجهاد ، ونظم صلاح الدين الجيش وجعلهم قلباً وجناحين ، وميمنة وميسرة وجالشية وساقة (وعرف كل منهم موضعه وموقفه وأمره بملازمته على تعبئة ، فنزل بالاقحوانة بقرب طبرية) وكان الأمير ريموند الثالث يكاتب السلطان ويعده المساعدة ضد الصليبيين ، وأدرك الصليبيون خطورة ما يفعله ريموند الثالث على الوجود الصليبي فى الشرق الإسلامى ، فأرسلوا إلى ريموند الثالث (البطرك والقسوس والرهبان ، فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدين ، وقالوا له : لا شك إنك أسلمت ، وإلا لم تصبر على ما فعل المسلمون أمس بالفرنج ، يقتلون الداوية والاسبتارية ويأسرونهم ، ويجتازون بهم عليك وأنت لا تنكر ذلك ولا تمنع عنه ، ووافقهم على ذلك من عنده من عسكر طبرية وطرابلس ، وتهدده البطرك أنه يحرمه ، ويفسخ نكاح زوجته إلى غير ذلك من التهديد) ، فلما رأى القمص شدة الأمر عليه خاف ، فاعتذر وتنصل وتاب ، فقبلوا عذره وغفروا زلته وطلبوا منه الموافقة على المسلمين — والمؤازرة على حفظ بلادهم ، فأجابهم إلى المصالحة والانضمام إليهم ، والاجتماع معهم ، وسار معهم إلى ملك الفرنج واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم)(٤) . وكان السلطان يراقب تحركات العدو ويرصد

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣١) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٨٧) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٨٧) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٨٧) ، ثم انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣١) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣١ — ٥٣٢) ، ثم انظر : العماد الكاتب الفتح القسى ص (٦٧ — ٧٠) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧١) .

مناوراته ولاحظ أن العدو الصليبي يواصل غاراته على جهة حلب ، فطلب السلطان من ابن أخيه تقي الدين أن يهادن الصليبيين بعضاً من الوقت في تلك الجهة وهدفه من ذلك اجتماع القوات الإسلامية لقتال العدو في معركة فاصلة ، ففعل تقي الدين ذلك وسار بعسكره إلى جهة السلطان ومعه عسكر الموصل وعسكر ماردين وانضموا إلى عسكر السلطان بالقرب من طبرية على بعد ثلاثة أميال منها(١) في حين جمع الصليبيون فارسهم وراجلهم ثم ساروا من عكا إلى صفورية (وهم يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى قد ملئت قلوبهم رعباً)(٢) .

فتح طبرية :

كان من أهداف السلطان صلاح الدين من الغارات المذكورة على الصليبيين التعرف على مستوى القوة العسكرية الصليبية ، كما كان يريد إجبار الصليبيين على التحرك لقتاله ، وكان الصليبيون قد جمعوا قواتهم وساروا إلى صفورية ، فجمع (صلاح الدين أمراءه ووزراءه واستشارهم ، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء ، وأن يضعف الفرنج بشن الغارات ، وإخراب الولايات مرة بعد مرة ، فقال له بعض أمرائه : الرأى عندى أننا نجوس بلادهم وننهب ونخرب ، ونحرق ، ونسبي ، فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه ، فإن الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون : ترك قتال الكفار ، وأقبل يريد قتال المسلمين والرأى أن نفعل فعلا نعذر فيه ونكف الألسنة عنا ، فقال صلاح الدين : الرأى عندى أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار فإن الأمور لا تجرى بحكم الإنسان ، ولا نعلم قدر الباقى من أعمارنا ولا ينبغي أن نفرق هذا الجمع إلا بعد الجد بالجهاد)(٣) وبعد هذا النقاش لموضوع الحرب مع الصليبيين استقر رأى المسلمين على الجهاد ، وسار السلطان في ٢٣ / ٥ / ٥٨٣ هـ / أوائل يولية سنة ١١٨٧ م (حتى خلف طبرية

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٨٧ – ١٨٨) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٢) ، ثم انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٧٥) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣١) ، العماد الكاتب : الفتح ص (٧٣) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٢ – ٥٣٣) .

وراء ظهره وصعد جبلها) وأصبح على مقربة من الصليبيين . ولكنهم لم يفارقوا خيامهم . فنزل السلطان من فوق جبل طبرية وأمر الجيش بالنزول وجعل جماعة من قواته فى مقابل العدو (ونزل جريدة إلى طبرية وقاتلها ونقب أبراجها وأخذ المدينة عنوة فى ليلة (واحتمى من فى طبرية من الصليبيين بالقلعة فى حين أمر السلطان بأخذ ما فى المدينة من الغنائم وإحراقها وإحراق ما تخلف مما لا يحمل(١) .

ولما علم الصليبيون بأخذ المسلمين لمدينة طبرية (اجتمعوا للمشورة ، فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم ، ومنعهم عن طبرية ، فقال القمص (ريموند) : إن طبرية لى ولزوجتى ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل وبقى القلعة ، وفيها زوجتى ، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتى وما لنا بها ويعود ، فوالله لقد رأيت عساكر الإسلام قديماً وحديثاً ما رأيت مثل هذا العسكر الذى مع صلاح الدين كثرة وقوة ، وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها ، فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها ، وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بجميع عساكره ولا يقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم فيضطر إلى تركها ، ونفتك من أسر منا) ، فقال له أرناط صاحب حصن الكرك : (قد أطلت فى التخويف من المسلمين ، ولا شك أنك تريدهم ، وتميل إليهم ، وإلا ما كنت تقول هذا ، وأما قولك : إنهم كثيرون ، فإن النار لا يضرها كثرة الحطب . فقال صاحب طرابلس الأمير ريموند : أنا واحد منكم إن تقدمتم تقدمت ، وإن تأخرتم تأخرت وسترون ما يكون)(٢) . وبعد هذا النقاش استقر رأى الصليبيين على التقدم إلى المسلمين وقتالهم وساروا حتى أصبحوا على مقربة من جيش المسلمين ، فترك صلاح الدين طبرية وعاد إلى عسكره (وكان قريباً منه وإنما كان قصده بمحاصرة طبرية أن

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٨٨) ، ثم انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٧٦) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٣) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٣ – ٥٣٤) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٨٨ – ١٨٩) .

يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتلهم (ولقد احتاط المسلمون لكل شيء وسيطروا على مصادر الماء في المنطقة حتى يمنعوا العدو من الارتواء (والزمان قيظ شديد الحر ، فوجد الفرنج العطش ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين ، وكانوا قد أفنوا ما هناك من ماء الصهاريج ، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين ، فبقوا على حالهم إلى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم)(١)، حدث هذا للقوات الصليبية في حين كان المسلمون يحرضون بعضهم بعضاً وقد وجدوا ريح النظر والظفر وأكثروا (التكبير والتهليل طول ليلتهم) ورتب السلطان صلاح الدين قواته وجعلها في حالة قتال ، لأن العزم قد انعقد على الجهاد(٢) .

موقعة حطين :

(وكانت في يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة (١١٨٧/٧/٤ م) ذلك أن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين الله إياه في البلاد وانقياد الناس لطاعته ، ولزومهم قانون خدمته ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد في إقامة قانون الجهاد)(٣) . وكان الصليبيون قد جمعوا من القوات حوالى خمسين ألفاً(٤) وجاءتهم الإمدادات من سائر بلادهم الساحلية . وحملوا صليب الصلبوت واستعدوا لقتال المسلمين وتحركوا نحو المسلمين الذين شرعوا في الركوب لمواجهة الصليبيين أيضاً (ودنا بعضهم من بعض ، إلا أن الفرنج قد اشتد بهم العطش وانخذلوا فاقتتلوا ، واشتد القتال ، وصبر الفريقان ، واستطاع المسلمون قتل عدد كبير من خيول الصليبيين ، وكان هدف الصليبيين (وهم يقاتلون سائرين نحو طبرية ، لعلهم يردون الماء) ولكن السلطان صلاح الدين علم بما يريدون فحال بينهم وبين ما يقصدون

---

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ص (٥٣٤) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٨٩) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٤) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٧٥) ، ثم انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٣)

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٨٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٣) ، العماد الكاتب : الفتح النفسى ص (٧٤) .

(وطاف بنفسه على المسلمين يحرضهم ويأمرهم بما يصلحهم وينهاهم عما يضرهم والناس يأتمرون لقوله ، ويقفون عند نهيه)(١) وبدأ القتال يوم الخميس ٢٢/٤/٥٨٣ هـ وحمل المسلمون على الصليبيين (حملة منكرة فضعضعوا الكفار وقتلوا منهم كثيراً) وحجز بينهم الظلام حتى يوم الجمعة ثم تقاتلا حتى جاء الظلام وحال بينهما ، ثم حمل المسلمون يوم السبت حملة صادقة من جميع الجوانب وصاحوا صيحة رجل واحد : الله أكبر ، وألقى الله الرعب فى قلوب الكافرين . وأدرك ريموند الثالث أمير طرابلس شدة الأمر وأن لا طاقة للصليبيين بالمسلمين (فاتفق هو وجماعته وحملوا على من يليهم ، وكان المقدم من المسلمين فى تلك الناحية ، تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين ، فلما رأى حملة الفرنج حملة مكروب ، علم أنه لا سبيل إلى الوقوف فى وجوههم ، فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقاً يخرجون منه ، ففعلوا فخرج القمص وأصحابه ثم التأم الصف) وقام بعض المجاهدين من المسلمين بإشعال النار فى تلك الأرض (وكان الحشيش كثيراً فاحترق ، وكانت الريح على الفرنج فحملت حر النار والدخان إليهم ، فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال)(٢) . فلما تضايق الصليبيون وشاهدوا انهزام ريموند الثالث وعساكره سقط فى أيديهم وكادوا يستسلمون (ثم علموا أنهم لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه ، فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون بها المسلمين ، على كثرتهم عن مواقفهم لولا لطف الله بهم)(٣) وقتل من الصليبيين خلال تلك الحملات جماعات كثيرة (فوهنوا لذلك وهناً عظيماً ، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها) وحاول من بقى من الصليبيين الاعتصام فوق تل يعرف بتل حطين ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٤ – ٥٣٥) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٥) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٧٧) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٨٩– ١٩٠) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٧٩) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧١) . Setton, vol, II, p. 46

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٩٠) .

وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا نفوسهم به (فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات ، ومنعوهم عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة غير خيمة ملكهم وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذى يسمونه صليب الصلبوت ويذكرون أن فيه قطعة من الخشبة التى صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم ، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم . وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك)(١) ، وكان ملكهم قد اعتصم بالجبل ومعه مقدار مائة وخمسين فارساً من الفرسان الشجعان . ويروى إبن الأثير عن الملك الأفضل ولد صلاح الدين قال : كنت إلى جانب أبى فى ذلك المصاف وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل فى تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من إزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدى . قال : — فنظرت إليه وقد علته كآبة ، وأربد لونه وأمسك بلحيته ، وتقدم ، وهو يصيح : كذب الشيطان . قال : فعاد المسلمون على الفرنج فرجعوا فصعدوا إلى التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم ، صحت من فرحى : هزمناهم ! فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى حتى ألحقوا المسلمين بوالدى ، وفعل مثل ما فعل أولا ، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل . فصحت أنا أيضاً: هزمناهم ! فالتفت والدى إلى وقال : اسكت ! ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة . قال : فهو يقول لى ، وإذا الخيمة قد سقطت ، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى وبكى من فرحه)(٢) . وكان سبب سقوط خيمة الملك الصليبى أن الصليبيين لما حملوا تلك الحملات على المسلمين وردوهم قد ازدادوا عطشاً ، وقد كانوا يرجون الخلاص فى بعض تلك الحملات مما هم فيه ، فلما لم يجدوا إلى الخلاص طريقاً نزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض فهاجمهم

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٥ – ٥٣٦) ، وابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٩٠ – ١٩١) .

Setton: History of the crusades, vol,II p 46

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ص (٥٣٦) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٩١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٣) .

المسلمون وأسروهم وألقوا خيمة الملك وكان من بين هؤلاء الأسرى الملك وأخوه والأمير أرناط صاحب حصن الكرك (ولم يكن للفرنج أشد منه عداوة ، للمسلمين) وأسروا أيضاً صاحب جبيل ومقدم الاسبتارية ومقدم الداوية (وكان من أعظم الفرنج شأناً (بالإضافة إلى عدد من فرسان الداوية والاسبتارية وكبار الأمراء وكثر القتل والأسر فيهم (فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحداً ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً ، وما أصيب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل ، وهو سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمثل هذه الوقعة)(١) وقال ابن واصل فى وصف موقعة حطين : (ومنذ ملك الفرنج البلاد الساحلية واستولوا عليها لم يقع للمسلمين معهم يوم كيوم حطين ، فرحم الله الملك الناصر صلاح الدين وقدس روحه ، فلم يؤيد الإسلام بعد الصحابة — رضى الله عنهم — برجل مثله ومثل نور الدين محمود بن زنكى — رحمة الله عليهما — فهما جددا الإسلام بعد دروسه ، وشيدوا بنيان التوحيد بعد طموسه)(٢) ، وقال أيضاً : (ولم ينج فى الكسرة من ألوف الفرنج إلا آحاد ، وامتلأت الأرض بالأسرى والقتلى) (٣)، ثم أقام المسلمون للسلطان خيمة جلس بها وأحضروا له الملك جاى لوزجنان الصليبى الأسير والبرنس أرناط صاحب حصن الكرك وأجلس الملك إلى جانب السلطان وأجلس أرناط إلى جانب الملك وقد أهلكه العطش (وفى نفسه وفاء نذره بقتله) ، ثم أمر السلطان بإحضار وعاء به ماء مثلوج وقدمه للملك جاى لوزجنان فشرب وأعطى الباقى إلى أرناط فشرب ، فقال صلاح الدين : (إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى فينال أمانى (وذكره بغدره ومكره وقال له : (كم تحلف وتنكث ؟) فقال الترجمان عنه : (إنه يقول : قد جرت بذلك عادة الملوك)(٤) ، وكان السلطان قد نذر إن ظفر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٦ — ٥٣٧)، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٧٧) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٩١ — ١٩٢) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٧٩ — ٨٠) .

setton : A history of the crusadee, w, 1I, p$_5$ 45-46

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٩٣) .

(٣) المصدر السابق ص (١٩٣) ، ثم انظر العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٨١) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٩٤) ، ثم انظر أيضاً العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٨١) .

به أن يقتله وذلك بعد أن حاول الأعتداء على بلاد الحجاز ثم عندما هاجم قافلة إسلامية وغدر بها أثناء مسيرها من القاهرة إلى بلاد الشام ، وكان أرناط عندما غدر بالقافلة الإسلامية زيادة فى إذلال أسرى المسلمين فى هذه القافلة قال : (قولوا لمحمد كم يخلصكم)(١) ، فقال له السلطان بعد أسره : (ها أنا أنتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم) ، ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل فسل السلطان خنجراً من وسطه وضربه به فحل كتفه وأتم عليه من حضر من الخدم (وعجل الله بروحه إلى النار ، فسحب وأخرج من الخيمة (فلما رآه الملك جاى لوزجنان على تلك الصورة لم يشك أنه مقتول) ، فخاف وارتاع واستحضره السلطان وطيب قلبه وقال : (لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فتجاوز حده فجرى عليه ما جرى)(٢) .

أما باقى الأسرى فقد جمعهم السلطان وكانوا كثيرين ويقول ابن شداد : (ولقد حكى لى من أثق به أنه لقى شخصاً واحداً معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيراً يجرهم وحده لخذلان وقع عليهم)(٣) ، وقال العماد الكاتب : (وأما من أسر فلم تكف أطناب (حبال الخيام) الخيم لقيده وشده ، ولقد رأيت فى حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس وفى بقعة واحدة مائة أو مائتين يحميهم حارس) (٤) ، وأمر السلطان صلاح الدين (بمن أسر من الداوية والاسبتارية أن يجمعوا ليقتلهم ، ثم علم أن من عنده أسير لا يسمح به لما يرجو من فدائه ، فبذل فى كل أسير من هذين الصنفين خمسين ديناراً مصرية ، فأحضر عنده فى الحال مائتا أسير منهم ، فأمر بهم فضربت أعناقهم ، وإنما خص هؤلاء بالقتل لأنهم أشد شوكة من جميع

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق ص (١٩٤) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٣ — ٣٤) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧١) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٩٤ — ١٩٥) ، ثم انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٧) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٧٨ — ٧٩) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٣) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٢) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٧٧) .

(٤) العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٨٣) .

الفرنج فأراح الناس من شرهم وكتب إلى نائبه بدمشق ليقتل من دخل البلد منهم سواء كان له أو لغيره ففعل ذلك)(١) ، وأما باقى الأسرى فقد أرسلهم إلى دمشق للاحتياط عليهم وذكر ابن الأثير حول ما لحق بالصليبيين فى هذه الوقعة من قتل وأسر بقوله : (ولقد اجتزت بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة . فرأيت الأرض ملأى من عظامهم تبين على البعد منها المجتمع بعضه على بعض . ومنها المفترق . هذا سوى ما جحفته السيول . وأخذته السباع فى تلك الآكام والوهاد)(٢) .

فتح قلعة طبرية سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م :

بعد الانتصار العظيم الذى حققه الإسلام على الصليبيين فى موقعة حطين عم المسلمين السرور وأظهروا الشكر لله على ما أنعم عليهم من نصر وقال ابن واصل فى هذا المعنى : (وبات الناس ليلة الأحد لأربع بقين من ربيع الآخر على أتم سرور ، ترتفع أصواتهم بالحمد والشكر لله تعالى والتكبير حتى طلع الصبح من يوم الأحد)(٣) .

ولم يترك السلطان الوقت المناسب لمواصلة هجماته على الصليبيين ، فشرع فى صباح يوم الأحد المذكور فى الزحف على قلعة طبرية وكانت زوجة ريموند الثالث مقيمة بها فأرسل لها السلطان يدعوها للتسليم (فأجابت إلى التسليم وطلبت الأمان لها ولمن معها ، فأمنوا وسلمت الحصن بما فيه وخرجت بمالها إلى طرابلس)(٤)وكان ريموند الثالث زوج صاحبة طبرية

---

(١) العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٨٦ - ٨٧) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٨) ، ثم انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٧٧) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٩٦ - ١٩٧)

Setton : Ahistory of the Crusades, II,p. 46

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٨) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٩٥) ، ثم انظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٤) .

(٤) ابن واصل : المصدر السابق ص (١٩٥ - ١٩٦) ، ثم انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٨) .

قد نجا مع بعض أصحابه من معركة حطين ولكنه عقب ذلك اغتم (ولم يلبث إلا أياماً قلائل حتى مات غيظاً وحنقاً مما جرى على الفرنج خاصة ، وعلى دين النصرانية عامة)(١) — وكان الصليبيون فى طبرية قد فرضوا على المسلمين فى بلاد الصلت والبلقاء وجبل عوف والسواد والجولان إلى بلد حوران أن يدفعوا لهم نصف ما تنتج تلك البلاد من الحاصلات الزراعية ، فلما آلت طبرية إلى المسلمين تغير الموقف (فصفت هذه كلها بأخذ طبرية للمسلمين)(٢) .

فتح مدينة عكا سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م :

فكر صلاح الدين فى فتح بيت المقدس وتطهيره من الصليبيين ولكنه فضل أن يبدأ بمدينة عكا لأنها الطريق الذى تصل إليه الإمدادات من أوربا إلى الصليبيين فى مملكة بيت المقدس ، فالاستيلاء عليها يعنى قطع الإمدادات من بيت المقدس ، ولم يترك الوقت يضيع بدون فائدة ورحل ظهر يوم الثلاثاء ومعه العساكر ووصل إلى عكا يوم الأربعاء (وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع والحفظ فعجب هو والناس من ذلك لأنهم علموا أن عساكرهم من فارس وراجل بين قتيل وأسير وأنهم لم يسلم منهم — إلا القليل)(٣) فقرر قتالهم وما أن جاء يوم الخميس التاسع والعشرون من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م حتى استعد السلطان للزحف والقتال (فبينما هو ينظر من أين يزحف ويقاتل إذ خرج كثير من أهلها يضرعون ؛ ويطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرهم بين الإقامة والظعن فاختاروا الرحيل خوفاً من المسلمين ، وساروا عنها متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم ، وتركوا الباقى على حاله)(٤) ودخل

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٨) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٩٦) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص.(٧٧) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١٩٦) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٩) ، ثم انظر العماد الكاتب : الفتح ص(٨٨).

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٩) ، العماد الكاتب : الفتح القسى — ص (٨٨ — ٨٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٤) .

المسلمون مدينة عكا يوم الجمعة أول أيام جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ / يولية ١١٨٧ م (وصلوا بها الجمعة فى جامع كان للمسلمين قديماً (ثم جعله الفرنج بيعة ، ثم جعله صلاح الدين جامعاً وهذه الجمعة أول جمعة أقيمت بالساحل الشامى بعد أن ملكه الفرنج)(١) .

ثم شرع صلاح الدين فى ترتيب شئون المدينة فسلمها إلى ولده الملك الأفضل وأعطى جميع ما كان فيه للداوية من إقطاع وضياع للفقيه عيسى الهكارى أحد كبار المستشارين للسلطان صلاح الدين وغنم المسلمون ما بقى ما لم يستطع الصليبيون حمله (وكان من كثرته يعجز الإحصاء عنه) وأمر السلطان ابنه الملك الأفضل بتوزيع هذه الغنائم على المسلمين (وأقام السلطان بعكا عدة أيام لإصلاح حالها وتقرير قواعدها)(٢) ، وكان لسقوط عكا أثر خطير على الروح المعنوية الصليبية فى حين ارتفعت معنويات المسلمين بهذا النصر وخصوصاً أن عكا كانت (مظنة التجار) وبعدها تفرقت العساكر الإسلامية (فى بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة وأخذوا نابلس وحيفا وقيسارية وصفورية والناصرة ، وكان ذلك لخلوها من الرجال بالقتل والأسر)(٣) .

فتح مجدليابة :

بعد أن استقر المسلمون فى عكا كتب السلطان صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل بمصر (يبشره بما فتح الله تعالى على يديه ويأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جهة الديار المصرية فيمن عنده من العساكر فى محاصرة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٩) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٣٩ - ٥٤٠) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٩٠) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٤) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠١) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٧٩) ، ثم انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٤) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٢) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٥) .

ما يليه منها)(١) وكانت خطة صلاح الدين تقضى بمهاجمة الصليبيين من جميع الجهات حتى لا يجتمعوا فى جهة واحدة ولكى تتفرق قواتهم فيسهل الإيقاع بهم والسيطرة على الحرب ، وتوجيهها لصالح المسلمين وخصوصاً أن المسلمين بعد موقعة حطين تحولوا إلى الهجوم بعد أن انهارت قوة الصليبيين فى حطين وتغير ميزان القوة فى المنطقة وأصبحت المبادرة فى يد المسلمين وتنفيذاً لهذه الخطة أسرع الملك العادل من مصر بقواته ونازل حصن مجدليابة(٢) — وفتحه وغنم ما فيه وأرسل بكتاب البشارة إلى السلطان (فكان فتحاً عظيماً)(٣) .

فتح مدينة نابلس :

أرسل السلطان صلاح الدين القوات إلى جميع الجهات وذلك لتحرير أراضى الإسلام من الصليبيين وذكر ابن الأثير ذلك بقوله : (فى مدة مقام صلاح الدين بعكا تفرق عسكره إلى الناصرة وقيسارية وحيفا ، وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وقدموا من ذلك ما سد الفضاء) (٤) وسير السلطان فرقة من قواته بقيادة الأمير حسام الدين عمر بن لاجين إلى مدينة نابلس ، فبدأ بالاستيلاء على (سبسطية وبها قبر زكريا) ، فأخذه من الصليبيين وسلمه إلى المسلمين ، وتقدم بقواته حتى وصل نابلس فدخلها وحاصر قلعتها فاضطر أهلها إلى الاستسلام بالأمان وتسلم القلعة) وأقام

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٢) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٠) ، ثم انظر العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٩٠ — ٩١) .

(٢) مجدليابة : قرية قرب الرملة بفلسطين بها حصن محكم ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٢) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٠) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٤) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٩١) ، أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٢) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٠) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ص (٢٠٢) .

أهل البلد به ، وأقرهم على أملاكهم وأموالهم)(٤) . وعقب هذه الفتوحات كتب السلطان صلاح الدين رسالة إلى الخليفة العباسى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين يشرح فيها ما حققه المسلمون من انتصارات على الصليبيين وجاء فى هذه الرسالة :

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » .

الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد ، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد وجعل من بعد عسر يسراً ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمراً وهون الأمر الذى ما كان الإسلام يستطيع عليه صبراً ، وخوطب الدين بقوله : ولقد مننا عليك مرة أخرى ، فالأولى فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة ، والأخرى هذه التى عتق بها من ذل الكآبة ، وهو قد أصبح حراً ريان الكبد الحرا ، والزمان كهيئته استدار ، والكفر قد رد ما كان عنده من المستعار ، فالحمد لله الذى أعاد الإسلام جديداً ثوبه ، مبيضاً نصره ، مخضراً فصله ، متسعاً فضله ، مجتمعاً شمله .

والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والنصر الكريم ما يشرح صدور المؤمنين ويمنح الحبور لكافة المسلمين ، ويورد البشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر إلى يوم الخميس سلخه وتلك سبع ليالى وثمانية أيام حسوماً سخرها الله على الكفار ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خاوية ورأيتها إلى الإسلام ضاحكة وكانت من الكفر باكية : فيوم الخميس الأول فتحت طبرية ، ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنج فكسروا الكسرة التى ما لهم بعدها قائمة وأخذ الله أعداءه بأيدى أوليائه أخذ القرى وهى ظالمة وفى يوم الخميس الثانى سلخ الشهر فتحت عكا بالأمان ، ورفعت أعلام

---

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٠) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٢ — ٢٠٣) ، ثم انظر العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٩٥ — ٩٦) .

الإيمان وهى أم البلاد . وأخت أرم ذات العماد . وقد أصدر هذه المطالعة ، وصليب الصلبوت مأسور ، وقلب ملك الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور . والحديد الكافر الذى كان فى يد الكفر يضرب وجه الإسلام قد صار حديداً مسلماً يعوق خطوات الكفر عن الإقدام وأنصار الصليب وكباره ، وكل من العمودية عمدته والدير داره قد أحاطت به يد القبضة وغلق رهنه فلا يقبل فيه القناطر المقنطرة من الذهب والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها ، وعمرت إلى أن شهدت يوم الإسلام وهو خير يوميها . وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر ، وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر . واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها وطالما ارتجت لموقف الكافر فأما القتلى والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفاً . وأما فرسان الداوية ، والاسبتارية فقد أمضى حكم الله فيهم وقطعتهم سيوف نار الجحيم ، ودخل الداخل منهم إلى الشقاء المقيم وقتل الإبرنس كافر الكفار وتشيدة النار من يده فى الإسلام كما كانت يد الكليم .

والمعاقل التى فتحت :

طبرية ، عكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية ، نابلس ، حيفا ، معليا ، الفولة ، الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هذه كثيرة : الملك المظفر — تقى الدين ظفره الله — مضايق لصور وحصن تبنين ، والأخ الملك العادل سيف الدين — نصره الله قد كوتب بالوصول فيمن عنده من العساكر وينزل فى طريقه على غزة وعسقلان ويجهز مراكب الأسطول المنصور إلى عكا . وما يتأخر النهوض إلى القدس ، وهذا أوان فتحه ولقد دام عليه ليل الظلام ، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه)(١) .

وواضح من خلال هذه الرسالة أن صلاح الدين كان يجاهد فى سبيل الله والإسلام ولم يكن يجاهد الصليبيين من أجل الشهرة أو بناء مجد دنيوى

---

(١) النص لهذا الخطاب ورد فى مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٣ — ٢٠٥) .

أو تحقيق مطمع شخصى أو نفع مادى وإنما كان الهدف إعلاء كلمة الله ولكى تكون كلمة الذين كفروا هى السفلى .

فتح مدينة يافا وإذلال الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م :

سار الملك العادل ببعض القوات المصرية إلى مدينة يافا وحاصرها واستولى عليها بالقوة ونهبها وأسر الرجال وسبى الحريم (وجرى على أهلها ما لم يجر على أحد من أهل تلك البلاد). ويروى ابن الأثير أن الصليبيين فى يافا لحق بهم القتل والأسر وتفرقوا لا يعرف أحدهم الالتقاء بباقى جماعته فيقول : (وكان عندى جارية من أهلها (يافا) وأنا بحلب ، ومعها طفل عمره نحو سنة فسقط من يدها فانسلخ وجهه — فبكت عليه كثيراً فسكتها وأعلمتها أنه ليس بولدها ما يوجب البكاء ، فقالت : ما له أبكى ، إنما أبكى لما جرى علينا ، كان لى ستة إخوة هلكوا جميعهم ، وزوج وأختان لا أعلم ما كان منهم) .

هذا من امرأة واحدة والباقى بالنسبة : ورأيت بحلب امرأة فرنجية قد جاءت مع سيدها إلى باب ، فطرقه سيدها ، فخرج صاحب البيت فكلمهما ، ثم أخرج امرأة فرنجية فحين رأتها الأخرى صاحتا واعتنقتا وهما تصرخان وتبكيان . وسقطتا على الأرض ، ثم قصدتا تتحدثان ، وإذا هما أختان ، وكان لهما عدة من الأهل ليس لهما علم بأحد منهم (١) .

فتح تبنين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م :

وكان السلطان صلاح الدين قد أرسل إليها جماعة من العسكر بقيادة الملك المظفر تقى الدين عمر فحاصرها ولكنه لم يستطع دخولها فكتب إلى عمه السلطان (يستدعيه ليتولاها بنفسه) فسار السلطان إليه فى ٨ /٥ /٥٨٣ هـ / يولية ١١٨٧ م وحاصرها فى الحادى عشر من هذا الشهر (وهى من القلاع المنيعة على جبل) ولكن ذلك لم يمنع صلاح الدين من الزحف عليها وقتالها حتى اضطر الصيليبون بها إلى إطلاق سراح أسرى المسلمين بها) وهم يزيدون

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٥) .

على مائة رجل ، فلما دخلوا العسكر أحضرهم صلاح الدين وكساهم وأعطاهم نفقة وسيرهم إلى أهلهم) واستمر أهل تبنين فى المقاومة خمسة أيام أخرى ثم ضاق عليهم الأمر فأرسلوا يطلبون الأمان (فأمنهم على أنفسهم فسلموها إليه ووفى لهم وسيرهم إلى مأمنهم) وأرسل معهم جماعة من جيش الإسلام فأوصلوهم إلى صور وكان السلطان قد شرط عليهم (تسليم العدد والدواب والخزائن ففعلوا ذلك)(١) والهدف من عدم السماح لهم بأخذ المعدات والدواب هو الحيلولة دون استفادة الصليبيين فى صور من شىء قد يؤدى إلى زيادة قوتهم ضد المسلمين .

فتح صيدا :

بعد فتح تبنين سار السلطان صلاح الدين إلى صرفند وفتحها بغير قتال ثم واصل تقدمه نحو مدينة صيدا وكان الصليبيون بها قد أرهبهم نبأ انتصار المسلمين فى المواقع المتقدمة (فلما علم صاحبها مسيرة (صلاح الدين) إليها ، سار عنها وتركها فارغة من غير ممانع ولا مدافع ، وجاءت رسل صاحبها بمفاتيحها إلى السلطان ، وطلعت أعلامه الصفر على سورها) وتسلمها المسلمون فى الحادى والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ / يولية ١١٨٧ م(٢) .

فتح بيروت :

(وأما بيروت فهى من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها) ولهذا تحرك السلطان بقواته إليها بعد أن قرر قواعد مدينة صيدا حتى لا يعطى الصليبيين فرصة للتجمع واسترداد قوتهم وفى اليوم التالى لفتح صيدا باشر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤١ – ٥٤٢) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٥)، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٠) ، ثم انظر العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٩٩ – ١٠١) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٥) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٦) ، ثم انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٢) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٠٢ – ١٠٣) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٧٢ .

صلاح الدين الهجوم على بيروت (فرأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد والعدة وقاتلوا على سورها عدة أيام قتالا شديداً واعتزوا بحصانة البلد ، وظنوا أنهم قادرون على حفظه ، وحاول المسلمون الزحف على المدافعين عنها مرة بعد مرة ولكن الله أيد الطائفة المؤمنة على الطائفة الكافرة) فبينما الفرنج على السور يقاتلون إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة فأتاهم من أخبرهم أن البلد قد دخله المسلمون من الناحية الأخرى قهراً وغلبة ، فأرسلوا ينظرون ما الخبر وإذا ليس له صحه ، فأرادوا تسكين من به فلم يمكنهم ذلك لكثرة ما اجتمع فيه من السواد ، فلما خافوا على أنفسهم من الاختلاف الواقع أرسلوا يطلبون الأمان) فوافق السلطان صلاح الدين على طلبهم وأمنهم على أموالهم وأنفسهم وتسلم بيروت فى التاسع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٨٣ هـ / يولية ١١٨٧ م (فكان مدة حصرها ثمانية أيام)(١) .

تسليم جبيل سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م :

أما حصن جبيل فقد كان صاحبه الصليبي من جملة الأسرى الذين أرسلهم صلاح الدين إلى دمشق ومعهم الملك الأسير جاى لوزجنان وفى دمشق تحدث صاحب جبيل مع نائب صلاح الدين بدمشق فى تسليم جبيل فى مقابل إطلاقه وفك أسره ، فأخبر السلطان صلاح الدين بذلك فوافق على عرضه (فأحضره مقيداً عنده تحت الاستظهار والاحتياط ، فسلم جبيل للمسلمين وأطلق أسرى المسلمين به وأطلق سراحه) وكان صاحب جبيل هذا من أعيان الفرنج وأصحاب الرأى والمكر والشر به يضرب المثل بينهم ، وكان للمسلمين منه عدو أزرق وكان إطلاقه من الأسباب الموهنة للمسلمين)(٢) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٢ – ٥٤٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٦ – ٢٠٧) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٠) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٥) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٠٤ – ١٠٧) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٥) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٣) ، وابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٧) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٥) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٠٨) .

فشل المحاولات الإسلامية لأخذ مدينة صور :

(وهي من أقوي بلاد الساحل وأشدها حصانة)(١) وكان الأمير ريموند الثالث صاحب طرابلس بعد نجاته فى معركة حطين أقام بمدينة صور ، ولكن ما أن وصلته أنباء استيلاء صلاح الدين على تبنين وصيدا وبيروت حتى خاف على نفسه واعتقد أن صلاح الدين سوف يقصد مدينة صور (وهي فارغة ممن يقاتل فيها ويحميها ويمنعها فلا يقوى على حفظها) . وأمام هذا الانهيار المعنوى والضعف العسكرى غادر ريموند صور إلى مدينة طرابلس (فبقيت صور شاغرة لا مانع لها ولا عاصم من المسلمين فلو بدأ بها صلاح الدين قبل تبنين وغيرها لأخذها بغير مشقة ، لكنه استعظمها لحصانتها فأراد أن يفرغ باله مما يجاورها من نواحيها ليسهل أخذها ، فكان ذلك سبب حفظها وكان أمر الله قدراً مقدوراً)(٢) .

أما ريموند الثالث فقد مات فى طرابلس وكان كما قيل : (راح يبغى نجوة من هلاك فهلك)(٣) ، وأما صور فقد اتفق أن أحد الصليبيين يقال له : المركيس وهو الأمير كونراد دى مونتفرات قدم من الغرب الأوروبى فى البحر ومعه مال كثير (للزيارة والتجارة) ووصل المركيس فى سفينته إلى ميناء مدينة عكا ، ولم يكن يعلم باستيلاء المسلمين عليها (ولم يشعر بما كان من الفرنج فأرسى بعكا ، وقد رابه ما رأى من ترك عوائد الفرنج عند وصول المراكب من الفرنج وضرب الأجراس وغير ذلك ، وما رأى أيضاً من زى أهل البلد ، فوقف ولم يدر ما الخبر ، وكانت الريح قد ركدت ، فأرسل الملك الأفضل إليه بعض أصحابه فى سفينة يبصر من هو وما يريد ، فأتاه القاصد فسأله المركيس عن الأخبار لما أنكره فأخبره بكسره الفرنج

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٧) ، ثم انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٣) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٣) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٧ – ٢٠٨) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٨) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٠٩) .

وأخذ عكا وغيرها . وأعلمه أن صور بيد الفرنج وعسقلان وغيرها ، وحكى له الأمر على وجهه ، فلم يمكنه الحركة لعدم الريح . فرد الرسول يطلب الأمان ليدخل البلد بما معه من متاع ومال ، فأجيب إلى ذلك فردده مراراً كل مرة يطلب شيئاً لم يطلبه فى المرة الأولى وهو يفعل ذلك انتظاراً لهبوب الهوا ليسير به ، فبينما هو فى مراجعاته إذ هبت الريح فسار نحو صور . وسير الملك الأفضل الشوانى فى طلبه فلم يدركوه فأتى صور وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير لأن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرها مما ذكرنا أعطى أهلها الأمان ، فساروا كلهم إلى صور وكثر الجمع بها إلا أنهم ليس لهم رأس يجمعهم ولا مقدم يقاتل بهم ، وليسوا أهل حرب ، وهم عازمون على مراسلة صلاح الدين وطلب الأمان وتسليم البلد إليه ، فأتاهم المركيس وهم على ذلك العزم ، فردهم عنه وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة وبذل ما معه من الأموال وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعمالها له دون غيره ، فأجابوه إلى ذلك ، فأخذ إيمانهم عليه وأقام عندهم ودبر أحوالهم وكان من شياطين الإنس حسن التدبير والحفظ وله شجاعة عظيمة ، وشرع فى تحصينها فجدد حفر خنادقها وعمل أسوارها ، وزاد فى حصانتها واتفق من بها على الحفظ والقتال دونها)(١) . ولم يكتف المركيس بهذا بل أرسل رسله إلى الغرب الأوروبى يطلب النجدات ويحرضهم على قتال المسلمين (ويستنفر ويستنصر) وأدرك السلطان صلاح الدين صعوبة فتح مدينة صور ورأى استغلال الوقت فى فتح غيرها من البلاد الصليبية(٢) ، فسار بقواته بعد فتح بيروت (وتسلم الرملة والخليل وبيت لحم)(٣) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٣ – ٥٤٤) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٨ – ٢٠٩) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٠٩ – ١١٠) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٥) ، ثم انظر :

Setton : Ahistory of the Crusades, vol, 2. p. 46

(٢) العماد الكاتب: الفتح القسى ص(١١٠–١١١)، ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص(٨٠).

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٥) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص(٢٠٩) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٦) .

فتح عسقلان وما يجاورها سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م :

بعد الانتصارات التي حققها المسلمون على الصليبيين في المدن ، والحصون المذكورة فكر السلطان في فتح مدينة عسقلان (وكانت عنده أهم من غيرها لأنها على طريق الديار المصرية . فإذا أخذت أمنت الطريق واتصلت القوافل)(١) واجتمع السلطان بأخيه الملك العادل سيف الدين ومن معه من العساكر المصرية وسارا إلى عسقلان (ونازلا عسقلان في سادس عشر جمادى الآخرة ونصبا المجانيق عليها ووقع الجد في القتال)(٢) وكان صلاح الدين قد أمر بإحضار ملك الصليبيين جاى اوزجنان ومقدم الفرسان الداوية الأسيرين من دمشق وقال لهما : إن سلمتما البلاد التي فلكما الأمان ، فأرسلا إلى من بعسقلان من الفرنج يأمرانهم بتسليم البلد ، فلم يسمعوا أمرهما وردوا عليهما أقبح رد)(٣) ، فهاجم صلاح الدين عسقلان وجد في قتالها وزحف مرة بعد أخرى وتقدم النقابون إلى السور (هذا وملكهم يكرر المراسلات إليهم بالتسليم ويشير عليهم ، ويعدهم أنه إذا أطلق من الأسر أضرم البلاد على المسلمين ناراً ، واستنجد بالفرنج من البحر وأجلب الخيل والرجل إليهم من أقاصي بلاد الفرنج وأدانيها ، وهم لا يجيبون إلى ما يقول ولا يسمعون ما يشير به)(٤) . واستمر المسلمون في الزحف والقتال وزادت خسائر الصليبيين (ولما رأوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفاً ووهناً ، وإذا قتل منهم الرجل لا يجدون له عوضاً ، ولا لهم نجدة ينتظرونها ، راسلوا ملكهم المأسور في تسليم البلد على شروط اقترحوها) ، فوافق السلطان صلاح الدين على شروطهم وأعطاهم الأمان بعد حصار استمر أربعة عشر

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٩) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٩) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٥) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٠) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١١٢) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٩) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٠) .

يوماً وتسلم عسقلان فى آخر جمادى الآخرة سنة ٥٨٣ هـ ووفى للصليبيين فى عسقلان بما التزم من شروط (وسيرهم صلاح الدين ونساءهم وأموالهم وأولادهم إلى بيت المقدس ووفى لهم الأمان)(١) وكان من نتائج فتح مدينة عسقلان أن انهارت الروح المعنوية الصليبية وما برح صلاح الدين مقيماً بظاهر عسقلان حتى تسلم حصون الداوية مثل غزة والنطرون وبيت جبريل(٢)

فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م :

بعد سقوط معظم المدن والمعاقل الصليبية بالساحل فى يد صلاح الدين اطمأن السلطان إلى أن الصليبيين ليس فى إمكانهم إنقاذ بيت المقدس إذا تعرضت لهجوم من قبل المسلمين وخصوصاً أن السلطان أسر من الصليبيين فى المعارك السابقة حوالى مائة ألف أسير وأنقذ من المسلمين المأسورين عند الصليبيين ما يزيد على عشرين ألف إنسان)(٣) . هذا بالإضافة إلى عشرات الآلاف من القتلى ومع ذلك أرسل السلطان إلى مصر يطلب حضور الأسطول إلى سواحل بلاد الشام ، فحضر الأسطول من مصر بقيادة الأمير حسام الدين لؤلؤ الحاجب (فأقاموا فى البحر يقطعون الطريق على الفرنج ، كلما رأوا لهم مركباً غنموه ، وشانياً أخذوه)(٤) وقال ابن واصل : (وحين خلا سر السلطان من فتح عسقلان وما حولها ووصل الأسطول ، سار متوجهاً إلى البيت المقدس)(٥) وقال ابن شداد : (واجتمعت عليه العساكر التى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٦ – ٥٤٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٠) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٠) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١١٢ – ١١٣) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٦) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٥) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٦) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٠) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٦) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٠) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١١٤) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٧) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٦) .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (١١) ، ثم انظر ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٦) .

كانت متفرقة فى الساحل بعد انقضاء للبانتها من النهب والغارة . فسار نحوه معتمداً على الله ، مفوضا أمره إليه ، منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذى حث على انتهازه إذا فتح ، بقوله عليه السلام : (من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يعلم متى يغلق دونه)(١) وكان فى بيت المقدس من قادة الصليبيين البطرك المعظم عندهم (وهو أعظم شأناً من ملكهم) وبه أيضاً باليان بن بيرزان صاحب الرملة (وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك) هذا بالإضافة إلى من احتشد بالقدس من الصليبيين الذين نجوا من معركة حطين وغيرها من المدن والمعاقل والحصون واجتمع أهل تلك النواحى فى المدينة (كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون البيت المقدس ويأخذوه منهم ، وحصنوه تلك الأيام بما وجدوا إليه سبيلا وصعدوا على سوره بحدهم وحديدهم ، مجمعين على حفظه والذب عنه بجهودهم وطاقتهم ، مظهرين العزم على المناضلة دونه بحسب استطاعتهم . ونصبوا المجانيق على أسواره ليمنعوا من يريد الدنو منه والنزول عليه)(٢) .

ولما قرب السلطان صلاح الدين من القدس تقدم الأمير جمال الدين شروين بن حسن الزرزارى ومعه جماعة من أصحابه (غير محتاط ولا حذر) فقابلهم جماعة من الصليبيين خرجوا من القدس لمراقبة تحركات المسلمين ، وباغتوا الأمير جمال الدين وجماعته وقتلوا جماعة من المسلمين ، كما استشهد الأمير جمال الدين فى هذا الاشتباك) فأهم المسلمين فقـده ، وفجعوا بقتله)(٣) وسار السلطان بعساكره ونزل على القدس يوم الأحد خامس عشر رجب سنة ٥٨٣ هـ / سبتمبر ١١٨٧ م ونزل بالجانب الغربى وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرجالة وقدرهم أهل الخبرة بما يزيد على ستين ألفاً ما عدا النساء والصبيان(٤) (لأنه كان فى غاية الحصانة والامتناع ، فلم يجد

---

(١) ابن شداد: سيرة صلاح الدين ص (٨١) ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٦).

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٧) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١١ - ٢١٢) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٢) ، ابن الأثير : الكامل - ج ١١ ص (٥٤٧) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٢) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨١) .

عليه موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب عمود أو كنيسة صهيون) وفى العشرين من رجب انتقل السلطان ببعض قواته إلى تلك الناحية ونصب عليها المنجنيقات (وأصبح العدو وقد فرغ من نصبها ، ورمى بها ، وكان العدو قد نصب المنجنيقات ورموا بها) وتقاتل الفريقان أشد قتال رآه الناس ، وكل منهم يراه فرضاً واجباً فى دينه ، لا يحتاج فيه إلى باعث سلطانى ، بل كانوا يمنعون فلا يمتنعون ويزجرون فلا ينزجرون)(١) ويصف ابن الأثير القتال الذى جرى حول القدس بقوله : (وكان خيالة الفرنج كل يوم يخرجون إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون فيقتل من الفريقين ومن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك وهو من أكابر الأمراء . وكان أبوه صاحب قلعة جعبر ، وكان يصطلى القتال بنفسه كل يوم . فقتل إلى رحمة الله تعالى وكان محبوباً إلى الخاص والعام ، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك ، وأخذ من قلوبهم ، فحملوا حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج عن مواقفهم ، فأدخلوهم بلدهم ، ووصل المسلمون إلى الخندق . فجازوه والتصقوا إلى السور فنقبوه ، وزحف الرماة يحمونهم والمجانيق توالى الرمى لتكشف الفرنج عن الأسوار ليتمكن المسلمون من النقب ، فلما نقبوه حشوه بما جرت به العادة)(٢) ولما رأى الصليبيون فى القدس أن المسلمين جادون فى أخذ القدس (وأنهم قد أشرفوا على الهلاك واجتمعوا يتشاورون فيما يأتون ويذرون ، فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم القدس للسلطان) (٣) وأرسلوا جماعة من كبرائهم إلى السلطان صلاح الدين ولما وصلوا إليه طلبوا الأمان وتسليم القدس له فامتنع السلطان من إجابتهم للأمان وقال : (لا أفعل إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه من المسلمين سنة إحدى وتسعين وأربعمائة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٢) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٧ — ٥٤٨) ، ابن واصل : مفرج الكرو

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٣) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٨) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨١) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٦) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٢٦—١٢٧) .

من القتل والسبي . وجزاء السيئة بمثلها)(١) وعاد رسل الصليبيين إلى داخل القدس خائبين ، فأرسل باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فى هذا الأمر وتحريره فوافق صلاح الدين على ذلك وحضر باليان عند السلطان وطلب الأمان وسأل فيه (فلم يجبه إلى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه ، واسترحمه فلم يرحمه) ، فلما يئس من ذلك قال له : (أيها السلطان اعلم أننا فى هذه المدينة فى خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى ، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم إنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة فإذا رأينا أن الموت لابد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ، ولانتركهم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً ، ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة ، وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ، ثم خرجنا إليكم كلنا فقاتلناكم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه ، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ، ونموت أعزاء أو نظفر كراماً)(٢)، فاستشار السلطان صلاح الدين أصحابه (فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان وأن لا نخرجوا ونحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الأمر فيه عن أى شيء تنجلى ونحسب أنهم أسارى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج)(٣) .

وكان من شروط الأمان : (أن يزن كل رجل عشرة دنانير يستوى فيها الغنى والفقير ، وتزن المرأة خمسة دنانير ، ويزن الطفل من الذكور والإناث دينارين ، فمن أدى ذلك إلى أربعين يوماً نجا ومن انقضت الأربعون

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٣) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٨) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٢٦) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٨ - ٥٤٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٣ - ٢١٤) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٢٦ - ١٢٧) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص(٥٤٩)، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص(٢١٤).

يوماً ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكاً)(١) .

فبذل باليان بن بيرزان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار فأجيب إلى ذلك ثم سلمت مدينة القدس للسلطان صلاح الدين يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هـ / سبتمبر ١١٨٧ م (وكان يوماً مشهوداً ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوارها ورتب صلاح الدين على أبواب البلد . في كل باب ، أميناً من الأمراء ليأخذوا من أهله ما استقر عليهم)(٢) وكان عدد الصليبيين في القدس كثير ويقول ابن الأثير : (ومن الدليل على كثرة الخلق أن أكثرهم وزن ما استقر من القطيعة . وأطلق باليان بن بيرزان ثمانية عشر ألف رجل وزن عنهم ثلاثين ألف دينار وبقى بعد هذا جميعه من لم يكن معه ما يعطى ، وأخذ أسيراً ستة عشر ألف آدمى ما بين رجل وامرأة وصبى : هذا بالضبط واليقين . ثم أن جماعة من الأمراء ادعى كل واحد منهم أن جماعة من رعية إقطاعه مقيمون بالبيت المقدس ، فيطلقهم ويأخذ هو قطيعتهم وكان جماعة من الأمراء يلبسون الفرنج زى الجند المسلمين ويخرجونهم ويأخذون قطيعه قرروها ، واستوهب جماعة من صلاح الدين عدداً من الفرنج فوهبهم لهم فأخذوا قطيعتهم . . . وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم قد ترهبت وأقامت به ، ومعها من الحشم والعبيد والجوارى خلق كثير ، ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم ، فطلبت الأمان لنفسها ومن معها فأمنها وسيرها . وكذلك أطلق ملكة القدس التى كان زوجها الذى أسره صلاح الدين قد ملك الفرنج بسببها ونيابة عنها كان يقوم

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٤٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٤) ، لعماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٢٧) ، ثم انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٢) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٢ — ٧٣) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٤٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٥) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٢٨) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٢) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٦)

بالملك ، وأطلق مالها وحشمها ، واستأذنته فى المسير إلى زوجها وكان حينئذ محبوساً بقلعة نابلس ، فأذن لها ، فأتته وأقامت عنده .

وأتته أيضاً امرأة للبرنس أرناط صاحب الكرك ، وهو الذى قتله صلاح الدين بيده يوم المصاف بحطين ، فشفعت فى ولد لها مأسور ، فقال لها صلاح الدين : إن سلمت الكرك أطلقته ، فسارت إلى الكرك فلم يسمع منها الفرنج الذين فيه ، ولم يسلموه ، فلم يطلق ولدها ولكنه أطلق ما لها ومن تبعها . وخرج البطرك الكبير الذى للفرنج ، ومعه من أموال البيع منها (الصخرة والأقصى ، وقمامة وغيرها ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، وكان له من المال مثل ذلك ، فلم يعرض له صلاح الدين ، فقيل له : ليأخذ ما معه يقوى به المسلمين ، فقال : لا أغدر به ، ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير ، وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور)(١) . وذكر ابن شداد (أن تسلم القدس كان فى يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها فى القرآن المجيد . فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده إلى أيدى المسلمين فى مثل زمان الإسراء بنبيهم — صلى الله عليه وسلم — إليه وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى ، وكان فتوحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الحرق والطرق وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل وشاع قصده القدس قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه وحط الصليب الذى كان على قبة الصخرة وكان شكلا عظيماً . ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر . . . وفرج الله عمن كان أسيراً من المسلمين ، وكانوا خلقاً عظيماً ، زهاء ثلاثة آلاف أسير)(٢) . ويقول ابن الأثير فى وصف ما جرى فى القدس : (وكان على رأس قبة

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥٠ — ٥٥١) ؛ ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٥ — ٢١٦) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٢) ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٦) .

الصخرة صليب كبير مذهب ، فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم إلى أعلى القبة ليقلعوا الصليب . فلما فعلوا وسقط صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد ومن ظاهرة المسلمون والفرنج ، أما المسلمون فكبروا فرحاً ، وأما الفرنج فصاحوا تفجعاً وتوجعاً فسمع الناس ضجة كادت الأرض أن تميد بهم لعظمها وشدتها)(١) وكان الصليبيون حاولوا تغيير المظهر الإسلامي لمدينة القدس فإن الداوية من الصليبيين بنوا غربي الأقصى أبنية ليسكنوها (وعملوا فيها ما يحتاجون إليه من هرى ومستراح وغير ذلك وأدخلوا بعض الأقصى في أبنيتهم فأعيد إلى الأول) وأمر صلاح الدين بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس وإعادة الأبنية إلى حالها القديم .

ولما كان الجمعة الأخرى رابع شعبان سنة ٥٨٣ هـ / أكتوبر ١١٨٧ م صلى المسلمون في المسجد الأقصى ومعهم السلطان صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة ، وكان الخطيب والإمام محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق (ثم رتب فيه صلاح الدين خطيباً وإماماً برسم الصلوات الخمس ، وأمر أن يعمل له منبر ، فقيل له : إن نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه وقال : هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس ، فعمله النجارون في عدة سنين لم يعمل في الإسلام مثله ، فأمر بإحضاره فحمل من حلب ونصب بالقدس وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة وكان هذا من كرامات نور الدين وحسن مقاصده رحمه الله)(٢) . ولما فرغ السلطان صلاح الدين من صلاة الجمعة تقدم بعمارة المسجد الأقصى واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه ، فشرعوا في عمارته ومحو ما كان في تلك الأبنية من الصور (وكان الفرنج فرشوا الرخام فوق الصخرة وغيبوها فأمر بكشفها) وغسلت الصخرة بعدة أحمال ماء ورد ، ثم نقل إليها صلاح الدين المصاحف الحسنة والربعات

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥١) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٧) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٧) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥١ – ٥٥٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٢٨ – ٢٢٩) .

الجيدة (ورتب القراء وأدر عليهم الوظائف الكثيرة فعاد الإسلام هناك غضاً طرياً ، وهذه المكرمة من فتح البيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه غير صلاح الدين رحمه الله وكفاه ذلك فخراً وشرفاً)(١) .

وهنا ينبغى أن نذكر بأن السلطان صلاح الدين الأيوبى لم يفعل مع الصليبيين من أساليب القسوة والقتل والتعذيب مثلما فعلوا مع المسلمين عندما استولوا على القدس سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م وكان صلاح الدين معتدلا فى كل شىء ومتسامحاً كما علمه الإسلام ، يحب العفو عن الخصم وهو القادر على البطش به ، وقد التزم بالأمان ووفى العهود كاملة للصليبيين بل أن قواته فى بعض الأحيان كانت ترافق الصليبيين حتى توصلهم إلى مأمنهم فى البلاد الصليبية . وفى القدس سمح لهم بأخذ أموالهم وحملها والمسير حيث شاءوا وكانوا قد (شرعوا فى بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم وما لا يطيقون حمله وباعوا ذلك بأرخص الأثمان ، فاشتراه التجـار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من الفرنج ، فإنهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام فى مساكنهم ويأخذ منهم الجزية ، فأجابهم إلى ذلك)(٢) . وبعد أن استقر الإسلام فى القدس أرسل السلطان بالبشائر إلى الخليفة العباسى الناصر لدين الله وإلى سائر ملوك الأطراف وسار من القدس فى الخامس والعشرين من شعبان سنة ٥٨٣ هـ يريد مدينة صور الصليبية(٣) ليتابع حركة الجهاد الإسلامى ضد المعتدين .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٧ ، ٢٢٩ - ٢٣٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٧) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٣٧ - ١٤٤) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥٢) ، ثم انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٦) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٣٥ - ١٣٦) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥٣) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٧) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٤٧ - ١٤٩) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٢) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٧ - ٣٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٣٨ - ٢٤٠) .

هجوم صلاح الدين على صور سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م :

كان من أثر تسامح صلاح الدين مع الصليبيين أن أمنهم على أرواحهم وأموالهم فى كل الحصون والقلاع والمدن التى دخلها بالأمان ، فسار كل من فى البلاد المفتوحة يقصدون مدينة صور فأصبحت بهم تمثل أكبر مراكز القوة الصليبية بعد القدس وعكا وعسقلان وخصوصاً بعد أن وصل إليها كونرادى مونتفرات أحد أمراء الغرب الأوربى ويسمى المركيس وقال ابن الأثير يصف أحوال صور والصليبيين بها :(وكانت قد اجتمع فيها من الفرنج عالم كثير وقد صار المركيس صاحبها والحاكم فيها ، وقد ساسهم أحسن سياسة ، وبالغ فى تحصين البلد ووصل صلاح الدين إلى عكا وأقام بها أياماً ، فلما سمع المركيس بوصوله إليها جد فى عمل سور صور وخنادقها وتعميقها ، ووصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر ، فصارت المدينة كالجزيرة فى وسط الماء لا يمكن الوصول إليها ولا الدنو منها)(١) .

وكان الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب نائب السلطان بصيدا وبيروت راقب تطور أحوال الصليبيين فى مدينة صور وأزعجه ازدياد قوة الصليبيين بها فأرسل الكتب إلى السلطان صلاح الدين (يحرضه على حصار صور) فرحل السلطان عن القدس فى اليوم الخامس والعشرين من شعبان سنة ٥٨٣ هـ / أكتوبر ١١٨٧ م وسار معه أخوه الملك العادل ووصلا إلى مدينة عكا وأقام بها أياماً ثم رحل منها وسار إلى صور فوصلها فى تاسع شهر رمضان ونزل على نهر قريب من صور (حتى آجتمع الناس وتلاحقوا ، وسار فى الثانى والعشرين من رمضان فنزل على تل يقارب سور البلد بحيث يرى القتال) وقسم القتال على العسكر بحيث يستمر القتال على صور فجعل (كل جمع منهم له وقت معلوم يقاتلون فيه بحيث يتصل القتال على أهل البلد)(٢) وعلى الرغم من انهيار الروح المعنوية الصليبية نتيجة للهزائم المتلاحقة التى لحقت

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥٣) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٤٣) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٧) .
Setton : Ahistory of the crusades, vol,2 p. 46,

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥٣ – ٥٥٤) ، وابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٤٢) العماد الكاتب : الفتح القسى ص ١٥٣ .

بهم فى المعارك السابقة إلا أنهم فى مدينة صور قد عقدوا العزم على المقاومة والصبر وكأنهم يدافعون دفاع من يريد الموت وقال ابن الأثير : (على أن الموضع الذى يقاتلون فيه قريب المسافة ، يكفيه الجماعة اليسيرة من أهل البلد لحفظه ، وعليه الخنادق التى قد وصلت من البحر إلى البحر ، فلا يكاد الطير يطير عليها ، فإن المدينة كالكف فى البحر والساعد متصل بالبر والبحر من جانبى الساعد ، والقتال إنما هو فى الساعد ، فزحف المسلمون مرة بالمجانيق والعرادات والجروخ ، والدبابات وكان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال مثل : ولده الأفضل وولده الظاهر غازى وأخيه العادل ابن أيوب ، وابن أخيه تقى الدين وكذلك سائر الأمراء)(١) . وعلى الرغم من جهاد المسلمين وصبرهم فإن الصليبيين صمدوا للقتال (وكان للفرنج شوان وحراقات يركبون فيها فى البحر ، ويقفون من جانبى الموضع الذى يقاتل المسلمون منه أهل البلد ، فيرمون المسلمين من جانبهم بالجروخ ، ويقاتلونهم ، وكان ذلك يعظم عليهم ، لأن أهل البلد يقاتلونهم من بين أيديهم وأصحاب الشوانى يقاتلونهم من جانبيهم فكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين إلى الجانب الآخر لضيق الموضع ، فكثرت الجراحات فى المسلمين والقتل . ولم يتمكنوا من الدنو إلى البلد ، فأرسل صلاح الدين إلى الشوانى التى جاءته من مصر ، وهى عشر قطع ، وكانت بعكا ، فأحضرها برجالها ومقاتلتها وعدتها ، وكانت فى البحر تمنع شوانى أهل صور من الخروج إلى قتال المسلمين فتمكن المسلمون حينئذ من القرب من البلد ومن قتاله ، فقاتلوه براً وبحراً وضايقوه حتى كادوا يظفرون ، فجاءت الأقدار بما لم يكن فى الحساب ، وذلك إن خمس قطع من شوانى المسلمين باتت ، فى بعض تلك الليالى ، مقابل ميناء صور ليمنعوا من الخروج منه والدخول إليه ، فباتوا ليلتهم يحرسون ، وكان مقدمهم عبد السلام المغربى الموصوف بالحذق فى صناعته وشجاعته ، فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا ، فما شعروا إلا بشوانى الفرنج قد نازلتهم وضايقتهم فأوقعت بهم فقتلوا من أرادوا قتله ،

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥٤) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٤٣) .

وأخذوا الباقين بمراكبهم ، وأدخلوهم ميناء صور . والمسلمين فى البر ينظرون إليهم ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشوانى فى البحر ، فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق .

وتقدم السلطان إلى الشوانى الباقية بالمسير إلى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فسارت ، فتبعها شوانى الفرنج ، فحين رأى من فى شوانى المسلمين الفرنج مجدين فى طلبهم ألقوا نفوسهم فى شوانيهم إلى البر فنجوا وتركوها فأخذها صلاح الدين ، ونقضها وعاد إلى مقاتلة صور فى البر ، وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال)(١) .

وفى يوم من أيام القتال خرج الصليبيون من صور (فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتد القتال بين الفريقين ، ودام إلى آخر النهار كان خروجهم قبل العصر ، وأسر منهم فارس كبير مشهور ، بعد أن كثر القتال والقتل عليه من الفريقين . لما سقط ، فلما أسر قتل وبقوا كذلك عدة أيام)(٢) .

ولما دام القتال حول مدينة صور بدون جدوى رأى صلاح الدين (أن أمر صور يطول (ولهذا فكر فى ترك حصارها (وهذه كانت عادته متى ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه (ويقو ابن الأثير : إن سبب عدم استسلام مدينة صور كان سببه صلاح الدين فيقول فى هذا المعنى : (فلما رأى هو وأصحابه شدة أمر صور ملوها ، وطلبوا الانتقال عنها ، ولم يكن لأحد ذنب فى أمرها غير صلاح الدين فإنه هو جهز إليها جنود الفرنج ، وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره ، كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥٤ — ٥٥٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٤٤ — ٢٤٥) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٦٠ — ١٦٢) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٨) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٧) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٣) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٤) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٤٥) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٦٤ — ١٦٧) .

فصار فيها ومن سلم من فرسان الفرنج بالساحل . بأموالهم وأموال التجار وغيرهم ، فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستدونهم . فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة ، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم يحتمون بها . ويلجأون إليها فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها)(١) وجمع صلاح الدين أصحابه واستشارهم فيما يفعل فاختلفوا فجماعة يقولون : (الرأى أن نرحل ، فقد جرح الرجال وقتلوا وملوا ، وفنيت النفقات . وهذا الشتاء قد حضر ، والشوط بطين ، فنريح ونستريح فى هذا البرد. فإذا جاء الربيع اجتمعنا وعاودناها وغيرها . وكان هذا قول الأغنياء منهم . وكأنهم خافوا أن السلطان يقترض منهم ما ينفقه فى العسكر إذا أقام لخلو الخزائن وبيوت الأموال من الدرهم والدينار فإنه كان يخرج كل ما حمل إليه منها وقالت الطائفة الأخرى : الرأى أن نصابر البلد ونضايقه . فهو الذى يعتمدون عليه من حصونهم ومتى أخذناه منهم انقطع طمع من داخل البحر من هذا الجانب ، وأخذنا باقى البلاد صفواً عفواً)(٢) . فبقى السلطان صلاح الدين متردداً بين الرحيل والإقامة ولكنه اضطر إلى الرحيل عن صور فى آخر شهر شوال ٥٨٣ هـ / آخر ديسمبر ١١٨٧ م وسار إلى مدينة عكا وأذن (للعساكر جميعها بالعود إلى أوطانهم والاستراحة فى الشتاء والعود فى الربيع ، فعادت عساكر الشرق والموصل وغيرها ، وعساكر الشام وعساكر مصر ، وبقى حلقته الخاصة مقيماً بعكا)(٣) .

هزيمة المسلمين فى حصن الكوكب بسبب الغفلة سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م :

كان حصن كوكب للصليبيين من طائفة الاسبتارية المتعصبين ضد الإسلام . وكان السلطان صلاح الدين (لما سار إلى عسقلان قد جعل على

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥٥ – ٥٥٦) .
Setton : Ahistory of the Crusades, vol 2 p,46

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥٦) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٦٨– ١٦٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٧) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥٦ – ٥٥٧) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٤٥ – ٢٤٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٧) .

قلعة كوكب من يحصرها ويحفظ البحر والطريق للمجتازين لئلا ينزل به من الفرنج يقطعونه (وجعل قيادة العسكر للأمير سيف الدين محمود الأسدى (وكان سيف الدين محمود شهماً شجاعاً يرجع إلى دين وعبادة - فأقام على كوكب إلى آخر شوال . وكان أصحابه يحرسون نوبا مرتبة ، فلما كان آخر ليلة من شوال غفل الذين كانت نوبتهم فى الحراسة ، وكان قد صلى ورده من الليل إلى السحر وكانت ليلة باردة ذات رعد وبرق وريح ومطر . فلم يشعروا إلا والفرنج قد خالطوهم بالسيوف ووضعوا السلاح فيهم ، فاستشهد سيف الدين وأصحابه ، وأخذ الفرنج ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره وعادوا إلى قلعتهم ، فتقووا فى ذلك قوة عظيمة) وغضب السلطان لهذا الحادث (ثم رتب على حصن كوكب الأمير قايماز النجمى فى جماعة أخرى من الأجناد فحصروها)(١) .

فتح حصن هونين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م :

كان حصن هونين من الحصون التى امتنعت على صلاح الدين (وهى من أحصن القلاع وأمنعها) وأرسل السلطان إليها جماعة من العسكر فحصروها ومنعوا وصول الإمدادات إليها (فلما كان السلطان على محاصرة صور أرسل من بها يطلب الأمان فأمنهم ، فسلموا هونين إلى السلطان ونزلوا منها فأمنهم)(٢) وكان السلطان بعد رحيله عن مدينة صور وفشل الاستيلاء عليها قد أعطى القوات إذناً من أجل الراحة وسار إلى عكا ثم عاد إلى دمشق فدخلها فى سادس ربيع الأول سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م بعد غياب دام ستة عشر شهراً قضاها فى الجهاد وكان السلطان فى الخامس من ربيع الأول قد علم بأن الصليبيين (قصدوا جبيلا واغتالوها فخرج منزعجاً ساعة بلوغه

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٤٦ - ٢٤٧) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥٧ - ٥٥٨) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٨) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٩٨) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٤) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٠٣ - ٢٠٤) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٤٧) ، ابن الأثير : الكامل ج ١١ ص (٥٥٧) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (١٧٠ - ١٧١) .

الخبر (وأرسل يطلب اجتماع القوات من سائر الجوانب وسار يطلب جبيلا (فلما عرفت الإفرنج بخروجه كفوا عن ذلك)(١) .

استيلاء صلاح الدين على أنطرطوس سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م :

بعد أن اجتمعت القوات الإسلامية من جديد ووصل عسكر الموصل تحرك للجهاد (ولم يكن سعيه إلا فى الجهاد وتحصيل مجد،ولم يكن يرغب فيما كان يرغب غيره من الملوك من الملذات الحسيسة ، لذات البطن والفرج ، ولم يكن من رأيه التوزع والسكون وإضاعة الحزم ، بل الحذر والتشمير والحزم والعزم الصادق فيما يحصل به المجد فى الدنيا ، والحمد فى الآخرة)(٢) . وسار صلاح الدين يوم الجمعة الرابع من جمادى الأولى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م وهو يقصد قتال العدو ورتب القوات (وسارت الميمنة ومقدمتها عماد الدين زنكى ، والقلب فى الوسط ، والميسرة فى الآخرة ، ومقدمها مظفر الدين بن زين الدين ، والثقل فى وسط العسكر) وتابع السلطان التقدم فى أرض العدو (فبات تلك الليلة فى بلد العدو) ثم رحل صبيحة السبت ونزل على العزيمة وهى للصليبيين فلم يتعرض لها ورحل يوم الأحد السادس من جمادى الأولى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م إلى مدينة انطرطوس وهو ينوى متابعة السير إلى جبله ولكنه استهان بأمر أنطرطوس فعزم على قتالها (فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر ونزل هو فى موضعه وصارت العساكر محدقة بها من البحر إلى البحر وهى مدينة راكبة لى البحر ، لها برزخان كالقلعتين حصينان)(٣) . وبعد أن تم ترتيب مواضع القوات وحدد لكل جماعة ما يقومون به أمر بالزحف والقتال (واشتد الحرب والقتال والزحف وضايقهم وباغتهم فما استتب نصب الخيم حتى صعد الناس السور وأخذوها

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٥ – ٨٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٠٠) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٥٤) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٥٦) .

بالسيف وغنم العسكر جميع من بها وما بها وخرج الناس بالأسرى وأموالهم بأيديهم)(١) واستسلم برج من أبراجها وبقى الآخر وكان السلطان صلاح الدين قد عزم على أخذها قبل أن يتناول طعام الغذاء ، فقد ذكر ابن شداد عن صلاح الدين أنه كان قد عرض عليه الغذاء فقال : نتغذى بأنطرطوس إن شاء الله (ثم أمر السلطان بتدمير سور المدينة حتى لا يحتمى به الصليبيون إذا ما حاولوا استرداد المدينة ثم أمر بإحراق البلد (فأحرق جميعه حتى كانت تعج النار فى آدره وبيوته والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير (٢) .

جهاد السلطان صلاح الدين ضد إمارتى طرابلس وأنطاكية سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م :

بعد أن اجتمعت القوات الإسلامية عند السلطان صلاح الدين سار بها إلى ناحية حصن الأكراد من الجانب الشرقى وأقام يومين وسار جريدة وترك أثقال العسكر موضعها تحت الحصن ودخل بلاد الصليبيين وأغار على بعض بلادهم ووصل إلى قرب طرابلس (وأبصر البلاد ، وعرف من أين يأتيها . وأين يسلك منها ، ثم عاد إلى معسكره سالماً)(٣) وكان هدف صلاح الدين من هذه الغارة السريعة كشف أحوال بلاد العدو ووضع خطة حربية للهجوم عليها وخصوصاً بلاد الصليبيين فى إمارتى طرابلس وأنطاكية ، وتوغل بعد ذلك فى إمارة أنطاكية وهاجم جبلة فى ١٨/ ٥/ ٥٨٤ هـ / يولية ١١٨٨ م (وتسلمها وقت وصوله) ولكن قلعتها لم تستسلم إلا بعد أن ضايقها المسلمون وسلمت بالأمان يوم السبت ١٩/ ٥/ ٥٨٤ هـ / يولية سنة ١١٨٨ م(٤) ثم زحفت القوات الإسلامية إلى حصن بكسرائيل الواقع على طريق حماة (وكان أهل الحصن استعادوه من الفرنج منذ سنين ، فسلموه

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٨) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٨) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٠٠) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٥٦ – ٢٥٧) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٦) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٧ – ٨) ، انظر أيضاً ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٥٥ – ٢٥٩) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٨٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٠٠) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٩) .

إلى السلطان) ، ثم تحرك صلاح الدين إلى جهة اللاذقية فوصلها فى اليوم الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٨٤ هـ / يونية ١١٨٨ م وكانت اللاذقية أكبر ميناء لإمارة أنطاكية الصليبية وهاجمها المسلمون (فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها)(١) وصعدوا إلى حصنين لها على الجبل واحتموا بها فنازلها المسلمون وحصروهما(ونقبوا فى السور ستين ذراعاً وعلقوه ،وعظم القتال واشتد الأمر عند الوصول إلى السور) والصليبيون يدافعون فدخل عليهم قاضى جبلة فخوفهم من المسلمين (فلما أيقن بالعطب ... طلبوا الأمان فأمنهم صلاح الدين ، ورفعوا الأعلام الإسلامية على الحصنين) وذلك فى اليوم الثالث لحصار الحصنين الموافق ١٧/ ٥/ ٥٨٤ هـ / يولية ١١٨٨ م وسلمها السلطان إلى ابن أخيه تقى الدين عمر (فعمرها ، وحصن قلعتها) (٢) وكان اسطول صليبى جاء من صقلية لنجدة الصليبيين يتكون من ستين قطعة بحرية من نوع الشوانى(٣) ولما نازل صلاح الدين ميناء اللاذقية وقف الأسطول الصليبى بإزاء الميناء لمساعدة الصليبيين ، فلما سلمها الصليبيون الذى بها إلى صلاح الدين (عزم أهل هذا الأسطول على أخذ من يخرج منها من أهلها غيظاً وحنقاً ، حيث سلموها سريعاً ، فسمع بذلك أهل لاذقية ، فأقاموا ، وبذلوا الجزية وكان سبب مقامهم)(٤) ولكن مقدم الأسطول الصليبى لم يقتنع بما جرى على الصليبيين وطلب من السلطان صلاح الدين الأمان ليحضر عنده ، فأمنه وحضر وقبل الأرض بين يديه وقال له :

(أنت سلطان عظيم قد شاع فى الأرض عدلك ، واشتهر فضلك وإحسانك ، فلو مننت على هذه الطائفة الساحلية الخائفة لملكت قيادها ولو أعدت عليها ما أخذته من البلاد صاروا عبيداً وأطاعوك وإلا جاءك من

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٩) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٣٣) .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٩) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين (٨٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٥٩ - ٢٦٠) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٣٥ - ٢٤٠) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤٠) .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٥٧).
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٩ - ١٠) .

وراء البحر فى عدد الموج أفواجاً فوجاً بعد فوج ، وسار إليك ملوك النصرانية من سائر الممالك ، وأمر هؤلاء القوم أهون عليه من غيرهم ، فاعطف عليهم واصفح) . فقال له السلطان: (قد أمرنا الله بالجهاد لأعداء الدين ، وافترضه علينا، فنحن قائمون فى طاعته بأداء ما افترض علينا من الجهاد ، وهو الذى يقدرنا على فتح البلاد، ولو اجتمع علينا أهل الأرض لتوكلنا على الله تعالى) فصلب الفرنجى على وجهه وعاد إلى مركبه(١) .

فتح قلعة صهيون :

تحرك السلطان صلاح الدين بعد اللاذقية قاصداً صهيون، ووصل إليها فى التاسع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٨٤ هـ / يولية ١١٨٨ م (فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الأربعاء ونصب عليها المجانيق وهى قلعة حصينة منيعة شاهقة فى الهواء، وهى فى طرف جبل . وخنادقها أودية هائلة واسعة عميقة وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد طوله ستون ذراعاً وهو نقر فى حجر ولها ثلاثة أسوار : سوران دون ربضها، وسور دون القلة مع سور القلة)(٢) .

ونزل السلطان على الجبل الملتصق بقلعة صهيون ونصب عليه المجانيق ورماها فى حين أمر صلاح الدين ابنه الملك الظاهر بالتقدم إلى المكان الضيق من الوادى ونصب عليه المجانيق أيضاً ورمى الحصن منه، وكان الهدف من التقدم إلى أقرب الأماكن من حصن صهيون هو أن تكون قذائف المجانيق الإسلامية فى وضع يمكنها من الوصول إلى العدو والتأثير فيه . ولما كان اليوم الثانى من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٤ هـ / أوائل أغسطس ١١٨٨ م زحف المسلمون وجاءوا إلى منطقة من الجبل (قد أغفل الفرنج أحكامها

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦٠ - ٢٦١) ، ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص (١٠) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٤٠) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦١) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٠) ، وذكر ابن الأثير والعماد الكاتب أن لها خمسة أسوار منيعة : الكامل ج ١٢ ص (١٠) ، الفتح القسى ص (٢٤١) .

فتسلقوا منها بين الصخور ، حتى التحقوا بالسور الأول فقاتلوهم عليه حتى ملكوه (ثم ملكوا بقية الأسوار) وارتفعت الأصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل) وأمام انهيار الروح المعنوية الصليبية وإصرار المجاهدين المسلمين على اقتحام الحصن تراجع الصليبيون إلى القلة التى للقلعة واحتموا بها (فقاتلهم المسلمون عليها فنادوا وطلبوا الأمان ، فلم يجبهم صلاح الدين إليه فقرروا على أنفسهم مثل قطيعة البيت المقدس) وتسلم صلاح الدين الحصن وسلمه إلى الأمير ناصر الدين منكوبرس صاحب قلعة أبى قبيس (فحصنه وجعله من أحصن الحصون (وكان من نتائج سقوط حصن صهيون فى أيدى المسلمين أن دب الرعب والخوف فى قلوب الصليبيين فى حصن بلاطنوس وكان من به من الفرنج قد هربوا منه وتركوه خوفاً ورعباً) ، كما استسلم حصن العيد وحصن الجماهرتين (فاتسعت المملكة الإسلامية بتلك الناحية)(١).

فتح الشغر وبكاس سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م :

سار صلاح الدين بقواته نحو حصن بكاس(٢) فوصله فى ٦ / ٦ / ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م فأحاط بها المسلمون من كل جانب ، وقاتلها المسلمون قتالا شديداً فاضطر أهلها إلى إخلائها وفتحها صلاح الدين عنوة يوم الجمعة الموافق ٩ / ٦ / ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م ولكن معظم من كان بها من الصليبيين اعتصموا بقلعة مجاورة لها تعرف باسم الشغر (يعبر إليها بجسر وهى فى غاية المنعة ليس إليها طريق فسلطت عليها المنجنيقات من الجوانب ولكن بدون جدوى ، فلم يصل من أحجار المنجنيق الإسلامى إلى القلعة شىء إلا القليل)

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٠ - ١١) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦١ - ٢٦٣) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٠ - ٩١) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٤١ - ٢٤٤) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤٠) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٤) ، أما عن القطيعة التى قرروها على أنفسهم أن يدفع الرجل عشرة دنانير وعن المرأة خمسة دنانير وعن الصغير ديناران ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩١).

(٢) وهى قلعة حصينة على جانب نهر العاصى .

انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩١) .

الذى لا يؤذى (فيقى المسلمون عليه أياماً لا يرون فيه طمعاً ، وأهله غير مهتمين بالقتال لامتناعهم عن ضرر يتطرق إليهم ، وبلا ينزل عليهم).

وبينما المسلمون فى حيرة من أمرها وهم يناقشون ما يفعلون بصدد قلعة الشغر قال بعضهم : (هذا الحصن كما قال الله تعالى : **«فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً»** . فقال صلاح الدين : أو يأتى الله بنصر من عنده وفتح).

(فبينما هم فى هذا الحديث إذ أشرف عليهم فرنجي ونادى بطلب الأمان لرسول يحضر عند صلاح الدين ، فأجيب إلى ذلك ونزل رسول . وسأل أنظارهم ثلاثة أيام ، فإن جاءهم من يمنعهم وإلا سلموا القلعة بما فيها من ذخائر ودواب وغير ذلك ، فأجابهم إليه وأخذ رهائنهم على الوفاء به) فسلموها يوم الجمعة ١٦ / ٦ / ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م للسلطان صلاح الدين بعد مضى الأيام الثلاثة بعد أن استشاروا أمير أنطاكية الصليبي وطلبوا منه مساعدتهم وترحيل المسلمين عن قلعتهم ولكنه اعتذر إليهم بعدم قدرته (لرعب قذفه الله تعالى فى قلوبهم) فسلموها للسلطان فأعطاها للأمير غرس الدين قلج وأمره بعمارة هذه القلعة والاهتمام بأمورها(١) لتكون من حصون الإسلام المنيعة .

فتح سرمينية سنة ٥٨٤ / ١١٨٨ م :

وأرسل صلاح الدين ابنه الملك الظاهر صاحب حلب ببعض قواته إلى سرمينية لمحاصرتها (فقاتلها قتالا شديداً وضايقها مضايقة عظيمة) ثم تسلمها المسلمون فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٨٤ هـ بعد أن دفع من كان بها من الصليبيين قطيعة قررها عليهم الملك الظاهر وقبضها (ولما أخرجهم منها هدمها وسواها إلى الأرض) ويقول ابن الأثير (واتفق أن فتح هذه المدن والحصون جميعها من جبلة إلى سرمينية

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٢ - ١٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦٤) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩١) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٤٥ - ٢٤٧) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤٠ - ٤١) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٠٠) .

مع كثرتها كان فى ست جمع مع أنها فى أيدى أشجع الناس وأشدهم عداوة للمسلمين فسبحان من إذا أراد أن يسهل الصعب فعل وهى جميعها من أعمال أنطاكية)(١) وقال ابن شداد فى وصف هذه الأحوال : (فاتفقت فتوحات الساحل من جبلة إلى صرمانية فى أيام الجمع ، وهى علامة قبول دعاء الخطباء المسلمين وسعادة السلطان حيث يسر لنا الله الفتوح فى اليوم الذى يضاعف فيه ثواب الحسنات ، وهذا من نوادر الفتوحات فى الجمع المتوالية ، ولم يتفق مثلها فى التاريخ)(٢) وقال ابن واصل فى هذا المعنى : (ومن عجيب الاتفاق إن هذه ست قلاع ومدن فتحت فى ست جمع وهى علامة قبول دعاء خطباء المسلمين وسعادة السلطان ، حيث يسر الفتوحات فى اليوم الذى تضاعف فيه الحسنات ، ولم يتفق مثل هذا فى تاريخ وهى : جبلة ، واللاذقية ، وصهيون ، وبكاس ، والشغر ، وسرمانية)(٣) ولا شك أن هذه الانتصارات تدل دلالة قاطعة على أن النصر بالنسبة للمسلمين مقرون بالإيمان والإسلام ، فإذا علمنا أن جيش الإسلام فى عصر صلاح الدين كان يتمسك بالإسلام فى كل شىء ، ويستعينون بالله على عدوهم حتى صدق قول الله تعالى فيهم : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

فتح قلعة برزية سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م :

وقلعة برزية من المواقع الصليبية الهامة (وهى قلعة حصينة فى غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل فى جميع بلاد الإفرنج والمسلمين ، يحيط بها أودية من سائر جوانبها ، وذراع علوها كان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً)(٤) وعلى الرغم من حصانة هذه القلعة وصعوبة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٣ - ١٤) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦٤) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩١ - ٩٢) ، أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٥) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٢) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦٥) .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦٥) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٤) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٤٨)

الوصول إليها فإن المسلمين لم يتركوا حصارها وقرروا المسير إليها وقتالها حتى تسقط مهما كانت الأسباب (وكان أهلها أضر شيء على المسلمين يقطعون الطريق ، ويبالغون فى الأذى) ونزل المسلمون حولها فى الرابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة عام ٥٨٤ هـ ، وقام السلطان صلاح الدين فى اليوم التالى بجولة طاف عليها لينظر موضعاً يقاتلها منه فلم يجده إلا من جهة الغرب وكان ابن الأثير من المجاهدين فى هذه النوبة ووصف ما جرى من قتال وشدائد وقال : (وهذه القلعة لا يمكن أن تقاتل من جهة الشمال والجنوب البتة ، فإنها لا يقدر أحد أن يصعد جبلها من هاتين الجهتين ، وأما الجانب الشرقى فيمكن الصعود منه لكن لغير مقاتل ، لعلوه وصعوبته ، وأما جهة الغرب فإن الوادى المطيف بجبلها قد ارتفع هناك ارتفاعاً كثيراً ، حتى قارب القلعة ، بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسهام ، فنزله المسلمون ونصبوا عليه المجانيق ، ونصب أهل القلعة عليها منجنيقاً بطلها)(١) ، ويروى ابن الأثير أيضاً كيف أن قذائف مجانيق الصليبيين من القلعة أبطلت مفعول مجانيق المسلمين فيقول : (ورأيت أنا من رأس جبل عال يشرف على القلعة ، ولكنه لا يصل منه شيء إليها ، امرأة ترمى من القلعة عن المنجنيق وهى التى بطلت منجنيق المسلمين)(٢) ، فاضطر صلاح الدين إلى تغيير خطة القتال (وعزم على الزحف ومكاثرة أهلها بجموعه ، فقسم عسكره ثلاثة أقسام : يزحف قسم ، فإذا تعبوا وكلوا عادوا وزحف القسم الثانى ، فإذا تعبوا وضجروا عادوا وزحف القسم الثالث ثم يدور الدور مرة أخرى حتى يتعب الفرنج وينصبوا ، فإنهم لم يكن عندهم من الكثرة ما يتقسمون كذلك ، فإذا تعبوا وأعيوا سلموا القلعة)(٣) . وكانت النوبة الأولى فى القتال لعماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى صاحب سنجار ، وزحف بقواته (فقاتل قتالا شديداً حتى استوفى نوبته وكل أصحابه) ، فلما تعب هذا القسم

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٤) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٥) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦٦) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين (٩٢) ، العماد الكاتب : الفتح القسى (٢٤٨-٢٤٩).

انحدروا وصعد القسم الثانى وكانوا جلوساً ينتظرونهم وهم حلقة صلاح الدين الخاص ، فقاتلوا قتالا شديداً وكان الزمان حراً شديداً فاشتد الكرب على الناس ، وصلاح الدين فى سلاحه يطوف عليهم ويحرضهم ، وكان تقى الدين ابن أخيه كذلك ، فقاتلوهم إلى قريب الظهر ثم تعبوا ، ورجعوا)(١) . ولكن السلطان لما شاهد رجوع عسكره انطلق إليهم يردهم وصاح فى القسم الثالث (وهم جلوس ينتظرون نوبتهم ، فوثبوا ملبين وساعدوا إخوانهم وزحفوا معهم ، فجاء الفرنج ما لا قبل لهم به ، وكان أصحاب عماد الدين قد استراحوا فقاموا أيضاً معهم ، فحينئذ اشتد الأمر على الفرنج وبلغت القلوب الحناجر ، وكانوا قد اشتد تعبهم ونصبهم ، فظهر عجزهم عن القتال ، وضعفهم عن حمل السلاح لشدة الحر والقتال ، فخالطهم المسلمون ، فعاد الفرنج يدخلون الحصن ، فدخل المسلمون معهم وكان طائفة قليلة فى الخيام ، شرقى الحصن فرأوا الفرنج قد أهملوا ذلك الجانب لأنهم لا يرون فيه مقاتلا وليكثروا فى الجهة التى فيها صلاح الدين ، فصعدت تلك الطائفة من العسكر . فلم يمنعهم مانع ، فصعدوا أيضاً الحصن من الجهة الأخرى فالتقوا مع المسلمين الداخلين مع الفرنج ، فملكوا الحصن عنوة وقهراً ودخل الفرنج القلعة التى للحصن وأحاط بها المسلمون ، وأرادوا نقبها ، وكان الفرنج قد رفعوا من عندهم من أسرى المسلمين إلى سطح القلة وأرجلهم فى القيود والخشب المنقوب فلما سمعوا تكبير المسلمين فى نواحى القلعة كبروا فى سطح القلة وظن الفرنج أن المسلمين قد صعدوا على السطح . فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر ، فملكها المسلمون عنوة (٢) ، وجمع الأسرى وكان من بينهم صاحب قلعة برزية (وكان رجلا كبيراً منهم) وأسر معه أيضاً امرأته وأولاده ومنهم بنت له معها زوجها (فتفرقهم العسكر فأرسل صلاح الدين فى الوقت وبحث

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٥) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦٦) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص(٢٥٠-٢٥١)

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ص (١٥ - ١٦) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦٦ - ٢٦٧) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٥١) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٢) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤١) .

عنهم واشتراهم ، وجمع شمل بعضهم ببعض) وأنعم عليهم السلطان بما لهم وكان سبب ذلك أن زوجة بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية كانت (تهادى السلطان وتناصحه وتطالعه على أسرار الفرنج وكان السلطان يكرمها لذلك ويهدى إليها أنفس الهدايا ، وكانت أختها صاحبة برزية فسبيت يوم الفتح ، فما زال السلطان يطلبها حتى أحضروها وأحضروا زوجها وابنة له وجماعة من أصحابها وصهرها فأنعم عليهم السلطان بما لهم ، وسيرهم إلى أنطاكية إكراماً لامرأة البرنس ، فشكرته على ذلك ودامت مودتها له)(١) ، ومن القصه المذكورة نفهم مدى اعتدال المسلمين فى فتوحاتهم وأنهم لا يرغبون فى قتل الناس رغم أنهم يستطيعون ذلك. ولكن الإسلام جعل الأخلاق الإسلامية من وسائل الأعلام والإعلان عن حقيقة الإسلام والمسلمين كما يفهم أيضاً أن صلاح الدين قد برع فى السياسة ، كما برع فى الحرب فقد استطاع أن يقيم اتصالات سرية مع زوجة صاحب أنطاكية ، تلك الإمارة الصليبية الخطيرة والتى تهدد المسلمين من وقت إلى آخر والهدف من تلك الاتصالات الحصول على معلومات عن الصليبيين من ناحية ، كما أن مثل هذه الزوجة لها عظيم الأثر على نفس زوجها ، فكان بإمكانها تغيير مجرى الكثير من الحوادث من أجل مصلحة المسلمين وأشار ابن الأثير إلى ذلك بقوله : (وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه ، وتعلمه كثيراً من الأحوال التى تؤثر)(٢) .

استسلام قلعة درب ساك سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م :

(وهى قلعة منيعة من معاقل الداوية ، قريبة من أنطاكية) وكان صلاح الدين بعد فتح حصن برزيه رحل عنه من الغد وأتى جسر الحديد وأقام عليه ثلاثة أيام ثم سار إلى درب ساك (دربساك) ونازلها يوم الجمعة ٨/٧/ ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م ونصب عليها المنجنيقات وتابع قذفها بحجارة المجانيق حتى هدم من سورها شيئاً يسيراً (فلم يبال من فيه بذلك) فأمر صلاح الدين قواته

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦٧) ، ثم انظر ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص (١٧) .
ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٣) العماد الكاتب : الفتح النفسى ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٧) .

بالزحف ومهاجمة الصليبيين ، فزحفوا وقاتلوها (وكشفوا الرجال عن سورها ، وتقدم النقابون فنقبوا منها برجاً وعلقوه ، فسقط واتسع المكان الذى دعا المقاتلة أن يدخلوا منه وعادوا يومهم ذلك ، ثم باكروا الزحف من الغد) (١) وأرسل الصليبيون فى دربساك إلى صاحب أنطاكية الصليبى يطلبون النجدة) فصبروا وأظهروا الجلد وهم ينتظروا وصول جوابه إما بإنجادهم وإزاحة المسلمين عنهم ، وأما بالتخلى عنهم ليقوم عذرهم فى التسليم ، فلما علموا عجزه عن نصرتهم ، وخافوا هجوم المسلمين عليها ، وأخذهم بالسيف وقتلهم وأسرهم ونهب أموالهم ، طلبوا الأمان)(٢) وذكر ابن واصل عن القاضى الفاضل بهاء الدين (ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه ، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين) واشتد الأمر فطلبوا الأمان ، فأومنوا على أن يخرجوا بثياب أبدانهم ويدعوا كل ما فى الحصن من خيل وعدة وأثاث وقماش وذهب وفضة واستمهلوا ثلاثة أيام ليراجعوا أهل أنطاكية،فأمهلوا حتى أخرجوا وتسلم الحصن (يوم الجمعة لثمان بقين من رجب) (٣) ولما تسلمها صلاح الدين سلمها للأمير علم الدين سليمان ابن جندر وسار السلطان يوم ٢٣ / ٧ / ٥٨٤ هـ إلى قلعة بغراس (وهى قلعة منيعة أقرب إلى أنطاكية من دربساك) وقد استشار صلاح الدين أصحابه فى حصارها (فنهم من أشار به ، ومنهم من نهى عنه وقال : هو حصن حصين وقلعة منيعة ، وهو بالقرب من أنطاكية ، ولا فرق بين حصره وحصرها ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦٧ - ٢٦٨) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٣) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٥٥)، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤١) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٨) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦٨) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٣) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٥٦) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤١) .

ويحتاج أن يكون العسكر فى البزك (جماعة من العسكر) مقابل أنطاكية ؛ فإذا كان الأمر كذلك قل المقاتلون عليها ، ويتعذر حينئذ الوصول إليها) ولكن صلاح الدين لم يكن يرهب المتاعب من أجل الجهاد (فاستخار الله تعالى وسار إليها وجعل أكثر عسكره يزكاً مقابل أنطاكية ، يغيرون على أعمالها ، وكانوا حذرين من الخوف من أهلها . إن غفلوا لقربهم منها)(١) ، وقد شارك فى هذه الغزوات العماد الكاتب وابن شداد وابن الأثير وقال ابن شداد (فضرب يزك الإسلام على باب أنطاكية بحيث لا يشذ عنه من يخرج منها ، وأنا ممن كان فى البزك فى بعض الأيام)(٢) أما صلاح الدين فقد سار مع بعض أصحابه يقاتل قلعة بغراس و نصب عليها المنجنيقات (فلم تؤثر فيها شيئاً لعلوها وارتفاعها) ولكن صلاح الدين كان قد عقد العزم على فتحها لما فى ذلك من أثر على انهيار الروح المعنوية الصليبية فى أنطاكية ، وعدم إتاحة الفرصة أمام الصليبيين وخصوصاً فى أنطاكية بأن يشعروا بضعف فى الجانب الإسلامى وعلى الرغم من أن معظم المسلمين كانوا يظنون (تعذر فتحها وتأخر ملكها وشق على المسلمين قلة الماء عندهم ، إلا أن صلاح الدين نصب الحياض ، وأمر بحمل الماء إليها ، فخفف الأمر عليهم)(٣) . فبينما المسلمون على هذه الحال (إذ قد فتح باب القلعة ، وخرج منه إنسان يطلب الأمان ليحضر ، فأجيب إلى ذلك ، فأذن له فى الحضور فحضر ، وطلب الأمان لمن فى الحصن حتى يسلموه إليه بما فيه على قاعدة درب ساك فأجابهم إلى ما طلبوا ، فعاد الرسول ومعه الأعلام الإسلامية فرفعت على رأس القلعة ونزل من فيها ، وتسلم المسلمون القلعة بما فيها من ذخائر وأموال وسلاح وأمر وإصلاح الدين بتخريبه فخرب (وكان ذلك فى ٥٨٤/٨/٢ هـ/١١٨٨ م)(٤).

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦٨) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٥٧ - ٢٥٨) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٣) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤١) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٣) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦٨) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٨ - ١٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب=

وقال ابن واصل : إن عماد الدين الكاتب قال : (وهذان الحصنان دربساك وبغراص كانا لأنطاكية جناحين ، ولطاغية الكفر سلاحين . فتم للسلطان فتح هذه الحصون المذكورة مع أبراج ومغارات وشقافات (كهوف) كثيرة حتى خلص ذلك الإقليم وتم الفتح العظيم وعادت الكنائس مساجد ، والبيع معابد ، والصوامع جوامع ، والمذابح لعبدة الصلبان مصارع) (١) .

الهدنة مع إمارة أنطاكية الصليبية سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م :

كان من نتائج سقوط حصن بغراس فى يد صلاح الدين أن خاف بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية من سقوط مدينته فى أيدى المسلمين وخصوصاً أن صلاح الدين بعد فتح بغراس عزم على التوجه إلى أنطاكية وحصارها فخاف صاحبها من ذلك وأشفق منه (فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الهدنة ، وبذل إطلاق كل أسير عنده من المسلمين) وكانت أنطاكية حينئذ قد ارتفعت بها الأسعار (والقوم قد شارفوا فيها تباراً وبواراً) ولم يكن صلاح الدين يبرم أمراً فى الجهاد إلا بعد استشارة أصحابه (فاستشار من عنده من أصحاب الأطراف وغيرهم فأشار أكثرهم بإجابته إلى ذلك ليعود الناس ويستريحوا ويجددوا ما يحتاجون إليه ، فأجاب إلى ذلك (وعقدت الهدنة بين الطرفين لمدة ثمانية أشهر أولها : أول تشرين الأول ــ وآخرها : آخر أيار ، وسير رسوله إلى صاحب أنطاكية حتى يحلف اليمين على هذه المهادنة المؤقتة ، ويطلق من عنده من الأسرى المسلمين ، وتم تنفيذ هذا الاتفاق(٢) ، وكان صاحب أنطاكية فى هذا الوقت أعظم الفرنج شأناً ، وأكثرهم ملكاً ، فإن

= ج ٢ ص (٢٦٨ – ٢٦٩) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٣ – ٩٤) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٥٨ – ٢٥٩) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤١) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٥) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦٩) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٦٩ – ٢٧٠) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٦٠ – ٢٦١) ، فى حين ذكر ابن شداد ، وأبو المحاسن : إن مدة الهدنة سبعة أشهر .
انظر : سيرة صلاح الدين ص (٩٤) ، والنجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤١) .

الفرنج قد سلموا إليه طرابلس ، بعد موت القمص ، وجميع أعمالها ، مضافاً إلى ما كان له ، لأن القمص لم يخلف ولداً فلما سلمت إليه طرابلس جعل ولده الأكبر نائباً عنه(١) وكان معنى هذا أن عقد الهدنة السابقة قد أعطى إمارتى أنطاكية وطرابلس فرصة الأمان بعض الوقت وربما كان من الخير لو واصل المسلمون الجهاد فى ذلك الحين لعدم إعطاء الصليبيين فرصة للاستعداد وحشد القوات وطلب النجدات من الغرب الأوروبى ولكن الذى يبرر عقد هذه الهدنة أيضاً أنها كانت ضرورية للعساكر الإسلامية التى لحق بها التعب والإرهاق لأن القتال لم يتوقف مدة طويلة من الزمن ، فقد كانو يفتحون حصناً ثم يبدأون بالآخر علاوة على أن مدة الهدنة فى حدود ماتسمح به الشريعة الإسلامية وعاد صلاح الدين إلى حلب فدخلها ٥٨٤/٨/٣ هـ الموافق ١١٨٨ م ثم سار إلى دمشق فدخلها أول شهر رمضان (فأشير عليه بتفريق العساكر فقال : إن العمر قصير والأجل غير مأمون ، وقد بقى بيد الفرنج هذه الحصون : كوكب وصفد ، والكرك ، وغيرها ولا بد من الفراغ منها ، فإنها فى وسط بلاد الإسلام ، ولا يؤمن شر أهلها ، وإن أغفلناهم ندمنا فيما بعد ، والله أعلم)(٢) وقد أكد عماد الدين الكاتب الذى شهد هذه الحروب عدم رغبة صلاح الدين فى مهادنة الصليبيين فى هذا الوقت ولكن أخذ برأى أصحابه (ولم يكن له رغبة فى إتمام هذا الصلح ، لكمال الغبطة لنا فى الحرب ووفور الربح . لكن العسكر الغريب مل الإقامة ، وأبدى السآمة ، وأراد السلم والسلامة)(٣) وقال الذين طالبوا بمهادنة أنطاكية : (بهذه المدة من الهدنة لا تزداد أنطاكية قوة ولا تستجد جدة ولا ترجو لها عدة منجده ونحن نضرب للعود إليها مع انقضاء عدتها عدة)(٤) وكان من آثار عقد الهدنة مع إمارة أنطاكية أن تفرغ صلاح الدين بمن بقى عنده من القوات لقتال الصليبيين فى (القلاع القريبة من حوران التى يخاف عليها من جانبها كصفد وكوكب ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٩) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٠) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص(٧٥) .

(٣) العماد الكاتب الفتح القسى ص (٢٦٠) .

(٤) المصدر السابق ص (٢٦٠) .

فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين فى الصوم)(١) وكان فرسان الصليبيين الداوية فى صفد والاسبتارية يمتلكون حصن كوكب . ولهذا كان قرار صلاح الدين بضرورة فتح الحصنين ، وكان صلاح الدين قد جعل على حصن الكرك عسكراً يحاصرونه منذ عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م (فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة ، حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم ، وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال ، فراسلوا الملك العادل أخا صلاح الدين ، وكان جعله صلاح الدين على قلعة الكرك فى جمع من العسكر يحصرها ويكون مطاقاً على هذه الناحية من البلاد لما أبعد هو إلى درب ساك وبغراس ، فوصلته رسل الفرنج من الكرك يبذلون تسليم القلعة إليه ، ويطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك ، وأرسل إلى مقدم العسكر الذى يحصرها فى المعنى . فتسلم القلعة منهم وأمنهم)(٢) وذلك فى شهر رمضان عام ٥٨٤ هـ أواخر عام ١١٨٨م وكان من نتائج سقوط حصن الكرك فى يد المسلمين واستسلامه إن سقطت الحصون المجاورة له كالشوبك وهرمز والوعيرة والسلع (وفرغ القلب ومن تلك الناحية .وألقى الإسلام هناك جرانه،وأمنت قلوب من فى ذلك السفح من البلاد كالقدس ، وغيره فإنهم كانوا ممن بتلك الحصون وجلين . ومن شرهم مشفقين)(٣) .

فتح صفد سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م :

سار صلاح الدين الأيوبى فى شهر رمضان عام ٥٨٤ هـ حتى أتى صفد وهى للفرسان الداوية (وهى قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها ، فأحدق العسكر بها) ، وقال ابن شداد : (ولقد كنت عنده فى خدمته ليلة وقد عين مواضع خمسة مناجيق ، حتى تنصب فقال فى تلك الليلة : ما ننام حتى تنصب الخمسة . وسلم كل منجنيق إلى قوم ، ورسله تتواتر

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٤) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٠ – ٢١) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٧١) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٦٦ – ٢٦٧) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص(٤٢) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٥) .

(٣) ابن الأثير : الكامل : ج ١٢ ص (٢١) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٧٢) .

إليهم يعرفونهم كيف يصنعون حتى أظلنا الصبح ونحن فى خدمته)(١) ، ثم قال ابن شداد : (ثم لم يزل القتال على صفد متواصلا بالنوب مع الصوم حتى سلمت بالأمان فى رابع عشر شوال من السنة المذكورة)(٢) وكان سبب استسلام صفد أن الصليبيين بها رأوا قوة صلاح الدين وعزمه على فتح صفد (وأنهم قد أشرفوا على الهلاك لقلة الأقوات (وخافوا أن يقيم صلاح الدين (إلى أن يفنى ما بقى معهم من أقواتهم ، وكانت قليلة ، ويأخذهم عنوة ويهلكهم أو أنهم يضعفون عن مقاومته قبل فناء ما عندهم من القوت فيأخذهم ، فأرسلوا يطلبون الأمان)(٣) وخرج الصليبيون من صفد بأمان وساروا إلى مدينة صور .

سقوط حصن كوكب الصليبي سنة ٥٨٤ هـ /١١٨٨ م :

لما هاجم صلاح الدين صفد قال الصليبيون الذين بصور : (إن فتح المسلمون قلعة صفد لم يبق كوكب ، وحينئذ ينقطع طمعنا من هذه البلاد) فاتفق رأى أهل مدينة صور على (إنفاذ نجدة لها سراً من رجال وسلاح وغير ذلك ، فأخرجوا مائتى رجل من شجعان الفرنج وأجلاؤهم ، فساروا الليل مستخفين ، وأقاموا النهار مكمنين فاتفق من قدر الله تعالى أن رجلا من المسلمين الذين يحاصرون كوكب خرج متصيداً ، فلقى رجلا من تلك النجدة فاستغربه بتلك الأرض ، فضربه ليعلمه بحاله ، وما الذى أقدمه إلى هناك ، فأقر بالحال ودله على أصحابه ، فعاد الجندى المسلم إلى قايماز النجمى وهو مقدم ذلك العسكر فأعلمه الخبر ، والفرنجى معه ، فركب فى طائفة من العسكر إلى الموضع الذى قد اختفى فيه الفرنج ، فكبسهم ، فأخذهم ، وتتبعهم فى الشعاب والكهوف ، فلم يفلت منهم أحد ، فكان معهم مقدمان من فرسان الاسبتار فحملا إلى صلاح الدين وهو على صفد فأحضرهما ليقتلهما ، وكانت

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٥) .

(٢) المصدر السابق ص(٩٥) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢١ – ٢٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٧٢) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٦٨ – ٢٦٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٠١) .

عادته قتل الداوية والاسبتارية لشدة عداوتهم للمسلمين وشجاعتهم ، فلما أمر بقتلهما قال له أحدهما : (ما أظن للمسلمين وشجاعتهم ، ينالنا سوء وقد نظرنا إلى طلعتك المباركة ووجهك الصبيح وكان رحمه الله ، كثير العفو ، يفعل الاعتذار والاستعطاف فيه فيعفوا ويصفح ، فلما سمع كلامهما لم يقتلهما ، وأمر بهما فسجنا)(١) . (وبعد أن استسلمت صفد للمسلمين سار صلاح الدين إلى كوكب ونزل على سطح الجبل وجرد العساكر وأحدق بالقلعة وضايقها بالكلية ، بحيث اتخذ له موضعاً يتجاوزه نشاب العدو وبنى له حائطاً من حجر وطين يستتر وراءه والنشاب يتجاوزه ولا يقدر أحد يقف على باب خيمته إلا إن كان ملبساً . وكانت الأمطار متواترة والوحول عظيمة بحيث منع الماشي والراكب إلا بمشقة عظيمة . وعانى شدائد وأهوالا من شدة الرياح وتراكم الأمطار . وكون العدو مسلطاً عليهم بعلو مكانه ، وقتل وجرح جماعة ولم يزل راكباً مركب الجد حتى تمكن النقب من سورها)(٢) ولم يتوقف القتال ليلا ولا نهاراً وفي آخر الأمر زحف المسلمون (إليها دفعاتمتناوبة في يوم واحد ووصلوا إلى باشورة القلعة) وبدأ انهيار الروح المعنوية عند الصليبيين لما أحسوا بالنقب وانهيار جزء من السور وتقدم المسلمون إلى السور الأعلى (فلما رأى الفرنج ذلك أذعنوا بالتسليم وطلبوا الأمان فأمنهم وتسلم الحصن منهم منتصف ذيالقعدة وسيرهم إلى صور)(٣) .

ولقد جانب صلاح الدين الصواب عندما سمح لهؤلاء الصليبيين وغيرهم بالمسير إلى مدينة صور (فاجتمع بها من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صنديد ، فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم وتابعوا الرسل إلى من بصقليه والأندلس وغيرهما يستغيثون ويستنجدون والإمداد في كل وقت تأتيهم ، وكان ذلك بتفريط السلطان في إطلاق كل من يحصره حتى عض بنانه أسفاً

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٧٢ - ٢٧٣) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٢ - ٢٣)، العماد الكاتب : الفتح القسي ص (٢٧٠ - ٢٧٢) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٦) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٣) ، العماد الكاتب : الفتح القسي ص (٢٧٣- ٢٧٥) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٦) ، المقريزي : السلوك ج ١ ص (١٠١) ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص (٧٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص(٢٧٣ - ٢٧٤) .

وندماً وأسفا حيث لم ينفعه ذلك)(١) ، ولكن يمكن تعليل ما فعله صلاح الدين من إطلاق أسرى الصليبيين والسماح لهم بالمسير إلى مدينة صور بأن صلاح الدين كان مسلماً رحيماً لا يحب إراقة الدماء إلا عند الضرورة ومن ثم سمح لهم بالمسير آمنين ، كما أنه لم يكن فى الإمكان تركهم فى البلاد المفتوحة خوفاً من اشتداد ساعدهم فى بعض الأحيان وينقلبون على المسلمين ويسببون لهم الضعف ويساعدون الصليبيين إذا ما هاجموا البلاد من جديد وخصوصاً إذا عرفنا أن صلاح الدين لم يكن يغفل أمر الصليبيين (وأنه قد رتب الجانب القبلى والبلد المقدس وشحن الثغور من حد جبيل إلى عسقلان بالرجال والآلات والعدد ، والعدد المتواصل المدد ورتب فيها ولده الأفضل علياً لحمايتها وحفظ ولايتها ، وقلد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها لتهذيب أحوالها وتقويمها)(٢) ومن دلائل اهتمام صلاح الدين بالبلاد وخشيته عليها من هجوم الصليبيين أنه أتى عكا (فأقام بها معظم المحرم سنة خمس وثمانين وخمسمائة ورتب بها بهاء الدين قراقوش والياً وأمره بعمارة السور والإطناب فيه ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق بعد وصول طائفة من عسكر ٥
مصر أودعهم فى عكا بصدد حفظها)(٣) ، وفى هذا ما يدل على أن صلاح الدين كان يتوقع هجوماً من الصليبيين بهدف استرداد البلاد التى أخذها منهم والانتقام من المسلمين ومن ثم لم يجد من سبيل للخلاص من الصليبيين الذين استسلموا فى القلاع والحصون إلا السماح لهم بمغادرة تلك البلاد والدخول إلى صور وعدم الغدر بهم تمشياً مع تعاليم الإسلام التى تمنع الغدر أو قتل الأبرياء والمستأمنين .

استيلاء المسلمين على حصن الشقيف سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م :

خرج صلاح الدين من دمشق فى ربيع الأول ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م يريد أخذ حصن الشقيف(٤) ولما اقترب صلاح الدين منه واجتمعت عنده

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص(٢٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص (٢٧٤) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٧٥ - ٢٧٦) ، ثم انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٦) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٧٥ - ٢٧٧) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص(٩٦) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص (٢٧٨) .

(٤) هو موضع حصين قريب من بانياس ويعرف باسم شقيف ارنون ، ثم انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٧) .

القوات الإسلامية شعر رينو صاحب حصن الشقيف (١) بالخطر ورأى من حشود المسلمين « ما تيقن معه عدم السلامة (وفكر ودبر واستقر رأيه على مقابلة السلطان صلاح الدين ويقول ابن شداد (وما أحسسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان فأذن له ، فدخل ، فاحترمه وأكرمه وكان من كبار الافرنجية وعقلائها وكان يعرف العربية وعنده اطلاع على شئ من التواريخ والأحاديث وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه ، وكان عنده ثان فحضر بين يدى السلطان ، وأكل معه الطعام ثم خلا به وذكر أنه مملوك ، وأنه تحت طاعته ، وأنه يسلم المكان إليه من غير تعب)(٢) وذكر ابن الأثير أن (أرناط (رينو) هذا من أعظم الناس دهاء ومكراً فدخل إليه واجتمع به ، وأظهر له الطاعة والمودة وقال له : أنا محب لك ، ومعترف بإحسانك ، وأخاف أن يعرف المركيس (صاحب صور) ما بيني وبينك ، فينال أولادى وأهلى منه أذى ، فإنهم عنده ، فاشتهى أن تمهلني حتى أتوصل فى تخليصهم من عنده وحينئذ أحضرانا وهم عندك ، ونسلم الحصن إليك ، ونكون فى خدمتك ، نقنع بما تعطينا من إقطاع ، فظن صلاح الدين صدقه . فأجابه إلى ما سأل ، فاستقر الأمر بينهما أن يسلم الشقيف فى جمادى الآخرة) (٣) .

وأقام صلاح الدين بمرج عيون ينتظر الميعاد (وهو قلق يفكر لقرب انقضاء الهدنة بينه وبين بيرنس صاحب أنطاكية) وكان أرناط (رينو) فى مدة الهدنة (يشترى الأقوات من سوق العسكر والسلاح وغير ذلك مما يحصن به شقيفه) واستمر صلاح الدين يحسن الظن إلى أن قاربت المدة المتفق عليها على الانقضاء ولم يبق سوى ثلاثة أيام فتقدم صلاح الدين إلى ناحية شقيف أرنون (وأحضر عنده أرناط وقد بقى من الأجل ثلاثة أيام . فقال له فى معنى تسلم الشقيف ، فاعتذر بأولاده وأهله ، وأن المركيس (صاحب صور) لم يمكنهم من المجئ إليه وطلب التأخير مدة أخرى ، فحينئذ علم السلطان مكره

---

(١) تذكره المصادر الإسلامية باسم أرناط وأنه صاحب حصن الشقيف وصيدا .

انظر : ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص (٢٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٨٢) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٧) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٧) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٧) .

وخداعه ، فأخذه وحبسه (١) وأمره صلاح الدين بتسليم حصن الشقيف فطلب قسيساً من الشقيف فحضر وطلب منه أن يحمل رسالة إلى أهل الشقيف يطلب منهم تسليم الحصن فذهب القسيس بهذه الرسالة (فأظهر أهله العصيان فغير صلاح الدين رأيه فى صاحب الشقيف وأخذه إلى دمشق وسجنه وتقدم إلى الشقيف وحاصره وضيق عليه(وجعل عليه من يحفظه ويمنع عنه الذخيرة والرجال)(٢)وربما كان موقف صاحب حصن الشقيف هذا عن مكيدة للإسلام وليس بعيداً أن يتفق سراً مع أهل الحصن على رفض طلبه فى تسليم الحصن لصلاح الدين والدليل على ذلك أن صاحب الشقيف عندما قبض عليه صلاح الدين وطلب منه تسليم الحصن طلب قسيساً حدد اسمه ليقوم بنقل رسالة إلى أهل الحصن ، والرأى أن ذلك كان مراوغة منه حتى يتم العدو الصليبي استعداداته ويهاجم صلاح الدين فيرحل عن الحصن . واستمر المسلمون فى حصارهم لهذا الحصن حتى (كان يوم الأحد خامس عشر من ربيع الأول (٥٨٦ هـ) علم الفرنج المستحفظون بالشقيف أنه لا عاصم لهم من أمر الله ، وأنهم إن أخذوا عنوة ضربت رقابهم فطلبوا الأمان)(٣) وتسلمه المسلمون بعد أن ترك فيه العدو ما فيه من أنواع الأموال والذخائر .

* * *

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٨٢ – ٢٨٣) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٨٥ – ٢٨٨) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٨) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٨٨)، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٨٣ – ٢٨٤) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١١٧) .

الفصل الرابع

المسلمون والحملة الصليبية الثالثة

تطور أحوال الصليبيين بعد انتصارات المسلمين – الدعاية الصليبية من أجل قتال المسلمين – القتال حول مدينة عكا – الوقعة الكبرى حول مدينة عكا سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م – عودة صلاح الدين إلى قتال الصليبيين حول عكا – تحالف الغرب الأوروبى على قتال المسلمين – تفوق الصليبيين على المسلمين حول عكا – الصليبيون يشددون الحصار على عكا – الصليبيون يحاولون اقتحام عكا – سقوط عكا فى يد الصليبيين للمرة الثانية سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م – نتائج سقوط عكا فى يد الصليبيين – بدء الاتصالات بين الصليبيين والمسلمين لعقد الهدنة – تخطيط ريتشارد لأخذ القدس – موقعة الجيش المصرى سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م وخيانة الأعراب – هدنة :الرملة مع الصليبيين سنة٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م .

* * *

الفصل الرابع

المسلمون والحملة الصليبية الثالثة

تطور أحوال الصليبيين بعد انتصارات المسلمين :

استطاع السلطان صلاح الدين فى وقت قصير جداً لم يتجاوز ثلاث سنوات أن يحرر معظم البلاد الإسلامية التى أخذها الصليبيون فى بلاد الشام، ولم يبق للصليبيين من المدن الهامة على الساحل سوى مدينة صور ،وهى المدينة الوحيدة الباقية من مملكة بيت المقدس الصليبية ، وأما إمارة طرابلس فقد سقطت كل البلاد التابعة لها ، ولم يبق من المناطق التابعة لإمارة أنطاكية سوى أنطاكية نفسها وميناء السويدية وبعض الحصون مثل حصن المرقب ومن ثم ظهر للصليبيين أن ما أقاموه من ممالك صليبية فى الشرق الإسلامى قد انهار على يد المجاهد صلاح الدين ، وعم الرعب أهل الغرب الأوربى عندما وصلتهم أنباء سقوط القلاع والحصون والمدن الصليبية فى يد المسلمين وخصوصاً مدينة القدس ، ولكن الصليبيين لم يستسلموا تماماً للهزيمة ودفعهم الخوف من صلاح الدين إلى الصمود فى مواجهته ولقد وضح ذلك فى مدينة صور حيث اجتمعت بها بقايا القوات الصليبية ، وأشار ابن الأثير إلى حالة صلاح الدين فى مطلع سنة ٥٨٥ هـ عندما كان يقوم بحصار حصن الشقيف بقوله (وكان أيضاً منزعج الخاطر ، كثير الهم لما بلغه من اجتماع الفرنج بمدينة صور ، وما يتصل بهم من الإمداد فى البحر) وكان المركيس كونرادى مونتفرات قد تفاهم مع جاى لوزجنان ملك مملكة بيت المقدس الذى أسره صلاح الدين فى حطين ثم أطلقه ، وكان من ثمار التفاهم بين المركيس والملك أن اجتمعوا فى خلق

لا يحصون عدداً ، وخرجوا إلى ظاهر مدينة صور وهم يختالون بعددهم وقوتهم (فكان لهذا وأشباهه ما يزعجه)(١) .

ومن الأسباب التى جعلت الصليبيين يشعرون بضعف المسلمين وضرورة مهاجمتهم من جديد ، الهدنة التى عقدت بين المسلمين وبوهيموند الثالث صاحب أنطاكية لمدة ثمانية أشهر ، فاعتقد الصليبيون أن الضعف والإرهاق قد أصاب المسلمين ومن ثم استغلوا مدة الهدنة فى تقوية بلادهم وتحصينها وطلب الإمدادات من الغرب الأوروبى(٢) .

أضف إلى ما تقدم أن فشل صلاح الدين فى الاستيلاء على مدينة صور زاد فى حماس بقايا الصليبيين ودفعهم إلى المبادرة لقتال المسلمين ، وكان من دلائل إحساس العدو بضعف الجانب الإسلامى محاولة الصليبيين فى صور الزحف بقواتهم إلى صيدا والاستيلاء عليها ولكن قوات الحراسة والمراقبة الذين وضعهم صلاح الدين مقابل صور تصدت للقوات الصليبية (وقاتلوهم ومنعوهم ، وجرى لهم معهم حرب شديدة يشيب لها الوليد) وقتلوا من الصليبيين ، جماعة وأسروا جماعة أخرى من بينهم سبعة رجال من فرسانهم المشهورين وجرح جماعة ثالثة كما استشهد من المسلمين جماعة (ثم أن الفرنج عجزوا عن الوصول إلى صيدا فعادوا إلى مكانهم)(٣) وأشار ابن شداد إلى نتيجة هذه الموقعة بقوله (ونصر الله الإسلام وأهله)(٤) وقال العماد الكاتب (وهذه وقعة ندرت ، وواقعة بدرت ، ونذير حدث . وحادثة أنذرت . فلم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكرة ، وأذاقونا بعد أن حلالنا جنى الفتوحات مرارة هذه المرة فأيقظتنا من رقدة الغرة وأخذ

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٧ – ٢٨) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٨٣) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٨٩) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٨) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٩) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٨٤) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٨٤ – ٢٨٥) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٨٩ – ٢٩١) .

(٤) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٨ – ٩٩) .

الناس حذرهم ونذروا وعقدوا على الانتقام نذرهم)(١) وبعد الوقعة السابقة أقام صلاح الدين ينتظر عودة الصليبيين ليقابلهم ويأخذ بثأر من قتلوه من المسلمين ، فركب فى بعض الأيام ليستطلع أخبار الصليبيين بنفسه واعتقد بعض المجاهدين أن صلاح الدين يريد قتال العدو فى تلك الساعة فتقدموا ودخلوا فى أرض العدو مبعدين) وتركوا السلطان خلفهم (وقاربوا الفرنج) فأرسل صلاح الدين (عدة من الأمراء يردونهم ويحمونهم إلى أن يخرجوا فلم يسمعوا ولم يقبلوا) واستطاع الصليبيون كشف أخبار هذه الجماعة (وأنهم منقطعون عن المسلمين وليس وراءهم ما يخاف) فهاجمهم العدو وقتلوا منهم (جماعة من المعروفين) وشق على صلاح الدين والمسلمين ما جرى عليهم (وكان ذلك بتفريطهم فى حق أنفسهم) وخشى صلاح الدين من طمع الصليبيين فى المسلمين ، كما خاف على المسلمين من الوهن وانهيار الروح المعنوية ، ولهذا زحف بقواته فى نفس يوم تلك الوقعة الموافق ٩/ ٥/ ٥٨٥ هـ يوليه ١١٨٩ م وهاجموا الصليبيين حتى أجبروهم على التراجع إلى جسر مدينة صور (فألقوا أنفسهم فى الماء ، فغرق منهم نحو مائة دارع سوى من قتل) وعزم صلاح الدين (على مصابرتهم ومحاصرتهم) بعد أن وصل إليه المجاهدون من كل ناحية (فلما رأى الفرنج ذلك عادوا إلى مدينة صور)(٢) ولكن صلاح الدين لم يكتف بذلك فعندما علم بأن جماعة من الصليبيين يخرجون من صور (للاحتطاب والاحتشاش) كتب إلى قواته فى مدينة عكا (وواعدهم يوم الاثنين أغسطس ١١٨٩م ثامن جمادى الآخرة ٥٨٥ هـ) ليلاقوهم من الجانبين ، ورتب كمناء فى موضع من تلك الأودية والشعاب واختار جماعة من شجعان عسكره وأمرهم بالتعرض للفرنجة (واتفق معهم إذا هاجمهم الفرنج وحملوا عليهم أن يقاتلوهم قتالا خفيفاً ثم ينهزمون ويظهرون العجز (فإذا تبعهم الفرنج استجروهم إلى أن يجوزوا وضع الكمين ،

---

(١) العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٩١) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٠) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٩٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٨٥ – ٢٨٦) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٩١ – ٢٩٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٠٢) .

ثم يعطفوا عليهم ، ويخرج الكمين من خلفهم ، فخرجوا على هذه العزيمة) فلما التقى الجمعان (أنف فرسان المسلمين أن يظهر عنهم اسم الهزيمة وثبتوا فقاتلوهم ، وصبر بعضهم لبعض واشتد القتال وعظم الأمر . ودامت الحرب وطال على الكمناء الانتظار ، فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكانهم نحوهم مسرعين وإليهم قاصدين ، فأتوهم وهم فى شدة الحرب ، فازداد الأمر شدة على شدة)(١) . وحدث أثناء مسير قوات الكمين إلى أصحابهم أن سلكوا طرقاً متعددة ، وكانوا يجهلون تلك الأرض وخصوصاً أربعة أمراء من ربيعه وطئ (فسلكوا الوادى ظناً منهم أنه يخرج بهم إلى أصحابهم ، وتبعهم بعض مماليك صلاح الدين ، فلما رآهم الفرنج بالوادى علموا أنهم جاهلون فأتوهم وقاتلوهم(٢) ومن الملاحظ فى هذه الوقعة أن قوات صلاح الدين كانت تشمل حشداً من المسلمين منهم العرب ومنهم الأكراد والمماليك والعناصر الأخرى . جمعهم الإسلام فى صف واحد يقاتلون فى سبيل الله(٣) .

الدعاية الصليبية من أجل قتال المسلمين :

كان لاجتماع الصليبيين فى صور واتفاق المركيس كونراددى مونتفرات مع الملك جاى لوزجنان الذى أطلقه صلاح الدين الأثر الكبير فى تقوية الروح المعنوية عند الصليبيين ، ومن دلائل ذلك محاولة الصليبيين الخروج من صور للهجوم على المواقع الإسلامية القريبة مثل صيدا ، كما أن نتائج المعارك السريعة التى خاضوها لم تكن فاصلة بمعنى أنهن لم يخشوا بأس قوة صلاح الدين كما كان الحال قبل عقد الهدنة مع أنطاكية ، أعنى أن أهناك تغيير فى موازين القوى الإسلامية والصليبية ومن أسبابه (أن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة أو قلعة أعطى أهلها الأمان ، وسيرهم إليها (صور) بأموالهم ونسائهم

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٠ – ٣١) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٠٠ – ١٠١) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٩٣ – ٢٩٤) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٨٧ – ٢٨٨) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣١) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣١) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٠١) العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٩٤ – ٢٩٥) .

وأولادهم ، فاجتمع بها منهم عالم كثير لا يعد ولا يحصى ومن الأموال ما لا يفنى عن كثرة الإنفاق فى السنين الكثيرة ثم أن الرهبان والقسوس وخلقاً كثيراً من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد ، وأظهروا الحزن على خروج البيت المقدس من أيديهم(١) وبدأوا يقومون بحملة دعائية ضد الإسلام والمسلمين ، ومن أجل إثارة حماس المسيحيين فى العالم لقيام بحملة عسكرية إلى الشرق الإسلامى ، تسترد البلاد التى أخذها صلاح الدين وفى مقدمتها مدينة القدس وأشار ابن الأثير إلى أساليب الدعاية ، الصليبية بقوله (وأخذهم البطرك الذى كان بالقدس . ودخل بهم بلاد الفرنج ، يطوفها بهم جميعاً . ويستنجدون أهلها ، ويستجيرون بهم ، ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس . وصوروا المسيح عليه السلام وجعلوه مع صورة عربى يضربه ، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام ، وقالوا لهم : هذا المسيح يضربه محمد نبى المسلمين وقد جرحه وقتله .

فعظم ذلك على الفرنج ، فحشروا وحشدوا حتى النساء ، فإنهم كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزون الأقران . . . . ومن لم يستطع الخروج استأجر من يخرج عوضه أو يعطيهم مالا على قدر حالهم . فاجتمع لهم من الرجال والأموال ما لا يتطرق إليه الإحصاء) .

ويقول ابن الأثير أيضاً (ولقد حدثنى بعض المسلمين المقيمين بحصن الأكراد وهو من أجناد أصحابه الذين سلموه إلى الفرنج قديماً ، وكان هذا الرجل قد ندم على ما كان منه من موافقة الفرنج فى الغارة على بلاد الإسلام والقتال معهم ، والسعى معهم . . . قال لى هذا الرجل أنه دخل مع جماعة من الفرنج من حصن الأكراد إلى البلاد البحرية التى للفرنج والروم فى أربع شوانى يستنجدون قال : فانتهى بنا الطواف إلى رومية الكبرى (روما) فخرجنا منها وقد ملأنا الشوانى نقرة .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٨٨) .

وحدثني بعض الأسرى منهم أنه له والدة ليس لها ولد سواه ، ولا يملكون من الدنيا غير بيت باعته وجهزته بثمنه . وسيرته لاستنقاذ بيت واحد فأخذ أسيراً) .

ويواصل ابن الأثير وصف أحوال الصليبيين وارتفاع روحهم الدينية نتيجة ذلك ويقول : (وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حده . فخرجوا على الصعب والذلول . براً وبحراً ومن كل فج عميق . ولولا أن الله تعالى لطف بالمسلمين ، وأهلك ملك الألمان لما خرج على ما نذكره عند خروجه إلى بلاد الشام ، وألا كان يقال أن الشام ومصر كانتا للمسلمين)(١) .

واجتمعت القوات الصليبية بصور (وتموج بعضهم في بعض ومعهم الأموال العظيمة والبحر يمدهم بالأقوات والذخائر ، والعدد والرجال من بلادهم فضاقت عليهم صور باطنها وظاهرها)(٢) ومن ثم فكر الصليبيون في الهجوم على المسلمين وقرروا . الاستيلاء على صيدا كما ذكرنا ولكن محاولتهم باءت بالفشل بسبب شجاعة المجاهدين المسلمين الذين ردوهم إلى داخل مدينة صور بعد أن ألحقوا بهم خسائر كثيرة ففكروا بعدها فيما يفعلون (واتفقوا على قصد عكا ومحاصرتها ومصابرتها ، فساروا إليها بفارسهم وراجلهم ، وقضهم وقضيضهم ، ولزموا البحر في مسيرهم لا يفارقونه في السهل والوعر ، والضيق والسعة ، ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر ، فيها سلاحهم وذخائرهم ولتكون عدة لهم أن جاءهم ما لا قبل لهم به)(٣) .

وكان تحرك القوات الصليبية البرية والبحرية نحو مدينة عكا في ٥٨٥/٧/٨ هـ أواخر أغسطس سنة ١١٨٩ م وذكر ابن شداد (أنه لما بلغ السلطان حركة الإفرنج إلى تلك الجهة عظم عليه ، ولم ير المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢ - ٣٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٨٨ - ٢٨٩) .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص (٣٣) .
(٣) المصدر السابق ص (٣٣) .

ثم رحيله عن الشقيف لاقصد المكان ، فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأحد ثانى عشر رجب (أواخر أغسطس ١١٨٩ م) فوصل قاصد وأخبر أن الافرنج فى بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا بصه ووصل أوائلهم إلى الزيب — قرية قرب عكا — فعظم ذلك عنده وكتب إلى سائر أرباب الأطراف بالتقدم بالعساكر الإسلامية وبالمسير إلى المخيم المحروس ، وعاد فجدد الكتب والحث)(١) ، فى حين واصل الصليبيون حملتهم الدعائية من أجل حرب صليبية جديدة يقوم بها الغرب الأوروبى ضد الإسلام واهله ، وكانت القوات الصليبية التى اجتمعت فى مدينة صور لا تمثل الدول والحكومات الأوربية ؛ بل من الأمراء والقادة والفرسان والمتطوعين ، الذين أسرعوا للانضمام إلى صفوف القوات الصليبية وفى نفس الوقت جاءت القوات ، لمساعدة صلاح الدين ، (فأتاه عسكر الموصل وديار بكر . وسنجار وغيرها من بلاد الجزيرة . وأتاه تقى الدين ابن أخيه ، وأتاه مظفر الدين بن زين الدين وهو صاحب حران والرها ، وكانت الأمداد تأتى المسلمين فى البر وتأتى الفرنج فى البحر)(٢) .

القتال حول مدينة عكا :

أقام صلاح الدين معسكره بالقرب من عكا (وبعث بعض العسكر ، ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها . ولم يزل يبعث إليها بعثاً بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير وعدد وافر)(٣) .

فى حين قام صلاح الدين بترتيب قواته خارج عكا وكانت خطته تقضى بإحكام الحصار على الصليبيين من ناحية البر الذين يحاصرون عكا (فاحتاط المعسكر الإسلامى المنصور بالعدو المخذول ، وأخذ عليهم الطرق من الجوانب وتلاحقت العساكر الإسلامية واجتمعت ورتب اليزك الدائم والجاليش

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٠٣ - ١٠٤) .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٤) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٠٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٩٢) .
(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٠٤) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٩٨) .

فى كل يوم مع العدو ، وحصر العدو فى خيامه من كل جانب ، بحيث لا يقدر أن يخرج منها واحداً إلا ويجرح أو يقتل)(١) وذكر العماد الكاتب ذلك بقوله : (وصرنا محاصرين للمحاصرين ، مكابرين للمكابرين ، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط)(٢) ولكن صلاح الدين كان يريد فتح الطريق إلى داخل مدينة عكا وخصوصاً أن العدو فى يوم الخميس آخر شهر رجب ٥٨٥ هـ استطاع تشديد الحصار على عكا (بحيث منعوا من الدخول والخروج منها (وضاق السلطان لهذا (وثارت همته العالية فى فتح الطريق إلى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة وغير ذلك) وكان لا بد من هجوم كاسح شجاع هدفه إزالة الحصار ، الصليبى عن عكا ، وفى مستهل شعبان ٥٨٥ هـ هاجم المسلمون العدو وقاتلوه فلم ينالوا منهم شيئاً وفى اليوم التالى قاتلهم المسلمون من جديد واستداروا عليهم من سائر جهات المدينة ، واستمر القتال من الصباح حتى الظهر (وصبر الفريقان صبراً حار له من رآه ، فلما كان وقت الظهر حمل الملك المظفر حملة منكرة من الميمنة على من يليه منهم ، فأزالهم عن مواقفهم ، يركب بعضهم بعضاً ، لا يلوى أخ على أخيه فالتجأوا إلى من يليهم من أصحابهم واحتموا بهم وأخلوا جانب البحر الشمالى ، شمال عكا)(٣) ووقف الحرس الإسلامى مانعاً أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل وانفتح الطريق إلى عكا فدخلها صلاح الدين وأدخل إليه من أراد من المجاهدين والذخائر والأموال والسلاح وغير ذلك ويرى ابن الأثير أن المسلمين قد جانبوا الصواب عندما أوقفوا القتال بعد هذه الصدمة فقال (ولو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل لبلغوا ما أرادوه ، فإن للصدمة الأولى روعة ، لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر أخلدوا إلى الراحة ، وتركوا

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٠٤) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٩١) .

(٢) العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٩٨) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٩٢) ، ثم انظر ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٥) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٠٥) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٩٩ - ٣٠٠) .

القتال وقالوا : نباكرهم غداً ونقطع دابرهم)(١) وفى اليوم التالى اجتمع صلاح الدين مع قادته وتشاوروا فى مواصلة الحرب فرأى بعض الأمراء : تأخير القتال واختلفت الآراء حول الخطة العسكرية وقال العماد الكاتب : (وما زالت هذه الآراء بيننا متداولة وخواطرنا فى تدبيرها متجاولة والحرب بيننا وبين الفرنج جارية)(٢) .

وكان من نتائج تأخير القتال بعض الوقت أن تشجع العدو الصليبي الذى يحاصر عكا على التحرك لمهاجمة المسلمين فى محاولة يائسة لأحكام الحصار على مدينة عكا مرة أخرى وغلق الطريق الذى يعبر منه المسلمون إليها ، ففى ٨/ ٨/ ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م خرج العدو من مواقعه وساروا حتى قاربوا الحرس الإسلامى (ولما رأى المسلمون ذلك وإقدام العدو عليهم تداعت الشجعان ، وتنازلت الكماة إلى الأقران، وصاح السلطان بالعساكر الإسلامية : (يا للإسلام) فركب الناس بأجمعهم ووافق فارسهم وراجلهم وشابهم شيخهم وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخذول فعاد ناكصاً على عقبيه والسيف يعمل فيهم والسالم منهم جريح والعاطب طريح ، مشتدون هزيمة يعثر جريحهم بقتيلهم ولا تلوى الجماعة منهم على قبيلهم حتى لحق الخيام من سلم منهم ، وانكفوا عن القتال أياماً وكان قصارهم أن يحفظوا نفوسهم ويحرسوا رؤوسهم)(٣) وبهذا فشلت المحاولة الصليبية (واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون إليها) فى حين استمرت عمليات القتال بين الطائفتين وهاجم الأعراب بعض الصليبيين الذين كانوا يخرجون للاحتطاب وقتلوا بعضهم وأسروا جماعة وأحضروا رؤوس القتلى إلى صلاح الدين (فأحسن إليهم وأعطاهم الخلع)(٤).

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٥) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤٣ - ٤٤) .

(٢) العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٠١ - ٣٠٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٩٣) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٠٦ - ١٠٧) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٠٧) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٠٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٩٣) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٦) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٩٥) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٠٦ - ٣٠٧) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٠٨) .

الوقعة الكبرى حول مدينة عكا سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م

اجتمع أمراء الصليبيين للمشورة فى أمر الحرب مع المسلمين ، فقالوا : (إن عسكر مصر لم يحضر والحال مع صلاح الدين هكذا : فكيف يكون إذا حضر ؟ والرأى أننا نلقى المسلمين غداً لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العساكر والإمداد إليهم)(١) . وكان موقف قوات الإسلام ليس كما ينبغى فقد كانت موزعة على جبهات عديدة ، فبعض القوات كانت مقابل أنطاكية ليمنعوا اعتداء الصليبيين على جهات حلب وبعض القوات الإسلامية فى حمص (مقابل طرابلس لتحفظ ذلك الثغر أيضاً) وعسكر آخر فى مقابل مدينة صور لحماية ما يقابلها من البلاد وعسكر بمصر لحماية ثغرى دمياط والإسكندرية فى حين أن باقى القوات المصرية لم تصل (وكان هذا مما أطمع الفرنج فى الظهور إلى قتال المسلمين)(٢) وكان الصليبيون يعملون على تفرق القوات الإسلامية فى البلاد وعدم اجتماعها فاستقر رأيهم على المبادرة بهجوم على المسلمين . واختاروا يوم الأربعاء ٢١ / ٨ / ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م وتحركت قواتهم (حركة لم تكن لهم بمثلها عادة ، فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم . فاصطفوا خارج خيمهم ، قلباً وميمنة وميسرة وفى القلب الملك وبين يديه الإنجيل محمولا مستوراً بثوب أطلس مغطى . يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف وهم يسيرون بين يدى الملك)(٣) . وخرج الصليبيون بقواتهم من معسكرهم (كأنهم الجراد المنتشر . يدبون على وجه الأرض قد ملأوها طولا وعرضاً) فلما شاهد صلاح الدين إصرارهم على الهجوم أمر بأن ينادى فى الناس : (يا للإسلام ، وعساكر موحدين)(٤) .

وركز الصليبيون الهجوم على ميمنة القوات الإسلامية وعليها تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين ، ولم تثبت قوات تقى الدين عمر أمام الهجوم

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٦ - ٣٦) .
(٢) المصدر السابق ص (٣٧) .
(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٠٩) .
(٤) المصدر السابق ص (١٠٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٩٥) ، ثم انظر ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٧) .

الصليبي فتأخر (فلما رأى صلاح الدين الحال وهو فى القلب أمد تقى الدين برجال من عنده ليتقوى بهم) فلما رأى الصليبيون ذلك ورأوا أن قوات القلب الإسلامية أصبحت قليلة مالوا عليهم وهاجموهم (فاندفعت العساكر بين أيديهم منهزمين وثبت بعضهم) واستشهد جماعة من المسلمين ثم قصد العدو إلى التل الذى عليه خيمة صلاح الدين (فقتلوا من مروا به ونهبوا وقتلوا عند خيمة صلاح الدين جماعة . . . ثم انحدروا إلى الجانب الآخر من التل فوضعوا السيف فيمن لقوه ، وكان من لطف الله تعالى بالمسلمين أن الفرنج لم يلقوا خيمة صلاح الدين ، ولو لقوها لعلم الناس وصولهم إليها ، وانهزام العساكر بين أيديهم فكانوا انهزموا أجمعون)(١) ولم يشأ الصليبيون الابتعاد عن معسكرهم وإمداداتهم (فرجعوا خوفاً أن ينقطعوا عن أصحابهم) وخصوصاً أن الميمنة الإسلامية وقفت أمام الصليبيين ولم تنهزم ونادى صلاح الدين فيمن انهزم من عساكر القلب فاجتمع إليه بعضهم وهاجم الصليبيين (من وراء ظهورهم وهم مشغولون بقتال الميسرة ، فأخذتهم سيوف الله من كل جانب فلم يفلت منهم أحد ، بل قتل أكثرهم وأخذ الباقون أسرى وفى جملة من أسر مقدم الداوية الذى كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه ، فلما ظفر به الآن قتله)(٢) وكانت عدة قتلى العدو فى هذه الموقعة تزيد على عشرة آلاف قتيل ، فأمر صلاح الدين بإلقاء جثث هؤلاء القتلى فى النهر الذى يشرب الصليبيون منه (وكان فى جملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيات كن يقاتلن على الخيل ، فلما أسرن ، وألقى عنهن السلاح عرفن أنهن نساء)(٣) وأما الذين انهزموا من القوات الإسلامية فقد رجع بعضهم وتفرق البعض الآخر وأما البقية الذين ثبتوا (وقد باعوا أنفسهم بالجنة) فقد كانوا سبباً فى إيقاع القتل والأسر فى العدو وأجبروهم على التراجع (٤) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٧ - ٣٨) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٠٨ - ٣٠٩) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٧) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٨ - ٣٩) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٩) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٧) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣١١ - ٣١٢) ، أما ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١١٢) ، فقد ذكر أن قتلى الصليبيين كانوا حوالى سبعة آلاف نفس .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٩) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٠٩ - ٣١٢) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١١٠ - ١١٣) .

وعلى الرغم من تراجع الصليبيين وكثرة قتلاهم فإن المسلمين اعتبروا نتيجة المعركة فى غير صالحهم وتفسير التفوق الصليبى فى هذه الموقعة له جانبان أولها أن الجانب الصليبى قد جمع من المقاتلين عدداً كبيراً يزيد على عدد قوات صلاح الدين فى هذه المعركة وأشار المؤرخون المسلمون الذين شاهدوا هذه المعركة بأن قوات الصليبيين كانت كثيرة (وكان عدد راكبهم ألفى فارس وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً وما رأيت من أنقصهم عن ذلك ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ، ومددهم من البحر لا ينقطع)(١) وقال العماد الكاتب : إن من المسلمين من قال (هؤلاء فى عدد النمل وكثرة الرمل وظلام الليل وعرام السيل)(٢) .

ولقد اعتمد الصليبيون على كثرة العدد فى الهجوم بحيث تقدموا بأعداد هائلة نحو المسلمين واستطاعوا إرغام ميمنة المسلمين على التراجع فاضطر السلطان صلاح الدين إلى إنجاد الميمنة الإسلامية بقوات من القلب فضعف بذلك . فطمع الصليبيون أيضاً بالهجوم على القلب للقوات الإسلامية بمعنى أن الصليبيين استطاعوا معرفة مواضع الضعف فى القوات الإسلامية وهاجموها فحدث الارتباك للقوات الإسلامية وانهزام بعضها فى حين أن باقى القوات بقيت تقاتل العدو حتى أوقعت به الهزيمة وأجبرته على التراجع ويصور العماد الكاتب حال المسلمين فى هذه الوقعة واندفاع بعض القوات الإسلامية أمام الصليبيين ، فيقول (. . . وكل منا ذاهل عن شبعة ورية ، مفكر فيما يكون من أمره ، منكسر القلب لما تم على الإسلام من كسره)(٣) أما ، فى الجانب الإسلامى فقد باغتهم العدو ولم يكونوا على أهبة ويقول ابن الأثير : (وأصبح المسلمون على عادتهم ، منهم من يتقدم إلى القتال ، ومنهم من هو فى خيمته ، ومنهم من قد توجه فى حاجته من زيارة صديق وتحصيل ما يحتاج إليه هو وأصحابه ودوابه إلى غير ذلك)(٤) .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٠٥) .
(٢) العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٠٢) .
(٣) المصدر السابق ص (٣٠٩) .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٧) .

وكان من نتائج المعركة السابقة أن اجتمع صلاح الدين مع الأمراء وأرباب المشورة ثم أمرهم بالإصغاء إليه ثم قال : (بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد نزل فى بلدنا ، وقد وطئ أرض الإسلام ، وقد بقى فى هذا الجمع اليسير . ولا بد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو إن بقى وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم والرأى كل الرأى عندى مناجزتهم ، فليخبرنا كل منكم ما عنده فى ذلك)(١) وتابع ابن شداد وصف ما جرى من نقاش وتشاور فى هذا الأمر وقال : (فامتخضت الآراء وجرى تجاذب فى أطراف الكلام ، وانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخروبة وإن بقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح وترجع نفوسهم إليهم ، فقد أخذ منهم التعب ، واستولى على نفوسهم الضجر وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته ، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل)(٢) . ورأى صلاح الدين أن ما قالوه مصلحة وخصوصاً بعد أن أشار الأطباء المسلمين فى الجيش بضرورة الابتعاد عن المكان بسبب فساد الهواء وتقرر تأخر القوات الإسلامية عن عكا عملا بقول الأمراء وبعداً عن مكان القتال الذى أصبح فاسد الهواء لكثرة القتلى ولاعتقاد المسلمين من ناحية أخرى أن الصليبيين الذين يحاصرون عكا ربما يتركون حصارها بعد ابتعاد قوات صلاح الدين عنهم ، فرحل المسلمون إلى الخروبة فى اليوم الرابع من شهر رمضان ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م بعد أن أمر صلاح الدين (من بعكا من المسلمين بحفظها وإغلاق أبوابها والاحتياط ، وأعلمهم بسبب رحيله)(٣) .

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١١٤) ، ثم انظر العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣١٣ – ٣١٧) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١١٤) ، ثم انظر العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٢٢ – ٣٢٤) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٠) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٣٠٣) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٧) .

وكان من نتائج انسحاب القوات الإسلامية إلى موقع الخروبة أن (أمن الفرنج وانبسطوا فى تلك الأرض ، وعادوا فحصروا عكا ، وأحاطوا بها من البحر إلى البحر ومراكبهم أيضاً فى البحر تحصرها ، وشرعوا فى حفر الخندق وعمل السور من التراب الذى يخرجونه من الخندق وجاؤوا بما لم يكن فى الحساب ، وكان اليزك كل يوم يوافقهم وهم لا يقاتلون ، ولا يتحركون ، إنما هم مهتمون بعمل الخندق والسور عليهم ليتحصنوا به من صلاح الدين ، إن عادوا إلى قتالهم ، فحينئذ ظهر رأى المشيرين بالرحيل)(١) وشعر الصليبيون بضعف المسلمين وكانت قوات المراقبة الإسلامية تخبرون صلاح الدين بما يصنع العدو (ويعظمون الأمر عليه ، وهو مشغول بالمرض لا يقدر على النهوض للحرب ، وأشار عليه بعضهم بأن يرسل العساكر جميعها إليهم ليمنعهم من الخندق والسور ، ويقاتلوهم ، ويتخلف هو عنهم فقال : إذا لم أحضر معهم لا يفعلون شيئاً ، وربما كان من الشر إضعاف ما نرجوه من الخير ، فتأخر الأمر إلى أن عوفى ، فتمكن الفرنج وعملوا ما أرادوا ، وأحكموا أمورهم ، وحصنوا نفوسهم بما وجدوا إليه السبيل)(٢) وقال ابن واصل (فانقطعت طريق المسلمين إلى عكا بالكلية ، وما كان انتقال السلطان من منزلته صواباً ، فإنه لو أقام لما تمكن العدو ، لكن كان أمر الله قدراً مقدوراً ، وكان السبب فى تأخر السلطان أنه استحضر الأمراء وأرباب المشورة)(٣) وأشاروا عليه بالانسحاب إلى موقع الخروبة وأصبح المسلمون فى مدينة عكا محصورين من البر والبحر ومع ذلك فإنهم صبروا فى سبيل الله ، بل قاموا بأعمال حربية كثيرة ضد الصليبيين فى البحر والبر . ففى البحر فى ٣ / ٩ / ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م أخذ المسلمون فى عكا مركباً صليبياً كان مقلعاً إلى صور محتوياً على ثلاثين رجلا وامرأة واحدة وفى الجبهة البرية (كان من

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٠) ، ثم انظر العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٢٥ – ٣٢٧) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٧) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤١) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٠٣) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٠٣ – ٣٠٤) .

بعكا يخرجون إليهم كل يوم . ويقاتلونهم . وينالون منهم بظاهر البلد) (١)
وعلى الرغم من ذلك فإن الصليبيين قد ارتفعت معنوياتهم وصور هذا الحال العماد الكاتب فقال (وانتعش الفرنج فى تلك المدة ، وانتشلوا من تلك الشدة . واستطالوا بعد الإقصار . وفرغوا لشغل الحصار ، وجاءتهم فى البحر مراكب أخلفت من عدم وبنت ما هدم ، فكمل بالمدد ما نقص من العدد)(٢) .

وواضح فى هذا الموقف أن المسلمين قد جانبوا الصواب عندما أشاروا على صلاح الدين بالتراجع إلى معسكر الجيش فى الخروبة . ومع أن رأى الأغلبية كان هذا الرأى إلا أن صلاح الدين نفسه لم يكن يرغب فى التراجع اولاأنه استجاب لرأى الجماعة وإن كان مخالفاً لرأيه وثبت بطلان ما أشار به الأمراء ، مع العلم بأن عواقب التراجع السيئة لم تكن خافية على المسلمين وقد أشار العماد الكاتب شاهد العيان إلى هذا بقوله (ولما بلونا رأيه . وتلونا آية . أخلف ظنه ، وبدأ وهنه وما زاد الفرنج إلا ثباتاً . ولم نعرف لشملهم على ما توهمه شتاتاً ، وكنا نتحدث بذلك الرأى القائل ، ونقول ما أعجب قبولنا قول هذا القائل)(٣) .

عودة صلاح الدين إلى قتال الصليبيين حول عكا :

أقام صلاح الدين فى منطقة الخروبة يجمع العساكر وينتظر وصول أخاه الملك العادل من مصر ، فوصل فى منتصف شهر شوال ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م ومعه القوات المصرية ، (فلما وصل قويت نفوس الناس به وبمن معه واشتدت ظهورهم وأحضر معه من آلات الحصار ، من الدرق والطارقيات والنشاب والأقواس ، شيئاً كثيراً ، ومعهم من الرجالة الجم الغفير وجمع صلاح الدين من البلاد الشامية راجلا كثيراً ، وهو على عزم الزحف إليهم بالفارس والراجل) (٤) وكان صلاح الدين قد كاتب الأطراف الإسلامية والأمراء

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ص (٤١) ، ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ص (٣٠٥) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٢٨ - ٣٢٩) .
(٢) العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣١٩ - ٣٢٠) .
(٣) العماد الكاتب : المصدر السابق ص (٣٢٧) .
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ١٢ ص (٤١) ، ثم انظر العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٣٥ - ٣٣٦) .

والملوك فى الاستنفار للقتال ويستدعى الناس إلى الجهاد ويحثهم عليه ، كما أرسل إلى أخيه صاحب اليمن يشرح له ما جرى من الحوادث ويطلب منه الإعانة بالمال ، وكذلك كتب إلى الخليفة العباسى الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين كتاباً منه : (قد مضت ثلاثة أشهر شهر بها التثليث وحل التوحيد سلاحه ، وبسط الكفر جناحه ، وقتل من الفرنج وعدم فى الوقعات التى روعت والروعات التى وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فارس وراجل ورامح وتارس ونابل فما أثر ذلك فى نقصهم ولا أرث إلا نار حرصهم ، وليس هذا العدو بواحد فينجح فيه التدبير ويأتى عليه التدبير وإنما هو كل من وراء البحر ، وجميع من فى ديار الكفر فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة ، ولا خطة صغيرة ولا كبيرة إلا جهزت مراكبها ، وأنهضت كتائبها وحرك ساكنها ، وبرز كامنها وثار ثائرها ، وطار طائرها ، ونفضت خزائنها وانفضت معادنها ، وحملت ذخائرها ، وبذلت أخائرها ، ونثلث كنائن كنائسها واستخرجت دفائن نفائسها ، وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركها وغصت بالأفواج فجاجها ومسالكها وتصلبت للصليب السليب ، وتعصبت للمصاب الصليب ، ونادوا فى نواديهم بأن البلاد بلادهم ، وأن إخوانهم بالقدس وأبارهم الإسلام وأبادهم ، وأنه من خرج من بيته مهاجراً لحرب الإسلام وهبت له ذنوبه ، وذهبت عنه عيوبه ، ومن عجز عن السفر سفر من يقاتل عوضه ، أو يعين بماله وعدته قدره ، فجاءوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحداد ، وتواصلت منهم الأمداد)(1) ويفهم من رسالة صلاح الدين إلى الخليفة العباسى أن هدفه منها حثه على إرسال المعونة من أجل الجهاد لأن الكفر قد اجتمع على حرب الإسلام والمسلمين فمن الضرورة العسكرية وتنفيذاً للواجبات والفرائض الشرعية أن تجتمع القوات الإسلامية من أجل قتال الجيوش الصليبية . وكان من نتائج دعوة صلاح الدين أمراء

---

(1) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٠٦ - ٣٠٧) ، ثم انظر العماد الكاتب: الفتح القسى ص (٣٣٢ - ٣٣٤) ، ص (٣٣٧ - ٣٣٩) ، أبو شامة : الروضتين - ج ٢ ص (١٤٩) .



سلطنة الأتراك السلاجقة
أرمينيا الصغرى
حدود دولة صلاح الدين
منبج
حلب
تل السلطان
قرون حماه
انطاكية
حماه
قبرص
طرابلس
بيروت
البحر المتوسط
دمشق
صيدا
صور
عكا
حيفا
حطين
بيت المقدس
غزة
الكرك
القاهرة
مصر
حروب
صلاح الدين الأيوبي

الإسلام للجهاد أن أجابه عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل وأرسل إليه (أحمال من النفط الأبيض ومن التراس والرماح ، ومن كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده)(١) . ووصل من مصر خمسون قطعة من الأسطول المصرى بقيادة الأمير حسام الدين لؤلؤ وذلك فى منتصف شهر ذى القعدة (فجاءت إلى مراكب الفرنج بغتة فحرقتها ومحقتها وبددت شملها ، وظفر المسلمون ببطستين كبيرتين من بطس العدو بما فيها من الرجال والأموال والغلال)(٢) وأدخل حسام الدين لؤلؤ هذه الغنائم إلى عكا (فسكنت نفوس من بها بوصول الأسطول وقوى جنانهم) وعلى الرغم من ذلك فإن القوات الصليبية التى كانت لا تزال تحاصر مدينة عكا استغلوا انشغال صلاح الدين بمرضه من ناحية وقلة عدد قوات الحراسة والمراقبة للمسلمين حول عكا من ناحية أخرى فاغتنموا ذلك ، وخرجوا من خندقهم على اليزك وقت العصر ، فقاتلهم المسلمون وحموا أنفسهم بالنشاب وحجم الفرنج عنهم حتى فى نشابهم ، فحملوا عليهم حينئذ حملة رجل واحد فاشتد القتال ، وعظم الأمر ، وعلم المسلمون أنه لا ينجيهم إلا الصبر وصدق القتال فقاتلوا قتال مستقتل إلى أن جاء الليل ، وقتل من الفريقين جماعة كثيرة ، وعاد الفرنج إلى خندقهم)(٣) ومن الملاحظ أن الصليبيين لما رأوا ضعف المسلمين شرعوا فى المبادرة بالهجوم وهنا تأتى أهمية الاستعداد وإرهاب العدو وإشعاره بالحذر والقوة الرادعة التى تمنعه أن يفكر فى الاعتداء على المسلمين . وعلى الرغم من تفوق القوات الصليبية من حيث العدد والمعدات فإن صلاح الدين بعد الواقعة المذكورة جاءته العساكر الإسلامية من البلاد القريبة منه دمشق وحمص وحماة وشيزر وغيرها من التركمان والعرب (فتقدم من الخروبة نحو عكا ، فنزل تل كيسان وقاتل الفرنج كل يوم ليشغلهم عن قتال من بعكا

---

(١) ابن واصل : المصدر السابق ص (٣٠٧) ، ثم انظر العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٥٠ - ٣٥١) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٠٥) ، ثم انظر العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٤٠ - ٣٤٤) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤١) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٧) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٤٨) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٤) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٥٧ - ٣٥٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣١١ - ٣١٢) .

من المسلمين . فكانوا يقاتلون الطائفتين ولا يسأمون)(١) وكان الصليبيون في مدة مقامهم على عكا (قد عملوا ثلاثة أبراج من الخشب عالية جداً طول كل برج منها في السماء ستون ذراعاً ، وعملوا كل برج منها خمس طبقات ، كل طبقة مملوءة من المقاتلة ، وقد جمعوا أخشابها من الجزائر (جزر البحر) ، فإن مثل هذه الأبراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب إلا القليل النادر وغشوها بالجلود والخل والطين والأدوية التي تمنع النار من إحراقها)(٢) وقدم الصليبيون هذه الأبراج نحو عكا من ثلاث جهات وأشرفوا منها على السور وقاتلوا من عليه من المسلمين (فانكشفوا وشرعوا في طم خندقهم ، فأشرف البلد على أن يملك عنوة وقهراً) وذلك في ٢٠ / ٣ / ٥٨٦ هـ أواخر إبريل ١١٩٠ م وأرسل أهل عكا من المسلمين إلى صلاح الدين (إنساناً سبح في البحر فاعلمه ما هم فيه من الضيق) فزحف بقواته على الصليبيين من جميع الجهات (وقاتلهم قتالا عظيما دائماً يشغلهم عن مكاثرة البلد) فافترق الصليبيون فرقتين : فرقة تقاتل صلاح الدين ، وفرقة تقاتل أهل عكا (إلا أن الأمر قد خف عمن بالبلد) ودام القتال بين الطرفين ثمانية أيام متتابعة ليلا ونهاراً (والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد لما رأوا من عجز من فيه عن دفع الأبراج ، فأنهم لم يتركوا حيلة إلا وعملوها فلم يعد بعد ذلك ولم يغن عنهم شيأ ، وتابعوا رمى النفط الطيار عليها فلم يؤثر فيها فأيقنوا بالبوار والهلاك)(٣) ومع ذلك فإن صلاح الدين أعمل فكرة في إحراق الأبراج الصليبية وإهلاكها (وجمع الصناع من الزراقين والنفاطين ووعدهم بالأموال الجزيلة إن أحرقوها (ولكن بدون جدوى) ورميت بكل قارورة نقط

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٤ – ٤٥) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣١٢ – ٣١٣) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٠٢ – ٣٠٤) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٢١ – ١٢٣) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٥) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣١٥) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٥ – ٤٦) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣١٥) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٦٧ – ٣٦٩) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٥٢ – ١٥٣) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٠٣) .

فلم تؤثر فيها شيء)(١) . ثم حضر رجل من أهل دمشق) كان مولعاً بجمع آلات النفاطين وتحصيل عقاقير تقوى عمل النار (وشرع فى عمل ما يعرفه من الأدوية المقوية للنار) بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرها) وأشرف على صناعته الأمير بهاء الدين قراقوش حاكم عكا وتولى أمورها ، وقال الصانع للأمير بهاء الدين بعد أن فرغ من إعداد المواد الحارقة : تأمر المنجنيقى أن يرمى فى المنجنيق المحاذى لبرج من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه . فأمر قراقوش المنجنيقى بامتثال أمر الصانع الدمشقى (فرمى عدة قدور نفطاً وأدوية ليس فيها نار ، فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يصيحون ويرقصون ، ويلعبون على سطح البرج ، حتى إذا علم أن الذى ألقاه قد تمكن من البرج ألقى قدراً مملوءة وجعل فيها النار ، فاشتعل البرج وألقى قدراً ثانية وثالثة ، فاضطرمت النار فى نواحى البرج ، وأعجلت من فى طبقاته الخمس عن الهرب والخلاص . فاحترق هو ومن فيه)(٢) ، وقال ابن واصل : (فاشتعل البرج من ساعته وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذوائبها نحو السماء ، فاستغاث المسلمون وضجوا بالتكبير والتهليل . ثم رمى الثانى بالقدر الثانية والثالث بالثالثة ، فأحرق الثلاثة)(٣) وحمل ذلك الرجل إلى صلاح الدين (فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع الكثير فلم يقبل منه الحبة الفرد وقال : إنما عملته لله تعالى ، ولا أريد الجزاء إلا منه)(٤) . وقيل : إنه احترق فى البرج الأول سبعون فارساً بعدتهم لأن الأبراج كانت فى غاية العظم (فإن كل واحد منها كان يحمل من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣١٥) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٦) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣١٥ – ٣١٦) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٧٠ – ٢٧٢) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٥٣ – ١٥٤) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٨) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٠٣ – ١٠٤) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣١٦) ، ثم انظر ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٧) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٥٣) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص(١٠٤)

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣١٦) .

فارس ويتسع سطحه لأن ينصب عليه منجنيق)(١) . واستبشر المسلمون بهذا النصر وأرسلوا الكتب إلى البلاد الإسلامية بالبشائر ، وأرسل صلاح الدين يطلب العساكر من البلاد الشرقية ، فوصلته القوات من سنجار وديار الجزيرة والموصل وأربل ، ثم وصل الأسطول المصرى إلى عكا فتصدى له الصليبيون (فكان القتال بين الفريقين براً وبحراً وكان يوماً مشهوداً لم يؤرخ مثله)(٢) .

تحالف الغرب الأوروبى على قتال صلاح الدين :

كانت الإمدادات التى وصلت إلى الصليبيين ببلاد الشام عقب سقوط بيت المقدس من قبل الأمراء والشعب والمتطوعين الذين سارعوا ولبوا نداء الاستغاثة لإنقاذ بيت المقدس وكان من نتائج حملة الدعاية الصليبية ضد الإسلام أن نجحت فى إثارة الحماس الدينى عند الغربيين ، فقد استجاب ملك صقلية النورمانى وليم الثانى لدعوة البابوية من أجل حرب صليبية وأرسل على الفور الأسطول الصقلى إلى بلاد الشام لمساندة الصليبيين ، وكان لهذا الأسطول الفضل فى دعم الصليبيين فى طرابلس وصور ورفع من معنوياتهم ، ولم يكن ملك صقلية الوحيد من ملوك أوربا الذين استجابوا لنداء البابوية ، بل استجاب لها أيضاً الامبراطور الألمانى فردريك بربروسا الأول ، وكذلك ملك فرنسا فيليب أغسطس وملك إنجلترا هنرى الثانى الذى توفى عام ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م فخلفه ابنه ريتشارد قلب الأسد .

واتفقت الآراء بين هؤلاء على الخروج بقواتهم إلى الشرق الإسلامى لمحاربة صلاح الدين وقرروا على الأوربيين دفع ضريبة لحرب صلاح الدين ، وعرفت هذه الضريبة باسم (عشور صلاح الدين) . وتحرك الامبراطور الألمانى بقواته نحو بلاد الشام وكان الملك الظاهر ابن صلاح الدين فى شهر رمضان عام ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م وهو بحلب قد أرسل الكتب إلى والده يخبر فيها أنه قد صح أن ملك الألمان خرج إلى القسطنطينية فى عدة عظيمة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٥) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢١٧) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٢٧٣ - ٢٨٥) .

قيل : مائتا ألف ، وقيل : مائتان وستون ألفاً ، يريد البلاد الإسلامية ؛ واشتد ذلك على السلطان وعظم عليه ورأى استنفار الناس للجهاد وإعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة)(١) وكان الامبراطور الألمانى قد اختار طريق البر للوصول إلى بلاد الشرق ، فاتخذ طريق القسطنطينية ولكن الامبراطور البيزنطى أرسل إلى صلاح الدين (يعرفه الخبر ويعد أنه لا يمكنه من العبور فى بلاده) ، ولكن الامبراطور الألمانى عبر بقواته خليج القسطنطينية ولم يتمكن امبراطور بيزنطة من منعه لكثرة قواته (لكنه منع عنه الميرة ، ولم يمكن أحداً من رعيته من حمل ما يريدونه إليهم وصاروا على أرض بلاد الإسلام)(٢)فقاومهم المسلمون وقتلوا من انفرد منهم، وكان الزمان شتاء والبرد شديد (فأهلكهم البرد والجوع والتركمان،فقل عددهم) .(٣) وساروا حتى وصلوا بلاد الأرمن وهم مسيحيون فأمدوهم (بالأقوات والعلوفات) وساروا نحو أنطاكية،وعندما حاول الامبراطور الألمانى عبور نهر صغير فى قيليقية غرق ومات قبل أن يصل إلى أنطاكية(٤) ، وملك بعده ابنه فردريك السوابى وسار إلى أنطاكية واختلف أصحابه عليه ، فأحب بعضهم العود إلى بلاده ، ورغب البعض فى تمليك أخ آخر له عليهم فعادوا أيضاً (وسار فيمن صفت نيته له ، فعرضهم ، وكانوا نيفاً وأربعين ألفاً)(٥) ، فلما وصلوا إلى أنطاكية حسن لهم صاحبها مواصلة المسير إلى الصليبيين الذين على عكا ، فساروا وهاجمهم المسلمون فى الطريق وأخذوا منهم خلقاً كثيراً ومات منهم

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١١٥) ،ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ ص (٣١٧) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣١٨) .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ص (٤٨) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٩) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٢٣ - ١٢٤) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٥٦) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٨٩ - ٣٩١) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣١٧ - ٣١٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٠٤) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٨) .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٩) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٩٦). أبوشامه : الروضتين ج ٢ ص (١٥٦) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٢٢) .

كثير فبلغوا طرابلس ولم يبق منهم إلا نحو الألفى رجل (فركبوا فى البحر إلى الفرنج الذين على عكا)(١) .

وكان صلاح الدين قد تضايق كثيراً عندما علم بتحرك الحملة الألمانية نحو بلاد الإسلام وزاد خوفه عندما علم بمسير ملكى فرنسا وإنجلترا بقواتها فى البحر يريدون بلاد الشرق الإسلامى . وخاف أن يقع المسلمون بين الهجوم الصليبى من ناحية البر ، وهجوم آخر من ناحية البحر ، واشتد خوف المسلمين وعبر ابن الأثير عن هذا الإحساس بقوله : (ولما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنا أننا ليس لنا بالشام مقام)(٢) ، وعبر عن ذلك أيضاً أبو الفداء ووصف معنوية المسلمين (واغتم لذلك وأيسوا من الشام بالكلية)(٣) وعلى الرغم من ذلك فإن صلاح الدين اجتمع مع الأمراء والقادة وشاورهم فى الأمر ورأوا ضرورة إرسال بعض القوات الإسلامية إلى الشمال لمواجهة القوات الألمانية فى الطريق ومحاربتهم قبل أن يتصلوا بمن على عكا)(٤) وكان من أمر الحملة الألمانية البرية أن فقدت أهميتها عقب وفاة الامبراطور فردريك بربروسا واختلاف جنوده وعودة معظمهم وقتل وأسر الكثيرين أثناء مسيرهم إلى بلاد الشام ، ومع ذلك فإن الإمدادات الصليبية لم تتوقف وأرسل صلاح الدين رسالة إلى الخليفة العباسى يخبره بأحوال المسلمين فى عكا وشدة ما هم فيه من الجهاد وأشار فى رسالته إلى الإمدادات المتواصلة التى تأتى من الغرب الأوروبى لمساندة الصليبيين فى بلاد الشام ، ومما جاء فى هذه الرسالة : (ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ويخرج منه للمسلمين ما هو أمر من أجاجه . وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا إليهم من كل فرقة طائفة ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكة ، فإذا قتل المسلمون واحداً فى البر بعثوا ألفاً عوضه فى البحر فالزرع أكثر من الحصاد)(٥) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٩)، العماد الكاتب ، الفتح القسى ص (٣٩٦) .
(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ص (٥٠) .
(٣) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٨) .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥٠) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٩٣-٣٩٤) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٢٤) .
(٥) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٥٧) .

وذكر ابن واصل أن النساء شاركن فى الحروب الصليبية وقال : (ووصل فى البحر امرأة جليلة المقدار ، وفى صحبتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم وغلمانهم ، وهى متكلفة بجميع ما يحتاجون إليه من المؤونة فهم يركبون لركوبها ويحماون بحملها)(١) ، ثم قال : (وتواصلت الإمداد من البحر إليهم يتلو بعضها بعضا ،وكان كلما نقص من العدو عدد جاء من داخل البحر أمثاله)(٢) . ومن وسائل الصليبيين استخدام النساء من أجل إيقاع الوهن والانحراف بين المسلمين فقد ذكر العماد الكاتب وهو شاهد عيان ذلك بقوله : (وصلت فى مركب ثلاثمائة امرأة إفرنجية مستحسنة متحلية بشبابها وحسنها متزينة ، قد اجتمعن من الجزائر ، وانتدبن للجزائر ، واغتربن لإسعاف الغرباء ، وتأهبن لإسعاد الأشقياء . . . وذكرن أنهن قصدن بخروجهن تسبيل فروجهن ، وأنهن لا يمتنعن من العزبان ، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب . وانضمت إليهن أترابهن من الحسان الشواب وفتحن أبواب الملاذ . . . وأبق من المماليك الأغبياء والمداير الجهلاء ، جماعة جذبهم الهوى . واتبعوا من غوى ، فمنهم من رضى للذة بالذلة . ومنهم من ندم على الذلة فتحيل فى النقلة . . . وما عند الفرنج على الغرباء إذا أمكنت منها الأعزب حرج)(٣) .

تفوق الصليبيين على المسلمين حول عكا :

ترتب على وصول الإمدادات الكثيرة للصليبيين أن اشتد ساعدهم وارتفعت معنوياتهم وتجرأوا على مهاجمة المسلمين ، ففى ٢٠ / ٦ / ٥٨٦ هـ / أواخر يولية ١١٩٠ م (خرجت الفرنج فارسها وراجلها من وراء خنادقهم وتقدموا إلى المسلمين وقصدوا نحو عسكر مصر) واقتتلوا قتالا شديداً ، فتراجع المصريون ودخل الصليبيون خيامهم ونهبوا أموالهم (فعطف المصريون عليهم) وأخرجوهم من خيامهم وكان صلاح الدين يشاهد ما جرى على

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣١٨) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٤٩) .

(٢) ابن واصل : المصدر السابق ص (٣٠٩) .

(٣) انظر : العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٣٤٧ - ٣٤٩) .

القوات المصرية عندما باغتها الصليبيون فى خيامها فركب السلطان ونادى مناديه : (يا للإسلام وأبطال الموحدين ، هذا عدو الله قد أمكن الله منه ، وقد داخله الطمع حتى غشى خيامكم بنفسه) ، فاجتمعت القوات حول صلاح الدين (وهو كالفاقدة ولدها ، الثاكلة واحدها) ، وأسرع إلى نجدة القوات المصرية التى كانت بقيادة أخيه الملك العادل (فلم يكن إلا ساعة ، حتى رأينا القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وامتدوا مطرحين من خيام الملك العادل إلى خيامهم ، أولهم فى الخيم الإسلامية وآخرهم فى خيم العدو على التلول والوهاد ، وشربت السيوف من دمائهم حتى رويت ، وأكلت أسد الوغى بأسنان الظفر حتى شبعت ، وأظهر الله سبحانه كلمته ، وحقق لعبيده نصرته ، ولم ينج من القوم إلا النادر ، ولقد خضت فى تلك الدماء واجتهدت أن أعدهم ، فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفوقهم ، وشاهدت فيهم امرأتين مقتولتين ، وحكى لى من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن وأسر من منهن اثنتان وأسر من الرجال فى ذلك اليوم نفريسير فإن السلطان . . كان أمر الناس أن لا يستبقوا أحداً ، هذا كله فى الميمنة وبعض القلب)(١) ، وكانت هذه المعركة فيما بين الظهر والعصر ، وكان يوماً على الكافرين عسيراً ويقول ابن شداد : (واختلف الناس فى عدد القتلى منهم ، فذكر قول أنهم ثمانية ألف ، وقال آخرون : سبعة ألف ولم ينقصهم حازر بأقل، من خمسة آلاف ، ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أولها فى خيم العادل وآخرها فى خيم العدو ، ولقد لقيت إنساناً عاقلا جندياً يسعى بين صفوف القتلى ويعدهم ، فقلت له : كم عددت ؟ فقال لى : إلى ها هنا أربعة آلاف ونيفاً وستين قتيلا ، وكان قد عد صفين وهو فى الصف الثالث ، لكن ما مضى من الصفوف كان أكثر عدداً من الباقى ، وانجلى يوم الأربعاء المذكور بأحسن ما يتجلى عنه الإسلام(٢) ، وقال العماد الكاتب وهو شاهد

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٢٩ — ١٣٠) ، ثم انظر ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥١) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٢٥ — ٣٢٧) ، العماد الكاتب الفتح القسى ص (٤٠٣ — ٤٠٥) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٥٨) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٣٠ — ١٣١) .

عيان : (وهم فى تسعة صفوف من تلال الرمل إلى البحر بالعرض ، وكل صف يزيد على ألف قتيل)(١) ، وقال ابن الأثير : (إن عدد القتلى يزيد على عشرة آلاف قتيل)(٢) .

وأما شهداء الإسلام فى هذه المعركة فكانوا قليل ، فقد ذكر شاهدوا العيان أنه لم (يفقد من المسلمين أحد فى ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين)(٣) ، وكان من نتائج هذه الموقعة أن ارتفعت الروح المعنوية عند المسلمين فى داخل مدينة عكا فخرجوا إلى مخيم الصليبيين وقاتلوهم (ونهبوا منها جمعاً من النسوان والأقمشة ، حتى القدور وفيها الطعام)(٤) ، ومن نتائجها أن ضعف الصليبيون (وشرع الفرنج فى الخداع والمراسلة ، وسألوا فى الصلح)(٥) وذلك حياة منهم حتى تصل لهم الإمدادات ويقووا صفوفهم من جديد وكان من نية صلاح الدين أن يقاتلهم فى اليوم التالى قبل أن يجتمعوا فوصلته أنباء وفاة الامبراطور الألمانى وما أصاب أصحابه من الموت والقتل والأسر : (واشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح بها عن قتال من بإزائهم)(٦)، وأرسلت البشائر بهذا النصر العظيم إلى خليفة بغداد وسائر البلاد الإسلامية(٧) .

وظن المسلمون أن الصليبيين إذا بلغهم خبر موت الامبراطور الألمانى فى الطريق وفشل حملته أن يقع فيهم الخوف والوهن ، ولكن لم تطل فرحة المسلمين ، إذ وصل بعد يومين من المعركة السابقة أحد الأمراء الغربيين اسمه الكند هنرى (ووصل معه من الأموال شىء كثير يفوق الإحصاء فجند الأجناد ، وبذل الأموال ، فعادت نفوسهم فقويت واطمأنت أن الإمداد واصلة إليهم يتلو بعضها بعضاً ، فتماسكوا وحفظوا مكانهم ثم أظهروا أنهم

---

(١) العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤٠٥) .
(٢) ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص (٥١) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤٠٨) .
(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٣٠) .
(٤) ابن شداد : المصدر السابق ص (١٣٠) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٥٨) .
(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٢٧) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٥٨) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٣١) .
(٦) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥١) .
(٧) العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤٠٦ – ٤٠٧) .

يريدون الخروج إلى لقاء المسلمين وقتالهم)(١) . ووصلت الأخبار إلى صلاح الدين بما عزم عليه العدو (فأحضر السلطان أمراءه وخواصه المؤمنين الميامين واستشارهم فيما يقدمه من الصواب . ويفتحه فى المصالح الراجحه من الأبواب فأشاروا بإيساع الحلقة وإدارتها كالمنطقة . والتنفيس عن العدو بالتأخر عن قربه ، حتى يأنس إلى الخروج لحربه . فوافقهم السلطان على هذا الرأى وحسن فى قلبه)(٢) . فرحل صلاح الدين بقواته إلى موقع الخروبة فى ٢٧ / ٦ / ٥٨٦ هـ أواخر يولية ١١٩٠ م ، وأخذ يتدبر الأمر من أجل مواصلة الجهاد . وقال ابن شداد : (وترك بقية من العسكر فى تلك المنزلة كاليزك ، مقدار ألف فارس ، يتناوبون بحفظ النوبة . هذا والكتب متواصلة من عكا ومنا إليها على أجنحة الطيور ، وأيدى السباح والمراكب اللطاف ، تخرج ليلا ، وتدخل سرقة من العدو)(٣) ، وكان صلاح الدين يراسل امبراطور الدولة البيزنطية ويهاديه ويوثق العلاقات معه من أجل أن يبقى محايداً ، فلا يتحالف مع الصليبيين من ناحية ويمنع مرور قواتهم فى بلاده من ناحية ثانية ، ومن هذه الرسائل أن الامبراطور البيزنطى أرسل إلى صلاح الدين رسالة تتضمن (استعطافاً واستسعافاً ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة فى جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة فيه وأنه مستمر على المودة راغب فى المحبة ويعتذر عن عبور الملك الألمانى(٤) (وكان صلاح الدين قد أرسل إلى القسطنطينية خطيباً ومنبراً وجمعاً من المؤذنين) وكان يوم دخولهم إلى القسطنطينية يوماً مشهوداً عظيماً من أيام الإسلام . وكان ثم جمع كثير من التجار ورقى الخطيب المنبر وأقام الدعوة الإسلامية العباسية)(٥) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥١ – ٥٢) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤١٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٢٨) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٥٩) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٣١) .

(٢) العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤١٣) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٣١).

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٣١) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٥٩)، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤١٤) ، ثم انر ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥٢٢).

(٤) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٥٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٢٨ – ٣٢٩) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٣٢) .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٢٨ – ٣٢٩) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٥٩ – ١٦٠) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٣٢) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤١٤) .

الصليبيون يشددون الحصار على عكا :

كان من نتائج وصول الإمدادات من البحر إلى الصليبيين وخصوصاً وصول الكند هنرى أن ارتفعت الروح المعنوية الصليبية ، وشرع هنرى فى نصب المجانيق على المدينة وحشد الكثير من وسائل الحصار والهجوم من الدبابات والعرادات (وضايق مدينة عكا أشد مضايقة)(١) ومع ذلك فقد خرج المجاهدون المسلمون من عكا وهاجموا الصليبيين وأحرقوا المجانيق والعرادات (فاحترق جميعها) وأسر المسلمون من الصليبيين (خلق كثير من جملتهم أربعة من المعروفين) وقتلوا منهم أيضاً سبعون صليبياً ، وحاول الصليبيون إعادة بناء مدافعهم من جديد فلم يتمكنوا من ذلك (لأن المسلمين بعكا كانوا يمنعون من عمل ستائر يستتر بها من يرمى من المنجنيق) ، فعمل الصليبيون تلا صناعياً من التراب فى مكان بعيد من المدينة بحيث يمكنه الرمى وهو يكشف من فى عكا ، ثم أن الصليبيين (كانوا ينقلون التل إلى البلد بالتدريج ويستترون به ويقربونه إلى البلد ، فلما صار من البلد بحيث يصل من عنده حجر منجنيق نصبوا منجنيقين وصار التل سترة لهما)(٢) . وكان من أثر تشديد الحصار الصليبي على عكا أن قلت الميرة بعكا (فأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية يأمرهم بإنفاذ الأقوات واللحوم وغير ذلك فى المراكب إلى عكا ، فتأخر إنفاذها ، فسير إلى نائبه بمدينة بيروت فى ذلك)(٣) . فأعد النائب فى بيروت سفينة عظيمة (وأودعها أربعمائة غرارة قمح ووضع فيها الجبن والبصل والغنم وسائر ما يحتاج إليه ، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول البلد منعاً له من أن يدخل إليها ميرة ، وكانت حاجة أهل البلد قد اشتدت جداً إلى الطعام ، فركب فى تلك البطشة (السفينة) جماعة من المسلمين وتزيوا بزى الفرنج ، وحلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البطشة ، وعلقوا الصلبان وجاءوا قاصدين إلى البلد حتى خالطوا مراكب

(١) العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤١٥) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٣٣).

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥٢) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤١٥ — ٤١٦) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٣٤ — ١٣٥) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥٢) .

العدو ، فخرجوا عليهم واعترضوهم فى الحراقات والشوانى(١) وقالوا لهم : (نراكم قاصدين البلد) واعتقدوا أنهم منهم . فقالوا : (أولم تكونوا قد أخذتم البلد ؟) فقالوا : (لا ، لم نأخذ البلد بعد) ، فقالوا : (نحن نرد القلوع إلى العسكر ووراءنا بطشة أخرى فى هوائنا ، فانذروهم حتى لا يدخلوا البلد) وكان وراءهم بطشة إفرنجية قد اتفقت معهم فى البحر قاصدة إلى العسكر ، فنظروا فرأوها ، فقصدوها لينذروها ، واشتدت البطشة الإسلامية فى السير ، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد ، واشتد الفرح والسرور بذلك وكان ذلك فى العشر الآخر من رجب)(٢) ، وقال ابن الأثير : (ففرح بها المسلمون ، وانتعشوا وقويت نفوسهم وتبلغوا ما فيها إلى أن أتتهم الميرة من الإسكندرية)(٣) إلا أن الإمدادات الإسلامية التى وصلت إلى داخل مدينة عكا بالمركب المذكور لا تكفى سوى أسبوعين فكتب الأمير بهاء الدين قراقوش والى مدينة عكا والحاجب لؤلؤ قائد الأسطول (يذكران للسلطان أنه لم يبق بالبلد ميرة إلا قدر ما يكفى البلد إلى ليلة النصف من شعبان عام (٥٨٦ هـ) ، فكتم السلطان ذلك لئلا يسمع الأمر ، وقد كان كتب إلى مصر بتجهيز ثلاث بطش مشحونة بالأقوات والمير وما يكفى البلد إلى آخر الشتاء)(٤) ، ووصلت ثلاث سفن مصرية محملة بالأزواد المختلفة ليلة النصف من شعبان فى وقت (لم يبق عندهم ما يطعمون الناس فى ذلك اليوم) ، فاعترض الأسطول الصليبى سبيل السفن الإسلامية الثلاثة يريد قتالها — والعساكر الإسلامية تشاهد ذلك من الساحل ، والناس فى تهليل وتكبير

---

(١) الحراقة والجمع حراقات وحراريق نوع من السفن التى استعملها المسلمون فى العصور الوسطى وتسير بنحو مائة مجداف ، وأما الشينى فهو سفينة حربية أكبر من الحراقة .

انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٣١) حاشية ١ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٣٠ – ٣٣١) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥٢ – ٥٣) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤١٧ – ٤١٨) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٣٥) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٦٠ – ١٦١) ،

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥٣) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٣١ – ٣٣٢) .

وقد كشفوا رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى بسلامتها ، ولم يزل القتال بين أسطول العدو وبين البطش إلى العصر من ذلك اليوم ، ووصلت سالمة ، وكانت ليلة بليال)(١)، وعلى الرغم من ذلك فإن صلاح الدين لم يكن مطمئناً على سلامة عكا وخصوصاً أنه يعلم كثرة الإمدادات العسكرية والبشرية للصليبيين فى أن إمدادات المسلمين كانت محدودة ويقاتلون وبقوات لاتتجدد فى حين أن الصليبيين تأتيهم العساكر من الغرب فوج بعد فرج ، حتى النساء فى الغرب شاركن فى إرسال الجيوش وشاركن فى القتال ، فقد أشار ابن الأثير إلى ذلك بقوله : (وخرجت ملكة من الفرنج من داخل البحر فى نحو ألف مقاتل ، فأخذت بنواحى الإسكندرية وأخذ من معها)(٢) ، كما أن البابا فى روما أرسل إلى الصليبيين فى الشرق (يأمرهم بملازمة ما هم بصدده . يعلمهم أنه قد أرسل إلى جميع الفرنج يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم براً وبحراً ، ويعلمهم بوصول الإمداد إليهم فازدادوا قوة وطمعاً)(٣) . فاضطر صلاح الدين أمام هذا الوضع الخطير إلى الكتابة إلى خليفة بغداد يبلغه بأحوال جبهات الجهاد مع العدو الصليبى ويحرضه على إرسال النجدات والمساعدات.وجاء فى كتاب صلاح الدين إلى الخليفة الناصر لدين الله : (وقد بلى الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت واستجابوا الصوت . وفارقوا المحبوبين : الأوطان والأوطار ، وهجروا المألوفين : الأهل والديار وركبوا اللجج ووهبوا المهج ، كل ذلك طاعة لقسيسهم ، وامتثالا لأمر مركسيهم ، وغيرة لمتعبدهم ، وحمية لمعتقدهم وتهالكاً على مقبرتهم ، وتحرقاً على قمامتهم ، مع لا يطلبون مع شدة الإملاق ما لا ، ولا يجدون مع كثرة المشاق ملالا ، بل يتساقطون على نيران الظبى تساقط الفراش ويقتحمون الردى متدرعين للصبر مثبتين الجأش ، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات ،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٣١ – ٣٣٢) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤١٧ – ٤٢٠) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٦١) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٣٢ – ٣٣٣) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٣٣) .

وسرن إلى الشام فى البحر متجهزات ، وكانت منهن ملكة استتبعت خمسمائة مقاتل فارس وراجل ورامح ونابل ، والتزمت مؤنتهن ، فصودف مركبها بقرب الإسكندرية ، وأخذت رجالها وأراح الله من شر احتفالها .

ومنهن ملكة وصلت مع ذلك الجمع . ذوات المقانع من الفرنج مقنعات دارعات . يحملن إلى الطعان الطوارق والقنطاريات ، وقد وجدت فى الوقعات التى جرت عدة منهن فى القتلى ، فما عرفن حتى سلبن ، وأن البابا الذى لهم برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم وقال : (من لا يتوجه إلى القدس مستخلصاً فهو عندى محروم لا منكح له ولا مطعم) ، فلأجل هذا يتهافتون على الورود ، ويتهالكون على يومهم الموعود ، وقال لهم : (إنى واصل فى الربيع ، جامع على الاستنفار شمل الجميع) ، وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد ويصل معه بأهله وولده كل من يقول : لله أهل وولد . فهذا شرح حال هؤلاء وتعصبهم فى ضلالتهم ولجاجتهم فى غوايتهم ، بخلاف أهل الإسلام فإنهم يتضجرون ولا يصبرون ، بل يتفللون ولا يجتمعون ويتسللون ولا يرجعون وإنما يقيمون ببذل نفقة وإذا حضروا ، حضروا بقلوب غير متفقة ، ليعلم أن الإسلام من عند الله منصور ، وأن الكفر بإرادة الله محسور مدحور)(١) ، ويفهم من نص الكتاب المذكور أن الصليبيين قد اجتمعوا فى أنحاء العالم بقيادة البابا فى روما واتفقوا على حرب المسلمين وبذل كل ما يمكنهم من أجل احتلال القدس وما حولها فى حين أن المسلمين لم يفعلوا ما ينبغى عليهم أن يفعلوه من اجتماع الكلمة واتفاق الأمة على قتال العدو ، بل أن الخليفة العباسى لم يقم بدور هام فى الجهاد ضد العدو الصليبي ، كما فعل البابا فى خدمة الحرب ضد المسلمين والتحريض على قتالهم .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٣٢ - ٣٣) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٦١ - ١٦٢) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥٣) .

موقف خيانة :

بعد أن طال القتال بين المسلمين والصليبيين حول مدينة عكا اشتد الغلاء على الصليبيين فصبروا على هذا وقال ابن الأثير : (وكان المسلمون يحملون إليهم الطعام من البلدان منهم الأمير أسامة . مستحفظ بيروت ، كان يحمل الطعام وغيره ومنهم سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب ، كان يحمل من صيدا أيضاً إليهم ، وكذلك من عسقلان وغيرها ، ولولا ذلك لهلكوا جوعاً خصوصاً في الشتاء عند انقطاع مراكبهم عنهم لهياج البحر)(١)، ولا شك أن تقديم الطعام أو ما يستعان به على حرب العدو سواء كان ذلك عن طريق البيع والشراء أو المهاداة أمر تحرمه الشريعة الإسلامية علاوة على أن القوانين العسكرية تمنع ذلك، والسبب في ذلك ظاهر وهو عدم إعانة العدو على الصبر والقوة من ناحية وإغراء بعض العناصر للتعاون معهم بما يضر المصلحة العامة للمسلمين .

الصليبيون يحاولون اقتحام عكا :

قال ابن واصل : (واتخذ العدو دبابة عظيمة يدخل تحتها خلق عظيم وهي ملبسة بصفائح الحديد ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل ، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور ، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد وهي تسمى كبشاً تنطح السور بشدة عظيمة لكثرة من يجرها : فتهدمه بتكرار نطحها) .

واتخذ آلة أخرى وهي قبو وفيه رجال تسحبها . ورأسها محدد على شكل السكة التي يحرث بها ، وأما رأس الكبش فمدور ، فهذا يهدم بثقله ، وتلك تهدم بحدتها ، وتسمى هذه السكة سفوداً واتخذ أيضاً ستائر وسلالم هائلة كبار ، واتخذ في البحر بطشة هائلة وفيها برج بخرطوم ، فإذا أريد قلبه على السور انقلب بحيل هندسية ويبقى طريقاً إلى المكان الذي تنقلب عليه ، ليمشى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥٤ — ٥٥)، ثم انظر العماد الكاتب : الفتح القسي ص (٤٣٩ — ٤٤٠) ، ثم انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٤٧ — ١٥٤) .

عليه المقاتلة ، وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه)(١) ، ولم يكتف العدو الصليبي بهذا بل حشد قوة أخرى على عكا من ناحية البر ونصب (منجنيقات هائلة حاكمة على السور) وقذفوا سور مدينة عكا (حتى أثرت فيه أثراً بيناً وخيف على البلد) ومع ذلك فقد أحرق بعض المسلمين (سهمين من سهام الجرخ الكبير حتى صارا كالشعلة من النار ، ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيه (البرج الصليبي) ، واجتهد العدو في إطفائه فلم يقدر على ذلك ، وهبت ريح شديدة ، واشتعل اشتعالا عظيماً واتصل لهبه بالآخر فاحترق)(٢) .

وفي ٢٢ / ٨ / ٥٨٦ هـ / سبتمبر ١١٩٠ م حاول الصليبيون اقتحام ميناء عكا وقصدوا محاصرة برج الذبان (وهو برج في وسط البحر مبنى على الصخر على باب ميناء عكا يحرس منه الميناء ومتى عبره المركب أمن غائلة العدو فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه ، ويمتنع بذلك دخول شيء من البطش إلى عكا ، فتنقطع الميرة عن البلد) وأعد الصليبيون سفناً للقيام بحرق برج الذبان المذكور وحرق سفن الأسطول الإسلامي في الميناء ولكن محاولتهم انتهت بالفشل والسبب في ذلك أنهم جعلوا في سفينة لهم وقوداً وحطباً على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين السفن الإسلامية ثم يحرقونها فتحرق السفن الإسلامية ويقول ابن واصل : (فلما حروا البطشة التي أرادوا أن يحرقوا بها بطش المسلمين) انعكس الهواء عليهم فاحترقت لهم سفينتان وغرقت ثالثة بمن فيها (وأذل الله الكافرين ، وأنزل بهم عقوبته)(٣) .

ولم يتوقف الصليبيون عن الهجوم على مدينة عكا ، ففي ٣ / ٩ / ٥٨٦ هـ / نوفمبر ١١٩٠ م (زحف العدو على البلد في خلق لا يحصى) واقتربوا من

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٣٤) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٦٢) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٣٥) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٦٢) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٣٦) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ (١٦٢ - ١٦٣) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٣٨ - ١٣٩) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤٢٧ - ٤٢٨) .

السور وأحس المسلمون فى عكا بحرج الموقف ففتحوا الأبواب دفعة واحدة وهاجموا الصليبيين (وكبسوهم فى الخنادق ، فهربوا ووقع السيف فيمن بقى على الخندق) وكان مع الصليبيين دبابة من نوع الكبش فألقى المسلمون (فيه النار والنفط وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه فاحترق حريقاً شديداً ، وارتفع لهبه إلى السماء ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل وسرت نار الكبش إلى السفود . فاحترق حريقاً شنيعاً ، وعلق المسلمون فى الكبش كلاليب الحديد المصنوعة من السلاسل فسحبوها وهو يشتعل حتى حصل عندهم فى البلد وألقى عليه الماء حتى برد حديده ، وكان وزن ما فيه من الحديد مائة قنطار بالشامى ، ثم سيروا رأسه إلى السلطان لينظره)(١) .

سقوط عكا فى يد الصليبيين للمرة الثانية سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م :

بعد الانتصارات التى أحرزها المسلمون فى عكا تأخر صلاح الدين إلى قرية شفرعم التى تبعد عن عكا حوالى ثلاثة أميال وكان سبب ذلك (إنه بلغه عزم الفرنج على الخروج مرة ثانية لأخذ ثأرهم ، وكثر المستأمنون عنده ، وتواترت أخبارهم إليه بذلك (فتأخر مسافة (لتكون أفسح للقاء) وذلك فى ١٩ / ٩ / ٥٨٦ هـ / نوفمبر ١١٩٠ م (٢) وأقام مستعداً لدخول الشتاء . فلما اشتد البرد وعصفت الرياح خاف العدو على مراكبه لأنها لم تكن فى الميناء (فسيروها إلى بلادهم صور والجزائر فانفتح الطريق إلى عكا فى البحر) وأرسل المسلمون فى عكا إلى صلاح الدين (يشكون الضجر والملل والسآمة) وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدماً على جندها (فأمر صلاح الدين بإقامة البدل وإنفاذه إليها وإخراج من فيها ، وأمر أخاه الملك

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٣٦ - ٣٣٧) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٦٣) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٤١) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤٣٢ - ٤٣٥) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٣٨) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٦٤) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤٣٦ - ٤٣٧) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٤٧) .

العادل بمباشرة ذلك فانتقل إلى جانب البحر . ونزل تحت جبل حيفا وجمع المراكب والشوانى ، وكلما جاءه جماعة من العسكر سيرهم إليها وأخرج عوضهم ، فدخل إليها عشرون أميراً ، وكان بها ستون أميراً ، فكان الذين دخلوا قليلا بالنسبة إلى الذين خرجوا وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإنفاذهم) وذلك فى منتصف فبراير عام ١١٩١ (١) ، وكان ذلك من أسباب ضعف الجبهة الإسلامية فى تلك الظروف وكان جماعة من الأمراء قد أشاروا على صلاح الدين بأن يرسل إلى من بعكا (النفقات الواسعة والذخائر والأقوات الكثيرة ، ويأمرهم بالمقام ، فإنهم قد جربوا وتدربوا واطمأنت نفوسهم على ما هم فيه فلم يفعل ، وظن فيهم الضجر والملل وأن ذلك يحملهم على العجز والفشل فكان الأمر بالضد)(٢) .

أضف إلى ذلك خيانة النصارى من العرب الذين استخدمهم صلاح الدين فى بعض الوظائف المالية فقد ذكر ابن الأثير ذلك بقوله : (وكان على خزانة ماله قوم من النصارى ، وكانوا إذا جاءهم جماعة قد جندوا تعنتوهم بأنواع شتى ، تارة بإقامة معرفة ، وتارة بغير ذلك فتفرق بهذا السبب خلق كثير)(٣) ومن هنا كان موقف الإسلام من غير المسلمين عندما حذر القرآن الكريم منهم بقوله « **ولا تأمنوا إلا لمن اتبع دينكم** » وأشار ابن الأثير أيضاً إلى أسباب أدت إلى ضعف الجبهة الإسلامية منها (توانى صلاح الدين ووثوقه بنوابه وإهمال النواب فانحسر الشتاء والأمر كذلك ، وعادت مراكب الفرنج إلى عكا وانقطع الطريق إلا من سابح يأتى بكتاب)(٤) ولقد اعتمد المسلمون على رسائل الحمام الزاجل وبعض العوامين الذين يسبحون فى البحر وذلك لنقل الأخبار والأوامر وأموال النفقة على العسكر ومن نوادر هذه الحوادث أن عواماً مسلماً كان يقال له عيسى وكان يدخل إلى عكا بالكتب والنفقات

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥٥) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (٧٨-٧٩) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٥٢ - ١٥٣) ، العماد الكاتب : الفتح القسى - ص (٤٥٦ - ٤٦٠) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥٥ - ٥٦) .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ص (٥٥) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٥٥) .

على وسطه ليلا على غره من العدو . وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو (وكان ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار وكتب للعسكر وعام فى البحر فجرى عليه من أهلكه وأبطأ خبره عنا وكانت عادته أنه إذا دخل البلد طار طير عرفنا بوصوله ، فأبطأ الطير فاستشعر الناس هلاكه ، ولما كان بعد أيام بينما الناس على طرف البحر ، وإذا البحر قد قذف إليهم ميتاً غريقاً فافتقدوه فوجدوه عيسى العوام ، ووجدوا على وسطه الذهب وشمع الكتب ، وكان الذهب نفقة للمجاهدين ، فما رؤى من أدى الأمانة فى حال حياته وقد أداها بعد وفاته إلا هذا الرجل)(١).

كل ذلك يدل على الضيق الذى كان فيه المسلمون ومعاناة صلاح الدين فى ذلك الظرف الحرج ، فقد كان فى حاجة إلى المال والرجال والسلاح ومع ذلك فإنه كان يعتقد أن النصر من عند الله ، فقد كتب رسالة إلى القاضى الفاضل بمصر يخبره عما لاح له من أمارات النصر ويقول (ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها) (٢) ولما اشتد أمر الصليبيين على عكا أرسل صلاح الدين إلى ملك المغرب (يستنجد به عليهم ليقطع عنهم مادتهم من جهة البحر)(٣) .

كل ذلك يدل على موقف المسلمين وشعور صلاح الدين بضعف موقفه إزاء قوة الجانب الصليبى ويقول أبو الفداء (واستمر حصار الفرنج لعكا إلى هذه السنة (٥٨٧ هـ) وكانوا قد أحاطوا بها من البحر إلى البحر وحفروا عليهم خندقاً فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم وكانوا محاصرين لعكا وهم كالمحصورين من خارجهم من السلطان واشتد حصارهم لعكا وطال وضعف من بها عن حفظ البلد وعجز السلطان صلاح الدين عن دفع العدو عنهم)(٤) ،

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٣٥ - ١٣٦) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٦٢) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤٢٣) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٦٩) .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٧٠) ونص الرسالة موجود بنفس المصدر ص (١٧١ - ١٧٣) .

(٤) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (٧٩) .

وكانت الإمدادات الصليبية لا تنقطع فقد وصل إلى عكا ملك فرنسا فيليب أغسطس وذلك فى١٢/ ٣/ ٥٨٧ هـ / ٢٠/ ٤/ ١١٩١ م (ولم يكن فى الكثرة التى ظنوها وإنما كان معه ست بطس كبار عظام فقويت به نفوس من على عكا منهم ، ولجوا فى قتال المسلمين الذين فيها)(١) ، وشعر الصليبيون بالقوة المعنوية عندما رأوا ملك فرنسا بينهم يقودهم فى حرب ضد المسلمين ومع ذلك لم يترك صلاح الدين مدينة عكا بدون مدافعه ، فقد كان يهاجم الصليبيين (ليشغلهم بالقتال عن مزاحمة البلد) وأرسل إلى نائبه فى بيروت الأمير أسامة (يأمره بتجهيز ما عنده من الشوانى والمراكب وتشحينها بالمقاتلة . وتسيرها فى البحر ليمنع الفرنج من الخروج إلى عكا ففعل ذلك ، وسير الشوانى فى البحر فصادفت خمسة مراكب مملوءة رجالا من أصحاب ملك انكلتار الفرنج (ملك انجلترا) كان قد سيرهم بين يديه ، وتأخر هو بجزيرة قبرص ليملكها ، فأقبلت شوانى المسلمين مع مراكب الفرنج . فاستظهر المسلمون عليهم ، وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوت ومتاع ومال وأسروا الرجال)(٢) وكان الصليبيون فى يوم الخميس ٤/ ٥/ ٥٨٧ هـ / يونيه ١١٩١ م قد زحفوا على عكا (ونصبوا عليه مناجيق سبعة ووصلت كتب من عكا بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو عنهم (فتحرك صلاح الدين بقواته حتى وصل إلى الخروبة ورتب قواته ميمنة وميسرة وقلباً ثم أرسل بعض الكشافة لكشف حال العدو وحال خنادقهم)(٣) . وقرب من مواقع الصليبيين (وكانوا كلما تحركوا للقتال ركب وقاتلهم من وراء خنادقهم فكانوا يشتغلون بقتالهم فيخف القتال عن البلد)(٤) ولكن الصليبيين كانوا أحسن حالا من الجانب الإسلامى من حيث كثرة الإمدادات ووفرة الأموال والرجال بل كانوا هذه النوبة أكثر حماساً فى القتال من المسلمين ويشجعهم على هذا

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٦٣ - ٦٤) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٥٦ - ١٥٧) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤٧٤) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٦٤) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٥٨)

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٥٨ - ١٥٩) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤٤١ - ٤٤٣) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٦٤) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٦٤) .

الدعاية المسيحية التى استخدمت الأساليب كافة فى الإساءة إلى المسلمين والدعوة إلى حرب صليبية تنتزع الأراضى المقدسة من المسلمين ، واستجاب المسيحيون فى العالم لدعوة البابوية وكان البابا قد فرض فى أوربا ضريبة العشور التى سميت بضريبة صلاح الدين بهدف محاربته واشتعل الشعور الدينى عند المسيحيين فى الغرب ، كما سافر البابا إلى الجمهوريات الإيطالية لإيمانه بحاجة الصليبيين لمساعدتها فى عمليات النقل ، فهى تملك الأساطيل اللازمة لنقل الجند والعتاد ، والجمهوريات التجارية الإيطالية كانت ترحب بذلك المشروع ، فقد كان لسقوط مدينة عكا ومدن الساحل فى يد المسلمين أسوأ الأثر عليها خاصة وأنها كانت تدرك رد الفعل الإسلامى بالنسبة لها ، ولذلك شجعت الحملة الصليبية الثالثة بل وشاركت فيها مشاركة فعالة ، ومر البابا فى جولته بمدينة بيزا وبذل جهوده فى التوفيق بين جنوة والبندقية حاثا إياهم على ضرورة توحيد جهودهم من أجل الحرب المقدسة ضد المسلمين . كما بعث الرسائل إلى كل أمراء الغرب وملوكهم يدعوهم فيها بترك ما هم فيه والتوجه إلى الشرق فاستجاب المسيحيون فى الغرب لنداء البابا وخاصة ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وفريدريك باربروسا إمبراطور ألمانيا ، بالإضافة إلى الجمهوريات الإيطالية والأمراء فى مختلف أرجاء الغرب)(١) وقصد الصليبيون بلاد فلسطين بمائتى سفينة مشحونة بالعساكر والعتاد والإمدادات(٢) وسار الإمبراطور الألمانى عن طريق البروسار ملكى انجلترا وفرنسا بقواتهما عن طريق البحر وعلى الرغم من غرق الامبراطورية فردريك بربروسا فى الطريق وفشل حملته ووصول عدد قليل من جنوده إلى عكا بقيادة ابن الامبراطور فإن الصليبيين قد انتعشوا بوصول فيليب

---

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٤ ص (٢٧٤ - ٢٧٥) ؛ الصدفى : تاريخ دول الإسلام ج ٢ ص (٢٦٠) ، ثم انظر :

Hodgson, the Early History of venice, pp. 336–337;

Archêr : the crusades, p. 307; Grousset: Histoire des Croisades part II, pp. 834–835; port III, p.5,8; stevenson : crusaders in the East. pp: 206–207; Lane poolê : Saladin, pp. 197–216.

(٢) الصدفى : تاريخ دول الإسلام ج ٢ ص (٢٦٠) .

أغسطس ملك فرنسا بقواته إلى عكا فتحولوا إلى الهجوم وأحكموا حصار المدينة ولم يبق للمسلمين إليها طريق ووصف أبو شامة كثرة الصليبيين بقوله (وكلما بادوا فى البر زادوا فى البحر وكم جسروا وخسروا وقتلوا وأسروا وهزموا وكسروا وخلفهم خلف ويقوم مقام مائتهم ألف . . .)(١) وفى هذا الظرف العصيب والضيق الشديد على المسلمين فى عكا ، وصل ملك انجلترا بقواته بعد أن استولى على جزيرة قبرص أثناء مسيرة إلى الشرق الإسلامى ووصف ابن الأثير قوة ريتشارد قلب الأسد التى أمد بها الصليبيين فقال (فلما فرغ منها (قبرص) سار عنها إلى من على عكا من الفرنج . فوصل إليهم فى خمس وعشرين قطعة كباراً مملوءة رجالا وأموالا ، فعظم به شر الفرنج ، واشتدت نكايتهم فى المسلمين ، وكان رجل زمانه شجاع ومكراً وجلداً وصبراً ، وبلى المسلمون منه بالداهية التى لا مثل لها)(٢) . ولما علم صلاح الدين بوصول ملك انجلترا بقواته إلى عكا أمر بتجهيز بطسة كبيرة مملوءة من الرجال والأسلحة والآلات والميرة لتسير إلى مدينة عكا وفيها سبعمائة مقاتل)(٣) فلما سارت اعترضها ريتشارد قلب الأسد (مصادفة فقاتلها وصبر من فيها على قتالها ، فلما أيسو من الخلاص نزل مقدم من بها إلى أسفلها ، وهو يعقوب الحلبى مقدم الجندارية ، يعرف بغلام ابن شقتين ، فخرقها خرقاً واسعاً لئلا يظفر الفرنج بمن فيها وما معهم من الذخائر فغرق جميع ما فيها)(٤) فاشتد الكرب على المسلمين ، وكانت عكا محتاجة إلى الإمدادات

---

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٥٤) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٦ ، ٨١) ، سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص (١٥٥) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٥٤ — ١٥٨) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٦٤ — ٦٥) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٦١) ، ثم انظر العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤٧٧ — ٤٧٨) ، ص (٤٨٤ — ٤٨٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٥٠) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٥١) ، أبو شامة الروضتين ج ٢ ص (١٨٤) ، ويعبر ابن واصل أنهم ستمائة وخمسون مقاتل ، مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٥١) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٦٥) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤٨٦) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٦١) .

ثم أن الصليبيين عملوا دبابات وزحفوا بها فأحرق المسلمون بعضها وأخذوا بعضاً آخر . ثم عملوا كباشاً وزحفوا بها . ففتح المسلمون أبواب المدينة فجأة وهاجموا الصليبيين وأخذوا تلك الكباش (فلما رأى الفرنج أن ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلا كبيراً من التراب مستطيلا،وما زالوا يقربونه إلى البلد ويقاتلون من ورائه لا ينالهم من البلد أذى حتى صار على نصف علوه . فكانوا يستظلون به،ويقاتلون من خلفه فلم يكن المسلمين حيلة فيه لا بالنار ولا بغيرها . فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين . فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم . فلم يقدر لهم على نفع)(١) وضع الصليبيون دبابة عظيمة هائلة ذات أربع طبقات الأولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس ، وكانت تعلو سور مدينة عكا ويركب فيها الجنود المقاتلون وخاف أهل عكا من هذه الدبابة خوفاً عظيما (وحدثتهم نفوسهم بطلب الأمان من العدو) وقربها العدو (ولم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمسة أذرع على ما يشاهد برأى العين ، وأخذ أهل البلد فى تواتر ضربها ليلا ونهاراً بالنفط حتى قدر الله حريقها واشتعال النار فيها) واشتدت أصوات المسلمين (بالتكبير والتهليل ورأى الناس ذلك جبراً لذلك الوهن ومحوا لذلك الأثر ، ونعمة بعد نقمة ، وإيناساً بعد يأس ، وكان ذلك فى يوم غرق البطشة ، فوقع من المسلمين موقعاً وكان مسلياً لحزنهم وكآبتهم)(٢) وكتب السلطان صلاح الدين رسالة إلى الخليفة العباسى الإمام الناصر لدين الله يخبره بما جرى على المسلمين ويصف الجهاد حول مدينة عكا جاء فيه (ما قطع الخادم الخدم ، إلا أنه أضجر وأسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذى قد استفحل أمره ، واستشرى شره ، فإن الناس ما رأوا ولا سمعوا عدواً حاصراً محصوراً غامراً مغموراً قد تحصن بخنادق تمنع الجائز من الجواز وتعوق الفرص عن الانتهاز . ولا تقصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل ، وقد أفناهم القتل والأسر . وأكلتهم الحرب ولفظهم

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٦٥) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٦٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٥١ – ٣٥٢) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤٨٢) .

النصر ، وقد أقد أحدهم البحر بالبحار وأعان أهل النار . فاجتمع فى هذه الجموع الجيوش الغربية والألسنة الأعجمية من لا يحصر معدوده ، ولا يتصور فى الدنيا وجوده ، فما أحقهم بقول أبى الطيب :

(تجمع فيه كل لسن وأمة – فما يفهم الحداث إلا التراجم) حتى أنه إذا أسر الأسير واستأمن المستأمن ، احتيج فى فهم لغته إلى عدة تراجم ، ينقل واحد عن آخر . ويقول ثان ما يقول أول ، وثالث ما يقول ثان . والأصحاب كلوا وملوا وصبروا إلى أن ضجروا وتجلدوا إلى أن تبلدوا ، والعساكر التى تصل إلى المكان البعيد لا تصل إلا وقد كل ظهرها ، وقل وقرها . وضاق بالبيكار صدرها ، لا تستفتح إلا بطلب الدستور ، ويصير ضجرها مضراً بالسمعة عند العدو المخذول .

ولهم – خذلهم الله – تنوع فى المكايدة ، فإنهم قاتلوا مرة بالأبرجة ، وأخرى بالمنجنيقات ، وثالثة بالدبابات ، ورابعة بالكباش ، وأخرى باللوالب ويوماً بالنقب ، وليلا بالسرايات وطوراً بطم الخنادق ، وأناة بنصب السلالم ودفعة بالزحوف فى الليل والنهار ، وحالة فى البحر فى المراكب ، ثم شرعوا فأقاموا فى وسط خيامهم حائطاً مستطيلا يشبه السور من التراب ، وتلالا تشبه الأبرجة مدورة ، ورفعوها بالأخشاب ، وعالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها ، وهم يتقدمون أول فأول ، وترتفع حالا بعد حال حتى صارت منه كنصف غلوه سهم ، وقد كان الجمر والنار يؤثران فى أبرجه الخشب ، وهذه أبراج وستائر للرجال ، ومنجنيقات من العطب لا تؤثر فيها الحجارة الرامية ولا تعمل فيها النار الحامية)(١) .

جرى ذلك والقتال بين الطائفتين يزداد شدة وعنفاً ، ولجأ العدو الصليبى إلى مراسلة صلاح الدين من أجل شغل الوقت ، وكان ريتشارد قلب الأسد قد مرض واشتدت علته . فأرسل رسوله إلى صلاح الدين وطلب الاجتماع به

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ح ٢ ص (٣٥٢ – ٣٥٤) ، أبو شامة : الروضتين ح ٢ ص (١٨٥ – ١٨٦) .

Setton : Ahistory of the crusades, vol, 2, p. 73.

(وغرضه فى هذا كله تفتير العزمات ويضيع الوقت على المسلمين ، وهم مع ذلك مشتغلون بمحاصرة البلد ، ومواترة رميه بالمناجيق ، فاشتد ضعف أهل البلد وأهلكهم التعب والسهر لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم ، والعدو مجتهد فى قتالهم ومضايقتهم ، وقد افترقوا فرقاً تقاتلهم كل فرقة نوبة ، فبلغ ذلك السلطان فصعب عليه)(١) ، ولم يقبل صلاح الدين الاجتماع مع ريتشارد وذكر ابن شداد هدف مراسلة الصليبيين للسلطان صلاح الدين بقوله : (كان غرضهم بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس ، وضعفها وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ما عندهم من ذلك أيضاً)(٢) ، وعلى الرغم من أن النجدات العسكرية كانت تصل إلى صلاح الدين من أطراف البلاد الإسلامية القريبة ومصر إلا أن العدو الصليبي استظهر على المسلمين ، وبان عجز المدافعين عن مدينة عكا (وكان أول وهن دخل على من بالبلد أن الأمير سيف الدين على بن أحمد الهكارى المعروف بالمشطوب ، كان فيها ، ومعه عدة من الأمراء كان هو أمثلهم وأكبرهم ، خرج إلى ملك فرنسيس وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يطلق المسلمين الذين فيه ويمكنهم من اللحاق بسلطانهم فلم يجبه إلى ذلك ، فعاد على بن أحمد إلى البلد ، فوهن من فيه ، وضعفت نفوسهم ، وتخاذلوا ، وأهمتهم أنفسهم ، ثم أن أميرين ممن كان بعكا ، لما رأوا ما فعلوا بالمشطوب ، وأن الفرنج لم يجيبوا إلى الأمان ، اتخذوا الليل جملا ، وركبوا فى شينى صغير وخرجوا سراً من أصحابهم ولحقوا بعسكر المسلمين ، . . . فلما أصبح الناس ورأوا ذلك ازدادوا وهناً إلى وهنهم ، وضعفاً إلى ضعفهم ، وأيقنوا بالعطب)(٣) .

وأرسل الصليبيون إلى صلاح الدين فى معنى تسليم عكا فأجابهم إلى ذلك (والشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من فى البلد ليطلقوا هم من بعكا ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٥٥) ، أبو شامة الروضتين ج ٢ ص (١٨٦) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٦٥ - ١٦٦) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٦٦) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٦٦) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٥٧) .

وأن يسلم إليهم صليب الصلبوت ، فلم يقنعوا بمـا بذل)(١) وفى يوم ٩/٦/٥٨٧ هـ تحرك السلطان (مشعراً أنه يريد كبس القوم ومعه المساحى وآلات طم الخندق ، فما ساعده العسكر على ذلك وتخاذلوا وقالوا : تخاطر بالإسلام كله)(٢) وبعد معارك عديدة ووقائع عظيمة بدأ اليأس يدخل إلى نفس صلاح الدين (وعلم السلطان أنه لا سلامة لعكا ، فأنفذ إلى المحصورين فى عكا جماعة سراً وقال لهم : (خذوا حذركم من العدو واتفقوا واخرجوا ليلاً من البلد يداً واحدة وسيروا على جانب البحر ، واتركوا البلد بما فيه (ووعدهم صلاح الدين أنه يتقدم إلى تلك الجهة التى يخرجون منها بعساكره (يقاتل الفرنج فيها ليلحقوا به ، فشرعوا فى ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه ، فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الصبح ، فبطل ما عزموا عليه لظهوره)(٣) .

وأرسل العدو رسولا فى طلب الصلح وذلك فى ١١/٦/٥٨٧ هـ – يولية ١١٩١ م واشترطوا إعادة جميع البلاد وإطلاق جميع أسراهم فرفض صلاح الدين إعادة البلاد الإسلامية التى حررها منهم وعرض عليهم صلاح الدين أن يطلق للصليبيين من أسراهم بعدد من فى عكا من المسلمين فلم يقبلوا ، ولما كان يوم الأحد ١٢/٦/٥٨٦ هـ / يولية ١١٩١ م أرسل المسلمون فى عكا رسالة إلى صلاح الدين يقولون فيها : (إنا قد تبايعنا على الموت ، فإياكم أن تخضعوا للعدو وتنيبوا لهم فإنا نحن قد فات أمرنا)(٤) . وزحف العدو على المدينة وضايقوها وحمل صلاح الدين بمن معه على الصليبيين ظناً منه أن الصليبيين يشتغلون عن الذين بعكا ، ولكن تفوق الجانب الصليبى كان ظاهراً وتهدم من سور عكا جزء كبير (فلما رأى المشطوب أن صلاح الدين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٦٦) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٥٨) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٦٦) ، ابن وصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٥٨) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٥٩) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٦٩ – ١٧٠) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٥١٢ – ٥١٣) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٨٦ – ١٨٧) .

لا يقدر على نفع ولا يدفع عنهم ضراً خرج إلى الفرنج . وقرر معهم تسليم البلد . وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينار وخمسمائة أسير من المعروفين ، وإعادة صليب الصلبوت وأربعة عشر ألف دينار للمركيس صاحب صور ، فأجابوه إلى ذلك وحلفوا له عليه ، وأن تكون مدة تحصيل المال والأسرى إلى شهرين) ، واشترط الصليبيون على المسلمين أن يسلموهم الأسلحة والآلات والعدد والمراكب وكانت عكا (قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر)(١) .

ولما علم صلاح الدين بما اتفق بين من فى عكا والصليبيين (أنكر ذلك إنكاراً عظيماً وعظم عليه هذا الأمر ، وجمع أرباب المشورة من أرباب دولته وأكابرها ، وعرفهم ذلك وشاورهم فيما يصنع ، واضطربت به آراؤه . وتقسم فكره ، وتشوش حاله ، وعزم على أن يكتب فى تلك الليلة مع العوام . وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه ، وهو فى مثل هذا الحال . فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك فى ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة / يولية ١١٩١ م ، وصاح الفرنج صيحة واحدة . وعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتد حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء من الناس فى تلاوة : « **إنا لله وإنا إليه راجعون** » ، وغشى الناس بهتة عظيمة . وحيرة شديدة ، ووقع فى العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب وكان لكل قلب حظ فى ذلك ، على قدر إيمانه ، ولكل إنسان نصيب من هذا الحظ على قدر ديانته ونخوته)(٢) . ولما دخل العدو عكا غدروا بالمسلمين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٦٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٥٦ – ٣٦٠) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٧٠ – ١٨١) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٤٩٧ – ٥٠٦) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٨٨) .

Sctton; Ahistory of the crusades vol, 2, p. 67-72 .

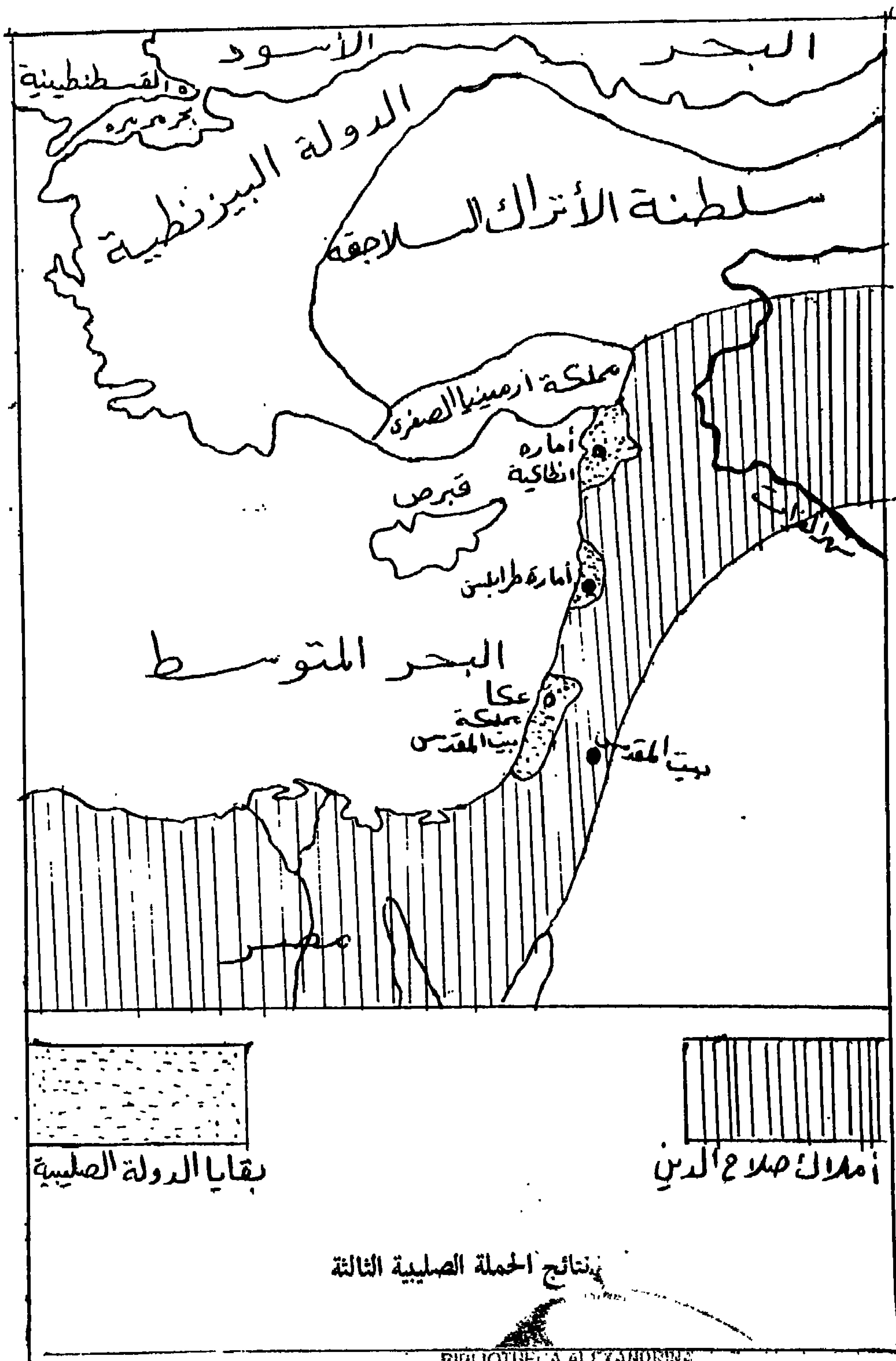
(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٧١) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٥١٣– ٥١٤) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٨٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٦٠) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٠٥) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٩) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤٤ – ٤٥) .

واحتاطوا على من فيه من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم وأظهروا أنهم يفعلون ذلك ليصل إليهم ما بذل لهم وأرسلوا إلى صلاح الدين يطلبون منه إرسال المال والأسرى والصليب حتى يطلقوا من عندهم من المسلمين ، فاجتمع صلاح الدين مع أصحابه واستشارهم فأشاروا (بأن لا يرسل شيئاً حتى يعود فيستحلفهم على إطلاق أصحابه (ورفض الصليبيون التعهد بإطلاق الأسرى المسلمين وقال ملوكهم : إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا ، فحينئذ علم صلاح الدين عزمهم على الغدر فلم يرسل إليهم شيئاً ، وأعاد الرسالة إليهم وقال : نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى والصليب ونعطيكم رهناً على الباقي وتطلقون أصحابنا ، وتضمن الداوية الرهن ويحلفون على الوفاء لهم ، فقالوا : لا نحلف إنما إلينا المائة ألف دينار التي حصلت . والأسرى والصليب ونحن نطلق من أصحابكم من نريد ونترك من نريد حتى يجيء باقي المال ، فعلم الناس حينئذ غدرهم ، وإنما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لا يؤبه له ، ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الأموال ، ويطلبون منهم الفداء ، فلم يجبهم السلطان إلى ذلك)(١) .

وكان السلطان فى حاجة إلى المال ولم يستطع جمع المال المطلوب (وكان هو لا مال له) وغدر العدو بالمسلمين ، فى ٢٧ / ٧ / ٥٨٧ هـ / أغسطس عام ١١٩١ م خرج الصليبيون إلى ظاهر مدينة عكا بالفارس والراجل (ثم أحضروا من الأسارى المسلمين من كتب الله شهادته فى ذلك ، وكانوا زهاء ثلاثة ألف مسلم وأوثقوهم فى الحبال ، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد . فقتلوهم صبراً وضرباً بالسيف) ، والمسلمون ينظرون إليهم . فغضبوا لما حل بإخوانهم وهاجموا على الفور الصليبيين ، وجرت بينهم حرب عظيمة . جرى فيها قتل وجرح من الجانبين ودام إلى أن فصل الليل بين الطائفتين (وفى الصباح كشف المسلمون عن الشهداء وعرفوا من عرفوه منهم ، (وغشى المسلمين بذلك حزن عظيم وكآبة عظيمة) واحتفظ الصليبيون بالأمراء المقدمين والمعروفين أو قوياً للعمل فى عمائرهم وقيل فى سبب قتلهم أسباب منها : إن الصليبيين قتلوا هؤلاء الأسرى فى مقابل من قتل منهم ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٦٨) ، ابن شداد سيرة :صلاح الدين ص (١٧٣) .



نتائج الحملة الصليبية الثالثة

وقيل أيضاً : إن ملك إنجلترا كان عزم على المسير إلى عسقلان للاستيلاء عليها فأراد أن يتخلص من الأسرى والقضاء عليهم حتى لا يكونوا فى عكا وراءه)(١) . ولكن الجدير بالذكر أن الصليبيين كانوا لا يلتزمون بالعهود أو الاتفاقات إذا شعروا بقوتهم وكثيراً ما ذبحوا الأسرى والمستأمنين المسلمين وغدروا بالآمنين مرات كثيرة بعكس ما كان يسلكه المسلمون فى الفتوحات ولم نسمع أن المسلمين أباحوا بلداً أو حصناً أو قلعة صليبية للسيف أو بطشوا بالأهالى أو المقاتلين بعد إعطائهم الأمان سواء كان ذلك الفتح عنوة أو سلماً ، ويكفى من الأدلة على ذلك موقف صلاح الدين من الصليبيين بعد أن حرر القدس منهم وكذلك باقى القلاع والمدن دخلت ضمن انتصاراته . فقد أعطى الأمان على الأرواح والأموال وسمح للصليبيين بالانتقال إلى مدينة صور وأمن وصولهم إليها خشية أن يتعرضوا أثناء الطريق لاعتداء من المسلمين أو الصليبيين أنفسهم وكذلك الحال عندما استرد عكا منهم سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م فانظر ماذا فعلوا بالمسلمين بعكا عندما أخذوها سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م .

نتائج سقوط عكا فى يد الصليبيين سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م :

سقطت عكا فى يد الصليبيين بعد حصار دام نحو عامين كاملين وشعر الصليبيون بقوتهم وبعد أن أتموا إصلاح ما تهدم من سور عكا شرع العدو فى التحرك ، وقادهم ريتشارد قلب الأسد واتخذ طريقه نحو مدينة عسقلان وساروا بحذاء البحر (وتفرقوا قطعاً ثلاثة كل قطعة تحمل نفسها) ، وسار السلطان فى الجيوش الإسلامية فى مقابلتهم ، ووصل العدو إلى حيفا فأقاموا بها ونزل صلاح الدين بالقيمون بالقرب منهم ، وكان جنود الإسلام يهاجمون الصليبيين أثناء مسيرهم ويقتلون ويجرحون ويأسرون العديد منهم ، ثم سار

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٧١ - ١٧٢) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٧٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٦٣ - ٣٦٤) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٥٢٨ - ٥٣٠) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤٥) ، ثم انظر :
Setton : A History of the Crusades vol, 2 p. 72 .

الصليبيون إلى قيسارية (والمسلمون يسايرونهم ويتخطفون منهم من قدروا عليه) ، فلما اقترب الصليبيون من قيسارية (لاصقهم المسلمون ، وقاتلوهم أشد قتال فنالوا منهم نيلا كثيراً) .

وفى اليوم التالى تابع العدو زحفه نحو أرسوف (وكان المسلمون قد سبقوهم إليها ، ولم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق ، فلما وصل الفرنج إليهم حمل المسلمون عليهم حملة منكرة وألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فقتل منهم كثير) ولكن الصليبيين اجتمعوا من جديد وهاجموا المسلمين وحملوا عليهم حملة رجل واحد (فولوا منهزمين لا يلوى أحد على أحد وقتل عدد كبير والتجأ المنهزمون إلى القلب وفيه صلاح الدين) فلو علم الفرنج أنها هزيمة لتبعوهم واستمرت الهزيمة وهلك المسلمون (لكن كان بالقرب من المسلمين منطقة كثيرة الشجر فدخلوها وظنها الصليبيون مكيدة فعادوا وكان ذلك رحمة من الله بالمسلمين(١) . ودخل الصليبيون مدينة يافا (ولم يكن بها أحد من المسلمين ، فملكوها (وعقب هزيمة المسلمين فى موقعة أرسوف رأى صلاح الدين الابتعاد عن الصليبيين قليلا ، فسار بقواته إلى الرملة ، وجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بتخريب مدينة عسقلان وقالوا له : (قد رأيت ما كان منا بالأمس ، وإذا جاء الفرنج إلى عسقلان ووقفنا فى وجوههم نصدهم عنها فهم لا شك يقاتلوننا لننزاح عنها فينزلوا عليها ، فإذا كان ذلك عدنا إلى مثل ما كنا عليه على عكا ، ويعظم الأمر علينا ، لأن العدو قد قوى بأخذ عكا وما فيها من الأسلحة وغيرها ، وضعفنا نحن بما خرج من أيدينا ، ولم تطل المدة حتى نستجد غيرها (ولكن

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٦٩ — ٧٠) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٧٥ — ١٨٤) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٦٧ — ٣٦٨) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٥٤١ — ٥٤٥) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٠٥ — ١٠٦) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤٥) .

Setton, vol. 2. p. 75.

صلاح الدين لم تسمح نفسه بتخريبها (وندب الناس إلى دخولها وحفظها ، فلم يجبه أحد إلى ذلك وقالوا : إن أردت حفظها فادخل أنت معنا . أو بعض أولادك الكبار وإلا فما يدخلها منا أحد لئلا يصيبنا ما أصاب أهل عكا)(١) .
فلما رأى صلاح الدين إجماع رأى الأمراء على ضرورة تخريب عسقلان . سار إليها وأمر بتخريبها وألقيت حجارتها فى البحر (وهلك فيها من الأموال والذخائر التى للسلطان والرعية ما لا يمكن حصره ، وعفى أثرها حتى لا يبقى للفرنج فى قصدها مطمع وكانت عسقلان أهم المواقع العسكرية التى تحفظ طريق الاتصال بين مصر وصلاح الدين فى الشام)(٢) .

ولم يكتف صلاح الدين بتخريب عسقلان ، بل سار إلى الرملة (فخرب حصنها وخرب كنيسة لد) ، ثم سار إلى القدس (فاعتبره وما فيه من سلاح وذخائر وقرر قواعده وأسبابه ، وما يحتاج إليه) وعاد صلاح الدين بعد ذلك إلى معسكره قرب الرملة(٣) .

بدء الاتصالات بين الصليبيين والمسلمين لعقد الهدنة :

حدث قبل موقعة أرسوف أن أرسل ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وقائد الجيوش الصليبية رسالة إلى الملك العادل من أجل الاجتماع معه . فاجتمعا فأشار بالصلح . وكان مجمل ما قاله ريتشارد (إنه قد طال بيننا

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٧٠ – ٧١) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٨٦ – ١٨٨) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٥٥٠ – ٥٥) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٧١) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٨٧ – ١٨٨) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩١ – ١٩٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٦٩ – ٣٧٠) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٥٥١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٠٦) ، أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤٦ – ٤٧) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٧٩) ، ثم انظر :

Setton, vol, 2 p. 79 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٧٢) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٨٩ – ١٩٠) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٧٠ – ٣٧١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٠٦) .

القتال ، ونحن جئنا فى نصرة أصحاب الساحل . فاصطلحوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه ، فقال الملك العادل : (على ماذا يكون الصلح ؟) فقال : (على أن يسلم إلى أهل الساحل (الصليبين) ما أخذتم من البلاد) . فرفض الملك العادل ذلك وقال له : (إن دون ذلك قتل كل فارس وراجل) ، فرجع ريتشارد غاضباً)(١) . ويقصد الملك العادل بموقفه هذا : إن إعادة أرض الإسلام للصليبيين لن يكون ولو كلفهم استشهاد كل الرجال والفرسان المسلمين .

وفى ١٣/٩/٥٨٧ هـ / ١١٩١ م سار صلاح الدين من جهة الرملة إلى ناحية النطرون وخيم به . وفى نفس الوقت أرسل ريتشارد ملك إنجلترا إلى الملك العادل (راغباً فى المسالمة والمصالحة) وعرض على الملك العادل الزواج من أخته زوجة ملك صقلية المتوفى عنها (ورغب فى أن يزوجها الملك العادل ، يجعل له الحكم فى جميع البلاد الساحلية ، ينفذ فيها أمره وهو يقطع الداوية والاسبتارية ما أراد من البلاد والقرى دون الحصون ، وتكون أخته مقيمة بالقدس ومعها قسيسون ورهبان فى صحبتها) .

فرأى الملك العادل ذلك مصلحة ، وشاور صلاح الدين فى ذلك (فأجاب إليه) ، فلما ظهر الخبر عند الصليبيين اجتمع القسيسون والأساقفة ، والرهبان ، ودخلوا على أخت ملك إنجلترا وأنكروا عليها الزواج من العادل (فامتنعت من الإجابة) وخوفوها أن ذلك قبيح ومخالف للشريعة ، وفيه عصيان للمسيح وإغضاب له . فاعتذر الملك ريتشارد للملك العادل وشرط عليه الدخول فى دين النصرانية حتى يتم الزواج(٢) .

ولما مات الملك فيليب أغسطس ملك فرنسا فى أنطاكية ، شعر ريتشارد قلب الأسد بضعف موقفه ، فأرسل إلى صلاح الدين يطلب المهادنة والصلح وجاء فى كتابه (إن المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت البلاد ، وتلفت

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٦٧) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٧٢) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٧٢) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٥٥٥ - ٥٥٧) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٨٠) .

الأموال والأرواح ، وقد أخذ هذا الأمر حقه . وليس هناك حديث سوى القدس والصليب ، والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد ، وأما البلاد فيعاد إلينا ماهو قاطع الأردن . وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له . وهو عندنا عظيم . فيمن السلطان علينا ، ونستريح من هذا العناء الدائم) .

فأرسل صلاح الدين جواباً للملك إنجلترا يقول فيه :

(القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم . فإنه مسرى نبينا . ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، أما البلاد فهى لنا فى الأصل . واستيلاؤكم كان طارئاً عليها . لضعف من كان بها من المسلمين فى ذلك الوقت ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة ، ولا يجوز لنا أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هى أوفى منها)(١) . وعاد الطرفان إلى القتال . فقد علم السلطان عزم الصليبيين على النهوض ، فسار من النطرون إلى الرملة وجرى بين المسلمين والصليبيين وقعات كثيرة منها وقعة فى ناحية يازور وكان النصر فيها للمسلمين ومع ذلك لم تتوقف الاتصالات بشأن الهدنة . وفى يوم ١٨ / ١٠ / ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م اجتمع الملك العادل مع ملك إنجلترا (على طعام ومحادثة) . فطلب ريتشارد من الملك العادل الاجتماع بالسلطان صلاح الدين . فامتنع الملك العادل وقال : (الملوك إذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك وإذا انتظم أمر حسن الاجتماع)(٢) . وتعثرت المفاوضات بين الجانبين .

وفى ٣ / ١١ / ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م سار الصليبيون إلى الرملة وأظهروا أنهم يريدون قصد بيت المقدس (فعظم الخطب واشتد الحذر . فكان كل ساعة يقع الصوت فى العسكرين بالنفير فلقوا من ذلك شدة شديدة)(٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٧٢ – ٣٧٣) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩٣) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٧٣ – ٣٧٤) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٧٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٧٤) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩٤) .

وأقبل فصل الشتاء واشتد البرد فسار صلاح الدين إلى القدس ، وقدم إليه عسكر من مصر (فقويت نفوس المسلمين بالقدس) وأمر صلاح الدين بتحصين القدس وعمارة أسواره وحفر خنادقه ، وأرسل إلى البلاد بجمع الرجال الذين يقومون بهذه الأعمال (وعمل السلطان فيه بنفسه ، ينقل الحجارة هو وأولاده وأجناده وأمراؤه ، ومعهم القضاة والعلماء والفقهاء)(١) .

تخطيط ريتشارد لأخذ القدس :

وإزاء فشل مفاوضات الهدنة بين المسلمين والصليبيين رأى ريتشارد أن يهاجم القدس ويأخذها بالقوة وطلب ملك إنجلترا من الصليبيين الشاميين أن يصفوا له مدينة القدس وقال لهم : صوروا لى مدينة القدس ، فإنى ما رأيتها ، فصوروها له ، فرأى الوادى يحيط بها ما عدا موضعاً يسيراً من جهة الشمال ، فسأل عن الوادى وعن عمقه ، فأخبر أنه عميق وعر المسالك . فقال ملك إنجلترا : هذه مدينة لا يمكن حصرها ما دام صلاح الدين حياً وكلمة المسلمين مجتمعه) ، ورأى صعوبة إحكام حصار القدس (هذا سوى ما يتعذر علينا من إيصال ما يحتاج إليه من العلوفات والأقوات) واتفق رأى الصليبيين مع ما قاله الملك ريتشارد (ورأوا قلة الميرة عندهم وما يجرى للجالبين لها من المسلمين ، فأشاروا عليه بالعود إلى الرملة) . وكان المجاهدون المسلمون يهاجمون قوافل الإمدادات الصليبية ويقطعون طريقها ويغنمون ما معهم ، ولهذا قرر ريتشارد ترك مشروع المسير إلى القدس والتراجع من النطرون إلى الرملة ، ثم ساروا فى ٣/ ١ / ٥٨٨ هـ / ٢٠ / ١ / ١١٩٢ م إلى عسقلان وشرعوا فى عمارتها(٢) .

وكانت سرايا المسلمين طوال مدة مقام صلاح الدين فى القدس تهاجم

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٧٥) ، ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص (٧٤) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٥٦٢ ، ٥٦٥) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩٤ – ١٩٦) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٧٤ – ٧٥) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٥٨٣ – ٥٨٤) ، ثم انظر :
Setton : A History of the crusads, vol,2, p 75–76 .

العدو (فتارة تواقع طائفة منهم ، وتارة تقطع الميرة عنهم) وفى ٩ / ٥ / ٥٨٨هـ / مايو ١١٩٢ م استولى الصليبيون على قلعة الداروم وخربوها وأسروا من فيها ثم رحلوا عنها ولكن القوات الإسلامية هاجمت الصليبيين فى مجدليابة وقتلوا أحد قادتهم . ثم هاجموا تل الصافية ، ثم النطرون ، ثم بيت نوبة (وألهبهم المسلمون بالنهب والسلب ، وسلطوا عليهم وكمنوا لهم تحت كل رابية) وفى أواخر جمادى الأولى عام ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م (التقى الجمعان على فرسخين من القدس بمكان يعرف بقلونية ثم رجع العدو ناكصاً على عقبيه ، والمسلمون فى أثرهم يكمنون لهم وينالون منهم)(١) .

موقعة الجيش المصرى سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م وخيانة الأعراب :

كان الجيش المصرى قد استعد للسير من مصر إلى بلاد الشام بناء على طلب من صلاح الدين (فكتب السلطان إليهم من القدس يأمرهم بالاحتراز عند مقاربة العدو) ، فأقاموا فى بلبيس أياماً حتى اجتمعت القوافل إليهم ، ثم ساروا نحو بلاد الشام (والعدو يترقب أخبارهم ويتوصل إليهم بالعرب المفسدين)(٢) ، فسار العدو لقطع طريق القوات المصرية والهجوم عليها (وبلغ السلطان مسير العدو إلى طريق العسكر المصرى ، فأرسل من عنده من أنذر القوات المصرية وحذرهم من العدو (وأمرهم أن يبعدوا فى البرية) ، وكان ملك إنجلترا قد استعان ببعض العرب وارتدى ملابسهم وسار حتى أتى العسكر المصرى (وطاف حوله فى صورة عربى ورآهم ساكنين قد غشيهم النعاس) وذلك فى مكان يعرف بأرض الحسى ، فرجع ملك إنجلترا إلى عسكره واستعدوا وصاروا نحو الجيش المصرى (فجاءهم العدو بغتة . . . وكانت الكبسة قريب الصباح فبغت الناس ، ووقع عليهم بخيله ورجله ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٨٢ - ٣٨٣) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٨١) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٥٨٥ - ٥٨٦) ، (٥٩١ - ٥٩٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩٦ - ١٩٧) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٨٣) ، ثم انظر ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢١٣) ، ثم انظر :
Setton : A History of the crusades vol, 2. p. 77-78

فكان الشجاع الأيد القوى الذى ركب فرسه ونجا بنفسه)(١) ، وانقسمت القوات المصرية ثلاثة أقسام : (قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب ، وقسم أوغلوا فى البرية مع جماعة من العرب ؛ وقسم استولى عليهم العدو ، فساقهم بجمالهم وأحمالهم وجميع ما كان معهم) .

وكانت وقعة شنعاء لم يصب الإسلام مثلها من مدة مديدة ، وتبدد الناس فى البرية ، وردوا أموالهم ، وكان السعيد من نجا بنفسه ، وجمع العدو ما أمكن جمعه من الخيل والجمال والأقمشة وسائر صنوف الأموال(٢) وذكر أحد الأسرى المسلمين كان قد تمكن من الهرب وأخبر أن عدد الأسرى المسلمين (خمسمائة ، والجمال تناهز ثلاثة آلاف جمل)(٣) .

وكان من نتائج الهزيمة أن ارتفعت معنويات العدو (وصح عزمهم على قصد القدس وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التى تنقل الميرة والأزواد) ، وأقام الصليبيون فرقة من جيشهم على بلدة اللد يحفظون الطريق ويقطعون على المسلمين إمداداتهم وأرسلوا إلى صور وطرابلس وعكا يطلبون حضور المقاتلين بقصد الهجوم على مدينة القدس لعلمهم بأن قوات صلاح الدين قليلة وخصوصاً بعد القضاء على القوات المصرية التى جاءت نجدة للمسلمين فى الشام ، ولوصول الإمدادات إليهم من مختلف أنحاء العالم المسيحى عن طريق البحر وإحساسهم بالتفوق العسكرى على المسلمين ، ولم يكن أمام صلاح الدين إلا الصبر والجهاد ، والدفاع عن مدينة القدس ، وبدأ فى الاستعداد لمواجهة الهجوم الصليبى على القدس وقسم الأسوار على الأمراء (وتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار وأخذ فى إفساد المياه ظاهر القدس ، فخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٨٤) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩٨) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢١٣ – ٢١٤) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٨٤) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩٨) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢١٤) .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩٨) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢١٤) .

أصلا ، وأرض القدس لا يطمع فى حفر بئر فيها لأنها جبل عظيم وحجر صلب) (١) .

وذكر ابن شداد وهو شاهد عيان بصفته مرافق للسلطان فى هذه الحروب فقال : إن صلاح الدين جمع الأمراء ، ثم أمرنى أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد ، فذكرت ما يسر الله من ذلك وكان مما قلته : إن النبى صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة - رضى الله عنهم - على الموت فى لقاء العدو ، ونحن أولى من تأس به - صلى الله عليه وسلم - والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت . فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو) ، فاستحسن الجماعة ذلك ، ووافقوا عليه . ثم شرع السلطان - قدس الله روحه - بعد أن سكت زماناً فى صورة مفكر ، والناس سكوت : كأن على رؤوسهم الطير ، ثم شرع وقال : (الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة فى ذمتكم ، فإن هذا العدو أمن له من المسلمين من تلقاه إلا أنتم ، فإن لويتم أعنتكم - والعياذ بالله - طوى البلاد كطى السجل للكتاب ، وكان ذلك فى ذمتكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم مال بيت المال ، فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم والسلام)(٢).

فانتدب الأمراء من بينهم الأمير سيف الدين المشطوب للإجابة على كلام صلاح الدين وقال : (يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك . وأنت الذى أنعمت علينا وكبرتنا ، وعظمتنا وأعطيتنا ، وأغنيتنا . وليس لنا إلا رقابنا وهى بين يديك ، والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن يموت) . فقال باقى الأمراء مثل ما يقول (فانبسطت نفسه (صلاح الدين) بذلك المجلس ، وطاب قلبه)(٣) .

---

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٨٥) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (١٢٥) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢١٦) . أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٨٥ - ٣٨٦) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢١٦) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٨٦ - ٣٨٧) .

وبالرغم من موافقة الأمراء وتعاضدهم من أجل الجهاد . والدفاع عن القدس ، كان صلاح الدين (غير منبسط على عادته) ويذكر ابن شداد وصفاً للأحوال فيقول : ثم صلينا العشاء ، وكانت الصلاة هي الدستور العام ، فصلينا واخذنا في الانصراف ، فاستدعاني - رحمة الله عليه - فلما جلست في خدمته قال لي : (علمت ما الذي تجدد ؟) فقلت : (وما الذي تجدد ؟) قال : (إن ابا الهيجاء انفذ إلى اليوم وقال : إنه اجتمع عنده جماعة المماليك والأمراء، وانكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له ، وقالوا : لا مصلحة في ذلك ، فإنا نخاف أن نحصر ويجرى علينا ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام أجمع . والرأى أن نلتى مصافاً ، فإن قدر الله تعالى أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى سلم العسكر . ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الإسلام بعساكرها ، مدة بغير القدس) ، وكان - رحمة الله عليه - (عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال فشق عليه هذه الرسالة) ، ويقول أيضاً ابن شداد : (وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح ، وهي من الليالي التي أحياها في سبيل الله) ، ثم قال : قلت له : (قد وقع لي واقع أعرضه) ، فأذن فيه فقلت : (المولى في اهتمامه وما قد حمل نفسه من هذا الأمر مجتهد فيما هو فيه . وقد عجزت أسبابه الأرضية . فينبغي أن يرجع إلى الله تعالى . وهذا يوم جمعه . وهو أبرك أيام الأسبوع . وفيه دعوة مستجابة . . . ونحن في أبرك موضع نقدر أن نكون فيه في يومنا هذا ، فالسلطان يغتسل للجمعة ، ويتصدق بشيء خفية ، بحيث لا يشعر أنه منك وتصلى بين الأذان والإقامة ركعتين تناجى فيها ربك ، وتفوض مقاليد أمرك إليه ، وتعترف بعجزك عما تصديت له ، فلعل الله يرحمك ، ويستجيب دعاءك) ويقول ابن شداد : (ثم انفصلنا فلما كان وقت الجمعة صليت إلى جانبه في الأقصى ، وصلى ركعتين ، ورأيته ساجداً وهو يذكر كلمات ، ودموعه تتقاطر على مصلاه ، ثم انقضت الجمعة بخير) فلما كان عشيتها ونحن في خدمته على العادة وصلت رسالة من أحد الأمراء قادة قوات الطلائع والاستكشاف وأخبر فيها بأن العدو بعد أن شرعوا في التحرك إلى القدس اختلفوا وتوقفوا واتفقوا على الرحيل إلى ناحية الرملة وترك القدس بعد أن أوقع الله في قلوبهم استحالة أخذهم القدس ، وذلك في ٢١ / ٦ / ٥٨٨ هـ

أواخر يولية ١١٩٢ م (، ففرح السلطان صلاح الدين) وكان يوم سرور وفرح ولكن السلطان خاف على مصر المحروسة لما حصلوا عليه من الجمال والظهر) ، لأن ملك انجلترا ذكر مرات عديدة أنه يريد قصدها وأخذها ، لأن فى أخذها قوة ، للصليبيين وضعفاً على المسلمين (١) .

وكان صلاح الدين قد استخدم أساليب جديدة فى الجهاد ضد العدو بعد استردادهم عكا واستظهارهم على المسلمين ، ومن هذه الأساليب الحرب الخاطفة والهجوم المفاجئ والكمائن ، وإثارة الخلاف بين الصليبيين ، فقد حاول صلاح الدين الدخول فى صلح منفرد مع صاحب صور الصليبى المعروف بالمركيس ، والهدف من ذلك إضعاف الجانب الصليبى وإثارة الانقسام بينهم (فرأى السلطان . . الصلح مع المركيس مصلحة) وأجاب صلاح الدين المركيس إلى ما طلب وأرسل له رسالة وذلك بعد صلاة الجمعة ٩ / ٤ / ٥٨٨ هـ / إبريل ١١٩٢ م ولكن المركيس قتل فى ١٣ / ٤ / ٥٨٨ هـ ابريل ١١٩٢ م قبل أن يتم تنفيذ الاتفاق ، وقيل فى سبب قتله بعد استجواب قتلته أن ملك انجلترا دبر هذه المؤامرة للتخلص من المركيس . وربما كان ذلك بسبب محاولته الدخول فى صلح مع المسلمين دون باقى الصليبيين (٢) .

ومن ناحية أخرى لم يهمل صلاح الدين الاستعداد لقتال العدو ، بل طلب النجدات من جميع الأطراف ، واهتم بأمر الأسطول ، وجعل أخاه الملك العادل مسئولا عن الأسطول المصرى ، وأعطى العادل الأسطول أهمية عظيمة وزاد فى عدد سفنه ومعداته وأكثر من رجاله ، كما نظم العلاقات الاقتصادية مع البلاد المسيحية ، وجعل التعامل التجارى والاقتصادى بالمثل ، وكان الغرب الأوروبى قد فرض حصاراً اقتصادياً وتجارياً على المسلمين ، وقام البابا فى أوربا بدور نشيط فى تطبيق هذا الحصار بهدف إضعاف المسلمين

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢١٦ – ٢١٨) ، ابن واصل مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٨٧ – ٣٩٠) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩٨ – ١٩٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٠٩) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢٠٦ – ٢٠٨ ، ٢١٣) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٧٨ – ٧٩) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٨١ – ٣٨٢) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩٦) .

وعدم إعطائهم ما يزيد فى قوتهم . ولهذا قررت البابوية المسيحية عقوبة (الحرمان) على من يتعاملون مع المسلمين ، وخصوصاً منع بيع الأخشاب اللازمة لبناء الأساطيل والمجانيق والأسلحة وكذلك الرقيق والحديد . وكل ما يستعان به فى الحرب ، ولكن المسلمين ردوا على هذا الموقف بالمثل بأن منعوا سفن الغرب الأوروبى والجمهوريات التجارية الإيطالية من التزود بما تحتاج إليه من موانى المشرق الإسلامى ، وجعلوا حجم التبادل التجارى مرهون بما تقدمه الدول الأوربية من المواد اللازمة للحرب ، وكثيراً ما عادت السفن والأساطيل الأوروبية التجارية دون أن يسمح لها بالبيع أو الشراء فى الموانى الإسلامية وخصوصاً الاسكندرية وذلك بسبب موقفها المعادى للإسلام ومساندتها للحروب الصليبية ومشاركتهم فيها مما ألحق الأذى بالمسلمين(١) .

هدنة الرملة مع الصليبين سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢م :

كان من أثر خوف الصليبين من الزحف على القدس أن أرسل ملك انجلترا إلى صلاح الدين رسولا يقول : (قد أهلكنا نحن وأنتم . والأصلح نحقن الدماء ، ولا ينبغى أن تعتقد أن ذلك عن ضعف منى . بل أريد المصلحة ولا تغتر بتأخرى عن منزلى ، فالكبش يتأخر لينطح ، ثم لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز أن أهلك الفرنج كلهم ، وهذا ابن أختى الكندهرى) هنرى (قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك . يكون هو وعسكره بحكمك . ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا ، وأن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنايس فما بخلت عليهم بها . وأنا أطلب منك كنيسة . وتلك الأمور التى كانت تضيق صدرك فى المراسلة لما كانت المراسلة تجرى مع الملك العادل قلت بتركها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتنى قرية أو مزرعة قبلتها وقبلتها) .

فاستشار صلاح الدين الأمراء فى الرد على رسالة ريتشارد قلب الأسد

---

(١) د . فايد عاشور : العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامى فى العصر الأيوبى ص (١٦٩ – ١٧٨) .

Hyed : Histoire du Commerce, vol. I, pp 398-400

(فأشاروا بالمحاسنة وعقد الصلح . لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب . وعلاهم من الديون ، واستقر الحال على هذا الجواب : (إنك إذا دخلت معنا فى هذا الأمر فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، وابن أختك يكون عندى كبعض أولادى . وسيبلغك ما أفعل فى حقه من الخير . وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهى القمامة (القيامة) وبقية البلاد نقسمها فالساحلية التى بيدك تكون بيدك ، والتى بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا . وما بين العملين يكون مناصفة . وعسقلان وما وراءها يكون خراباً لا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قراها كانت لكم . والذى كنت أكرهه حديث عسقلان) .

وعاد رسول ريتشارد إلى بلاده بالجواب ثم رجع إلى صلاح الدين برسالة أخرى فى معنى الصلح جاء بها (أن يكون فى القدس عشرون نفراً ، وأن من سكن من النصارى والفرنج فى البلد لا يتعرض لهم . وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطأة . والبلاد الجبلية تكون لكم) ولقد أحسن صلاح الدين إلى رسول ريتشارد وباسطه حتى أعترف للسلطان صلاح الدين وناصحه وقال له : (إنهم قد نزلوا عن القدس ما عدا الزيارة ، وإنما يقولون ذلك تصنعاً ، وأنهم راغبون فى الصلح ، وأن الانكلتير (ملك انجلترا) لا بد له من الرواح إلى بلده (فأجاب صلاح الدين رسول ريتشارد) . :

(بأن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة) .

فقال الرسول : (وليس على الزوار فى القدس شئ يؤخذ منهم ؟) .

فأجابه السلطان إلى ذلك ، وقال له : (أما البلاد فعسقلان وما والاها وما وراءها فلا بد من خرابة ؟) .

فقال الرسول : (إن الملك قد خسر فى أسوارها مالا جزيلا) . فسأل سيف الدين المشطوب أن يجعل مزارعها وقراها له فى مقابلة خسارته ، فأجاب السلطان إلى ذلك وشرط أن الداروم تخرب ، ويكون بلدها مناصفة ، وأما باقى البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفا فى قرية كانت مناصفة (فذهب المبعوث الصليبى إلى مليكه ثم عاد يقول : (الملك يسألك ويخضع لك فى أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة . وأى قدر لها عند ملكك وعظمتك ؟ وما سبب إصراره عليها إلا أن الفرنج لم يسمحوا بها ، وهو قد ترك القدس بالكلية . لا يطلب أن يكون فيها رهبان ولا قسوس . إلا فى

القيامة وحدها ، فتترك أنت له هذه البلاد ، ويكون الصلح عاماً . فيكون لهم كل ما فى أيديهم من الداروم إلى أنطاكية ، ولكم ما فى أيديكم . وينتظم الحال ونروح . وإن لم ينتظم الصلح فالفرنج ما يمكنونه من الروح وما يمكنه مخالفتهم) .

فأجابه السلطان :

(بأن أنطاكية لنا معهم حديث فيها . ورسلنا عندهم . وإن عادوا بما نريد أدخلناهم فى الصلح ، وإلا فلا . وأما البلاد التى سألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه وإلا فلا قدر لها) .

وذهب الرسول بهذا المعنى إلى ريتشارد ثم عاد وقال :

(إن الملك قال : (لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجراً واحداً ، ولا يسمع عنا فى البلاد مثل ذلك ، وأما البلاد فحدودها معروفة ولا مناكرة فيها) (١) وأجابه صلاح الدين بأن سور عسقلان فيأخذ فى مقابلة ما خسر عليه بلدة اللد . وسار الرسول الصليبى ، إلى بلاده فى ٤ / ٧ / ٥٨٨ هـ / ١١٩٢م وعند ذلك (تأهب السلطان للخروج إلى جهة العدو وإظهار القوة وشدة العزم على اللقاء)(٢) وتابع السلطان تقدمه حتى وصل يافا وأشرف عليها ثم نازلها وضربها بالمنجنيقات وضايقها (فأرسل العدو رسولين نصرانياً وإفرنجياً يطلبان الصلح) فطلب منهم استسلام مدينة يافا على قاعدة استسلام القدس فأجابوه إلى ذلك واشترطوا يوم السبت ١٩ / ٧ / ٥٨٨ هـ / أغسطس ١١٩٢ م أن يكون موعداً لتنفيذ الاتفاق ، فإن جاءتهم نجدة وإلا تمت القاعدة على ما استقر عليه الاتفاق ، فلم يقبل صلاح الدين بما اشترطوا . وأمر بنقب السور والهجوم على المدينة) فلما رأى العدو ما قد نزل به طلب الأمان (وانحاز الصليبيون إلى قلعة يافا ودخل المسلمون البلد عنوة) (ونهبوا منه أقمشة عظيمة ، وغلالا كثيرة ، وأثاثاً وبقايا قماش مما نهب من القافلة المصرية)(٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٩٠ – ٣٩٣) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (١٩٩ – ٢٠٠) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢١٩ – ٢٢١) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٠٠) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٩٣ – ٣٩٥) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٨٤ – ٨٥) ، ثم انظر :

Setton : A History of the crusades, vol,2 p. 84 .

ولكن ملك انجلترا سمع بما جرى على الصليبيين فى يافا ، فتحرك بقواته من عكا لنجدة يافا ، وبلغ خبر حركته للسلطان صلاح الدين وهو مقيم على حصار قلعة يافا) ووصل ملك الانكلتير (انجلترا) بغتة ، فما شعر المسلمون سحراً إلا وبوقاته تنعق . فعلمنا بوصول النجدة . وقد وصلت فى البحر ، ثم قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركباً ، فقويت نفوس الباقين فى الحصن ، وظهرت منهم أمارات العصيان ودلائله (وجرى بين الفريقين قتال شديد) فما كان إلا ساعة حتى نزل كل من فى الشوانى (سفن الأسطول) إلى الميناء . وحملوا على المسلمين فأخرجوهم من الميناء . . فرحل الناس وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا أخذوا من يافا (وخرج ريتشارد قلب الأسد إلى الموضع الذى كان يقف فيه صلاح الدين لمضايقة يافا . واستدعى جماعة من خواص مماليك السلطان والحاجب أبا بكر العادلى وغيره ، فلما حضروا عنده باسطهم وقال : (هذا السلطان عظيم . وما فى الأرض للإسلام ملك أكبر منه ولا أعظم . فكيف رحل عن المكان لمجرد وصولى ؟ والله ما لبست لأمة حربى ولا تأهبت لأمر ولا فى رجلى إلا زربول البحر (حذاء خاص بالبحر) فكيف تأخر ؟ ثم قال :

(والله إنه لعظيم ، والله ما ظننته يأخذ يافا فى شهرين ، فكيف أخذها فى يومين ؟) ثم قال لأبى بكر الحاجب : (تسلم على السلطان ، وتقول له : بالله عليك أجب سؤالى فى الصلح . فهذا أمر لا بد منه . ولا بد لهذا الأمر من آخر ، وقد هلكت بلادى وراء البحر . وما دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم) .

فأرسل السلطان إليه فى الجواب :

(إنك كنت طلبت الصلح أولا على قاعدة ، وكان الحديث فى يافا وعسقلان ، والآن فقد خربت هذه يافا ، فيكون لكم من قيسارية إلى صور)

فأجابه ملك انجلترا :

(إن قاعدة الفرنج أنه إذا أعطى واحد لواحد بلداً صار تبعه وغلامه ، وأنا أطلب منك هذين البلدين : يافا وعسقلان ، وتكون عساكرهم فى خدمتك دائماً ، وإذا احتجت إلى وصلت إليك فى أسرع وقت ، وخدمتك كما تعلم خدمتى) .

فأجابه صلاح الدين :

(حيث دخلت هذا المدخل فنتفق على أن نجعل البلدين قسمين : أحدهما لك ، وهو يافا وما وراءها ، والثانى لى . وهو عسقلان وما وراءها) ورجع رسول ريتشارد بشكر صلاح الدين على إعطائه يافا وبجدد السؤال فى عسقلان ويقول :

(إن وقع الصلح فى هذه الأيام الستة سرت إلى بلادى . وإلا احتجت أن أشتى هنا)

فأجابه السلطان صلاح الدين فى الحال :

(أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه ، وأما هاهنا تشتيته فلا بد منها ، لأنه قد استول على هذه البلاد ، ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، وإذا أقام أيضاً إن شاء الله تعالى ، وإذا سهل عليه أن يشتى ههنا ، ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين . وهو شاب فى عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذاته ، ما يسهل على أن أشتى وأصيف وأنا فى وسط بلادى . وعند أهلى وأولادى ، ويأتى إلى ما أريده ، وأنا شيخ قد كرهت لذات الدنيا ورفضتها عنى . والعسكر الذى يكون عندى فى الشتاء غير العسكر الذى يكون عندى فى الصيف ؟ (وأنا أعتقد أنى فى أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطى الله تعالى النصر لمن يشاء (وذهب الرسول بهذا إلى ريتشارد ثم رجع إلى صلاح الدين يقول له :

(كم أطرح نفسى على السلطان وهو لا يقبلنى ، وأنا كنت أحرص حتى أعود إلى بلادى والآن فقد هجم الشتاء . وتغيرت الأنواء وعزمت على الإقامة وما بقى بيننا حديث)(١) .

ولم يكن صلاح الدين يحب الراحة والقعود عن الجهاد ، فلما بلغه خبر وجود ريتشارد ملك إنجلترا خارج يافا فى عدد قليل من عساكره ، فوقع له أن يكسبه فأتاه ، فوجد خيمه عشر خيم ، فحمل عليهم ، فثبتوا ولم يتحركوا عن أماكنهم ، وكشروا عن ناب الحرب ، فارتاع العسكر (الإسلامى)

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٣٩٦ – ٤٠٠) ؛ ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢٢١ – ٢٣٠) . أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٠٠ – ٢٠٣) .

منهم ، ووجموا من ثباتهم وداروا حولهم حلقة . وكانت عدة الخيل سبعة عشر ، وقيل : تسعة . والرجالة ثلاثمائة ، فوجد السلطان من ذلك موجدة عظيمة . ودار على الطلاب يحثهم على الحملة فلم يجب دعاءه أحد سوى ولده الملك الظاهر ، وقال له الجناح أخو المشطوب : (قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة يحملون) ، وكان فى قلب العسكر غيظ على السلطان ، حيث فوتهم الغنيمة . فلما رأى السلطان ذلك غضب ، واعترض عن القتال وسار إلى يازور(١) . وكان السلطان قد نهى العساكر الإسلامية عن أخذ الغنائم من يافا فى الغزوة السابقة . ومن ثم غضب العسكر لمنعهم من أخذ الغنائم ، فى حين كان صلاح الدين يريد إنقاذ أرواحهم أولا خوفاً من الانشغال بجمع الغنائم ، كما يمكن القول : إن عدم تلبية العساكر لأوامر صلاح الدين فى الموقف السابق ، كان يعنى إشعاره بضرورة الدخول فى المهادنة مع الصليبيين . وكان العسكر الإسلامى الذى شارك فى معركة يافا قد لحق به التعب والإرهاق لدرجة جعلتهم يعارضون صلاح الدين وقال أبو شامة : (ولقد بلغنى أن الإنكلتير (ريتشارد) أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة فلم يتعرض له أحد . . . ويقول : فجواب كل من قصر فى يافا عن أخذه عن السلطان ألا تنصروه فقد نصره الله . . . ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقيلا وخفيفاً ومن كان الله عليه لم يكن قوياً ، ومن كان الله معه لم يكن ضعيفاً)(٢) . وما مضى وقت طويل ، حتى وصلت العساكر من الموصل وعسكر مصر وغيرهم فقوى عزم السلطان صلاح الدين بهم ، وجمع أرباب الرأى والمشورة وقال :

(إن الإنكلتير قد مرض مرضاً شديداً ، والإفرنسيسية (الفرنسيين) قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك ، ونفقاتهم قد قلت : والرأى إنا نسير إلى يافا فإن وجدنا فيها مطمعاً وإلا سرنا إلى عسقلان ، فما تلحقها

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٠١) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٣٢٩) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٠٢) .
(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٠٢) .

النجدة إلا وقد بلغنا منها غرضاً)(١) . فوافقوه على ذلك وأرسل الأمير عز الدين جرديك وجمال الدين فرج فى ١٦ /٨/ ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م(٢) (حتى يكونا قريباً من يافا) وكان رسل ملك إنجلترا يحضرون إلى صلاح الدين فى طلب الفاكهة والثلج) وأوقع الله فى مرضه شهوة الكمثرى والخوخ ، فكان السلطان يمده بذلك ، ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل) . والمعروف أن الرسول يدلل على عقل مرسله ، وكما قال خبراء الحرب ، والسياسة المسلمين : (الرسول مرآة مرسله) .

وسار صلاح الدين إلى الرملة فجاء رسول ريتشارد مع الأمير الحاجب أبى بكر العادل يشكر السلطان على إسعافه بالفاكهة والثلج ، وقال له : (قل لأخى الملك العادل يبصر كيف يتوصل إلى السلطان فى معنى الصلح ، ويستوهب لى منه عسقلان وأمضى ويبقى هو ها هنا مع هذه الشرذمة اليسيرة ، ويأخذ البلاد منهم ، فليس غرضى إلا إقامة جاهى بين الإفرنجية ، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ لى منه عوضاً من خسارتى على عمارة سورها) ، فأرسل صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل :

(إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم ، فإن العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار (لفظ فارسى معناه الحرب) والنفقات قد نفدت)(٣) . وكان ملك إنجلترا يعانى من المرض من ناحية ووصول أنباء من الغرب الأوروبى تؤكد ثورة أخيه حنا ضده وطمعه فى الملك بدلا من ريتشارد مما تطلب من الملك الإنجليزى سرعة الدخول فى مفاوضات مع صلاح الدين لعقد هدنة بين الطرفين تمكنه من العودة إلى بلاده من ناحية ، ويطمئن على سلامة بقايا البلاد الصليبية فى الشرق بعد رحيله وخصوصاً أن ريتشارد يرى اجتماع العساكر الإسلامية عند صلاح الدين مع ، العلم بأن ريتشارد لم يكن مخلصاً

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٠٢) .

(٢) وذكر أن ذلك كان فى ٨٨/٨/٦ ٥ هـ .

انظر أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٠٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٢٠٣) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢٣١ — ٢٣٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ص (٤٠٢ — ٤٠٣) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٠٣) .

تماماً فى الصلح ، وإنما هى مجرد هدنة قد يستغلها الصليبيون فى إصلاح أحوالهم ، وحل مشاكلهم الداخلية ثم العودة إلى قتال المسلمين ، ومن الدلائل على ذلك طول مدة المفاوضات وكثرة تردد الرسل من جهة ومماطلته حول موضوع عسقلان ، فلو كان لا يعنيه أمر الصليبيين لوافق على الهدنة بدون إطالة أمد المفاوضات ، ومن الدلائل أيضاً حرص صلاح الدين على تخريب عسقلان حتى لا تكون فيما بعد موقعاً حصيناً يستغله العدو فى حرب المسلمين وكان صلاح الدين حذراً فى مفاوضاته مع العدو لاعتقاده أن ريتشارد (يفعل ذلك خديعة ومكراً) ولكن ملك إنجلترا كرر رسله ففوض صلاح الدين الأمر إلى أخيه الملك العادل بإبرام الهدنة إذا تنازل الصليبيون عن مطالبهم فى عسقلان وقال لأخيه العادل :

(ثم أن الإنكلتير (ريتشارد) نزل عن عسقلان وعن العوض عنها . واستوثق منه على ذلك ، فأحضر السلطان الديوان (السجل) يوم السبت ثامن عشر شعبان ، وذكر يافا وعملها ، فأخرج الرملة منها ولد ومجدل ليابة ، ثم ذكر قيسارية وعملها ، وأرسوف وعملها ، وحيفا وعملها ، وعكا وعملها — وأخرج منها الناصرة وصفورية — وأثبت الجميع فى ورقة وقال للرسول الصليبى : (هذه حدود البلاد التى تبقى فى أيديكم ، فإن صالحتم على ذلك فبارك ، وقد أعطيتكم يدى ، فينفذ الملك من يحلف فى بكرة غد ، وإلا فليعلم أن هذا تدفيع ومماطلة)(١) ، فوافق الصليبيون على المهادنة .

وكان من الشروط التى تضمنها هذا الاتفاق ، أن تكون عسقلان خراباً ، واشترط صلاح الدين دخول بلاد الإسماعيلية (الباطنية) فى الصلح ، كما اشترط العدو دخول أنطاكية وطرابلس وفرسان الاسبتارية والداوية فى المهادنة ، ومن شروطها أيضاً أن تكون الرملة ولد مناصفة بينهم وبين المسلمين ، وتم الاتفاق على حلف الإيمان من الطرفين حتى يصبح الاتفاق سارى المفعول ، وذكر ابن شداد : (ولما كان صبيحة الخميس الثالث

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٠٣) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٠٣) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢٣٢ — ٢٣٣) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٨٥ — ٨٦) .

والعشرين من شعبان حضر الرسل فى خدمة السلطان : : وأخذوا يده الكريمة وعاهدوه على الصلح على القاعدة المستقرة)(١) ، وحضر من الجانب الصليبي الكونت هنرى ابن أخت الملك ريتشارد ، وباليان بارزان الذى كان صاحب الرملة ونابلس وهو المعروف باسم باليان الثانى هذا بالإضافة إلى عدد من كبار القادة الصليبيين وحلفوا اليمين ، ثم حلف من الجانب الإسلامى الملك العادل والملك الأفضل والملك الظاهر والأمير على بن أحمد المشطوب . وبدر الدين دلدرم والملك المنصور ، وكل مجاور لبلادهم . ثم أمر المنادى أن ينادى بين الناس : (ألا أن الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم يدخل إلى بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل إلى بلادهم فليفعل)(٢) . وتم توقيع هذه الهدنة فى الرملة وهى هدنة عامة فى البر ، والبحر وأصبح للصليبيين بموجب المهادنة أن يذهبوا لزيارة القدس دون مطالبتهم بدفع أى رسوم أو ضرائب ، وكانت مدة الهدنة ثلاث سنوات أولها ٢٢ / ٨ / ٥٨٨ هـ / ٢ / ٩ / ١١٩٢ م(٣) .

والجدير بالذكر أن مصالحة العدو مطلقاً وهو يحتل جزء من أرض الإسلام أمر غير جائز ولكن مهادنة العدو فى مثل هذا الحال لمدة معلومة بشرط أن يكون فى المسلمين ضعف ، وأن يستعدوا من جديد ويستغلوا فترة الهدنة للأخذ بأسباب القوة والإعداد من أجل مواصلة الجهاد عقب انتهاء أجل الهدنة .

ثم أمر صلاح الدين أن يسير (مائة نقاب لتخريب سور عسقلان ، معهم أمير كبير ولإخراج الفرنج منها ، ويكون معهم جماعة من الفرنج

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢٣٢ – ٢٣٥) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢٣٤ – ٢٣٥) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٠٣ – ٢٠٤) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٠٣ – ٤٠٥) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٦٠٣ – ٦٠٥) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١١٠) .

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢٣٣) وذكر ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٨٥) أنها ثلاث سنين وثمانية أشهر وكذلك العماد الكاتب ص (٦٠٥) وذكر غيرهم أنها ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٠٤) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٠٣) ، ثم المقريزى : السلوك ج ١ ص (١١٠) ، ثم انظر :
Setton: History of crusades, vol, 2 p 85.

إلى حين وقوع الخراب فى السور خشية من استبقائه عامراً) . ولم يكن السلطان صلاح الدين واثقاً من حسن نية الصليبيين من ناحية ، ولم يكن راغباً فى ترك الجهاد ما دام العدو محتلا بعض أراضى الإسلام ويشهد ابن شداد الذى حضر مفاوضات الهدنة وقال : (والله العليم إن الصلح لم يكن من إيثارة ، فإنه قال لى . . . فى بعض محاوراته فى الصلح : أخاف أن أصالح وما أدرى أى شيء يكون منى ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقى لهم هذه البلاد فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد فى رأس تله – يعنى حصنه) ، وقال : (لا أنزل ، ويهلك المسلمون) . فهذا كلامه . وكان كما قال ، لكنه رأى المصلحة فى الصلح لسآمة العسكر . ومظاهرتهم بالمخالفة، وكان مصلحة فى علم الله تعالى ، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح ، فلو كان اتفق ذلك فى أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطر ، فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة له)(١) .

وبعد أن تم الاتفاق ، وتم تخريب عسقلان وعودتها إلى المسلمين لأنها كانت أهم المواقع العسكرية البحرية والبرية بالنسبة للجيش المصرى أو بعبارة أخرى الباب المؤدى إلى مصر ، ومن ثم حرص صلاح الدين على إخراج العدو منها حتى لا تكون فى أيديهم فيتحكمون فى الطريق بين مصر والشام .

وعاد صلاح الدين إلى القدس وأمر بإحكام سوره ، ثم سار من القدس وجعل طريقه على الثغور الإسلامية كنابلس وطبرية وصفد وتبنين وسار إلى بيروت (وتعهد هذه البلاد ، وأمر بإحكامها) ، ثم حضر عنده أمير أنطاكية ودخل فى الهدنة ثم سار إلى دمشق بعد أن فرغ (من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها والتقدم بسد خللها وإصلاح أمور أجنادها ، وأشحانها بالرجال والأجناد)(٢)ودخل دمشق فى ٢٦/١٠/٥٨٨هـ / ١٨/ ١٠/ ١١٩٢م (وكان يوم دخوله إليها يوماً مشهوداً ، وفرح الناس به فرحاً عظيماً لطول

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢٣٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٠٥) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٠٤) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤٦ – ٤٨) .

(٢) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢٤٠) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٠٧) .

غيبته ، وذهاب العدو عن بلاد الإسلام)(١) . أما ملك إنجلترا فقد غادر بلاد الشام فى ١/ ١٠/ ٥٨٨ هـ / ٩/ ١٠/ ١١٩٢ م عائداً إلى بلاده وتسلم السلطة فى البلاد الساحلية الصايبية الواقعة بين صور ويافا ابن أخيه من أمه الكونت هنرى دى شامبيني (٢) . أما السلطان المجاهد صلاح الدين فقد أصابه مرض الوفاة فى ١٦/ ٢/ ٥٨٩ هـ / فبراير ١١٩٣ م واشتد به المرض ورأى ابنه الملك الأفضل ضرورة تحليف القضاة والناس من أجل إقامته سلطاناً بعد وفاة والده ففعلوا ذلك احتياطياً (على مجارى عادة الملوك) وبعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء ٢٧/ ٢/ ٥٨٩ هـ / أوائل مارس ١١٩٣ م مات السلطان صلاح الدين (وكان يوماً لم يصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون ، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمها إلا الله تعالى)(٣) .

* * *

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٨٦ – ٨٧) ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢٤٠ – ٢٤١) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٠٨ – ٤٠٩) .

(٢) العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٦١٠) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤٨) ، ثم انظر : Setton, vol, 2p. 85.

(٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢٤٣ – ٢٤٦) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢١٢ – ٢١٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٠٦ – ٤٢٠) .

الفصل الخامس

أحوال الدولة الأيوبية بعد وفاة السلطان صلاح الدين

الخلاف بين الملك الأفضل وأخيه الملك العزيز سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م — ظهور الخلاف بين دمشق والقاهرة سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م — استيلاء الملك العزيز على دمشق — استيلاء الملك العادل على دمشق وأعمالها وقتاله للصليبيين — وفاة الملك العزيز عثمان وأثره — استيلاء العادل على مصر سنة ٥٩٦ هـ — ١١٩٩ م .

• • •

الفصل الخامس

أحوال الدولة الأيوبية بعد وفاة السلطان صلاح الدين

مات لموت السلطان صلاح الدين الرجال (وفات بفواته الأفضال ، وغاضت الأيادى ، وفاضت الأعادى ، وانقطعت الأرزاق ، وادلهمت الآفاق ، وخاب الراجون وغاب الملاحون ، وطردت الضيوف ، وأنكر المعروف ، وفجع الزمان بواحده وسلطانه ، ورزئ الإسلام بمشيد أركانه)(١) وبموت صلاح الدين ظهر الاختلاف بين أولاده وضعف المسلمون فى مواجهة الصليبيين ، وحضر وفاة صلاح الدين بدمشق ولده الأكبر الأفضل نور الدين على ، وكان السلطان قد (حلف له العساكر جميعها غير مرة فى حياته) ، فلما مات والده ملك دمشق والساحل والبيت المقدس ، وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس وهونين وتبنين وجميع الأعمال إلى الداروم(٢).

أما ولده الملك العزيز عثمان فقد أخذ مصر واستقر ملكه بها ، أما ابنه الظاهر غازى فقد كان فى حلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم وتل باشر وإعزاز وبرزيه ودرب ساك ومنبج وغير ذلك من البلاد ، وكان بحماة محمود بن تقى الدين عمر فأطاعه وصار معه وكان فى حمص شيركوه بن محمد ابن شيركوه (فأطاع الملك الأفضل) وكان الملك العادل بالكرك (فامتنع فيه ولم يحضر عند أحد من أولاد أخيه)(٣) . والثابت أن السلطان صلاح الدين خلف سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة صغيرة ولم يخلف فى خزانته من الأموال

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ ص (٤٣٩) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٩٧) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٦٣٢) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٩٧ - ٩٨) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٣) ، العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٦٣٠ - ٦٣٥) .

سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهماً ولم يترك داراً ولا عقاراً(١) ، أما بلاد اليمن ففيها الملك العزيز سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب أحد إخوة صلاح الدين . وكان بيد الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين بصرى وهو فى خدمة أخيه الملك الأفضل نور الدين على صاحب دمشق ، وبقيت بعض البلاد فى يد جماعة من الأمراء منهم الأمير سابق الدين عثمان ابن الداية وبيده شيزر ، وأبو قبيس ، والأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين وبيده حصن صهيون وحصن برزية الواقع قرب اللاذقية ، والأمير بدر الدين دلدرم بن بهاء الدين ياروق وبيده تل باشر ، والأمير عز الدين أسامة وبيده كوكب وعجلون ، والأمير عز الدين إبراهيم بن شمس الدين بن المقدم بيده بعرين وكفر طاب وحصن أفامية(٢) .

ولقد طمع هؤلاء جميعاً فى الاستقلال بما فى أيديهم وتمزقت الدولة الأيوبية إلى دويلات متنازعة فيما بينها ، ولكن أهم هذه الممالك ما كان بيد الملك الأفضل نور الدين على وهو الأكبر من أولاد السلطان صلاح الدين (والمعهود إليه بالسلطنة وعنده بدمشق جماعة كثيرة من أمراء الدولة)(٣) ، وأما الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب مصر فقد كان عنده بمصر (جمهور العساكر من الصلاحية والأسدية ، والأكراد ، وهو أمكن من الملك الأفضل لعظم الديار المصرية وكثرة مغلاتها)(٤) ، ولا شك أن وفاة السلطان صلاح الدين تعتبر خسارة كبرى للجبهة الإسلامية ، إذ فقد المسلمون رجلا يساوى أمة بأسرها ، ويكفى هنا الإشارة إلى ما قاله ابن شداد عن جهاد السلطان وشجاعته : (ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً ، بحيث ما كان له حديث إلا فيه ، ولا نظر إلا فى آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده

---

(١) العماد الكاتب : الفتح القسى ص (٦٢٩) ، وذكر المقريزى أن جملة ما تركه من المال سبعة وأربعين درهماً : السلوك ج ١ ص (١١٣ - ١١٤) ، ثم انظر أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢١٧) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٤) ، ثم انظر أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٢٤ - ٢٢٥) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٤ - ٥) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٥) .

ووطنه وسكنه وسائر ملاذه ، وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة فى ليلة ريحه على مرج عكا . فلو لم يكن فى البرج وإلا قتلته ، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً)(١) .

وصلاح الدين بهذه الصفات لابد وأن تكون وفاته حدثاً خطيراً بالنسبة للمسلمين ، ومن الذى يستطيع القيام بما قام به السلطان من جهاد وحسن سياسة فى الرعية ، أضف إلى ذلك قيام المنازعات بين الورثة الذين طمعوا فى امتلاك دولة صلاح الدين ، فإن المسلمين كانوا فى أشد الحاجة إلى رجل يقوم بالمحافظة على دولة صلاح الدين بعد وفاته ، والوقوف فى وجه الصليبيين وتوفير الاستقرار والهدوء فى الدولة الأيوبية

الخلاف بين الملك الأفضل وأخيه الملك العزيز سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م :

وكانت الوحشة قد استحكمت بين الأخوين الأفضل والعزيز ، واتفق رأى الأمراء بمصر على أن تكون المملكة مجتمعة للملك العزيز عماد الدين عثمان وقالوا : (هو أولى أولاد السلطان بذلك ، إذ هو المحيي لسنة والده فى الشجاعة والكرم) ، وأشار الأمراء على الملك العزيز بضرورة المسير إلى بلاد الشام وأخذها لتجتمع له المملكتان وتنتظم ممالك والده فى ملكه ، فاستجاب لهم وبذل الأموال ، واستخدم الرجال وتحرك بقواته يريد بلاد الشام (وبلغ ذلك الملك الأفضل ، فاشتد خوفه)(٢) . وكان من جملة الأسباب الباعثة للملك العزيز على الحركة إلى بلاد الشام أن ثغر جبيل الذى فتحه صلاح الدين كان يقوم بأمره رجلا كردياً احتال عليه الصليبيون (وبذلوا له مالا ، فسلم الثغر إليهم ، فظهر الضعف عن استخلاصه)(٣) ، ووصل الملك العزيز بن صلاح الدين إلى مدينة دمشق عام ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م (فحصرها وبها أخوه الأكبر الملك الأفضل على بن صلاح الدين) ، وقال ابن الأثير : (وكنت حينئذ بدمشق ، فنزل بنواحي ميدان الحصى ، فأرسل

---

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص (٢١) .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٦) .
(٣) ابن واصل : المصدر السابق ج ٣ ص (٢٦) .

الأفضل إلى عمه الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وهو صاحب الديار الجزرية ، يستنجده ، وكان الأفضل غاية الواثق به والمعتمد عليه) ، فسار الملك العادل إلى دمشق ، كما سار الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب وناصر الدين محمد بن تقى الدين صاحب حماة ،وأسد الدين شركوه بن محمد بن شركوه صاحب حمص ،وعسكر الموصل وغيرها كل هؤلاء اجتمعوا بدمشق ،واتفقوا على حفظها ،علماً منهم أن العزيز إن ملكها أخذ بلادهم) .

فلما رأى العزيز عثمان اجتماع هؤلاء الحكام فى دمشق (علم أنه لا قدرة له على البلد ،فترددت الرسل حينئذ فى الصلح فاستقرت القاعدة على أن يكون البيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز ،وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها والغور للأفضل على ما كانت عليه ،وأن يعطى الأفضل أخاه الملك الظاهر جبلة ولاذقية بالساحل الشامى ، وأن يكون للعادل بمصر إقطاعه الأول واتفقوا على ذلك وعاد العزيز إلى مصر ، ورجع كل واحد من الملوك إلى بلده)(١) .

ويفهم مما تقدم أن الاختلاف بين أبناء صلاح الدين قد يضر بالمصلحة العامة للإسلام والمسلمين ، وقد ينتهز العدو الصليبى تلك الظروف للتوسع على حساب المسلمين ، علاوة على ما فى الاختلاف من أنانية ممقوتة وظهور للأثرة واختفاء للإيثار وخصوصاً فى حال وجود بطانة السوء التى لا يعنيها إلا مصالحها الخاصة ، ومن دلائل أمراء السوء ما فعله ضياء الدين ابن الأثير وزير الملك الأفضل الذى حرض الأفضل على قتال أخيه العزيز فى وقت كان الأفضل يريد حقن الدماء والتفاهم مع أخيه ، وكان الأفضل لما تحقق من أن الملك العزيز قاصده ، مال إلى مرضاته وقال : (إن كان قصد أخى من محاربتى أن تكون الخطبة والسكة باسمه فأنا أجيب إلى ذلك وأتبع رضاه) ، فأنكر عليه أصحابه ذلك الموقف وخصوصاً وزيره ضياء الدين بن الأثير وقالوا له : (الله ، الله ، لا يقوم هذا بخاطرك ، وابذل ما عندك من الأموال وقو بها عساكرك ، ولا تدخل تحت الضيم ، ونحن بين يديك ، كما تحب وأنت الأكبر من أولاد السلطان ، وأولى منه بالخطبة والسكة)(٢) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٠٩ - ١١٠) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١١٦ - ١١٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٦ - ٢٧) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٧) .

فقال لهم الملك الأفضل : (أعرف هذا الذى تقولون ، لكنى لا أوثر الفتنة وأحب سلامة الإسلام بانتظام الصلح بيني وبين أخى) . وعندما حاول عماد الدين الكاتب إقناع الملك الأفضل بأن يكتب إلى أخيه خطاباً يلاطفه فيه بقصد إقناعه بالعودة إلى مصر ، اعترض أمراء الملك الأفضل وقالوا له : (هذا) العماد الكاتب (يوالى أخاك فى هواه لا فى هواك . فأعرض عن هذا وخذ فى حديث غيره فما عندنا سوى الآباء ، ولا اعتدال مع الاعتداء ، وأين النخوة والحمية ، والنفوس الأبية ، وما هذه الرقة والركة ، ولنا الشوكة والسكة ، ونحن عبيدك وخدمك ، ونطرح نفوسنا تحت قدمك ، فإياك أن تعرف إلا بالجد والعزيمة الصادقة فأصغى الملك الأفضل إلى قولهم وكان ما ذكرناه من اجتماع الملوك معه ووقوع الصلح مع أخيه الملك العزيز)(١) .

وعلى الرغم من أن أبناء صلاح الدين كانوا يميلون إلى الاتفاق والوفاق فيما بينهم ، إلا أن بعض العناصر التى تبحث عن مصالحها الخاصة دفعت بالإخوة إلى نبذ أسباب التفاهم والتعاون ، ولقد أشار المؤرخون إلى الدور الخطير الذى لعبه أنصار الفرقة والاختلاف ، فقد ذكر المقريزى ذلك وقال : (وأما الأفضل فإنه هم بمكاتبة العزيز بما يؤكد أسباب الصلح فأماله عن ذلك خواصه وأغروه بأخيه ، ورموا جماعة من أمرائه بأنهم يكاتبون العزيز ، فاستوحش منهم وفطنوا بذلك فتفرقوا عنه)(٢) ، وأكد هذا الموقف المؤرخ ابن واصل وقال : (ولو ترك (الأفضل) وفطنته الذكية ، لجرت الأمور على السداد ، لكن أصحابه وجلساءه أفسدوا أحواله ورموا أكابر أمرائه بالمكاتبة والخيانة ، فتمكنت الوحشة فى قلبه وقلوب أمرائه ، وقالوا له : (أنت ولى عهد السلطان ، والأكبر من أولاده وأحق بالملك من إخوتك ، وقصدوا تشتيت الشمل الناصرى (الأيوبى) ، وتشتيت البيت السلطانى ، فتفرق عن الملك الأفضل كبراء دولته)(٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٨ - ٣٦) ، ثم انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (١١٦ - ١١٨) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٠٩ - ١١٠) .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١١٨) .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٣٨ - ٣٩) .

وكان من بين الأمراء الكبار الذين فارقوا الملك الأفضل الأمير عز الدين أسامة صاحب عجلون وكوكب وهو من أجلاء الأمراء الصلاحية ، وسار إلى مصر ودخل فى خدمة الملك العزيز الذى فرح بوصوله إليه وأكرمه غاية الإكرام (ولما استقر عز الدين أسامة عند الملك العزيز أخذ فى تحريضه على الملك الأفضل ، وتقوية عزمه على قصده وأخذ دمشق منه وقال له : إن لم تنصر الدولة الصلاحية خذلت ، وإن لم تصنها ابتذلت ، وأخوك الملك الأفضل قد غلب على اختياره وحكم عليه وزيره الضياء الجزرى(١) وقد أفسد أحوال الدولة ، فهو يتصرف فيها برأيه الفاسد ، ويحمل أخاك على مقاطعتك ومباينتك ، فإن أغفيت أغفلت ، وإن أمهلت أهملت ، وإن لنت غاظوا ، وإن نمت تيقظوا ، ولا تلتزم باليمين فإن من شرطها صفو الوداد وصحة النية ، ولم يوجد ذلك فحنثهم فى ايمانهم قد تحقق ، وبريت أنت من العهدة ، فاقصد البلاد فإنها فى يدك قبل أن يحصل للدولة من الفساد ما لا يمكن تلافيه)(٢) .

وكان من بين الأمراء الذين تركوا خدمة الملك الأفضل فى دمشق الأمير شمس الدين بن السلار ، وسار إلى مصر وساعد عز الدين أسامة (على التحريض على الملك الأفضل ، وتقوية عزم الملك العزيز على قصده) ، ووصل إلى الملك العزيز أيضاً القاضى محيى الدين أبو حامد محمد بن الشيخ شرف الدين عبد الله بن هبة الله بن أبى عصرون ، فاحترمه الملك العزيز وولاه قضاء الديار المصرية وضم إليه نظر الأوقاف فى مصر .

لم يكتف الملك الأفضل بقسوته فى معاملة أمراء والده وإبعادهم عن شئون

---

(١) يقصد بالضياء الجزرى ضياء الدين بن الأثير شقيق المؤرخ الكبير ابن الأثير وقد شغل منصب الوزير فى دولة الملك الأفضل وكان يحرضه على قتال أخيه الملك العزيز وأساء إلى الأمراء الكبار الذين عملوا فى خدمة السلطان صلاح الدين ، واضطروا إلى مغادرة الشام ، وقدم بعضهم إلى مصر حيث دخلوا فى خدمة الملك العزيز .

انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٠) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٣٩) ، ثم انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (١١٨) .

الدولة وإجبارهم على مفارقة البلاد ، بل أقبل على (اللعب ليله ونهاره ، وتظاهر بلذاته ، وفوض الأمور إلى وزيره وساءت أحوال الدولة بفعاله ولكنه لم يلبث على هذا النحو طويلا ، بل تاب وأزال المنكرات وأراق الخمور وترك اللعب) وأقبل على العبادة ولبس الخشن من الثياب ، وشرع فى نسخ مصحف بخطه ، واتخذ لنفسه مسجداً يخلو فيه لعبادة ربه ، وواظب على الصيام وجالس الفقراء ، وبالغ فى التقشف ، حتى صار يصوم النهار ويقوم الليل ، وقال ابن واصل : إن الملك الأفضل أصبح يوماً تائباً من غير سبب يعلم)(١) .

أما الملك العزيز عثمان فقد قطع خبز (مرتب) بعض الأمراء والفقهاء فساروا من القاهرة إلى دمشق ، فأكرمهم الملك الأفضل وأقطعهم الإقطاعات الكبيرة ، وساءت الأحوال فى مصر خلال سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م . وارتفعت الأسعار ونقص ماء النيل وتعذر وجود الطعام وضج الناس وكثرت المنكرات (وتجاهر الكافة بكل قبيح ، فترقب أهل المعرفة حلول البلاء)(٢)»

استمرار الخلاف بين دمشق والقاهرة سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م :

كان من نتائج تدهور العلاقات بين الملك الأفضل والملك العزيز أن شرع الأخير فى الاستعداد من أجل غزو الشام وأخذ دمشق من أخيه الأفضل الذى أصبح فى غاية الحرج والاضطراب لسماعه تلك الأخبار (فأشار العقلاء من الناس على الملك الأفضل بمكاتبة أخيه العزيز وملاطفته واسترضائه ومصافاته . . لكن ترك رأى العقلاء وقبل ما أشار به عليه وزيره ضياء الدين ابن الأثير ، فإنه أشار بأن يعتصم بعمه الملك العادل ، ويلتجئ إليه ويستجير به ، ويستنجد به على أخيه ، وكان هذا من فاسد الرأى)(٣) .

وكان رأى العقلاء فى دمشق يميل إلى مصانعة الملك العزيز وملاطفته ، فإنه (كان يقنعه أن يقيم الملك الأفضل الخطبة والسكة بدمشق له ، إذ هو

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٤٠) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١١٨ - ١١٩) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١١٩) ، ثم انظر : ص (١٢١) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٤١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص(١٢٣)

صاحب الديار المصرية ، وعنده معظم العساكر الصلاحية ، ولو فعل ذلك الملك الأفضل وانقاد إلى أخيه الملك العزيز لما عارضه الملك العزيز فى دمشق ، ولأبقاها عليه ، ولم يتمكن الملك العادل من الاستيلاء على ممالك أولاد أخيه)(١) .

ولما اشتد خوف الملك الأفضل فى دمشق من أخيه الملك العزيز صاحب مصر سار إلى الشرق على الرغم من نصح الأمراء له بعدم الاستنجاد بعمه الملك العادل (فالأخ أولى بالمساعفة والمساعدة ، وما يطلب إلا إقامة الخطبة له ، فأجبه إلى ذلك ، ولا تضايقه فيه ولا تنافسه) ، وكاد الملك الأفضل يستجيب لنصيحة هؤلاء الأمراء (فلما خلا به وزيره الضياء وأصحابه ، حرفوه عن ذلك كله ، وحسنوا له أنه لا ينبغى له العدول عن عمه الملك العادل ، وسار فعلا فى الرابع عشر من جمادى الأول عام ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م فلقيه الملك العادل بصفين وقال له الملك الأفضل : (أنت عمى ومقام والدى وبقوة مساعدتك يقوى ساعدى ، ومع إقامتك عندى بدمشق لا يقدم على الملك العزيز) ، وكرر الأفضل السؤال وتضرع إلى عمه حتى يستجيب لمطلبه (وألح عليه فى المسألة ، فأجابه الملك العادل إلى ذلك) وسار العادل نحو دمشق فى مستهل جمادى الآخرة عام ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م ومعه قواته ، فوصل دمشق ودخلها فى ٩ / ٦ / ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م(٢) ، وسار الملك الأفضل إلى الملك الظاهر صاحب حلب وطلب منه المساعدة على الملك العزيز (وبذل الملك الأفضل للملك الظاهر جبلة واللاذقية وأعمالها ، فاستضافهما الملك الظاهر إلى ممالكه) ووعده بمساعدته ضد الملك العزيز ثم توجه الأفضل إلى حماة فاستقبله ابن عمه الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر (وتحالفا وتعاهدا) ، ثم عاد الملك الأفضل إلى دمشق فدخلها — فى ١٣ / ٦ / ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م وبها عمه الملك العادل مظاهراً له فى الظاهر ومؤازراً (وأفضى الملك الأفضل إلى الملك العادل بأسراره ، وشاهد الملك

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٤١) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٤١ — ٤٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٢٣) ، ثم انظر ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١١٨ — ١١٩) .

العادل اختلال أحواله ، ولم يعجبه سيرة وزيره ضياء الدين بن الأثير ، وكان الملك العادل يحبه الملك الأفضل بالتحذير منه ، وهو لا ينزل عنه ولا يبرأ منه)(١) ، ولكن الوفاق بين الملك الأفضل وأخيه الملك الظاهر صاحب حلب لم يستمر ، ولم يف الأفضل باتفاقه مع أخيه الظاهر بإعطائه جبلة ، واللاذقية فى مقابل مساعدته له ضد الملك العزيز عثمان صاحب مصر ولما (تحقق الملك الظاهر أن عمه الملك العادل وأخاه الملك الأفضل لم يفيا له بما عاهداه عليه ، كاتب أخاه الملك العزيز واستنهضه لقصد الشام ، ووعده القيام معه ونصرته فقوى عزم الملك العزيز وتهيأ له)(٢) ، وكان الملك العادل قد أدرك حقيقة أحوال الملك الأفضل (وسوء تدبيره وقبيح سيرته ، فانحرف عنه ونهاه فلم ينته ، إلا أنه مبالغ فى كرامة عمه ، حتى أنه ترك له السنجق(٣) وصار العادل يركب بالسنجق السلطانى فى كل يوم ، ويركب الأفضل فى خدمته)(٤) .

وفى هذه الظروف التى عاشها الملك الأفضل سار الملك العزيز عثمان من مصر إلى بلاد الشام ومعه العساكر الكثيرة المتوافرة (من الصلاحية والأسدية والأكراد) فلما اقترب من دمشـــق كاتب الملك العادل (الأمراء الذين مع الملك العزيز ووعـــدهم الوعود الجميلة وأخذ فى إفسادهم عليه ، وتنفير قلوبهم منه)(٥) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٤٣ - ٤٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٣) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٤٥ - ٤٦) ، ثم انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٢٤) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٢٣) .

(٣) لفظ توكى يطلق فى الأصل على الرمح ، والمراد به هنا الراية التى ترتبط به ، وفى ركوب الأفضل فى خدمة العادل إشارة إلى استعداده للاعتراف بعمه ملكاً بدلا من العزيز الذى يريد إخضاع دمشق .

انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٢٤) حاشية ١ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٢٤) ، ابن واصل : مفرج الكروب - ج ٣ ص (٤٤) .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٤٦) ويقصد بالصلاحية مماليك صلاح الدين ويقصد بالأسدية مماليك أسد الدين شيركوه .

انظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٢٣) .

واستغل العادل اختلاف أمراء الملك العزيز وحرضهم عليه (وكانت الأمراء الصلاحية والأسدية ينافس كل فريق منهم الآخر ويطلب عثاره، وكانت الأمراء الصلاحية متقدمة عند الملك العزيز ، فحسدتها الأمراء الأسدية، وأخذ الملك العادل بدقيق حيله يعمل فى تأكيد الإيقاع بين الفرقتين ، ويوقع الفرقة والاستيحاش بينهما وكذا فى الإيحاش بين الأسدية والملك العزيز ، فكاتب الملك العزيز سراً يخوفه من الأسدية ويغريه بإبعادهم ، وكاتب الأسدية بالتنفير من الملك العزيز وتخويفهم منه واستمالتهم إليه فاستوحش الملك العزيز من الأسدية واستوحشوا منه . فكانوا إذا لقوه عرفوا فى وجهه التنكر ، وعرف فى وجوههم مثله ، وتمادى الأمر إلى أن تمكن الخوف منه فى قلوبهم والخوف منهم فى قلبه ، ولما تمكن الاستيحاش منهم ، عزموا على مفارقته وحسنوا ذلك للأكراد المهرانية فوافقوهم عليه)(١) .

وكان مقدم الأمراء الأكراد حسام الدين أبا الهيجاء السمين ، فاجتمع بالأكراد مع الأسدية واتفقوا بأجمعهم على مفارقة الملك العزيز والانضمام إلى العادل والأفضل ومضايقة العزيز ولم يكتفوا بذلك بل عقدوا النية على مكاتبة من بقى منهم بمصر ، أن يستقبلوا العزيز ويحولوا بينه وبين القاهرة ويكونوا هم والملك العادل والملك الأفضل خلفه فيصير بذلك بين الفريقين ، الملاحقون له من جهة الشام والخارجون عليه من القاهرة (فيؤخذ أخذاً باليد وتنتزع منه البلاد) .

فلما كان عشية اليوم الرابع من شوال ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م (رحل الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين والأكراد المهرانية والأسدية رحلة واحدة بعد دخول الليل وهم لابسون عدة الحرب (وعلم الملك العزيز عثمان بما فعلوا فما تخلخل الملك العزيز ولا تزعزع من مكانه ، ولا أظهر ارتياعاً لما وقع من هذه الحادثة ، بل ثبت مكانه واستقر ، فقالت له الأمراء الصلاحية : (دعنا نتبعهم ونقاتلهم ونتركهم عبرة للمعتبر) فقال لهم الملك العزيز : (لا ترهبون واتركوهم يذهبون أين شاءوا لعلنا نصفو من كدرهم ، وهذا

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٤٦ - ٤٧) ، وانظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٢٤ - ١٢٥) .

ليل ، ولا يؤمن فيه الاختلاط ، ولا يعرف الإنسان فيه صديقه من عدوه والأولى الأخذ بالحزم والاحتياط)(١) وكان المفارقون للملك العزيز معظم الجيش ومع ذلك فإن الملك العزيز ثبت فى معسكره ومعه خواص أصحابه ، وبات تلك الليلة ثابت الجأش والجنان ، (وما أظهر أسفاً على فراق من فارقه من عسكره)(٢) ورجع الملك العزيز بمن بقى معه من الجيش إلى مصر ، وكان يعتقد أن الملك الأفضل سيلاحقه ولذلك سار إلى مصر على(تيقظ وتحفظ) وكان الخارجون على الملك العزيز قد شجعوا الملك العادل على أخذ مصر ولذلك اتفق مع الملك الأفضل على متابعة العزيز عثمان وأخذ البلاد المصرية منه ، واتفق العادل مع الأفضل على أن يملك الأفضل الديار المصرية ويسلم دمشق إلى عمه الملك العادل ، وخرجا من دمشق بقواتهما وانضاف إليهما الأمراء والعساكر الذين خرجوا على الملك العزيز ، وسار الجميع يطلبون البلاد المصرية ، وكان الملك العزيز قد عاد (منهزماً يطوى المراحل خوف الطلب ولا يصدق بالنجاة ، وتساقط أصحابه عنه إلى أن وصل إلى مصر) .

وأما العادل والأفضل فإنهما أرسلا إلى القدس ، وفيه نائب الملك العزيز عثمان فسلمه إليها وأظهر الخضوع لهما والانتماء إليهما ، ثم تابعوا السير إلى مصر (فرأى العادل انضمام العساكر إلى الأفضل ، واجتماعهم عليه ، فخاف أنه يأخذ مصر ، ولا يسلم إليه دمشق ، فأرسل حينئذ سراً إلى العزيز يأمره بالثبات ، وأن يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها وتكفل بأنه يمنع الأفضل وغيره من مقاتلة من بها)(٣) وكان العادل لا يريد إزالة حكم العزيز ، بل سره استقراره بالديار المصرية (إذ لم يكن فى الباطن يختار إزالة ملكه ، وكان شديد

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٤٧ – ٤٨) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٢٤ – ١٢٥) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١١٩) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٤٨ – ٤٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٢٥) ، وانظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٢٣) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١١٩) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٢٣ – ١٢٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٢٥) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٤٨ – ٥١) .

الميل إليه والمحبة له ، وسار الملك العادل على سكون وهدوء إلى أن وصل في مدة مديدة)(١) .

ولما وصلت القوات الشامية إلى بلبيس نازلوها وبها بعض قوات الملك العزيز عثمان ولكن العادل توقف عن القتال ولم ير انتزاع مصر من يد العزيز (وظهرت منه قرائن تدل على أنه لا يؤثر السلطنة للأفضل ولا يرى بتقدمته على العزيز)(٢) ولذلك منع الأفضل من القتال وقال : (هذه عساكر الإسلام، فإذا اقتتلوا في الحرب فمن يرد العدو الكافر، وما بها حاجة إلى هذا، فإن البلاد لك وبحكمك ، ومتى قصدت مصر والقاهرة وأخذتهما قهراً زالت هيبة البلاد ، وطمع فيها الأعداء وليس فيها من يمنعك عنها (وأرسل العادل إلى العزيز يطلب منه إرسال القاضي الفاضل (وكان مطاعاً عند البيت الصلاحي لعلو منزلته التي كانت عند صلاح الدين) فحضر القاضي الفاضل بعد تردد ، فاحترمه العادل وأكرمه وتحدث معه بما قرره ، وعاد القاضي الفاضل إلى الملك العزيز وتحدث معه ، فأرسل العزيز ولديه الصغيرين مع خادم له برسالة ظاهرة مضمونها : (لا تقاتلوا المسلمين ولا تسفكوا دماءهم ، وقد أنفذت ولدي يكونان تحت كفالة عمي العادل وأنا أنزل لكم عن البلاد وأمضي إلى الغرب) وكان ذلك بمشهد من الأمراء (فرق العادل وبكى من حضر فقال العادل : معاذ الله ! . ما وصل الأمر إلى هذا الحد)(٣) واستقر الأمر على المصالحة وأن يكون للأفضل القدس وجميع البلاد بفلسطين ، وطبرية والأردن وجميع ما بيده ، ويكون للعادل إقطاعه الذي كان قديماً ويكون مقيماً بمصر عند الملك العزيز كما تقرر أن يعفو الملك العزيز عن الأمراء الأسدية والأكراد الذين خرجوا عليه وانضموا إلى الأفضل والعادل وأن يعودوا للخدمة مع العزيز وأن ترد لهم إقطاعاتهم وحلف الملك العادل لابن أخيه الملك العزيز وحلف كل من الأخوين لصاحبه ، ولما تم أبرام هذا الاتفاق خرج العزيز واجتمع بعمه الملك العادل وأخيه الملك الأفضـــل (واتفقوا في

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٥٢) ، ثم انظر : أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٢٤) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٢٤) .

(٣) أبو المحاسن : المصدر السابق ص (١٢٤) .

الظـــاهر اتفاقاً تاماً)(١) .

ولما انتظم الصلح رجع الملك الأفضل إلى دمشق بعساكره ورجع الملك العزيز عثمان إلى القاهرة وصحبته عمه الملك العادل الذى أصبح صاحب السلطة الحقيقية فى مصر (وأمر ونهى وحكم وتصرف فى كبير الأمور وحقيرها)(٢) ويقول أبو المحاسن : (ولو أراد العادل مصر فى هذه المرة لأخذها ، وإنما كان قصده الإصلاح بين الأخوة) وقد أشار أبو شامة إلى اختلاف أبناء السلطان صلاح الدين بعبارة واضحة وقال : (أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فلكوا وأن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا)(٣) .

استيلاء الملك العزيز على دمشق :

بعد عودة الملك الأفضل من مصر إلى دمشق لزم الزهد والقناعة وأقبل على العبادة (الأمور كلها مفوضة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزرى ، وقد اختلت الأحوال به غاية الاختلال ، وكثر شاكوه وقل شاكروه)(٤) فكتب أعيان الدولة فى دمشق إلى العادل يشكون الأفضل وما هم فيه من تدهور للأحوال بسبب وزيره الذى أراد تفريق العصبة فأرسل العادل إلى الأفضل يقول له : (ارفع يد هذا الأحمق السيئ التدبير القليل التوفيق) فلم يلتفت فاتفق العادل مع العزيز على (الخروج إلى الشام لتمهيد القواعد وإزالة ما حدث من المفاسد وذلك بعد أن ضبط الملك العادل للملك العزيز الملك بمصر (فسارا إلى بلاد الشام فى مستهل ربيع الأول ٥٩٢ هـ / ١١٩٦ م ، واستشار الأفضل أصحابه (فأشار عليه شيوخ الدولة وأكابرها من الأمراء وغيرهم بأن يستقبل

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٥٢ – ٥٤) ، ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص (١٢٠) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٢٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٢٥ – ١٢٨) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٥٤) ، ثم انظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٢٤) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٢٥) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٣١) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٥٥) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٢٥) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٢٩) .

أخاه وعمه وينقاد إلى أوامرهما ، فإنه إذا استقبلهما على هذه الصورة لايسعهما إلا قبوله لأنهما إن غيرا عليه حالا بعد ذلك حلت بهما الغير . وأرخت بقبيح فعلهما الستر ، فكاد يقبل هذا القول ويصغي إليه ، فدخل عليه وزيره ضياء الدين ابن الأثير فثناه عن هذا الرأى وصرفه عنه وقال له :

(أنت أكبر الأخوة وأفضلهم ، وما ثم عجز وفى الغيب لله قضايا وله ألطاف خفايا ودمشق مدينة حصينة وأهلها يحبونك ويؤثرونك)(١) كما أن الملك الظافر خضر أحد أخوة الملك الأفضل شجعه على مقاتلة عمه وأخيه وقال له :

(أين حكم الإسلام ، وقد استحلت المحارم . وما ظننت أن أحداً يحنث فى يمينه وينقض عهده ، فلا تهن ولا تجزع فالبادى أظلم والمسلم إلى الله أسلم) فجمع الملك الأفضل الأمراء والمقدمين والعساكر وحلفهم ورتب الرجال حول دمشق يتناوبون عليها لحفظها (وفرق الأمراء على الأبراج والأسوار) وكذلك أرسل الملك الظاهر صاحب حلب يشجع الأفضل على تحصين دمشق ومقاومة العزيز ووعده بالمؤازرة والمظاهرة على عدوه واستعد الأفضل للقتال . وسار العادل والعزيز ووصلا إلى دمشق ، فنازلاها (ولم يحدثا قتالا ، والملك العادل مظهر أنه على عهده وميثاقه لم يتغير عنه ولم يحل ، وأنه ليس مقصوده إلا إصلاح ذات البين وانتظام الشمل) ، وكان بعض الأمراء فى دمشق يرسلون الكتب إلى العادل والعزيز يحرضونهم على الأفضل (لأن بعضهم كانت قد حصلت عنده نفرة من الملك الأفضل لأسباب وقعت منه ومن وزيره توجب الاستيحاش ، وبعضهم كوتبوا من جهة الملك العادل والملك العزيز بما طيب به قلوبهم وبسط فى آمالهم ، فكتبوا يحثونهما على معالجة الزحف إلى البلد وانتهاز الفرصة ، ويعدون من أنفسهم المساعدة وفتح الأبواب لهم)(٢) (ولما جرى ما ذكرناه من المخامرة من الأمراء المقيمين

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٥٦ – ٥٩) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٢٥) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٢٨) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٦٠ – ٦٢) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٢٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٣٣) .

بدمشق والأكابر وتوثق منهم الملك العزيز والملك العادل . ضرب البوق وزحف العسكر على البلد وذلك ضحى يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب من هذه السنة — أعنى سنة اثنين وتسعين وخمسمائة — مستظهرين بالعدد والآلات . فما صدهم عن البلد صاد ، ولا ردهم راد ، ولم يجدوا فى طريقهم من يقاتلهم)(١) .

وفتحت أبواب دمشق بواسطة الأمراء الذين اتفقوا مع العادل والعزيز فى الباطن ، ودخل العادل والعزيز دمشق ، فحضر الملك الأفضل إليهما (وبكى بكاء شديداً ، فأمره العزيز بالانتقال من دمشق إلى صرخد فأخرج وزيره الجزرى فى الليل فى جملة الصناديق خوفاً عليه من القتل فأخذ أموالا عظيمة وهرب إلى بلاده)(٢) وهكذا فقد الملك الأفضل ملكه فى دمشق وأعمالها واستقر فى قلعة صرخد فى حين هرب وزيره ضياء الدين ونجا من القتل وأصبحت السلطة فى دمشق فى يد العادل والعزيز . وواضح مما تقدم أن تآمر الأمراء وسوء فعل الوزير ضياء الدين أودى بالعلاقات الأخوية بين أبناء السلطان صلاح الدين . وأخذوا يحاربون بعضهم بعضاً وهمّهم مصالحهم الشخصية فتدهورت قوّتهم وطمع فيهم الطامعون(٣) .

إستيلاء الملك العادل على دمشق وأعمالها وقتاله للصليبيين :

وبعد أن تم إبعاد الملك الأفضل إلى قلعة صرخد سلم الملك العزيز عثمان دمشق إلى عمه الملك العادل ، ، ورحل من دمشق عشية يوم الاثنين تاسع شعبان ٥٩٢ هـ / ١١٩٢ م وخرج العادل لوداع الملك العزيز (ولما عاد من وداعه أمر ، فقرئ منشوره بالجامع بتفويض دمشق وأعمالها إليه)(٤)

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٦٢) .

(٢) انظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٢٥) ، ثم ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٦٢ — ٦٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٣٤ — ١٣٥) .

(٣) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٢٨ — ٢٢٩) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٦٨) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٢٥ — ١٢٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٣٥ — ١٣٦) أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٩٢) .

فصارت دمشق وأعمالها إقطاعاً للملك العادل (وليس للعزيز بها سوى الخطبة والسكة فقط)(١) .

وكانت القوى الصليبية فى الشرق والغرب تراقب تطور الأحوال عند المسلمين باهتمام وخصوصاً بعد وفاة السلطان صلاح الدين وما أعقب ذلك من اختلاف أولاده فيما بينهم وتقسيم دولته إلى دويلات متنازعة ، كل ذلك شجع القوى الصليبية فى الغرب على الإعداد من أجل حملة صليبية جديدة للانتقام وتسترد بيت المقدس وتستولى على بلاد المسلمين وتثأر منهم ، واستغل العدو أيضاً فترة الهدنة التى عقدها معهم السلطان صلاح الدين . فجمعوا القوات والإمدادات على الرغم من أن الملك العزيز عثمان صاحب مصر جدد الهدنة مع هنرى دى شامبينى ملك الصليبيين فى الشرق تحت ضغط الظروف السيئة التى أحاطت بخلفاء صلاح الدين ، وعلى الرغم من ذلك فإن أمير مدينة بيروت المعروف بأسامة ، كان يرسل سفن الأسطول الإسلامى لتقطع الطريق على الصليبيين الذين أخذوا يتدفقون من الغرب الأوروبى على بلاد الشام لدعم الوجود الصليبى ، فاشتكى الصليبيون من ذلك غير مرة إلى الملك العادل بدمشق وإلى الملك العزيز بمصر (فلم يمنعا أسامة من ذلك ، فأرسلوا إلى ملوكهم الذين داخل البحر (دول الغرب الأوروبى) يشتكون إليهم ما يفعل بهم المسلمون ويقولون : إن لم تنجدونا ، وإلا أخذ المسلمون البلاد ، فأمدهم الفرنج بالعساكر الكثيرة ، وكان أكثرهم من ملك الألمان)(٢) وكان لوصول أعداد كبيرة من الصليبيين من الغرب وخصوصاً من ألمانيا إن ازدحمت بهم البلاد وأرادوا مهاجمة المسلمين على الرغم من وجود الهدنة . وأكثروا من الاعتداءات على الأطراف الإسلامية ، فاضطر الملك العادل إلى ضرورة تأديبهم والتصدى لهم والانتقام منهم فبدأ بطلب النجدة من جميع الأمراء الأيوبيين ، فى مصر وديار الجزيرة والموصل (فجاءته الإمداد) واجتمعت القوات الإسلامية عند عين جالوت سنة ٥٩٤ هـ /

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٣٦) ، ثم انظر ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٢٣) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٢٦) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٢٣) .

١١٩٨ م ثم نهض الصليبيون لقتال القوات الإسلامية والتقى الجمعان عند تل العجول بالقرب من غزة ، فقتل المسلمون (منهم جماعة وأسروا جماعة ورجعوا بغنائم كثيرة)(١) فغضب هنرى دى شامبينى ملك الصليبيين وأرسل على الفور يستحث ملك الألمان هنرى السادس على القدوم إلى بلاد الشام لنجدة الصليبيين والانتقام من المسلمين ، ولكن الملك العادل تقدم بالقوات الإسلامية بسرعة وهاجم مدينة يافا واستولى عليها بالقوة (وقتل مقاتلتها وأعيان من بها من الفرنج ، فامتلأت أيدى المسلمين بالسبي والغنائم)(٢) وذكر المقريزى أن عدد الأسرى بلغ (سبعه آلاف نفس ما بين ذكر وأنثى)(٣) وكان هنرى دى شامبينى ملك الصليبيين قد تأهب لمنع سقوط يافا فى أيدى المسلمين ، ولكنه مات فجأة فى ٥٩٣ هـ / ١٠ / ٩ / ١١٩٧ م فكانت خسارة الصليبيين فادحة بسبب سقوط مدينة يافا من ناحية ووفاة ملكهم من ناحية أخرى(٤) واضطر الصليبيون بعد وفاة هنرى إلى عرض عرش المملكة الصليبية على عمورى الثانى لوزجنان ملك قبرص ، فتزوج بأرملة هنرى المسماة إيزابيل وذلك بهدف إقامة رجل قوى فى عرش المملكة الصليبية ليدافع عنها ويحميها من المسلمين ، وأصبحت قبرص موحدة مع المملكة الصليبية فى بلاد الشام . وأصبح بهذا الزواج مفروضاً على ملوك قبرص الدفاع عن مملكة بيت المقدس والصليبيين . وبدأ عمورى لوزجنان بالهجوم على مدينة بيروت تعويضاً عن ضياع مدينة يافا . واستطاع الصليبيون بالفعل أخذ بيروت فى أكتوبر ١١٩٧ م / ٩ / ١٢ / ٥٩٣ هـ (فملكوها صفواً عفواً بغير حرب ولا قتال ، فكانت غنيمة باردة) بعد أن هرب صاحبها الأمير عز الدين أسامة ومن معه من العساكر (وتصرفت الفرنج فى بيروت وأعمالها الساحلية)(٥) وكان

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٧٤) ، والمقريزى : السلوك ج ١ ص (١٤٠) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٧٥) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٩٣) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٢٣) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٤٠) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٢٦ - ١٢٧) ، ونذكر هنا أن ابن واصل قال : إن سقوط يافا فى يد المسلمين فى عام ٥٩٤ هـ : انظر : مفرج الكروب ج ٣ ص (٧٥) .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٢٧) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٢٣) .

لضياع مدينة بيروت نتائج منها حرمان الأسطول الإسلامى من الاستفادة منها وعدم تزوده بما يحتاج إليه من ذخائر وإمدادات ، كما تمكن الصليبيون من إحكام سيطرتهم على ساحل الشام الواقع شمالى مدينة عكا وحتى مدينة طرابلس كما تجرأ بوهيموند الثالث أمير أنطاكية الصليبية على إظهار قوته ورغبته فى الاستيلاء على اللاذقية وجبله ، ولكن اهتمام الملك الظاهر صاحب حلب بالمدينتين وتحصينه لها فوت الفرصة على الأمير بوهيموند الثالث وفشلت محاولته تلك عام ٥٩٣ هـ / ١١٩٧ م (١) . وسمع العادل بأن الصليبيين على نية التحرك نحو مدينة صيدا ، فأرسل من خرب المدينة حتى لا يستفيد العدو بشئ منها ، وسارت القوات الإسلامية إلى مدينة صور ، (فقطعوا أشجارها ، وخربوا مالها من قرى وأبراج) فلما سمع الصليبيون بذلك رحلوا من بيروت إلى صور وأقاموا عليها ، ثم تركوها وهاجموا حصن تبنين فى أول صفر ٥٩٤ هـ / أواخر نوفمبر ١١٩٧ م فنازلوها بفارسهم وراجلهم ، وأحدقوا بها وضايقوها ، ونزل الملك العادل قبالتهم ، وبعث إلى الملك العزيز يحثه على الخروج إليه من مصر بنفسه)(٢) وكان من جملة ما قاله العادل للعزيز فى رسالته : (إن حضرت ، وإلا فلا يمكن حفظ هذا الثغر ، فسار الملك العزيز مجداً فيمن معه من العساكر) وكان أهل الحصن على الرغم من شدة الحصار وضراوة القتال لم يستسلموا ، بل عقدوا العزم على مواصلة الجهاد (وقاتلوا قتال من يحمى نفسه فحموها إلى أن وصل الملك العزيز إلى عسقلان فى ربيع الأول ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م فلما سمع الفرنج بوصوله واجتماع المسلمين وأن الفرنج ليس لهم ملك يجمعهم وأن أمرهم إلى امرأة (إيزابيل) وهى الملكة اتفقوا وأرسلوا إلى ملك قبرص . . . فزوجوه بالملكة)(٣) ولكن الملك الجديد ترك حصار حصن تبنين وتراجعت القوات الصليبية إلى صور ثم

---

(١) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص (٩٢٢) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٣٣) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٧٥ - ٧٦) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٢٨) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٤١) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٩٣) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٣٣ - ٢٣٤) .

إلى عكا ، والقوات الإسلامية بقيادة العادل والملك العزيز تسير في خلفهم (يلتقطون من ظفروا به منهم ، فغنم المسلمون شيئاً كثيراً من عسكرهم)(١) وأمر الملك العزيز عثمان بنقل (الغلال إلى تبنين وإصلاح ما تهدم بالمنجنيقات من أسوارها) ثم أبقى الملك العزيز (العساكر برمتها عند عمه الملك العادل ، وجعل إليه أمر الحرب والصلح ، وعاد إلى مصر في جمع قليل)(٢) وكان ذلك في ٨/ ٦/ ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م والسبب في عودة العزيز إلى مصر أنه سمع أن بعض الأمراء في مصر قد اتفقوا على قتله ، فعاد إلى القاهرة فخرج الناس إلى لقائه (وكان يوماً مشهوداً)(٣) .

بقي الملك العادل متأهباً لقتال الصليبيين ويوالي الغارات عليهم إلى أن (أضجرهم وأسأمهم) فطلبوا الصلح وتردد الرسل بينه وبين الصليبيين من أجل المهادنة ، واتفق الطرفان على الهدنة لمدة ثلاث سنوات ومن شروطها أن تبقى بيروت بيد الصليبيين وانتظم الصلح وعاد الملك العادل إلى دمشق(٤) .

وهنا يجب التنبيه إلى أن العدو كان يستغل ظروف المسلمين السيئة من حيث الانقسام والاختلاف وتقديم المصالح الذاتية على مصلحة الإسلام ، ولقد أشار أبو شامة إلى هذا بقوله (فإن المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض ولهوا عن كل سنة وفرض فتدافعت إلى عكا سفنهم (الفرنج) وتدفق منهم ، وامتلأت بهم في الساحل مدنهم)(٥) وأعطى المسلمون الصليبيين الفرصة للاستظهار عليهم وتهديدهم ، وطمع العدو في استخلاص مدينة بيت المقدس . وكان الأجدر بالمسلمين أن يجتمعوا ويتفقوا ، ويؤثرون المصلحة العامة للإسلام والمسلمين ، ولقد أدرك الملك العادل خطورة الموقف ، وأن توحيد الدولة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٧٥ - ٧٦) ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص (٩٣ - ٩٤) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٧٦) .

(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ص (١٤١) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٢٩) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٢٩) ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص (٩٤) ، المقريزي : السلوك ج ١ ص (١٤١) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٧٨) .

(٥) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٣٣) .

الأيوبية تحت امرة حاكم واحد للضغط على العدو الصليبي من جميع الجهات وحصره ضرورة تقتضيها المصلحة العامة وأمام الجهاد تسقط كل الاعتبارات.

وفاة الملك العزيز عثمان وأثره :

وعلى الرغم من أن الواجب يتطلب من المسلمين ترك الخلاف وتوحيد جهودهم ، فإن الظروف الداخلية فى الدولة الأيوبية قد ساعدت الملك العادل على توحيد الدولة الأيوبية ، إذ توفى الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين فى السابع والعشرين من المحرم سنة ٥٩٥هـ الموافق أواخر نوفمبر ١١٩٨م(١) وخلف العزيز من البنين صغاراً يزيدون على العشرة وولده الأكبر ناصر الدين محمد قد أنافت سنوة على عشر وكان إلى أبيه أحب أولاده ، فاجتمع الأمراء الصلاحية وعقدوا الأمر لولده ناصر الدين محمد ونعتوه بالملك المنصور وأحلفوا له إيمان الجمهور ، ولكن جماعة من الأمراء الأسدية لم يقبلوا بتولية ناصر الدين وتزعمهم الأمير سيف الدين يازكوج . واجتمع الأسدية مع الصلاحية فقال لهم سيف الدين : (نعم ما رأيتموه من حفظ العزيز فى ولده لكنه صغير السن لا يتحمل ثقل هذه المسئولية ولابد من كبير من أهل البيت يربيه ويدبر الدواوين ويرتب القوانين ، وما ها هنا إلا الملك العادل وهو الآن فى بلاد الشرق مشغول ، وها هنا من هو أقرب منه وهو الملك الأفضل ، فقال الأسدية : هذا هو الرأى الراجح ولم يسع الصلاحية مخالفته فاتفقوا على استدعاء الأفضل من صرخد)(٢). واجتمع الأمراء لأخذ رأى القاضى الفاضل وعرفوه صورة الحال ، فأشار عليهم بتولية الملك الأفضل صاحب صرخد ليكون وصياً على الملك المنصور بن الملك العزيز . فأرسلوا فى طلبه (فسار عن صرخد لليلتين بقيتا من صفر عام ٥٩٥ هـ /

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج.٣ ص (٨٢ – ٨٣) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٩٥) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٤٣ – ١٤٤) ، وذكر أبو شامة ، وابن الأثير أن وفاته كانت فى ليلة الأحد العشرين من المحرم : الروضتين ج ٢ ص (٢٣٤) ، الكامل ج ١٢ ص (١٤٠) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٣٤ – ٢٣٥) ، وانظر ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٤٠ – ١٤١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٤٥ – ١٤٦) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٨٧ – ٨٩) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٩٥) .

أواخر ديسمبر ١١٩٨ م متنكراً فى تسعة عشر نفساً ؛ لأن البلاد كانت للعادل ويضبط نوابه الطرق لئلا يجوز إلى مصر ليجىء العادل ويملكها)(١) . وتابع الأفضل سيره حتى وصل بلبيس (ولقيه إخوته ، وجماعة الأمراء المصرية ، وجميع الأعيان ولكن الأمير فخر الدين جهاركس استوحش من الأفضل والسبب فى ذلك أن أخاه الملك المؤيد مسعوداً صنع له طعاماً ؛ وصنع له فخر الدين جهاركس طعاماً ، فابتدأ الأفضل بطعام أخيه ليمين حلفها أخوه أنه يبدأ به ، فظن جهاركس أنه فعل هذا انحرافاً عنه وسوء اعتقاد فيه (فتغيرت نيته ، وعزم على الهرب) ففارق الأفضل وسار إلى القدس ودخله وتغلب عليه ولحقه جماعة من الأمراء الناصرية فقويت شوكتهم (واجتمعت كلمتهم على خلاف الأفضل ، وأرسلوا إلى الملك العادل ، وهو على ماردين يطلبونه إليهم ليدخلوا معه إلى مصر ليملكوها ، فلم يسر إليهم لأنه كانت أطماعه قد قويت فى أخذ ماردين ، وقد عجز من بها عن حفظها فظن أنه يأخذها والذى يريدونه منه لا يفوته)(٢) ، وأما الملك الأفضل فإنه دخل مدينة القاهرة وعلم بهرب الأمير فخر الدين جهاركس (فأهمه ذلك) وأرسل الأفضل إلى فخر الدين ومن معه ليعودوا إليه (فلم يزدادوا إلا بعداً ، ولحق بهم جماعة من الناصرية أيضاً فاستوحش الأفضل من الباقين ، فقبض عليهم . . . وكل هؤلاء بطل مشهور ومقدم مذكور) ، فاستولى الأفضل على مصر كلها ولم يبق للمنصور غير مجرد الاسم فقط . واستقرت أحوال الملك الأفضل فى مصر وأصلح الأمور وقرر القواعد ، (والمرجع فى جميع الأمور إلى سيف الدين يازكج)(٣) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٤١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٤٦) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٩١) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٤٢) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٩٥) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٤٦ – ١٤٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٩١ – ٩٢) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٤٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٤٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٩٣) .

محاولة الأفضل الاستيلاء على دمشق :

شجع بعض الأمراء فى مصر الملك الأفضل على محاربة الملك العادل وأخذ دمشق منه ، وذكر أبو شامة هذا بقوله : (ولما استقر الأفضل بمصر حملوه على قصد دمشق وحصرها وقالوا له : اطلب بلدك الذى منه أخرجت ، وعن المقام فيه أزعجت ، ومالك فى مصر ما يكفيك ، ودمشق لك بوصية أبيك)(١) ، كما وصل إليه رسول أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب ورسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص (يحثانه على الخروج إلى دمشق ، واغتنام الفرصة بغيبة العادل عنها ، وبذلا له المساعدة بالمال والنفس والرجال)(٢) ، فخرج الملك الأفضل بقواته من القاهرة فى جمادى الأول سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م وأقام بعض الوقت بجوار القاهرة حتى ٣/٧/٥٩٥ هـ /١١٩٩ م (ورحل فى جمادى الأولى وتعوق فى مسيره ، ولو بادر وعجل المسير لملك دمشق) ولكن الملك الأفضل تأخر فوصل إلى دمشق فى ١٣/٨/٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م ، وكان الملك العادل وهو محاصر ماردين قد بلغه مسير الأفضل لانتزاع دمشق منه ، (ففارق ماردين وخلف ولده الملك الكامل محمداً فى جميع العساكر على حصارها) وأسرع فى المسير ، فسبق الملك الأفضل فى الوصول إلى دمشق ، فدخلها فى ١٣/٨/٥٩٥ هـ الموافق ٨/٦/١١٩٩ م نفس اليوم الذى وصل فيه الأفضل إلى دمشق(٣) .

وأما الملك الأفضل فإنه تقدم إلى دمشق من الغد ١٤/٨/٥٩٥ هـ / ٩/٦/١١٨٨ م وتقدم جماعة من عساكر الأفضل واقتحموا دمشق من باب السلامة بموافقة أمير يقال له : شجاع الدين يونس من الأكراد ، فدخلوا دمشق واخترقوها (فلما رآهم عامة البلد نادوا بشعار الأفضل واستسلم

---

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٣٥) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٤٣) ، وانظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٩٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٤٨) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٤٣) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٩٥) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٤٨) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٩٥) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٣٥).

من به من الجند ، ونزلوا عن الأسوار ، وبلغ الخبر إلى الملك العادل ، فكاد يستسلم ، وتماسك)(١) .

وأما الذين دخلوا دمشق من جيش الأفضل فإنهم وصلوا إلى باب البريد (ولم يتصل بهم مدد من خلفهم وطمع الجند الذين فى البلد فيهم فطاردوهم) وأخرجوهم من دمشق . وخرج الملك العادل من قلعة دمشق وشارك فى طرد القرات المصرية من دمشق ثم أمر بغلق الأبواب وحفظها (ورتب على كل منها جماعة) ، كما أن بعض الأمراء من عسكر الأفضل لجأوا إلى العادل فخلع عليهم وأحسن إليهم فتبعهم الأمير طغرل المهرانى ومعه (قطعة من العسكر) وانضموا إلى العادل ، فقويت نفسه بذلك ، وأرسل إلى بعض أمراء الأفضل يذكرهم بما كان بينه وبينهم من مودة وصداقة ، ومن هؤلاء الأمير علم الدين كرجى والأمير عز الدين درباس المهرانى وقال فى مكاتبته لهما : (إن بنى أخى لو ظفروا بى أهانونى وكسروا ناموسى ، وأنا مقصودى أن أذهب بما لى وأهلى وحرمى إلى الشرق وأترك لهم ملك مصر والشام ، فتساعدونى بتفنيد الملك الأفضل عن الحرب ، وتوقفونه عنه فيحصل غرضى وغرضهم وتحصلون أنتم على الأجر) ، وبعث لهما مالا جزيلا فأشارا على الأفضل بالتوقف وانتظار الملك الظاهر(٢) .

وكان أن (ضعفت نفوس العسكر المصرى) وظن الأفضل بأن الأمراء الأكراد تحالفوا فصاروا يداً واحدة واتفقوا مع الدمشقيين ضده ، فتراجع بقواته عن دمشق مسافة ووصله الملك الظاهر غازى صاحب حلب وأسد الدين شيركوه صاحب حمص ، واجتمعوا وأرادوا الزحف إلى دمشق (فمنعهم الملك الظاهر مكراً بأخيه وحسداً له ، ولم يشعر أخوه الأفضل بذلك)(٣) .

وأما الملك العادل فإنه شرع يكاتب أمراء العسكر بالرغبة والرهبة وبذل المال ، فدخل دمشق جماعة من الأمراء ، فأغدق عليهم العطاء ، كما أرسل

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٤٣ - ١٤٤) ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٩٦)

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٩٧) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٤٤) .

إلى المماليك الناصرية (الصلاحية) بالبيت المقدس يستدعيهم إليه ، فساروا إليه (فقوى العادل بهم قوة عظيمة وأيس الأفضل ومن معه من دمشق) ، بل أن جيش العادل خرج من دمشق (فكبسوا العسكر المصرى ، فوجدوهم قد حذروهم ، فعادوا عنهم خاسرين)(١) .

ولكن الأفضل والظاهر وصاحب حمص هاجموا دمشق وحاصروها حتى ضايقوها وأقام الجيش على دمشق (ما بين قوة وضعف ، وانتصار وتخاذل ، حتى وصل الملك الكامل محمد ابن العادل بقواته لمساعدة والده ودخل دمشق فى ١٢ / ٢ / ٥٩٦ هـ ديسمبر ١١٩٩ م فتراجعت قوات الأفضل عن دمشق إلى ذيل جبل الكسوة فى حين كان وصول الكامل محمد بالقوات والأموال إلى دمشق سالماً من الأسباب التى زادت فى قوة العادل ، وقال ابن واصل : (فقويت نفس أبيه به قوة عظيمة وأيقن بظهور أمره واستيلائه)(٢) .

وحدث أن ساءت أحوال جيش الأفضل (وكثرت المخامرة والنفاق فيه ، وانحلت بذلك العزائم ، ووقع من المفاسد القبيحة . . . فنفر قلب الملك الظاهر من أخيه الملك الأفضل ، وامتنع من لقائه مدة ، وتقاعد عن الحرب) الأمر الذى دفعهما إلى التراجع عن دمشق ثم اتفاقهما على الرحيل والعودة إلى بلادهما ، وعاد الأفضل إلى مصر فى صفر عام ٥٩٦ هـ / أواخر ديسمبر ١١٩٩ م بعد أن هلك له الكثير من الأموال(٣).

استيلاء العادل على مصر سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م :

ذكر ابن واصل أن الملك العادل وهو محصور بدمشق كان (يهيء القرب والبقسماط وكل ما يحتاج إليه لدخول الرمل (سيناء) فعلم الناس من ذلك أنه كان مباطناً لبعض العسكر المصرى ، وتحققوا أنه يملك مصر)(٤) :

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٤٤) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٠٤ — ١٠٥) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٤٥) ، أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٣٦ — ٢٣٧) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٠٦ — ١٠٧) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٤٥) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٤٩ — ١٥٠) ، ثم انظر أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٣٥ — ٢٣٧) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص(٩٥-٩٦)

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٠٨) .

ولما سافر الملك الأفضل راجعاً إلى مصر ، سار الملك العادل من دمشق ومعه الأمراء الصلاحية . وفى نفس الوقت أمر ابنه الملك الكامل محمد بالرجوع إلى الشرق لإخضاع ماردين (ومضى الملك العادل يطوى المراحل إلى أن دخل الرمل) فى صحراء سيناء ، وبلغ الملك الأفضل ذلك (فرام جمع عساكره فتعذر ذلك عليه لتفرقهم) وانشغالهم فى إصلاح أحوال دوابهم وتربيعها (فخرج فى جمع قليل) وقرر لقاء العادل قبل دخول البلاد المصرية ، فالتقى الجمعان فى مكان يقال له : السائح بالقرب من بلبيس (فانكسر عسكر الملك الأفضل وولوا منهزمين لا يلوون على شىء) وتابع العادل الزحف بقواته نحو مدينة القاهرة ونزل بركة الجب بجوارها ، وأرسل إلى الملك الأفضل يقول له :

(أنا لا أحب أن أكسر ناموس القاهرة ، لأنها أعظم معاقل الإسلام ، ولا تحوجنى إلى أخذها بالسيف ، واذهب إلى صرخد وأنت آمن على نفسك)(١) . فاستشار الأفضل الأمراء فيما يواجه الموقف وكيف يجيب على عرض عمه العادل (فرأى منهم تخاذلا) ، فأرسل إلى عمه يطلب منه أن يعوضه عن الديار المصرية بالشام ، فامتنع فطلب منه بلاداً أخرى منها جانى وجبل جور ، وميافارقين ، وسميساط ، فأجابه إلى ذلك ، وتسلم القاهرة منه ، ودخل الملك العادل القاهرة فى الثامن من ربيع الآخر سنة ٥٩٦ هـ / ٥ / ٢ / ١٢٠٠(٢) .

ولما استقر الملك العادل بالقاهرة أظهر أنه اتأبك الملك المنصور ابن الملك العزيز (وحلف له الأمراء على مساعدته ، ليقوم باتأبكية الملك المنصور إلى أن يتأهل للاستقلال بالقيام بأمور المملكة ، فلم يستمر ذلك (٣)،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٠٨ - ١٠٩) ، ثم انظر ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٥٥) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٥٠ - ١٥١) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٩٧ - ٩٨) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٣٧) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٩٨) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٥٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٥١) ولقد خالف ابن واصل هؤلاء المؤرخين وذكر أن دخول العادل لمدينة القاهرة كان يوم الحادى والعشرين من ربيع الآخرة سنة ٥٩٦ ، انظر : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٠٩) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص(١٥١)، وانظر أبوشامة: الروضتين ج ٢ص(٢٣٧) .

وقال ابن واصل : (ولما استقر الملك العادل بالقاهرة أبقى الملك المنصور على اسم السلطنة ، فإن الصلاحية إنما حلفوا له ووافقوا على أن يكون أتابكاً للملك المنصور ، إلى أن يكبر ويسلم البلاد إليه ، فأظهر ذلك أياماً ، ثم عزم على إبطال ذلك) .

وكان الملك العادل أحضر جماعة من الأمراء ممن يعلم ميلهم إليه وقال : (إنه قبيح بى أن أكون أتابكاً لصبي مع الشيخوخة والتقدم ، مع أن الملك ليس هو بالميراث ، وإنما هو لمن غلب ، ولقد كان يجب أن أكون بعد أخى السلطان الملك الناصر — رحمه الله — صاحب الأمر ، غير أنى تركت ذلك إكراماً لأخى ورعاية لحقه .

فلما حصل الاختلاف ما حصل خفت أن يخرج الملك من يدى ويد أولاد أخى فشيت الأمر إلى آخره ، فلم أر الأمر يصلح إلا بقيامى فيه ونهوضى بأعبائه . ولما ملكت هذا البلد ، وطنت نفسى على القيام بأتابكية هذا الصبي حتى يبلغ أشده ، فرأيت العصبيات غير مقلعة ، والفتن ليست زائلة ، فخشيت أن يطرأ على ما طرأ على الأفضل ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبون إقامة آخر ، وما أعلم ما يكون عاقبة ذلك ، وأنا أرى أن هذا الصبي يمضى إلى الكتاب ، وأقيم له من يؤدبه ويعلمه ، فإذا بلغ أشده نظرت فى أمره وقمت بمصالحه)(١) .

وخلاصة القول : إن الأمر قد استتب للملك العادل (وحلف الجميع له) وخلعوا المنصور فى يوم الخميس (وخطب للعادل من الغد يوم الجمعة) الموافق الحادى والعشرين من شوال عام ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م(٢) ، وخطب له بديار مصر وأرض الشام وحران ، والرها ، وميافارقين (واستحلف الناس بهذه البلاد ، وضربت السكة باسمه) واستدعى الملك العادل ابنه الكامل محمد من الشرق ونصبه نائباً عنه بالبلاد المصرية ، وجعله ولى عهده وحلف له الأمراء وأطلق على العادل منذ ذلك التاريخ لقب السلطان الملك

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١١٠ – ١١١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٥٢) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٥١ – ١٥٢) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٥٦) .

وحلف له الأمراء وأطلق على العادل منذ ذلك التاريخ لقب السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب(١) ، وقال أبو شامة : (واستبد بملك مصر آمناً من الشركة)(٢) . وعلى الرغم من ذلك فإن بذور الفتنة لم تهدأ ، وبعض الأمراء من أنصار الملك الأفضل لم يرضوا بسلطنة العادل وجرت اتصالات بين الأفضل وأخيه الملك الظاهر صاحب حلب واتفقوا مع مؤيديهم على مهاجمة دمشق وانتزاعها من السلطان العادل (ولما بلغ الملك العادل توجه الملك الأفضل والظاهر إلى دمشق انزعج لذلك ، وخرج من مصر بعساكره ، وقدم إلى الشام ، ونزل بنابلس ، وقدم قطعة من عسكره إلى دمشق ، فدخلوها قبل نزول الأفضل والظاهر عليها) ولكن الأخوين المتحالفين ضد عمهما هاجما دمشق وضايقوها أشد مضايقة ، واشتد القتال (والتصق العسكر بالأسوار ، ثم زحفوا لها ثانياً وثالثاً) وكادت دمشق تسقط فى أيديهم ، ولما تحقق الملك الظاهر أن البلد مأخوذ لا محالة ولم تطب نفسه بأن يملكه أخوه ، فأرسل إلى الملك الأفضل يقول له :

(إذا فتحت دمشق تسلمتها أنا ، وسيرت العساكر معك إلى الديار المصرية ، ليفتحوها لك) ، فأرسل الملك الأفضل يقول له : (قد علمت أن والدتى وأهلى — وهم أهلك — على الأرض ، وليس لهم موضع يأوون إليه ، فأحسب أن هذا البلد لك تعيرنى إياه أسكنه أهلى هذه المدة إلى أن نملك مصر) فلم يجب الملك الظاهر إلى ذلك (ولج فى أن يتعجل أخذه لنفسه) وقيل أيضاً فى أسباب الاختلاف بين الأخوين : إن السلطان العادل كتب إلى الملك الأفضل والملك الظاهر يقول لكل منهما : (إن أخاك لا يريد البلد إلا لنفسه . وإن العسكر متفقون معه فى الباطن على ذلك) ، فاختلف الأخوين ، وكتب العادل إلى الأفضل يعده بالبلاد التى عينت له بالشرق وبذل له مع ذلك مالا ،(ففترت همته ، وقال للأمراء الصلاحية ومن جاء إليه من الجند : (إن كنتم جئتم إلى ، فقد أذنت لكم فى العود إلى الملك العادل ، وإن كنتم جئتم إلى أخى فأنتم وهو أخبر) وكان الكل يريدون

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٥٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١١٢ — ١١٣) .

(٢) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص (٢٣٧) .

الأفضل للبن عريكته ، فقالوا : (ما نريد سواك ، والعادل أحب إلينا من أخيك) ، فأذن لهم فى العود وتفرقوا (وتحللت العزائم) ووقع الاختلاف بين الملكين ، ورحلا عن دمشق أول المحرم سنة ٥٩٨هـ الموافق أول - أكتوبر ١٢٠١ م واعترف الملك الظاهر غازى صاحب حلب بسلطنة عمه وسيادته (ولاطفه وأهدى إليه) ، وأما الملك الأفضل فإنه لم يحصل من البلاد إلا على سيميساط وبلادها لا غير واتفق على أن يكون السلطان العادل سلطان البلاد وحلفوا على ذلك ، وخطب له فى حلب ، وانتظمت البلاد فى حكمه واستقرت قواعده وجعل ابنه الكامل محمد نائبه فى حكم مصر وبذلك تمكن الملك العادل من إعادة توحيد الدولة الأيوبية وإقامة الجبهة الإسلامية المتحدة فى جميع الجبهات بقيادة السلطان العادل ، الذى يقود الدولة الأيوبية ويجاهد خصومها بنجاح(١) .

• • •

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١١٧ - ١٢٩) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (٩٩ - ١٠٠) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٥٤ - ١٥٩) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٦٠ - ١٦٣) .

الفصل السادس

جهاد السلطان العادل ضد الصليبيين

غارة الصليبيين على حماة سنة ٦٠١ هـ – ١٢٠٤م – غارة الصليبيين على جبلة واللاذقية سنة ٦٠١ هـ – ١٢٠٥ م – الدعوة للحملة الصليبية الرابعة – أهداف الحملة الصليبية الرابعة – قيام الحملة الرابعة ونتائجها – هجوم السلطان العادل على الصليبيين سنة ٦٠٣ – ٦٠٤ هـ – تجدد الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤ م – تحالف الغرب الأوروبي على قتال المسلمين سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م – الحملة الصليبية الخامسة هدفها مصر .

* * *

الفصل السادس

جهاد السلطان العادل ضد الصليبيين

لم ينس الصليبيون هزائمهم على يد المسلمين وضياع بيت المقدس منهم سنة ١١٨٧ م بل حاولوا مرات عديدة القيام بهجوم على القدس لاسترداده من أهلها المسلمين ، ومن هذه المحاولات أن الصليبيين فى سنة ٦٠٠ هـ — ١٢٠٤ م اجتمعوا فى مدينة عكا (وجاءوا من كل فج ، وعزموا على قصد البيت المقدس واستنقاذه من أيدى المسلمين ، وأخذوا فى الإغارة ، ونهبوا كثيراً من البلاد وسبوا وقتلوا فى المسلمين)(١) .

ولما وصلت الأخبار بهذه الأعمال للسلطان العادل وهو بدمشق ، خرج بعساكره (وكتب إلى سائر البلاد يستدعى النجد ، فجاءته النجد من كل ناحية) ، وسار بقواته حتى وصل إلى الطور بالقرب من طبرية وبينه وبين عكا مسافة يسيرة (ليصدهم ويردهم من البلاد) ،وخرج الصليبيون وعسكروا بمرج عكا وأغاروا على بعض المناطق المجاورة (وأخذوا كل من بها) واستمرت القوات من الطرفين فى حالة تأهب للقتال ، ولكن السلطان العادل لم يشأ الدخول فى حرب مع الصليبيين فى تلك الظروف التى لم يكن يأمن جانب خصومه من أبناء أخيه صلاح الدين ومؤيديهم من ناحية ولخوفه من وصول إمدادات جديدة للصليبيين من الغرب من ناحية أخرى ولهذا تقرر الصلح بين العادل والصليبيين (وانعقدت الهدنة بينهما ، وتفرقت

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٥٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٦٣) ، ابن الأثير : الكامل ج ١ ص (١٩٤) .

العساكر)(١) على أن تكون مدينة يافا لهم وتنازل لهم عن بعض المناطق الأخرى(٢) ومن دلائل ضعف السلطان العادل أن أسطولا للصليبيين خرج سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٤ م وسار نحو البلاد المصرية (فدخلوا إلى النيل من جهة رشيد ، ووصلوا إلى فوه . وأقاموا خمسة أيام ينهبون ويسبون ، وعساكر مصر تقاتلهم ، وليس لهم وصول إليهم ، لأنه لم يكن هناك أسطول)(٣) .

غارة الصليبيين على حماة سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م :

وأما في بلاد الشام فإن الصليبيين طمعوا في حماة وبها الملك المنصور محمد ابن تقي الدين عمر ، وكانوا قد دخلوا معه في معارك كثيرة في العامين السابقين وانتهت تلك الحروب بعقد الهدنة بينه وبينهم ، ففي سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م انتهت مدة الهدنة المعقودة بين الطرفين ، فاجتمع الصليبيون من جديد ويقودهم فرسان الاسبتارية وزحفوا نحو ضيعة على باب حماة تعرف (بالرقيطا) وهي قريبة جداً من الباب الغربي لحماة ، وكان قد خرج من حماة (من العامة خلق عظيم) ، فلما وصل الصليبيون إلى هذا المكان (تفرقوا ، واختنق جماعة في أبواب المدينة ، ورمى خلق أنفسهم في الخنادق ، ثم رجع الفرنج إلى بلادهم بعد أن ملأوا أيديهم بالسبي)(٤) ، فطلب الملك المنصور صاحب حماة النجدة من الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل وهو بدمشق نائباً عن أبيه (فسير إليه عسكراً) وترددت الرسل بين الملك المنصور والصليبيين من أجل عقد الهدنة بينهم فاستقرت (بينهم إلى مدة معلومة)

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٥٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٦٢) ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص (١٠٥) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٩١) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٦٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٦٤) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٩١) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٦١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٦٣) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٩٨) ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص (١٠٦) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٤٣ - ١٤٦ - ١٤٩ - ١٥٤ - ١٦٢ - ١٦٣) ، أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص (١٠٦) .

والجدير بالذكر أن من شروط صحة عقد المهادنة مع العدو الذى يحتل جزءاً من أرض الإسلام أن تكون لأجل معلوم ومحددة البداية والنهاية وأن لا تتضمن شرطاً يأباه الإسلام(١) .

غارة الصليبيين على جبلة واللاذقية سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٥ م :

واضح مما تقدم أن المسلمين كانوا فى ضعف فى هذه المدة ، ولذلك طمع العدو الصليبى فيهم ، ففى شهر ذى القعدة سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٥ م أغارت القوات الصليبية فى طرابلس على جبلة واللاذقية (وكمنوا قطعة وافرة منهم ، وسرحوا جماعة تراءوا لأهل جبلة) فعلم بهم عسكر الملك الظاهر صاحب حلب النازلين بجبله فخرجوا إليهم دون أن يحتاطوا من الكمين الصليبى (فلم يشعروا إلا بكمين الفرنج قد خرج إليهم ، وبذلوا فيهم السيف فقتل من المسلمين جماعة كثيرة وعاد الفرنج . . . إلى طرابلس وقد ملأوا أيديهم بالسبى والغنائم)(٢) والسبب فى هذه الهزيمة كان عدم الحذر من العدو ومع هذا فإن غارات الصليبيين السابقة كانت تهدف إلى الكشف عن قوة المسلمين من ناحية ، والحصول على الغنائم من ناحية ثانية وإشاعة الاضطراب والخوف وعدم الثقة عند المسلمين من جهة ثالثة وذلك تمهيداً لحملة صليبية كبيرة يمكنها استرداد القدس وهزيمة المسلمين .

الإعداد لحملة الصليبية الرابعة :

بدأت فكرة إرسال حملة صليبية إلى الشرق تظهر فى نوفمبر سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م عندما اجتمع عدد من أمراء فرنسا وأهمهم بونيفاس دى مونتفرات وبولدوين ، وتيبالد كونت شمباينا وعقد هؤلاء المحاربون إجتماعات عدة لتنسيق خطة الحملة ، وحضر معهم هذه الاجتماعات فولك أسقف نيلى ، وهو من دعاة الحروب الصليبية ، استطاع أن يثير حماس الحاضرين ، الذين

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٦٣ - ١٦٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٦٤) ، وانظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٨٦ - ١٨٧) ، أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (١٠٦) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٦٦ - ١٦٧) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٦٤) .

الحملة الصليبية الرابعة

وعدوا بالاشتراك فى الحرب الصليبية . كما تقرر إرسال مندوب عن المجتمعين ليعرض المشروع على البابا والخروج بالقرار الصالح السليم(١) .

وكان البابا أنوسنت الثالث قد تولى منصب البابوية سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨م واستمر فى منصبه مدة تسع عشرة سنة (١١٩٨ - ١٢١٦م) والذى جمع بين السياسة والدين . وكان يؤمن إيماناً جازماً بوجوب سيطرة الكنيسة على السياسات الداخلية والخارجية فى البلاد الأوربية ، ووجوب معالجة المشكلات السياسية وفق مخطط تضعه لها الكنيسة ، وكان البابا إنوسنت الثالث كبير الاعتزاز بالبابوية شديد الثقة بها وفى قدرتها على حل جميع المشاكل التى تواجه المسيحيين فى الغرب وكان يعتقد بوجوب طاعة كل القوى للبابا ، ويرى أن السيد المسيح قد أقام حاكماً واحداً يبسط سلطاته على كل شىء ، وهذا الحاكم نائب للسيد المسيح فطاعته فريضة واجبة ، وعلى ذلك فإن البابا يعتبر نائباً عن المسيح ، وبناء على هذه فإن البابا يعتبر نفسه صاحب الحق الأعلى فى تولية الملوك والأباطرة ورسم سياستهم التى يسيرون وفقها وكذلك فإن أمور الحرب ينبغى أن تشرف عليها الكنيسة ، وهى التى ترسم خطتها ، ولهذا فإن البابا إنوسنت الثالث لما عرض عليه الواعظ فولك دى نيللى ما اتفق عليه بارونات فرنسا بشأن إرسال حملة صليبية إلى الشرق ، رضى عن هذه الدعوة وشجعها ، بل أرسل إلى بطرق مملكة بيت المقدس المعروف باسم إيمار ، يطلب منه موافاته بتقرير شامل ومفصل عن أحوال المسلمين وقوتهم فى بلاد الشام ومصر وطلب منه أيضاً وصفاً حقيقياً لأحوال الصليبيين حتى يكون على بينة من أحوال الصليبيين فى الشرق واتخاذ الاستعدادات اللازمة ، وكان لوفاة الامبراطور الألمانى هنرى السادس فى سبتمبر سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٧ م عظيم الأثر فى إحساس البابا بزوال التهديد الخطير الذى كانت تتعرض له البابوية(٢) .

---

(١) روبر كلارى : فتح القسطنطينية ص (١٢) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (١٩٥) . Villehardouin. I. p.p. 2-6 .

(٢) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص (١٢) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (١٩٥ - ١٩٨) .

أهداف الحملة الصليبية الرابعة :

أما الظروف العامة التى دعت إلى قيام هذه الحملة فهى الرغبة القوية عند الأوربيين فى محو العار الذى لحق بهم على يد السلطان صلاح الدين فى الحرب الصليبية الثالثة، واسترداد بيت المقدس من أيدى المسلمين أضف إلى ذلك ما ترامى إلى سمع الأوروبيين إذ ذاك من التنازع والاختلاف بين أبناء صلاح الدين حول تقسيم الدولة الأيوبية فيما بينهم ، وكانت البابوية قد بذلت كل ما تستطيع من أجل القضاء على انتصارات صلاح الدين ، وحشدت كل إمكانياتها وحاولت أن توجه الصليبيين إلى مصر لاحتلالها باعتبارها أكبر عدو للصليبيين وإيماناً منها بأنه لن يكون فى استطاعة الصليبيين استرداد الأراضى المقدسة فى فلسطين إلا بعد الاستيلاء على مصر أولا ، والحملة الصليبية الرابعة التى تزعم الدعوة لها البابا إنوسنت الثالث كانت تهدف لتحقيق هذا الغرض ، ومما اتخذه فى هذا الشأن أن أصدر مرسوماً يحرم على التجار الأوربيين التعامل التجارى مع المسلمين ، وتحريم تزويدهم بكل ما يعينهم على قتال اللاتين الصليبيين وخصوصاً مواد الحديد والأخشاب وما يستعان به فى الحرب(١) .

قيام الحملة الصليبية الرابعة ونتائجها :

بدأت الاستعدادات للحملة واستهلها البابا بإجراء المفاوضات مع الامبراطور البيزنطى الكسيوس الثالث من أجل توحيد الكنيستين الشرقية مع الغربية ، كما تحرك فولك دى نيللى ومعه جماعة أخرى من المتحمسين للحرب الصليبية الذين انتشروا فى أرجاء ومناطق فرنسا للدعوة للحرب ودفع الناس لحمل السلاح لاستخلاص بيت المقدس من يد المسلمين والقضاء على مصر(٢) .

---

(١) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص (٦) ، د . فايد عاشور العلاقات بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامى فى العصر الأيوبى ص (١٥٦) .

(٢) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص (٦) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (١٩٩) .

وأقبل الناس على التجنيد ، وشارك فيه معظم أتباع البارونات الذين وعدوا بالاشتراك في الحرب الصليبية ، وقبل جميع البارونات بالكونت تيبالد كونت شمبانيا قائداً للحركة الصليبية ومعه عدد كبير من الأمراء ، ولم يلبث أن احتذى بهم أعيان شمال إيطاليا يتزعمهم ماركيز مونتفرات ، كما شارك من ألمانيا جموع كبيرة ولم يتيسر تنظيم الحملة بسرعة وذلك لأسباب منها عدم توفر الأسطول البحرى الذى ينقل الحملة من الغرب إلى الشرق ، لأن الطريق البرى غير مأمون المسالك ، والسبب الثانى كان يكمن فى اختيار مصر هدفاً للحملة باعتبارها مركزاً رئيسياً لقوة الإسلام والمسلمين ومنها تخرج القوات والإمدادات لقتال الصليبيين ، وانقضت سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠٠ م فى مفاوضات مختلفة بين القادة والبابا إنوسينت الثالث الذى حاول أن يسيطر عليها ، ثم توفى تيبالد كونت شامبانيا فجأة فى مارس سنة ١٢٠١ م ، فاختار الأمراء بونيفاس مونتفيرات قائداً للحملة الرابعة(١) .

واتفق قادة الحملة فيما بينهم على إرسال بعثة نيابة عنهم للاتفاق مع دولة البندقية . من أجل تقديم أسطولها البحرى لنقل القوات الصليبية إلى الشرق وقال روبرت كلارى : (وكلفوا الرسل باستئجار مراكب لنقل أربعة آلاف فارس ومعداتهم وكذلك مائة ألف راجل فاستعد الرسل بآلاتهم وسافروا فى الحال حتى بلغوا جنوه ، وأخذوا فى مفاوضة الجنوية . وأفضوا إليهم بما جاءوا من أجله ، فأجابهم الجنويون بعدم استطاعتهم مطلقاً مد يد المساعدة إليهم فيما وفدوا بصدده ، وإذ ذاك مضى الرسل إلى بيزا وحادثوا البيازنة فاعتذروا إليهم بقلة ما لديهم من السفن وأنبأوهم أنهم لا يستطيعون عمل شيء لهم ، وحينذاك شخص الرسل إلى البندقية وكلموا دوجها (الدوق حاكم البندقية) وأخبروه عما جاءوا من أجله وأنهم يريدون استئجار وسيلة نقل لأربعة آلاف فارس بمعداتهم ومائة ألف من المشاة ، فلما سمع الدوج هذا القول قال : إنه سيفكر فى هذا الأمر ، لأن مثل هذا المطلب الكبير يتطلب التفكير العميق)(٢) واجتمع دوق البندقية مع كبار مستشارى دولته

---

(١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (١٩٨ - ٢٠١) ، روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص (٣٣ - ٣٧) .

(٢) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص (٤٠) .

وتكلم إليهم فى طلب الصليبيين ، فلما تدبر هو ورجاله الأمر فيما بينهم ، قال للسفراء: (أيها السادة ، نحن مستعدون لإجابة ماطلبتموه وسنهيء لكم بحرية (أسطول) كبيرة جداً إن قبلتم دفع مائة ألف مارك لنا على أن يكون مفهوماً لديكم أنني سوف أمضى معكم بصحبة نصف القادرين على حمل السلاح من أهل البندقية ،وأن يكون من نصيبنا النصف فى جميع الغنائم التى تقع فى أيدينا هناك ، وسنضيف إلى هذا الأسطول خمسين غراباً (نوع من سفن الأسطول) نقوم نحن البنادقة بنفقاتها وسننقلكم فى مدى عام من اليوم الذى تحدده إلى أي بلد شئتم،سواء أكان هذا البلد القاهرة أم الإسكندرية)(١) ولكن السفراء الأوروبيين رأوا أن المبلغ المطلوب ضخم جداً ، وتفاوضوا مع البنادقة من أجل تخفيفه ، فجعلوه سبعة وثمانين ألف مارك ، ثم أقسم دوق البندقية والرسل الأوروبيين على مراعاة هذه الاتفاقية التى تمت عام ٥٩٨ هـ / ١٢٠١(٢) م.

وبعد توقيع الاتفاقية مع البندقية ، شرع الصليبيون فى الذهاب إلى البندقية والتجمع بها ، حتى تنقلهم سفن الأسطول البندقى إلى جهة الحملة ، فلما اكتمل شملهم وطلبوا من البندقية الرحيل فى الأسطول ، طلب دوق البندقية من الصليبيين دفع الأموال المطلوبة أولا ، فدفعوا للبنادقة ما جمعوه من المال ولكن تبين أنهم لا زالوا مدينين للبنادقة بخمسين ألف مارك لابد

---

(١) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص (٤٠ - ٤٢) .

(٢) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص (٤١) ، انظر :

Bury, : The cambridge Medieval History, P. 415 Ville - hardouin, Le Couqueté de constinople, part 1 pp. 18 - 34, . Weil Navy of Venice, pp. 127 - 129; okey‘ Venice aud its story, pp. 57 - 58; oliphant; The Makers of Venicé pp. 74 - 77; Hodgson, The Early History of venice, pp. 354 - 355; Daru, Histoire venice, part, 1, pp. 115 - 116; Craw frod; Cleaning from Venetian History, vol, 1 pp 126 - 129 Brehier : L' Eglise ét L orient, p. 151; Cro-wsset, Histoire des Cróisades, Vol, 111; p. 171; Tout, The Emp ire and the papacy, p. 343; settón, A. History of crosieades, vol, 11 pd. 159 - 167; Aeiry Hort; History of latin christionity, vol, 3 pp. 132-,135.

من سدادها قبل تحرك الأسطول ومن هنا بدأت مشكلة جديدة بين الطرفين وهى دفع باقى أجرة الأسطول البندقى ، وبعد أن كان هدف الحملة الصليبية الرابعة الاستيلاء على مصر ، فإن ظروفاً جديدة أدت إلى تغيير مسار الحملة ، وبدأ التفكير فى إخضاع مدينة زارا المسيحية الواقعة على الساحل الدلماشى واسترادادها من ملك هنغاريا ثم تسليمها للبنادقة وذلك فى مقابل نقل الصليبيين إلى مصر(١) .

فوافق الصليبيون على خطة دوق البندقية ، وكانت للبندقية مصلحة فى الدرجة الأولى فيما اتخذ من خطوات فى تلك الحملة ، وكانت تريد الاستيلاء على زارا من ناحية ثم الهجوم على الدولة البيزنطية والاستيلاء على القسطنطينية من ناحية أخرى وتأسيس امبراطورية بها ، لأن البندقية كانت تريد الانتقام من البيزنطيين للمهانة التى تعرضت لها من الامبراطور البيزنطى ، وكذلك تعويضاً عن خسائرها المادية نتيجة لتوسع الامبراطورية البيزنطية فى إعطاء الامتيازات للتجار البيازنة والجنوية فى القسطنطينية فى حين قبض على التجار البنادقة وصودرت أموالهم وألحقوا الضرر بهم ، كما أن الاستيلاء على عاصمة بيزنطة سوف يمكن البندقية من السيطرة على البسفور ، ولم يكن البنادقة يرغبون فى مهاجمة مصر (وكانت الرغبة فى إبعاد الحرب عن مصر تسيطر على عقول البنادقة فتلكأوا وبدأوا يتفاوضون مع اليكسيوس مع أنهم يعلمون أنهم بذلك يجرون على أنفسهم لعنات حرمان بابوى يصدر ضدهم)(٢)

وبالرغم من أن الأهداف الظاهرة تكفى لتبرير تحول الحملة الصليبية الرابعة إلى الهجوم على مدينة زارا ثم إلى القسطنطينية ، إلا أن هناك روايات تاريخية تقول : إن السلطان الأيوبى الملك العادل أرسل سفارة مصرية إلى البندقية عندما علم بتحركات الصليبيين وشروعهم فى الاستعداد من أجل

---

(١) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص (٤٦) ، د. فايد عاشور العلاقة بين البندقية الشرق الأدنى الإسلامى فى العصر الأيوبى ص (١٧٨) .

Vasilieve, History of the Bysantine Fmpire, vol 2; p. 454.

(٢) أومان : الامبراطورية البيزنطية ص (٢١٧ - ٢١٨) ، ثم انظر روبرت كلارى: فتح القسطنطينية ص (٤٦ - ٤٧) .

غزو مصر ، وحمل السلطان العادل السفارة الإسلامية الهدايا الثمينة وألف مارك ذهبي هدية للدوق هنرى داندولو حاكم البندقية ، ووصلت هذه السفارة إلى البندقية فى الوقت الذى اجتمع فيه الصليبيون فى البندقية استعداداً للرحيل إلى الشرق ، وتعهد سفراء السلطان العادل الأيوبى لحاكم البندقية بتقديم الامتيازات التجارية فى الإسكندرية للتجار البنادقة ، وذلك مقابل أن يقوم حاكم البندقية بما له من نفوذ قوى بتحويل الحملة الصليبية الرابعة عن مصر إلى جهة أخرى ، ومما يرجح هذا الرأى ، أن البنادقة قد استقبلوا فى مصر أحسن استقبال ، فقد منحهم السلطان العادل عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م امتيازات سخية كانت تجدد باستمرار فى خلال القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) . وكان للبندقية فى الإسكندرية جالية كبيرة ، يدير شئونها قنصل باسم الجمهورية البندقية ، وذكر أيضاً أنه فى اللحظة التى كانت فيها البندقية تساوم الصليبيين حول نقلهم إلى الشرق ، كان سفراء من البندقية قد وصلوا القاهرة ، وأبرموا اتفاقاً تجارياً مع نائب السلطان العادل(١) .

وهناك رأى آخر يقول : إن الاتفاق التجارى قد وقع بين الطرفين فى ١٨ / ٨ / ٥٩٨ هـ / ١٣ / ٥ / ١٢٠٢ م قبل تحرك الصليبيين (منحهم العادل بموجبة الفنادق فى الإسكندرية فضلا عن العديد من الامتيازات التجارية) فى حين أن حاكم البندقية تعهد للمبعوثين الأيوبيين بأن البندقية لن تساعد أى حملة صليبية موجهة إلى مصر .

وثمة رأى يقول : إن الاتفاق قد تم فيما بعد فى عهد الدوق بطرس زيانى peter ziani عام (١٢٠٥ هـ / ١٢٢٩ م (ولكن يبدو أن الاتفاق تم

---

(١) شارل ديل : البندقية جمهورية استقراطية ص (٥٩) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٠٥ – ٢٠٦) ، ثم انظر :

Heyd, Histiore du commerce, vol, 1, pp. 400 – 401; Hodgson, The Early History of Venice, pp. 430 – 431;

Pirenne, Mediaval cities, p. 79;

Diehl, Bysautine Empire, p. 148.

Duggan, The story of the crusades, p, 205.

فى عام ٥٩٨ هـ / ١٢٠٢ م قبل الهجوم على مدينة زارا والقسطنطينية ولا مانع من أن يكون الاتفاق قد جدد فى عهد الدوق زيانى فيما بعد ، وذلك بهدف استمرار العلاقات الحسنة بين البلدين طيلة عهد الملك العادل الأيوبى(١) . ومهما كانت الآراء ، فإننا نرى أن الملك العادل قد أرسل سفارة إلى البندقية أيام الحملة الصليبية الرابعة ، وقدم الإغراءات للبندقية بتحويل الحملة إلى وجهة أخرى غير مصر ، فإذا نظرنا إلى النتائج التى ترتبت على الحملة وجدنا ما يدعم هذا الرأى ، وخاصة ازدياد امتيازات البنادقة فى مصر مع تحويل وجهة الحملة إلى القسطنطينية بالفعل وعدم مواصلة سيرها إلى مصر ، هذا من ناحية ، كما أنه استطاع بسياسته الحكيمة أن يوقع الخلاف بين صفوف الصليبيين ويفرق بينهم وأن يقضى على بيزنطة ولو بعض الوقت والتى كانت تشكل مركز خطورة كثيراً ما هدد العالم الإسلامى ، أضف إلى ذلك حدوث سوء تفاهم وانشقاق بين البنادقة من ناحية والبابوية من ناحية أخرى لدرجة أن البابا إنوسنت الثالث أصدر قرار الحرمان ضد البنادقة والصليبيين الذين هاجموا مدينة زارا المسيحية والدولة البيزنطية ، بل أن البنادقة عقدوا مع العادل اتفاقات منحتهم تسهيلات تجارية وتعهد البنادقة من جانبهم بعدم تقديم المساعدة للصليبيين إذا ما حاولوا غزو مصر(٢) .

وأوضح (شارل أومان) مدى اهتمام البنادقة بمصر وعلاقاتهم مع السلطان العادل الأيوبى (إذ أنهم كانوا على علاقات طيبة جداً مع سلطان مصر ، وكان هذا السلطان قد منحهم امتيازات تجارية قيمة فى الإسكندرية بجعلت جميع التجارة مع ممالك الهند البعيدة فى أيديهم ، ولذلك كانوا قد

---

(١) د . فايد عاشور : العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامى فى العصر الأيوبى ص (١٨٠) .

(٢) الشهابى : الغرر الحسان ورقة (٣٩٤) ، راجع أيضاً : شارل ديل البندقية جمهورية ارستقراطية ص (٥٩) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٠٦) ، روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص (٤٨ - ٤٩) .

Heyed, Histoire du commerce, vol, 1, pp, 401-404;

Hodgson, The Early History of venice, pp, 420-430;

عزموا على إبعاد الضربة عن مصر وتحويلها ضد عدو آخر من العالم — المسيحى (١)) .

هذا بالرغم من أن هدف الصليبيين الأول هذه المرة كان مصر (وكانوا قد ساروا إلى المينا الإيطالى الكبير بقصد توجيه ضربة ضد الملك العادل سلطان مصر ، وكان البنادقة قد تعاقدوا على مدهم بالسفن اللازمة لنقل القوات الصليبية ولكنهم لأسباب خاصة بهم عزموا على توجيه الهجوم إلى غير الشاطىء الذى كان مقرراً أن يوجه إليه)(٢) .

وخلاصة القول : إن الصليبيين أخذوا مدينة زارا المسيحية ، وغضب البابا إنوسنت الثالث ، فأصدر قرار الحرمان عليهم ، فأحدث هذا القرار موجة سخط وغضب فى صفوف الصليبيين . واختلفوا وتشاجروا ثم اتفقوا على أن يرسلوا إلى روما من يلتمس صدور قرار الغفران ، فانفذوا أحد الأساقفة وأحد كبار الأمراء الصليبيين (فحصل هذا الرجلان من البابا الرسولى على خطاب يتضمن العفو عن جميع الحجاج وأبقى الحرمان ضد البنادقة وذلك بعد أن أوضحا للبابا أنهم أجبروا على الهجوم على مدينة زارا حتى يسددوا ديون البندقية ثم يبحرون من هناك إلى مصر ، ولكن بعد ذلك لم يتمكنوا من مواصلة مسيرهم نحو مصر (فقد تقريباً كل ما عندهم من جراء طول تأخرهم وبسبب ما دفعوه من ثمن غال لاستئجار الأسطول ، ومن ثم قالوا : إنهم لا يستطيعون الذهاب ولو ذهبوا فلن يكونوا قادرين على عمل شىء لانعدام المال معهم وعدم توفر ذخيرة يعيشون عليها)(٣) .

---

(١) أومان : الامبراطورية البيزنطية ص (١٧) ، وانظر أيضاً :

Bury: Cambridge Medieval History, pp. 415-416;

Heyd, Hietoire du commerce, vol, I. II, pp. 420-430;

(٢) د. فايد عاشور : العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامى فى العصر الأيوبى ص (١٨٤) ، أومان : الامبراطورية البيزنطية ص (٢١٧ — ٢١٨) ،

Duggan; The story of the crusades, p. 205.

Vasiliev, Histoire de I, Empire Buzantine, vol, 2, p. 458;

Runciman; A History of crusades; vol III; pp. 114-115.

(٣) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص (٤٩ — ٥٠) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٠٩) ، وراجع أيضاً : =

فاستغل دوق البندقية هذا الموقف ، وعرض على الصليبيين خطه ترمى إلى الهجوم على القسطنطينيه وخاطبهم قائلا : (والخطه عندى أن نلتمس ذريعه معقوله تبرر ذهابنا إلى هناك لنتزود مما بها من المئونة وسواها لإصلاح أمورنا ، وإذ ذاك نكون قادرين كل القدرة على متابعة السفر إلى ما وراء البحر) ، وعندئذ نهض الماركيز زعيم الصليبيين قائلا : أيها السـادة : لقد كنت فى عيد الميلاد المنصرم بألمانيا فى بلاد مولاى الامبراطور ، ورأيت هناك شاباً هو أخو زوجة امبراطور ألمانيا ، وهذا الشاب هو (الكسيوس بن إسحاق) امبراطور القسطنطينية الذى انتزع أخوه منه امبراطورية القسطنطينية غدراً وخيانة ، فمن استطاع الاستحواذ على هذا الشاب تمكن جيداً من الذهاب إلى القسطنطينية والحصول على الذخائر وغيرها لأنه هو الوريث الشرعى)(١) وكان قد حدث انقلاب فى القسطنطينية وكان هذا الطفل هو الوريث الشرعى وأحق من عمه الكسيوس الذى اغتصب العرش الأمبراطورى من والده(٢) .

ولهذا حاول قادة الحملة الرابعة الحصول على الوريث الشرعى للعرش البيزنطى حتى يجعلوه سبباً مباشراً فى الهجوم على القسطنطينية ، وأنهم إنما يعملون من أجل إعادته إلى بلاده ، فأرسلوا فى طلبه من ألمانيا ، ولما وقف ما عرضوا عليه (سر سروراً شديداً) وأبدى تأييده التام لفكرة ذهابه إلى الصليبيين ، مبيناً له (لزوج أخته الامبراطور) أنه لن يستطيع أبداً استرداد شيء من إرثه إلا بمعونة الرب ومساعدة الصليبيين)(٣) .

ولذلك عرض على الصليبيين إذا ساروا معه إلى القسطنطينية وأعادوه إلى

= Villehardouin, part, I pp. 58-68; Daru, Histoire de Venice, part, I, pp. 117-118; Wiel, Navy of Venice; pp. 133-136; Okey. Venice and its story, pp. 61-62; Hodgson. the Early History of Venice. pp. 360-362. Brown. Venetian Republic. pp. 52-53.

Balseni. Italy. pp. 297-298 .

(١) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص (٥٠ – ٥١) .

(٢) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص (٦٤ – ٦٥) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٠٩ – ٢١٠) .

(٣) روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص (٦٥ – ٦٦) .

عرشه فإنه سيدفع للصليبيين ما زالوا يدينون به من أموال للبنادقة . وأن يمدهم بما يلزم لفتح مصر من المال والمؤونة ، وسوف يضيف إليهم فرقة من الجيش البيزنطى مؤلفة من عشرة آلاف رجل ، وأنه سوف يتولى الإنفاق على خمسمائة فارس ، يقيمون بالأرض المقدسة فى فلسطين ، كما تعهد بخضوع كنيسة القسطنطينية لكنيسة روما ، فلما سمع هنرى داندولو دوق البندقية بتلك العروض (أعرب عن فرحة وارتياحه) إذ ليس لذلك معنى سوى أن البندقية سوف تحصل على أموالها ، وستحصل على مزيد من المكاسب فى التجارة فى أنحاء الامبراطورية البيزنطية ، وتأجيل الهجوم على مصر ، أما الصليبيون فقد وافق بعضهم على الاقتراح فى حين عارضه البعض الآخر الذين رأوا فى ذلك انحرافاً عن هدف الحملة الرئيسى وهو احتلال مصر وقتال المسلمين ، فتخلى المعارضون عن الحملة ، وأبحروا إلى بلاد الشام ، وبقيت فئة أخرى من الجيش الصليبى أعلنت احتجاجها ، بينما دفع الرشاوى لفريق آخر فقبل الأمر الواقع ، كما تم إقناع الصليبيين بأن بيزنطة ظلت باستمرار خائنة للعالم المسيحى طوال الحروب الصليبية ، ورأى بعض القادة والأمراء بالجيش أن فى ذلك توحيد للمسيحيين وإعادة البيزنطيين إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، كما وافق البعض من أجل الحصول على المغانم والثروة ، وأما البابا فإنه طمع فى توحيد الكنيستين الشرقية والغربية وتقوية الصليبيين من أجل حرب المسلمين ولذلك اكتفى بأن أصدر أمراً ، بأنه ينبغى ألا يجرى الاعتداء على مسيحيين آخرين ، إلا إذا كانوا فعلا يعوقون الحرب ضد المسلمين ، فاجتمعت الآراء على مساعدة الشاب البيزنطى وإعادته إلى عرشه فى القسطنطينية(١) وتحركت القوات الصليبية والأسطول البندقى إلى

---

(١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٠٩ - ٢١) ، روبرت كلارى : فتح القسطنطينية ص (٦٧ - ٧٠) ، وانظر :

Wiel Venice pp. 131-132, 135-137; Hodgson, The Early History of venice, pp. 349; Pirenne, Histoire Economique pp. 185 - 186; Tout, The Empire and the papacy, pp. 343-346; Henry hort vol, 3;p. 142; Setton, Vol; II p. 381; Oliphant; The Makers of venice, p. 82.

القسطنطينية ، فوصلوها فى يونية سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م ، فلما سمع بهم الامبراطور الكسيوس الثالث المتربع على العرش هرب إلى تراقيا ، وأخرج الامبراطور المخلوع إسحاق من السجن ونصبوه على العرش ثم اتفق الصليبيون على أن يكون الشاب الصغير شريكاً لوالده فتوجوه امبراطوراً مشاركاً لأبيه وعرف باسم الكسيوس الرابع وبدأ الصليبيون يطالبون الكسيوس الرابع بالوفاء بتعهداته لهم ، فدفع لهم أموالا كثيرة ، وزادوا فى الطلب وزاد فى فرض الضرائب على سكان القسطنطينية فغضب أهل المدينة وأدرك الصليبيون إنه ليس بوسع الحكومة البيزنطية الوفاء بما تعهد به الكسيوس الرابع من وعود ، وظهر عجز الامبراطور الكسيوس واشتد غضب شعبه على الصليبيين ، وانتهى هذا الصراع بوقوع ثورة فى القصر الامبراطورى سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م وقبض على الامبراطور وسجن بينما توفى والده إسحق كمداً وحزناً ، وتولى العرش الامبراطور الكسيوس الخامس . فرأى البنادقة وقادة الحملة الصليبية ضرورة احتلال القسطنطينية من جديد وتعيين امبراطور من الصليبيين فهاجموا العاصمة واحتلوها ، وتوج بلدوين كونت فلاندر إمبراطوراً سنة ١٢٠٤ م ، فى حين كان بطريك المدينة من البنادقة الذين حصلوا على ثلاث أثمان الغنائم وللصليبيين مثلهم بينما صار الربع من نصيب الامبراطور الجديد ، وبهذا قامت الامبراطورية اللاتينية عام ١٢٠٤ — ١٢٦١ هـ م بدلا من الامبراطورية البيزنطية وبهذا انتهت الحملة الصليبية الرابعة (١) .

هجوم السلطان العادل على الصليبيين سنة ٦٠٣ / ٦٠٤ هـ :

لم تتوقف الأعمال العسكرية بين المسلمين والصليبيين فى مطلع القرن السادس الهجرى (الثالث عشر الميلادى) ، وكان لوصول بعض الصليبيين

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٦ ورقة (١٤٥) ، سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص (١٥٨ — ١٥٩) ، الشهابى : الغرر الحسان ورقة (٣٩٤)، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١١٠ — ١١١) ، ابن الساعى الجامع المختصر ج ٩ ص (١٢٣ — ١٢٤) ، ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص (٣٢٨) ، ابن العماد ، شذرات الذهب ج ٥ ص (١٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٦٣) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢١٣ — ٢١٩) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (١٩٠ — ١٩١) ، ثم انظر : =

من الغرب إلى الشرق فى هذه الآونة ما سبب وقوع مثل هذه الاشتباكات على الرغم من وجود الهدنة بين المسلمين والصليبيين ، وكان السلطان العادل يراقب العدو باستمرار. ووصلته الأخبار بأن الصليبيين سنة ٦٠٣هـ / ١٢٠٧م شنوا غاراتهم على بلاد المسلمين ، وكان فرسان الاسبتارية فى حصن الأكراد يريدون الاستيلاء على مدينة حمص ، وتكررت محاولاتهم للاستيلاء عليها فى الفترة من ١٢٠٦ / ١٢٠٨ م لدرجة أنهم وصلوا فى بعض الأحيان إلى أسوار حمص ذاتها وذكر ابن الأثير ذلك فى حوادث سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م بقوله (وفى هذه السنة كثر الفرنج بطرابلس وحصن الأكراد . وأكثروا الإغارة على بلد حمص وولاياتها ، ونازلوا مدينة حمص ، وكان جمعهم كثيراً ، فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بهم قوة ولا يقدر على دفعهم ومنعهم فاستنجد بالظاهر غازى ، صاحب حلب ، وغيره من ملوك الشام ، فلم ينجده إلا الظاهر ، فإنه سير له عسكراً أقاموا عنده ، ومنعوا الفرنج عن ولايته)(١) وحدث أن هاجم أهل قبرص سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م أسطولا للمسلمين وأخذوا (عدة قطع من أسطول مصر ، وأسروا من فيها) فأرسل السلطان العادل إلى الوصى على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية حنا دى أبلين يذكره بالهدنة بين الطرفين ويطلب منه التدخل مع أهل قبرص ورد ما أخذوا من أسطول المسلمين ويقول له : (نحن صلح ، فلم غدرتم بأصحابنا ؟ ولكن الوصى على عرش المملكة الصليبية أجاب العادل (بأن أهل قبرص ليس لى عليهم حكم ، وأن مرجعهم إلى الفرنج الذين بالقسطنطينية)(٢) .

وأوضح فى رده أيضاً أن الصليبيين فى بلاد الشام لا حكم لهم على قبرص وخصوصاً بعد وفاة الملك عمورى الثانى لزوجنان سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م

= Villehardouin, part.II, pp. 6-23, 59 - 60; Daru, Histoire de venice, part I. pp. 122-154; Oliphant, The Makers of venice; pp. 83-86.

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٧٣) ، انظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٩٦) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٧٤) .

وانفصال مملكة بيت المقدس الصليبية فى الشام عن قبرص . ولهذا رأى العادل ضرورة التحرك وإرهاب العدو وإجباره على إطلاق أسرى المسلمين وكما قال ابن واصل (ولما تواترت الأخبار إلى السلطان الملك العادل بتطرق الفرنج بلاد المسلمين ، وإغارة أهل حصن الأكراد وطرابلس على بلاد حمص خرج مبرزاً إلى العباسة ، وأغذ (أسرع) السير إلى الشام ، ونازل فى طريقه عكا ، فصالحه أهلها على إطلاق جميع من فى أيديهم من أسرى المسلمين)(١) .

وأشار ابن الأثير إلى أن حنادى أبلين فى عكا بقى يماطل العادل فى رد الأسرى المسلمين (وأعاد العادل مراسلته فلم ينفصل حال فخرج بالعساكر وفعل ما ذكرنا ، فأجابه حينئذ صاحبها إلى ما طلب وأطلق الأسرى)(٢) وبعد أن أظهر الصليبيون فى عكا ضعفهم وأطلقوا أسرى المسلمين . رحل السلطان بقواته ووصل إلى دمشق (فلما وصل إليها أقام فيها أياماً) وكان أهل دمشق قد أزعجتهم غارات الصليبيين على بلاد المسلمين من حولهم ، فاجتمع منهم خلق كثير فى المساجد ، وطالبوا السلطان بمواصلة الجهاد وذكر أن امرأة مسلمة قطعت شعرها وبعثت به إلى السلطان العادل وقالت (اجعله قيداً لفرسك فى سبيل الله) فعقد العادل العزم وخرج من دمشق (على نية الجهاد)(٣) ثم وصل الملك العادل إلى حمص ، فنزل على بحيرة قدس قرب حمص واستدعى الملوك من أهل بيته والعساكر ، فجاءوه من كل ناحية (ومنهم الملك المنصور صاحب حماه ، والملك المجاهد صاحب حمص ، والملك الأمجد صاحب بعلبك ، وولداه الملك المعظم والملك الأشرف ونجدة ابن أخيه الملك الظاهر وعسكر سنجار والموصل والجزيرة وآمد (٤) (فاجتمع عنده

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٧٢) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٩٦) ؛ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٦٦) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٧٤) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٩٦) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٧٣) ، ثم انظر أبو شامة : الذيل على الروضتين ص (٦٩ - ٧٠) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٧٢ - ١٧٣) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (١٩٦) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٧٣) .

نحو عشرة آلاف فارس)(١) . وعسكروا معه على البحيرة (وأشاع قصد طرابلس) ثم هاجم حصن الأكراد فى شوال سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٧ م (وقاتل أهله أشد قتال) وفتح برجاً قريباً منه اسمه أعناز (وأخذ منه خمسمائة رجل وأموالا وسلاحاً كثيراً) ثم توجه بقواته إلى قلعة قريبة من طرابلس ونصب عليها المجانيق) ولم يزل مصابراً لها إلى أن افتتحها ، وحصل على جميع ما كان فيها)(٢) ثم هاجم طرابلس ونصب عليها المجانيق (وضيق على أهلها أشد تضييق) وأراد السلطان إلحاق الضرر بالصليبيين فترك العساكر الإسلامية يخربون بلاد طرابلس وبساتينها وقطعوا جميع ما عليها من الشجر (وهدموا كل حائط على ظاهرها وقطعوا العين الواصلة إليها ، وخربوا طرقها) وكان العادل يريد قطع الإمدادات عن طرابلس ومنع الماء عنهم ليدفعهم للاستسلام والخضوع ، ولم يزل الأمر كذلك إلى أيام من ذى الحجة سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٧ م (فأنس الملك العادل من أصحابه فشلا وضجراً) فاضطر إلى تغيير خطته وتراجع بقواته إلى بحيرة قدس قرب حمص(٣) وعلى الرغم من أن هجوم العادل على بلاد طرابلس الصليبية لم يزد عن اثنى عشر يوماً ، إلا أنه أرهب العدو ودفع بصاحب طرابلس (بوهيموند الرابع إلى طلب الصلح) وبعث له مالا وهدايا ، وثلاثمائة أسير (فأجابه الملك العادل بعد أن أظهر الخضوع) فصالحه فى آخر ذى الحجة (من سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م(٤) .

وأعقب ذلك أن أرسل العادل إلى الخليفة العباسى سنة ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧م يطلب التشريف والتقليد على مصر والشام والبلاد الجزرية ، وخلاط فاستجاب

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٧٣) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٦٦) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٧٣) ، المقريزى : السلوك ج ٢ ص (١٦٦) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٠٨) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٧٣) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٧٣ - ٢٧٤) .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٧٣) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص ٢٧٤ ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٦٦) ، أبوج الفداء : المختصر ٣ ص (١٠٨) .

(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٧٣)، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٦٦) .

الخليفة الناصر لدين الله العباسى لرغبة السلطان العادل وقلده حكم البلاد التى ذكرها وأصبح بذلك مفوضاً من الخليفة فى حكم البلاد ، ولبس شعار العباسيين ، وخوطب العادل (بشاهان شاه ، ملك الملوك خليل أمير المؤمنين)(١) أما فى الجانب الصليبى فقد تطورت الظروف فى مملكة بين المقدس والتى عاصمتها عكا ، إذ بلغت مارى الوريثة الشرعية للمملكة سن الرشد . فبحث الصليبيون لها عن زوج ، وانتهى هذا الأمر بزواجها من حنادى برين الذى كان فى الستين من عمره بعد أن رشحه ملك فرنسا لهذا الزواج . وبعد زواجه من مارى توج ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م وعلى الرغم من أن العادل كان يميل إلى المهادنة مع الصليبيين فى هذه الفترة إلا أن بعض الطوائف من الصليبيين من أمثال فرسان الداوية ، كانوا يقومون بأعمال عدوانية على بلاد المسلمين وقوى عزمهم على ذلك وصول أعداداً كبيرة من الصليبيين من الغرب إلى عكا سنة ٦٠٧هـ / ١٢٠١ م وقال المقريزى (وفيها تحرك الفرنج إلى الساحل ، واجتمعوا فى عكا)(٢) ولهذا خرج الملك العادل من دمشق ، وترددت بينهم الرسل من أجل عقد الهدنة ، فعقدت بينهما لمدة معلومة(٣) . ولكن العادل أمر بعمارة قلعة الطور بالقرب من عكا (وأحضر الصناع من كل بلد ، واستعمل جميع أمراء العسكر فى البناء ونقل الحجارة ، فكان فى البناء خمسمائة بناء ، سوى الفعلة والنحاتين ، وما زال مقيماً حتى كملت)(٤) . وكان اهتمام العادل بهذه القلعة يعكس خطته فى مواجهة الصليبيين ، وتصميمه على مواصلة الجهاد ، وأحس العدو الصليبى بذلك وعقد الهدنة مع السلطان لمدة ست سنوات من ١٢١١ — ١٢١٧ م .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (١٨٠ – ١٨٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٦٧) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٧١) ، وانظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٠١) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٠١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٧١) .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٧١ ، ١٧٦) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢١٥ – ٢١٦) .

استغلها العدو فى الإعداد العسكرى وجمع القوات لقتال المسلمين ، وكان ملك بيت المقدس الجديد حنا دى برين أرسل إلى البابوية فى روما يطالب إعداد حملة صليبية تصل إلى الشرق قبل انتهاء مدة الهدنة المعقودة مع السلطان العادل الأيوبى .

تجدد الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤ م :

كان من أثر الهدنة مع الصليبيين إن هدأت الاشتباكات بعض الوقت ، ولكن بعض رجال الباطنية (الإسماعيلية) قتلوا سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م فى كنيسة أنطرطوس ريموند بن بوهيموند الرابع صاحب أنطاكية وطرابلس (وكان عمره ثمانى عشرة سنة ، فحزن عليه أبوه حزناً شديداً وأعظمت الفرنج ذلك وخافوا واحترزوا لأنفسهم)(١) وقرروا الانتقام من الإسماعيلية والمسلمين ، فاجتمعوا سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤ م من جزيرة قبرص وطرابلس وعكا وأنطاكية وانضم إليهم عسكر الأرمن ونزلوا ببقعة حصن الأكراد ، فخافهم الملك المنصور صاحب حماة ، والملك المجاهد صاحب حمص ، وأرسل الملك المنصور إلى الملك الظاهر صاحب حلب يخبره بذلك ، فأرسل الملك الظاهر إلى الصليبيين يطلب منهم عدم التعرض للملك المنصور صاحب حماة (فلما وصلت رسالته إليهم أجابوا إليه ، ورضوا من الملك المنصور بسبى حمله إليهم واصطلحوا معه)(٢) ولكن الصليبيين تحولوا إلى جهة الباطنية ونازلوا قلعة الخوابى (وحاصروها حصاراً شديداً ، وكانوا حانقين عليهم بسبب قتلهم ابن الابرنس صاحب أنطاكية) ولكن الملك الظاهر صاحب حلب خرج إليهم بقواته ليدفع الصليبيين عن قلعة الخوابى ، فلما علموا به ، رحلوا عن الخوابى (فتنفس خناق من كان فيه) وبعث الملك الظاهر نجدة للقلعة ومؤن (وبعث إلى الفرنج أنه لا يمكنهم من الإسماعيلية فرحلوا إلى أنطاكية)(٣) .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢١٩) .
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٢١) .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٢٥) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٧٩) .

تحالف الغرب الأوروبى على قتال المسلمين سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م :

كانت نهاية الحملة الصليبية الرابعة سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م وسقوط الدولة البيزانطية المسيحية فى أيدى المسيحيين الغربيين من الأسباب التى أثارت غضب الكثيرين فى الغرب ، وكانوا يريدون استرداد بيت المقدس والقضاء على المسلمين ، ولذلك ما أن انتهت الحملة الرابعة حتى بدأوا فى الدعوة لحرب جديدة ، ونشطت الدعوة ، وأخذ المبشرون بالحروب الصليبية يتجولون فى أنحاء أوربا يثيرون الحماس الدينى وخصوصاً فى ربيع سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م وأعلن أساتذة جامعة باريس أن كل من وعد بالاشتراك فى الحملة الصليبية ، ثم حاول أن يتجنب الوفاء بوعده ، يعتبر مرتكباً لجريمة عقوبتها الإعدام(١) ، كما أن البابا انوسنت الثالث كتب رساله إلى السلطان العادل الأيوبى (يحذره بما سوف يحل من الغضب ، ويحثه على أن يتنازل فى هدوء عن بيت المقدس)(٢) وعلى الرغم من وفاة البابا انوسنت الثالث فى ٦١٣ هـ / مايو ١٢١٦ م فإن البابا الجديد هونريوس الثالث لم يهمل الدعوة للحرب الصليبية ، فلم تنقض إلا بضعة أيام على توليته البابوية ، حتى كتب إلى الملك حنا برين فى عكا يخبره أن الحملة الصليبية على وشك التقدم إليه ، وكان حنا يشعر بحرج موقفه نظراً لقرب انتهاء الهدنة التى عقدها مع السلطان العادل ، كما أن البابا أرسل إلى الملوك فى أوربا من أجل الاشتراك فى الحملة ، وكانت استجابة أهل الغرب تدل على حماس شديد لتعويض ما لم تحققه الحملة الرابعة ، وشارك فيها من الملوك ليوبولد السادس دوق النمسا وأندريه الثانى ملك هنغاريا وهيو ملك قبرص ، هذا بالإضافة إلى قوات كثيرة من الألمان والمجريين(٣) ، وأشار ابن واصل إلى هذه الحشود فقال : (وفى هذه السنة ٦١٤ هـ تتابعت إمداد الفرنج من رومية الكبرى ، التى هى مقر طاغيتهم الأكبر المعروف بالبابا ، وغيرها من البلاد وتواصلوا فى البحر يتلو بعضهم بعضاً ، ومعهم جماعة من الملوك الأكابر ، واجتمعوا كلهم بعكا ، عازمين

---

(١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٥٨) . .

(٢) رنسيمان : المصدر السابق ص (٢٥٨) .

(٣) رنسيمان : المصدر السابق ص (٢٥٨ - ٢٦٣) ، ثم انظر د . سعيد عاشور الحركة الصليبية ج ٢ ص (٩٥٧) .

على قصد القدس الشريف ، وانتزاعه من أيدى المسلمين واسترداد كل ما أخذ لهم من البلاد الساحلية ، وصاروا فى جمع عظيم ، لم يجتمع لهم بعكا بعد موت السلطان الملك الناصر صلاح الدين مثله)(١) .

واجتمعت القوات الصليبية فى مدينة عكا فى ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م وفى أواخر أكتوبر من السنة نفسها عقد الصليبيون مجلساً للحرب فى عكا لمناقشة خططهم العسكرية ، واتفقوا على الهجوم على قلعة جبل الطور التى بناها الملك العادل قريباً من عكا ، ووصلت الأنباء للسلطان العادل ، فخاف على البلاد الإسلامية (فخرج من مصر بالعساكر المصرية) ومر فى طريقه بمدينة الرملة واللد . ثم سار إلى نابلس بهدف قطع الطريق على القوات الصليبية عند عين جالوت ولكن العدو الصليبى كان يراقب تحركات السلطان . (فبرزوا من عكا فى جموعهم العظيمة) ووصلوا منطقة جالوت فعاد الملك العادل إلى بيسان وكان ذلك تراجعاً أمام الصليبيين ، زاد فى عزمهم على القتال فى حين كان العادل يخشى الدخول معهم فى معركة بسبب قلة عساكره وعدم اجتماعها (فخاف الملك العادل إن لقيهم ولم يتكامل عنده العساكر الإسلامية أن يكسروه ، فلا يقوم للإسلام بعد ذلك قائمة)(٢) . فتراجع من بيسان إلى مرج الصفر قرب دمشق ليطلب الإمدادات ويجمع القوات ثم يهاجم الصليبيين ولكن القوات الصليبية لم تتوقف وهاجموا بيسان وبلادها (وكان أهل بيسان وسائر الأعمال التى حولها قد اطمأنوا بالملك العادل لما رأوه نازلا عندهم . فلم يهربوا ، فقصدتهم الفرنج لما رحل الملك العادل . وبذلوا فيهم السيف . ونهبوا البلاد)(٣) . وأخذوا جميع غلاتها وحواصلها وغنموا من المسلمين ما لا يحصى كثره (ونهبوا ما بين بيسان وبانياس ، وبثوا السرايا فى القرى)

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٥٤) ، والمقريزى : السلوك ج ١ ص (١٨٦) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٠) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٥٤ – ٢٥٥) ، المقريزى السلوك ج ١ ص (١٨٦) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٢٠ – ٣٢١) .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٥٥) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٨٦ – ١٨٧) ، أبوالفداء : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص (١١٨) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢١) .

ولم يكتف العدو بذلك بل هاجم بانياس ثلاثة أيام ، ثم عادوا إلى مرج عكا (وقد أنكوا في المسلمين أعظم نكاية ، وامتلأت أيديهم بالأسرى ، والسبي والغنائم ، وأتلفوا بالقتل والتحريق ما يتجاوز الوصف)(١) . وبعد أن استراح الصليبيون بمرج عكا أغاروا ثانياً ونهبوا صيدا والشقيف ثم رجعوا إلى مرج عكا (وذلك كله من نصف شهر رمضان إلى يوم عيد الفطر)(٢) .

وقد انتقد المعظم عيسى ابن العادل والده ، فقال له عندما تراجع أمام الصليبيين : (إلى أين يا بة ؟ فغضب العادل منه وقال له : بمن أقاتل ؟ أقطعت الشام مماليكك وتركت من ينفعني من أبناء الناس الذين يرجعون إلى الأصول)(٣) .

وأشار المؤرخون إلى أن الناس قد انزعجوا لانسحاب العادل وذكر ابن الأثير ذلك وقال : (ولقد بلغني أن العادل لما سار إلى مرج الصفر رأى في طريقه رجلا يحمل شيئاً ، وهو يمشي تارة ، وتارة يقعد ليستريح ، فعدل العادل إليه وحده ، فقال له : يا شيخ لا تعجل ، وارفق بنفسك ! فعرفه الرجل ، فقال : يا سلطان المسلمين ! أنت لا تعجل ، فإنا إذا رأيناك قد سرت إلى بلادك وتركتنا مع الأعداء كيف لا نعجل ؟ !)(٤) .

وقد دافع بعض المؤرخين عن السلطان العادل وخطته فقال ابن الأثير : (وبالجملة الذي فعله العادل هو الحزم والمصلحة لئلا يخاطر باللقاء على حال تفرق من العساكر)(٥) ، وقال ابن واصل : (وكان الملك العادل كثير الحزم نظاراً في العواقب)(٦) .

ولما وصل العادل إلى مرج الصفر قرب دمشق . أرسل ولده المعظم

---

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص (١٨٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٥٥) ، ابن الأثير : الكامل ١٢ ص (٣٢١) .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص (١٨٧) ، وانظر ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢١ – ٣٣٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٥٥ – ٢٥٦) .

(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ص (١٨٦) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٢) ، المقريزي : السلوك ج ١ ص (١٨٧) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٥٦) .

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٢) .

(٦) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٥٥) .

عيسى صاحب دمشق ومعه فرقة من الجيش إلى مدينة نابلس ليمنع الصليبيين عن مهاجمة بيت المقدس ، ثم كتب السلطان إلى ملوك الشرق المسلمين يطلب النجدات والإمدادات لمواجهة الصليبيين(١) . أما دمشق فقد أمر العادل بتحصينها ونقل المؤن إليها وإفساد ما حولها من مصادر المياه والطعام حتى لا يستفيد العدو منها إذا ما هاجم دمشق (ففزع الناس وابتهلوا إلى الله ، وكثر ضجيجهم بالجامع)(٢) ، وكان من عادة المسلمين أن يجتمعوا فى المساجد والجوامع ، يصلون ويقرأون القرآن والأحاديث النبوية الشريفة ويتضرعون إلى الله أن ينصر الإسلام ويفرج عنهم الكرب بهزيمة العدو واندحاره ، وبذلك تكون قلوب العامة من غير المقاتلين مترابطة متعاطفة مع الجيش وكأنهم جسد واحد .

وشجع الصليبيون ما أحرزوه من نجاح فى غاراتهم السابقة على بيسان وأعمالها أن يهاجموا قلعة جبل الطور التى جدد بناءها الملك العادل ، وحاصرها الصليبيون سنة ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م (وصعدوا إلى سور القلعة وكادوا يملكونها) ولكنهم تراجعوا عنها بسبب مقتل أحد قادتهم الكبار ، وأشار المقريزى إلى ذلك بقوله : (فقدر الله أن بعض ملوكهم قتل ، فانصرفوا عنها إلى عكا ، ، بعد ما أقاموا عليها سبعة عشر يوماً)(٣) ، ولكن العادل أدرك صعوبة الدفاع عن قلعة جبل الطور وخشى عودة الصليبيين إليها ، وقرر تدمير القلعة حتى لا يستفيد منها العدو إذا ما أخذها ، (فتوجه الملك المعظم إلى قلعة الطور .فخربها إلى أن ألحقها بالأرض لأنها بالقرب من عكا ويتعذر حفظها)(٤) ومع ذلك فإن جموع الصليبيين لم تتوقف عن مهاجمة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٥٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٨٧) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٨٦) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٨٧) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٥٧) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٢) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٦٤ - ٢٦٥) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٣) ، وانظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٦٦) .

بلاد المسلمين ، فى أوائل سنة ١٢١٨ م / أواخر ٦١٤ هـ قامت بعض القوات المجرية بمهاجمة منطقة البقاع (وكادت تهلك بأجمعها فى عاصفة ثلجية عند اجتياز جبال لبنان ، عاد بعدها ملك المجريين أندريه الثانى إلى أوربا فى حين توفى هيو ملك قبرص فى أواخر سنة ٦١٤ هـ / ١٠ / ١ / ١٢١٨ م تاركاً وراءه عرش قبرص ليتولاه ابنه الطفل هنرى الذى لم يتجاوز عمره ثمانية شهور بوصاية أرملته أليس ملكة بيت المقدس)(١) .

الحملة الصليبية الخامسة هدفها مصر :

كان الصليبيون يدركون أهمية مصر ومكانتها بالنسبة للإسلام والمسلمين ، وخصوصاً منذ عهد الحملة الصليبية الثالثة ، فقد نصح ريتشارد قلب الأسد الصليبيين بمهاجمة مصر والاستيلاء عليها إذا ما أرادوا الاستيلاء على بلاد الشام عموماً وفلسطين خصوصاً لاعتقادهم أن مصر كانت تعتبر مورداً بشرياً ومالياً للجيوش الإسلامية والاستيلاء عليها لن يفقد المسلمين أغنى إقليم لديهم فقط ، بل أنهم لن يستطيعوا أيضاً المحافظة على أسطولهم فى شرق البحر المتوسط ، ولن يكون بوسعهم الإبقاء على بيت المقدس فى أيديهم طويلا إذا تعرضوا للهجوم من ناحيتين فى وقت واحد ، من عكا والسويس ، علاوة على أن مصر ستصبح فى حال استيلاء الصليبيين عليها مورداً اقتصادياً يزيد فى قوتهم ما ناحية ويقلل من اعتمادهم على معونات الغرب الأوربى علاوة على بعد المسافة بين ممالك الصليبيين فى الشرق ومؤيدوهم فى الغرب(٢) ووضح هذا الموقف عندما اجتمعت القوات الصليبية بمرج عكا وطال بها الانتظار ، فعقد قادة الصليبيين اجتماعاً (للمشورة فى ماذا يبدأون بقصده ، فأشار عقلاؤهم بقصد الديار المصرية أولا ، وقالوا : إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الملك ، وأخرج القدس والساحل من أيدى الفرنج بملكه ديار مصر وتقويته برجالها ، فالمصلحة أن نقصد أولا مصر ونملكها ، حينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد)(٣) ،

---

(١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٦٥) .
(٢) انظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٦٦ - ٢٦٧) .
(٣) ابن واصل : مفرج الكروب : ج ٣ ص (٢٥٨)

فاتفق الصليبيون على قصد مصر ، وزاد فى طمعهم وصول الإمدادات لهم من الغرب والأساطيل الكبيرة فركبوا البحر فى ٢٤/ ٥/ ١٢١٨ م / سنة ٦١٥ هـ ، يقودهم الملك حنا دى برين (وقصدوا بجموعهم الديار المصرية) فوصل أولهم إلى شمال مصر فى مواجهة دمياط فى ٢٧/ ٥/ ١٢١٨ م صفر سنة ٦١٥ هـ(١) ونزلت القوات الصليبية على الجانب الغربى للنيل وبينهم وبين دمياط نهر النيل، وكانت دمياط تقع على مسافة ميلين من مصب نهر النيل، وتحميها من الخلف بحيرة المنزلة ، وتحقق الصليبيون من خلال تجربتهم فى الهجوم على دمياط سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م أن احتلال المدينة لا يتحقق إلا إذا كان الهجوم من جهة البحر والبر معاً (وكان على النيل برج منيع وفيه سلاسل من حديد غلاظ ، تمد على النيل لتمنع المراكب الواصلة فى البحر المالح إلى الديار المصرية)(٢)، (وتمتد هذه السلاسل فى برج آخر يقابله ، وكانا مشحونين بالمقاتلة، ويعرف اليوم مكانهما فى دمياط بين البرجين)(٣) وقال ابن الأثير : (ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدو لا يقدر أحد على منعها عن أقاصى ديار مصر وأدانيها)(٤).

وبناء على ذلك كانت المهمة الأولى أمام القوات الصليبية اقتحام السلاسل وعبور النيل، وبدأ العدو الذى نزل فى البر الغربى لنهر النيل بإقامة معسكره وبنوا عليهم خندقاً وسوراً (وهذه عادتهم أبداً إذا نزلوا محاربين فى منزلة) ثم شرعوا فى قتال من بدمياط (وعملوا آلات ، ومرمات وأبراجاً يزحفون

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٥٨) ، ابن الأثير : الكامل ج ٢١ ص (٣٢٣) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٦٩) ولكن المقريزى ذكر أن الصليبيين قد أرسوا على دمياط فى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الأول سنة ٦١٥ هـ الموافق ١٢١٨/٦/٨ م .

انظر : السلوك ج ١ ص (١٨٨) .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٥٨) ، ابن الأثير الكامل ج ١٢ ص (٣٢٣) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٨٨) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٣) .

بها فى المراكب إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه)(١) ، ويتمكنوا بملكهم لهذا البرج من دخول نهر النيل (وكان هذا البرج مشحوناً بالرجال) وقد نزل الملك الكامل محمد ابن العادل وهو حاكم الديار المصرية نيابة عن والده بمكان يعرف بالعادلية(٢) بالقرب من دمياط (والعساكر متصلة من عنده إلى دمياط ، ليمنع العدو من العبور إلى أرضها) وكان المدافعون عن برج السلسلة من الأبطال ، قاوموا الهجوم ببسالة فائقة ، وصبر المؤمنين (وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه ، فلم يظفروا منه بشىء ، وكسرت مرماتهم وآلاتهم ، ومع هذا فهم ملازمون لقتاله ، فبقوا كذلك أربعة أشهر ولم يقدروا على أخذه)(٣) جرى هذا والسلطان العادل فى الشام يجهز العساكر (شيئاً بعد شىء إلى دمياط ، حتى صار عند الكامل من المقاتلة ما لا يكاد ينحصر عدده)(٤) ، وكان العادل فى هذا الوقت قد تعرض لهجوم من بعض ملوك الشرق المسلمين منهم الملك الغالب عز الدين كيكاوس السلجوقى سلطان الروم ومعه الملك الصالح صاحب آمد وغيره من ملوك الشام الذين انتهزوا فرصة انشغال العادل بالجهاد ضد الصليبيين ، فهاجموا العادل وأخذوا بعض البلاد التابعة له ولولا الاختلاف بين هؤلاء الملوك وعودة الملك السلجوقى إلى بلاده لأحدث عملهم هذا حرجاً للعادل والمسلمين(٥) :

(وعظم عند الملك العادل قصد الفرنج لمصر ، وخاف عليها خوفاً شديداً)

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٣) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٨٩) ، أما معنى كلمة مرمات : فهى جمع مرمة وتعنى نوع من السفن الحربية الكبيرة فى العصور الوسطى .
انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٦٠) حاشية ١ .

(٢) يقصد بالعادلية القرية التى أسسها الملك العادل أبو بكر بن أيوب فى سنة ٦١٤ هـ عندما سمع بتتابع إمدادات الفرنج من الغرب إلى الصليبيين فى الشرق ، وتهديدهم دمياط ، فأنشأها لتكون من المواقع الدفاعية عن دمياط .
انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٦٠) حاشية ٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٤) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٦١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٨٩) .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٨٩) ، ثم انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٦١) .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٨٩ - ١٩٠) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٦٣ - ٢٦٤) .

فلما استولى العدو على برج السلسلة فى ٢٤/ ٨/ ١٢١٨ م (قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح فى النيل ويتحكموا فى البر ، فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسراً عظيماً امتنعوا به من سلوك النيل . ثم أنهم قاتلوا عليه قتالا شديداً ، كثيراً متتابعاً حتى قطعوه ، فلما قطع أخذ الملك الكامل عدة مراكب كبار وملأها وخرقها وغرقها فى النيل ، فمنعت المراكب من سلوكه)(١) لأن برج السلسلة كان يعتبر (قفل الديار المصرية) . ولما علم السلطان العادل باستيلاء الصليبيين على برج السلسلة بدمياط غضب (فتأوه تأوهاً شديداً ، ودق بيده على صدره أسفاً وحزناً ومرض من ساعته)(٢) ، وسار من مرج الصفر إلى قرية عالقين قرب دمشق ، وقد اشتد مرضه فمات فى يوم الخميس سابع جمادى الآخرة سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م (فكتم أصحابه موته ، وقالوا : قد أشار الطبيب بعبور دمشق ليتداوى ، فحمل فى محفة ، وعنده خادم ، والطبيب راكب بجانب المحفة) وذلك حتى لا يعرف خبر وفاته فتضطرب البلاد ويزيد طمع العدو ، ولما شاع خبر وفاته بقلعة دمشق تغيرت الأحوال (فاختبط الناس حتى ركب المعظم وسكن أمر الناس ، ونادى فى البلد : ترحموا على السلطان الملك العادل ، وادعوا لسلطانكم الملك المعظم أبقاه الله فبكى الناس بكاء كثيراً ، واشتد حزنهم لفقده)(٣) .

وكان عمره خمساً وسبعين سنة وشهوراً ، ولم يترك الجهاد رغم شيخوخته وكان لموته أسوأ الأثر على نفوس المسلمين (فضعفت نفوس الناس لأنه السلطان حقيقة ، وأولاده وإن كانوا ملوكاً إلا أنهم بحكمه ، والأمر إليه ، وهو ملكهم البلاد ، فاتفق موته والحال هكذا من مقاتلة العدو)(٤) وكان لابد من تعاضد أولاده من بعده لمواجهة العدو الصليبى من ناحية وخصومهم من ناحية أخرى .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٩٤ - ١٩٥) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٩٠) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٧٥ - ٢٧٦) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٤ - ٣٥٠) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٩٠ - ١٩١) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٤ ، ٣٥٠ - ٣٥١) ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٣ ص (٢٧٠) .

الفصل السابع

موقف السلطان الكامل محمد من الصليبيين

السلطان الكامل محمد ومواصلة الجهاد ضد الصليبيين — المؤامرة ضد السلطان الكامل محمد — استيلاء الصليبيين على دمياط — استرداد دمياط من الصليبيين — أحوال الملوك الأيوبيين بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة — الصليبيون بعد الحملة الخامسة — الحملة الصليبية السادسة واتفاقية يافا سنة ١٢٢٩ م وموقف المسلمين منها — استيلاء الملك الكامل على دمشق سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م .

• • •

الفصل السابع

موقف السلطان الكامل محمد من الصليبيين

السلطان الكامل محمد ومواصلة الجهاد ضد الصليبيين :

لقد بلغ عدد أولاد الملك العادل تسعة عشر ولداً ذكراً ، سوى البنات ، جعل معظمهم ملوكاً يحكمون الدولة الأيوبية فى حياته ، وأهم هؤلاء الأبناء الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، والملك الكامل محمد صاحب مصر ، والملك العزيز عماد الدين عثمان صاحب بانياس ، والملك المظفر شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين ، والملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب الشرق وخلاط . فلما مات والدهم كتب الملك المعظم عيسى صاحب دمشق إلى إخوته يخبرهم بوفاة السلطان ، فجلس الملك الكامل محمد للعزاء فى معسكره بجوار دمياط (وارتاع لموت أبيه خوفاً من الفرنج)(١) ولكن كان أولاد السلطان يؤثرون المصلحة العامة للمسلمين (فلما توفى ثبت كل منهم فى المملكة التى أعطاه أبوه واتفقوا اتفاقاً حسناً لم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أن يجرى بين أولاد الملوك بعد آبائهم . بل كانوا كالنفس الواحدة ، كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفرداً من عسكره ولا يخافه ، فلا جرم زاد ملكهم ، ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره أبوهم) ، وقال أيضاً ابن الأثير : (ولعمرى أنهم نعم الملوك ، فيهم الحلم والجهاد ، والذب عن الإسلام ، وفى نوبة دمياط كفاية)(٢) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٩٠ – ١٩٤) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٥٢) ، وانظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٧١ – ٢٧٣) .

أما عن الموقف بين الكامل محمد والصليبيين الذين لا زالوا يواصلون الهجوم على الأراضى المصرية . فبعد أن أمر الكامل بتغريق عدة من المراكب فى النيل لمنع الصليبيين من الدخول بأساطيلهم إلى جهة دمياط ، اضطر العدو إلى حفر خليج جديد ، فقد قصدوا خليجاً هناك يعرف بالأزرق كان النيل يجرى فيه فى القديم (فحفروه حفراً عميقاً ، وأجروا فيه الماء إلى البحر المالح)(١) وبذلك استطاع الصليبيون أن يحفروا قناة تمتد من البحر إلى النهر حتى يجتازوا منها العوائق التى وضعها المسلمون فى مجرى النيل وخصوصاً السفن التى أغرقها الكامل محمد . وتمكن العدو من الدخول فى تلك القناة إلى منطقة تعرف باسم بورة(٢) تجاه المعسكر الذى فيه الكامل محمد ، ومن هناك قاتلوه مرات عديدة (فلم ينالوا منه غرضاً طائلا ، ولم يضر أهل دمياط ذلك ، لتواصل الإمداد والميرة إليهم ، وكون النيل يحجز بينهم وبين الفرنج بحيث كانت أبواب المدينة مفتحة ، وليس عليها حصر ولا ضيق البتة)(٣) .

المؤامرة ضد الكامل محمد :

كان من جملة الأمراء بمصر أمير يقال له : عماد الدين أحمد بن على ويعرف بابن المشطوب (وهو أكبر أمير بمصر ولفيف كثير وجميع الأمراء ينقادون إليه ويطيعونه ولا سيما الأكراد) ، فاتفق ابن المشطوب مع غيره من الأمراء وأرادوا أن يخلعوا الكامل محمد من الحكم (ويملكوا أخاه الملك الفائز ابن العادل ليصير الحكم إليهم عليه وعلى البلاد) ، فعلم الكامل بالخبر فدخل على هؤلاء المتآمرين (فإذا هم مجتمعون وبين أيديهم المصحف ، وهم يحلفون لأخيه الفائز) ، فلما رأوه تفرقوا ، وخاف الكامل منهم ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٩٥) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٤) .

(٢) وهى بلدة على ساحل البحر المتوسط فى الشمال الغربى من دمياط ومجرى الخليج الأزرق بين بورة وشمالى المنزلة العادلية .

انظر : السلوك ج ١ ص (١٩٥) حاشية ١ ، ٢ .

(٣) المقريزى : السلوك ١ ص (١٩٥) ، ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص (٣٥٤) ، ثم انظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٧٦ – ٢٧٨) .

فترك المعسكر ليلا فى مساء ٥/ ٢ / ١٢١٩ م وسار إلى قرية يقال لهـا أشموم طناح(١) وأقام بها (وأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم ، فركب كل إنسان هواه ، ولم يقف الأخ على أخيه ، ولم يقدروا على أخذ شيء من خيامهم وذخائرهم وأموالهم وأسلحتهم إلا اليسير الذى يخف حمله ، وتركوا الباقى بحاله من ميرة - وسلاح ، ودواب ، وخيام وغير ذلك ، ولحقوا بالكامل)(٢) وأصبحت بذلك العادلية خالية من الجيش الإسلامى ، فبادر الصليبيون عند ذلك وعبروا النيل إلى الضفة الشرقية (وهم آمنون من غير منازع ولا مدافع ، وأخذوا كل ما كان فى معسكر المسلمين ، وكان شيئاً لا يقدر)(٣) . ولم يجدوا أية مقاومة ،واستولوا على معسكر العادلية (وغنموا ما فى معسكر المسلمين ، فكان عظيماً يعجز العادين)(٤) وذلك بعد أن أمضى العدو شهوراً طويلة فى مواجهة القوات الإسلامية ، وفشلت محاولاته الكثيرة التى بذلها من أجل التقدم نحو مواقع القوات الإسلامية منذ نزوله مقابل دمياط فى يوم الثلاثاء ثانى شهر ربيع الأول سنة خمس عشرة وستمائة ولم يتمكنوا من اقتحام النيل إلى الضفة الشرقية حيث مدينة دمياط إلا يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة سنة ست عشرة وستمائة ٥/ ٢/ ١٢١٩ م(٥) ، وساعدهم على ذلك تآمر ابن المشطوب على خلع الكامل فى وقت كانت البلاد فى أمس الحاجة إلى التحالف والمعاضدة لمواجهة العدو .

حدث هذا (فتزلزل الملك الكامل ، وهم بمفارقة مصر (لأنه) لم يثق بأحد من عسكره ، وكان الفرنج ملكوا الجميع بغير تعب ولا مشقة ، فاتفق من لطف الله تعالى بالمسلمين أن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل وصل إلى أخيه الكامل بعد هذه الحركة بيومين ، والناس فى أمر مريج ،

---

(١) وتقع شرق المنصورة وجنوبى دكرنس الحالية .
انظر : ياقوت معجم البلدان ج ١ ص (٢٨٢) .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٥) فى المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٩٦) .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٩٦ - ١٩٧) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٥) .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٥) .
(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٩٦ - ١٩٧) .

فقوى به قلبه ، واشتد ظهره ، وثبت جنانه ، وأقام بمنزله)(١) وتعهد المعظم عيسى بإبعاد ابن المشطوب عن البلاد ، فاستدعاه للركوب معه والمسير ليتحدث معه فى الأمر ، فلما سار معه مسافة عن المعسكر ، التفت إليه المعظم وقال : (يا عماد الدين ! هذه البلاد لك ، اشتهى أن تهبها لنا ! وأعطاه أموالا وأسلحة إلى جماعة من أصحابه يثق بهم . كان قد أعدهم لهذا الأمر ، وأمرهم أن يلازموه إلى أن يخرج من الرمل (سيناء) ويحتفظوا به إلى أن يدخل إلى الشام ، فما وجد ابن المشطوب سبيلا إلى الامتناع ، ولا قدر على المدافعة لأنه بمفرده بينهم)(٢) ، وهكذا خرج ابن المشطوب من مصر إلى بلاد الشام وتفرق الأمراء الذين اتفقوا معه على خلع الكامل ، أما الملك الفائز فإن أخيه المعظم طلب منه أن يسير إلى الملوك الأيوبيين فى بلاد الشام والشرق رسولا عن الملك الكامل (بسبب إرسال عساكر الإسلام ، لاستنقاذ دمياط وأرض مصر من الفرنج)(٣) .

وهكذا استطاع الملك المعظم القضاء على الفتنة بحكمة وحسن سياسة دون أن يسبب اضطراباً فى صفوف العسكر فى وقت كان الواجب يقتضى من الكل التفرغ للجهاد الذى بات فرض عين على كل مسلم فى تلك البلاد ، ومن ناحية أخرى فإنه زاد فى قوة الكامل وثبته بعد أن انهارت معنوياته . وجدير بالذكر أن معاضدة السلطان فى وقت الجهاد واجبة ، والخروج معه للقتال مقدم على باقى الأمور ، ومن ثم فإن الأمير ابن المشطوب قد جانب الصواب عندما حاول إثارة الفتنة فى وقت كان العدو يهدد فيه البلاد المصرية ، بل يستولى على بعض المواضع فيها .

استيلاء الصليبين على دمياط :

بعد أن نجح الصليبيون فى عبور النيل إلى الضفة الشرقية ، أصبح وضع دمياط حرجاً ، وعندئذ أقام الكامل معسكره فى فارسكور التى تقع على

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص (٣٢٥) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٩٧) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٩٧) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٣٠ - ٢٣١) .

(٣) المقريزى : السوك ج ١ ص (١٩٧) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٣١) .

مسافة ستة أميال جنوبى دمياط ، واستعد لمهاجمة مؤخرة الصليبيين إذا حاولوا مهاجمة دمياط ، وأحاط العدو بمدينة دمياط (وقاتلوها براً وبحراً) وأقاموا حولهم خندقاً يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين واستمر القتال) واشتد الأمر على أهلها وتعذرت عليهم الأقوات وغيرها. (وسئموا القتال وملازمته، لأن الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم ، وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة ، ومع هذا فقد صبروا صبراً لم يسمع بمثله)(١)، وقاوموا الصليبيين مدة طويلة رغم الظروف الصعبة والمحاولات المتتالية التى بذلها العدو للاستيلاء على المدينة. وكان من الأسباب التى ساعدت الصليبيين وصول الإمدادات لهم من الغرب وخصوصاً من فرنسا وكذلك وصول النجدات ، لهم من قبرص فى فبراير سنة ١٢١٩ م ذو الحجة ٦١٥ هـ ولم تتوقف الإمدادات والأطعمة عنهم ، وكانت قبرص تشكل قاعدة عسكرية تزود الصليبيين بالإمدادات والمؤن لتغطية احتياجات الحملة بينما كان الكامل يواجه مشكلات جديدة منها وصول الأنباء من جهة الشرق بأن التتار قد هاجموا الدولة الخوارزمية ، وبات خطرهم قريباً من بلاد الشام ، فكان عليه أن يفكر فى دفع التتار والدفاع عن الجبهة الشرقية أضف إلى ذلك (أنه لما قدم على العسكر موت العادل وقع الطمع فى الملك الكامل وثار العرب بنواحى أرض مصر ، وكثر خلافهم واشتد ضررهم)(٢) وقال ابن الأثير : (فلما عبر الفرنج إلى أرض دمياط اجتمعت العرب على اختلاف قبائلها ، ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط ، وقطعوا الطريق ، وأفسدوا ، وبالغوا فى الإفساد ، فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج)(٣) ويعتبر هذا التصرف من جانبهم خيانة للإسلام يستحقون عليه أسوأ العقوبات .

أضف إلى ذلك تآمر الأمير ابن المشطوب مع بعض الأمراء على خلع الكامل ومبايعة أخيه الملك الفائز ، كل ذلك أثر على أحوال الملك الكامل ، وجعله يشعر بحرج موقفه ، ففكر فى الدخول مع الصليبيين فى اتفاق سلمى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٩٨) .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٩٦) .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص (٣٢٦) .

لوقف القتال ، فعرض عليهم موافقته على إعادة البلاد التى استولى عليها السلطان صلاح الدين بعد موقعة حطين باستثناء حصن الكرك ، وذلك فى مقابل قبول العدو الصليبى بالانسحاب من الأراضى المصرية(١) وقبل الملك حنا دى برين ملك الصليبيين هذا العرض ووافقه أمراء مملكته والصليبيون - الفرنسيون ، ولكن المندوب البابوى بلاجيوس الذى يمثل القائد الأعلى للحملة رفض هذا العرض ووافقه الصليبيون من البنادقة والبيازنة والجنوية والفرسان الداوية والاسبتارية ، وكان يرى بلاجيوس عدم جدوى الدخول فى اتفاق مع المسلمين وخصوصاً بعد أن قام الملك المعظم عيسى بتدمير استحكامات بيت المقدس وأسوارها حتى لا يستفيد العدو منها فى حالة إعادتها لهم إذا ما تم توقيع الاتفاق ، كما أن الكامل كتب إلى أخيه الأشرف موسى صاحب مملكة خلاط يستحثه على سرعة الحضور ومعه العساكر. (وبعث السلطان إلى الآفاق سبعين رسولا ، تستنجد أهل الإسلام على قتال الفرنج ، ويستحثهم على إنقاذ المسلمين منهم وإغاثتهم ، ويخوفهم من تغلب الفرنج على مصر ، فإنه متى ملكوها لا يمتنع عليهم شىء من الممالك بعدها ؛ فسارت الرسل فى شوال ، فقدمت النجدات من حماة وحلب)(٢) .

هذا بالإضافة إلى أن الإيطاليين التجار كانوا يرفضون الدخول فى صلح مع الكامل ، فعلى الرغم من حرص المدن الإيطالية البحرية على ألا تقطع علاقاتها مع مصر ، فإنه قد حدث وقتئذ ، أنهم يودون اتخاذ دمياط مركزاً لتجارتهم ، ولم يهتموا بإضافة باقى مصر إلى الصليبيين ، لكل هذه الأسباب اشتد الخلاف بين حنا دى برين ملك الصليبيين وبلاجيوس المندوب البابوى ؛ (فتقرر رفض عرض السلطان تحت إلحاح وإصرار بيلاجيوس)(٣) .

ولم يجد السلطان الكامل من وسيلة إلا الجهاد ،واستمر العدو الصليبى فى الزحف والقتال (وأهل دمياط يقاتلونهم أشد قتال ، وأنزل الله عليهم

---

(١) Setton, vol,2. p.409 .
رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٨٤ - ٢٨٥) .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٩٥) .
(٣) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٨٦ - ٢٨٧)
Setton, vol, 2, p. 409-410

الصبر فثبتوا مع قلة الأقوات عندهم وشدة غلاء الأسعار (وكان الملك الكامل يقاتل الصليبيين من ناحيته وقد حال العدو بينه وبين دمياط ، ولم يكن فى الإمكان الوصول إليها إلا عن طريق رسائل الحمام الزاجل أو بعض الرجال الذين يجيدون السباحة فى الماء لمدة طويلة ومن هؤلاء رجل يعرف باسم شمايل كان يغوص فى النيل حتى يدخل دمياط ويقوى أهلها ويشجعهم بأن النجدة قريباً تصل إليهم ، (فحظى بذلك عند الكامل ، وتقدم تقدماً كبيراً) ، ولما اشتد الحال على دمياط أمر الكامل أهل القاهرة ومصر بالنفير للجهاد(١) وحاول الكامل إدخال الإمدادات إلى دمياط ولكن كل المحاولات باءت بالفشل بسبب شدة حصار الصليبيين لها وتفوقهم فى القوات وقال المقريزى: (وفيها (سنة ٦١٦ هـ) اشتد قتال الفرنج ،وعظمت نكايتهم لأهل دمياط ، وكان فيها نحو العشرين ألف مقاتل ، فنهكتهم الأمراض ، وغلت عندهم الأسعار حتى أبيعت البيضة الواحدة من بيض الدجاج بعدة دنانير ، وامتلأت الطرقات من الأموات ، وعدمت الأقوات ، وصار السكر فى عزة الياقوت ، وفقدت اللحوم فلم يقدر عليها بوجه ، وآلت بالناس الحال إلى أن لم يبق عندهم غير شيء يسير من القمح والشعير فقط)(٢) ، وشعر العدو بسوء أحوال أهل مدينة دمياط ، كما شعروا بضعف المقاومة بسبب وفاة معظم الناس بمرض أصابهم ، فصعد العدو على السور الخارجى فى ٦١٦/٨/٢٧ هـ / ١٢١٩/١١/٥ م ولم يجدوا مقاومة فصعدوا على السور الداخلى للمدينة دون أن يتعرضوا لمقاومة تذكر واتفقوا مع أهلها على التسليم وأعطوهم الأمان وملكوا المدينة يوم ٦١٦/٨/٢٧ هـ / ١٢١٩/١١/٥ م بعد حصار دام ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً(٣) ولم يلتزم الصليبيون بالأمان (وغدروا بأهل دمياط ، ووضعوا فيهم السيف قتلا وأسراً ، وباتوا تلك الليلة بالجامع يفجرون بالنساء ، ويفتضون البنات ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (١٩٥ - ٢٠٠) .

(٢) المصدر السابق ص (٢٠١) ، وانظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٨٥ - ٢٨٦) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠١) ، وانظر ابن الأثير : الكامل ج١٢ ص(٣٢٦) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٣٨) .

وأخذوا المنبر والمصاحف ورءوس القتلى وبعثوا بها إلى الجزائر (بلادهم وجعلوا الجامع كنيسة ...)(١).

واختار الصليبيون من بين الأسرى المسلمين ثلاثمائة من الرجال البارزين وجعلوهم رهائن، أما الأطفال الصغار فجرى تسليمهم إلى رجال الدين حتى يحولوهم إلى النصرانية ويعدوا لخدمة الكنيسة والمسيحية، ومن تبقى من الأطفال باعوهم رقيقاً ثم وزعت الغنائم بين الصليبيين وفقاً لمكانة كل منهم ورتبته، وأما وضع مدينة دمياط فقد رأى حنا دى برين أن تكون دمياط جزءاً من مملكة بيت المقدس وأيده فى هذا الطوائف الدينية العسكرية والنبلاء العلمانيون فى حين أصر بيلاجيوس المندوب البابوى على أن تكون دمياط تابعة للكنيسة، ولكنه قبل تبعيتها لمملكة بيت المقدس خوفاً من حدوث الانشقاق بين الصليبيين(٢).

وكانت خطة الصليبيين ترمى إلى الإقامة فى دمياط وجعلها من قواعدهم العسكرية والتجارية (وشرعوا فى عمارتها وتحصينها وبالغوا فى ذلك حتى أنها بقيت لا ترام)(٣) وأقبل الصليبيون من كل فج عميق للإقامة فى دمياط (وأصبحت دار هجرتهم) فى حين أقام الملك الكامل بالقرب من الصليبيين فى مكان المنصورة ليدفعهم عن البلاد، لأن العدو بث سراياه فى القرى يقتلون ويأسرون (فعظم الخطب واشتد البلاء، وندب السلطان الناس وفرقهم فى الأرض، فخرجوا إلى الآفاق يستصرخون الناس لإنقاذ أرض مصر من أيدى الفرنج)(٤).

وقال أبو المحاسن: (ووقع على المسلمين كآبة عظيمة، وبكى الكامل والمعظم بكاء شديداً)(٥)، وقال ابن الأثير: (وأشرف سائر البلاد بمصر

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٣٨)، وانظر ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص (٣٢٦)، المقريزى: السلوك ج ١ ص (٢٠١)، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٨٧ – ٢٨٨).

(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٨٨ – ٢٨٩).

(٣) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص (٣٢٦).

(٤) ابن الأثير: الكامل ج ١٢ ص (٣٢٦ – ٣٢٧)، المقريزى: السلوك ج ١ ص (٢٠١).

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٣٨).

والشام على أن تملك ، وخافهم الناس كافة ، وصاروا يتوقعون البلاء صباحاً ومساء ، وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفاً من العدو (ولات حين مناص) والعدو قد أحاط بهم من كل جانب ، ولو مكنهم الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاوية على عروشها ، وإنما منعوا منه فثبتوا)(١) .

استرداد دمياط من الصليبيين :

بعد أن أخذ العدو مدينة دمياط قال الملك الكامل لأخيه المعظم عيسى صاحب دمشق : (قد فات المطلوب ، وجرى المقدر بما هو كائن وما فى مقامك ها هنا فائدة ، والمصلحة أن تنزل إلى الشام تشغل خواطر الفرنج ، وتستجلب العساكر من بلاد الشرق)(٢) . وجرى تحريض الناس فى بلاد الشام على الجهاد من أجل مساندة إخوانهم فى مصر ، وأمر المعظم بعمل كشف لأحوال البلاد الشامية ومعرفة ما يمكن أن تقوم به ، فكان بها (ألفى قرية ، منها ألف وستمائة أملاك لأهلها ، وأربعمائة سلطانية (ملك الدولة) وكم مقدار ما تقوم به هذه الأربعمائة من العساكر ؟ وكان المعظم عيسى قد كتب إلى أبى المظفر صاحب كتاب مرآة الزمان يقول له : (وأريد أن تخرج الدماشقة ليذبوا عن أملاكهم الأصاغر منهم والأكابر ويكون لقاؤنا وهم صحبتك إلى نابلس فى وقت سماه) . قال أبو المظفر صاحب مرآة الزمان : (فجلست بجامع دمشق وقرأت كتابه عليهم ، فأجابوا بالسمع والطاعة ، وقالوا : نمتثل أمره بحسب الاستطاعة)(٣) ، ولكن القوم فى دمشق بعد أن استعدوا حجموا عن الخروج للجهاد فأمر المعظم عيسى بأخذ (الثمن والخمس من أموالهم)(٤) وتقدم المعظم بقواته إلى الساحل لمقاتلة

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٧) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٣٨) ، وانظر ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٧) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٣٨ - ٢٣٩) .

(٤) المصدر السابق ص (٢٣٩) .

الصليبيين وتمكن من استرداد مدينة قيسارية ، ثم رجع إلى دمشق بعد أن بث العساكر فى مواجهة الصليبيين(١) .

أما السلطان الكامل محمد ، فإنه لما أخذ العدو دمياط ، طمعوا فيما بعدها ، ونازلوا السلطان تجاه المنصورة ، وهم يريدون أخذ القاهرة وباقى البلاد المصرية ، (وكان الفرنج فى مائتى ألف رجل وعشرة آلاف فارس)(٢) وصار بينهم وبين السلطان الكامل بحر أشموم وبحر دمياط ، وأمر السلطان الأسطول الإسلامى بالتقدم نحو المنصورة (وهى مائة قطعة) ليمنع دخول الأساطيل الصليبية من الدخول نحو القاهرة ، وكانت البلاد قد اضطربت واجتمع الناس من أهل القاهرة ومصر وسائر النواحى ، ما بين أسوان إلى القاهرة (ونشط الفقهاء والعلماء فى تحريض المسلمين على الجهاد (ونودى بالنفير العام وألا يبقى أحد)(٣) . وأثار الفقهاء حمية المسلمين عندما ذكروا لهم أن ملك الصليبيين (قد أقطع ديار مصر لأصحابه) ونشط الأمراء فى حشد المجاهدين (فاجتمع من المسلمين عالم لا يقع عليه حصر) ولم يتوقف الكامل عن طلب النجدات من إخوانه فى بلاد الشام والمشرق ، فأسرع إليه الملك الأشرف موسى صاحب ديار الجزيرة وأرمينية وغيرهما واستبشر الكامل بقدوم أخيه إليه ، وأنزل إلى ناحية قرية شار مساح ألفى فارس ومعهم آلاف من العربان (ليحولوا بين الفرنج وبين دمياط) وقطع الطريق على الصليبيين فى المدينة ، ثم سارت بعض قطع الأسطول وتمكنت من قطع طريق النيل على الصليبيين فى منطقة رأس بحر المحلة(٤) وهاجموا أسطول الصليبيين وأخذوا منه (ثلاث قطع بمن فيها من الرجال ، وما فيها من الأموال والسلاح ففرح المسلمون بذلك ، واستبشروا ، وتفاءلوا ، وقويت نفوسهم ، واستطالوا

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٣٩) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٢) .

(٣) المقريزى السلوك ج ١ ص (٢٠٢) .

(٤) بحر المحلة ترعة متفرعة من بحر مليح الذى يخرج من فرع دمياط عند بلدة ميت عطا – قرب بنها الحالية ، وكان مخرج بحر المحلة جنوبى بلدة طنت ، ثم يسير نحو الشمال الغربى ماراً بالهياتم وبلقينة ، حتى يصب فى فرع دمياط قبالة شار مساح على الشاطىء الآخر .
انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٣) حاشية ٢ .

على عدوهم)(١) وقطعوا (الميرة عن الفرنج من البر والبحر) وقدمت النجدات للملك الكامل من بلاد الشام) وخرجت أمم الفرنج من داخل البحر تريد مدد الفرنج على دمياط ، فوافى دمياط منهم طوائف لا يحصى لهم عدد)(٢) ، فطمعوا فى ملك البلاد المصرية بكاملها ، ولكن ملوك الإسلام أسرعوا بقواتهم لنجدة الملك الكامل ، فقد حضر إليه الملك الأشرف موسى ابن العادل والملك المنصور صاحب حماة والناصر صلاح الدين ، قليج أرسلان والمجاهد صاحب حمص والأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك فهال الفرنج ما رأوا وكان قدوم هذه النجدات فى سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م (وتتابع قدوم النجدات حتى بلغ عدد فرسان المسلمين نحو الأربعين ألفاً فحاربوا الفرنج فى البر والبحر)(٣) ، وجرت بين الطرفين معارك كثيرة ، كان للأسطول الإسلامى الدور الأول فيها ، فقد تمكنت البحرية الإسلامية من الاستيلاء على ست شوانى وجلاسة(٤) وبطسة ، وأسروا منهم ألفين ومائتى رجل ، ثم ظفروا أيضاً بثلاث قطائع(٥) فتضعضع الفرنج لذلك)(٦) أما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، فقد أمر بتخريب بيت المقدس خوفاً من استيلاء الصليبيين عليها (فخربت أسوار المدينة وأبراجها كلها إلا برج داود . . . وخرج معظم من كان فى القدس من الناس . ولم يبق فيه إلا نفر يسير ، ونقل المعظم ما كان فى القدس من الأسلحة وآلات القتال ، فشق على المسلمين تخريب القدس وأخذ دمياط)(٧) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٨ - ٣٢٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٣) ، وانظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٣٨ - ٢٤١) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٣) فى أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٤١) .

(٣) المصدر السابق ص (٢٠٣) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٢٩) .

(٤) الجلاسة نوع من السفن الحربية الكبيرة كان شائع الاستعمال فى البحر المتوسط .
انظر : السلوك ج ١ ص (٢٠٣) حاشية ٣ .

(٥) قطائع : جمع قطيعة وهى الفئة من الجنود .
انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٣) حاشية ٥ .

(٦) المقريزى : السلوك ج ١ ص) ٢٠٣ ، ٢٠٦) .

(٧) المقريزى : المصدر السابق ص (٢٠٤) .

وأما خليفة بغداد الناصر لدين الله فقد أرسل (إلى سائر الممالك بإنجاد الملك الكامل بدمياط)(١) .

كانت هذه الاستعدادات تجرى فى المعسكرين : الإسلامى والصليبى والاشتباكات فى البحر والبر لم تتوقف ، وانقضت سنوات والحال كذلك والرسل تنتقل بين الجانبين من أجل (تقرير قاعدة للصلح)وبذل الملك الكامل للصليبيين بيت المقدس وعسقلان ، وطبرية وصيدا ، وجبلة واللاذقية (وجميع ما فتحه صلاح الدين من الفرنج بالساحل . . . ما عدا الكرك ليسلموا دمياط ، فلم يرضوا وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب القدس ليعمروه بها ، فلم يتم بينهم أمر وقالوا : لابد من الكرك)(٢) .

وعلى الرغم من تسامح الملك الكامل محمد ، وكثرة عروضه على الصليبيين باسترداد الأراضى التى أخذها السلطان صلاح الدين وبيت المقدس ، فإن العدو كان يرفض ويطمع فى المزيد ، لأن بلاد الإسلام بكاملها كانت هدفاً للصليبيين ، والذى زاد فى طمع العدو الصليبى أنهم) خرجوا بالفارس والراجل (. وتعاضدت الأمم المسيحية فى الشرق والغرب على قتال المسلمين. وأجمعوا رأيهم على ضرورة أخذ البلاد المصرية (وعزموا على التقدم إلى المسلمين (ليدفعوهم عن مواقعهم ويستولوا على البلاد ، بمعنى قرر العدو أن يبدأ بهجوم على المسلمين فى وقت ارتفعت فيه الأسعار فى مصر) فبلغ القمح ثلاثة دنانير كل أردب . فكانت أشق السنين (٦١٧ هـ) وأشدها على مصر)(٣) . واجتمع على المسلمين نار الحرب ونار الغلاء ومع ذلك فإنهم لم يتعللوا بتلك الظروف ولم يهملوا فى الجهاد ، واشتد القتال بين الطرفين سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م (براً وبحراً) . وقد اجتمع من القوات الصليبية والإسلامية ما لا يعلم عددهم إلا الله (وكان المجاهدون من العامة

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٤) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٩) . وذكر المقريزى أن الصليبيين امتنعوا وقالوا : (لابد أن تعطونا خمسمائة ألف دينار لنعمر بها ما خربتم من أسوار القدس ، مع أخذ ما ذكر من البلاد ، وأخذ الكرك والشوبك أيضاً) .

انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٧) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٦) .

يهاجمون العدو ويكرون أكثر ما يكر عليهم العسكر)(١) ، ولم يجد المسلمون لهم مخرجاً مما هم فيه إلا الصبر والجهاد والصدق فيه (وكان الفرنج لاعتدادهم بنفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة أيام ، ظناً منهم أن العساكر الإسلامية لا تقوم لهم ، وأن القرى والسواد (الريف) جميعه يبقى بأيديهم ، يأخذون منه ما أرادوا من الميرة لأمر يريده الله تعالى بهم ، فعبر طائفة من المسلمين إلى الأرض التي عليها الفرنج ، ففجروا النيل فركب الماء أكثر تلك الأرض ، ولم يبق للفرنج بجهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق ، فنصب الكامل حينئذ الجسور على النيل عند أشموم ، وعبرت العساكر عليها ، فملك الطريق الذى يسلكه الفرنج إن أرادوا العود إلى دمياط ، فلم يبق لهم خلاص)(٢) وانحصروا من سائر الجهاد (وقدر الله سبحانه بوصول مرمة عظيمة فى البحر للفرنج ، وحولها عدة حراقات تحميها وسائرها مشحونة بالميرة والسلاح ، وسائر ما يحتاج إليه ، فأوقع بها شوانى (أسطول) الإسلام ، وكانت بينهما حرب ، أنزل الله فيها نصره على المسلمين ، فظفروا بها وبما معها من الحراقات ، ففت ذلك فى أعضاد الفرنج ، وألقى فى قلوبهم الرعب والذلة ، بعد ما كانوا فى غاية الاستظهار والعنت على المسلمين ، وعلموا أنهم مأخوذون لا محالة)(٣) .

وكان بلاجيوس المندوب البابوى الذى يسيطر على الحملة لم يتوقف عن طلب الإمدادات لمساعدة القوات الصليبية التى تريد الاستيلاء على القاهرة وعلى الرغم من عودة الملك حنا دى برين إلى عكا ، فإن بلاجيوس راسله وطلب إليه سرعة العودة إلى مصر لمساعدة الصليبيين ، كما أن قوة كبيرة من الصليبيين أقلعت من إيطاليا بقيادة لويس دوق بافاريا ووصلوا إلى

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٦) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٩) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٢٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٧) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٤١) ، وانظر:
Setton ; A History of the Crusades Vol, 2, p 426-427.

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٢٩ – ٣٣٠) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٢٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٧) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٩٤) .

الصليبيين فى مصر فى أواخر يونية سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م ، كما شاع بين الصليبيين أن فردريك الثانى امبراطور ألمانيا قادم لدعم الصليبيين ومعه قوات حربية كبيرة وبوصول دوق بافاريا ، وحنا دى برين وجموع من الصليبيين ، زاد حماس بيلاجيوس وظهر عليه (الزهو والكبرياء)(١) ولكن المسلمين أحاطوا بالصليبيين من جميع الجهات والماء قد أغرق الأرض وعجزوا عن الحركة وترقفت عنهم الإمدادات فسقط فى أيديهم ورأوا أنهم (قد ضلوا الصواب بمفارقة دمياط فى أرض يجهلونها) وقرر الصليبيون الزحف على المسلمين والقتال والالتحام معهم وأن يقاتلوا قتال من فقد الأمل فى الحياة (وظناً منهم أنهم يصلون إلى دمياط) وذكر ابن الأثير ذلك بقوله : (فلما اشتد الأمر على الفرنج أحرقوا خيامهم ، ومجانيقهم ، وأثقالهم ، وأرادوا الزحف إلى المسلمين ومقاتلتهم لعلهم يقدرون على العود إلى دمياط ، فرأوا ما أملوه بعيداً وحيل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم ، والوجه الذى يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون)(٢) وعجز العدو عن الحركة أو الإقامة (لقلة الأزواد عندهم) فراسلوا الملك الكامل والأشرف موسى يطلبون (الأمان ليسلموا دمياط بغير عوض ، فبينما المراسلات مترددة إذ أقبل جمع كبير ، لهم رهج شديد وجلبة عظيمة ، من جهة دمياط ، فظنه المسلمون نجدة أتت للفرنج ، فاستشعروا ، وإذا هو الملك المعظم ، صاحب دمشق ، قد وصل إليهم ، وكان قد جعل طريقه على دمياط ... فاشتدت ظهور المسلمين ،وازداد الفرنج خذلاناً ووهناً)(٣) .

ولما وقف الملك الكامل على طلب الصلح والانسحاب من مصر رأى

---

(١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٩٢ - ٢٩٧) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٣٠) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٢٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٧ - ٢٠٨) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٢٩٨ - ٢٩٩) ، وانظر :

Setton : A History of the Crusades Vol, 2, 425 .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٣٠) ، وانظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٤١ - ٢٤٢) فى المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٨) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٣٠٠) .

إجابة الصليبيين (واقتضى رأى غير من إخوته مناهضتهم ، واجتثاث أصلهم البتة) وكان الكامل محمد يتوقع وصول فردريك الثانى امبراطور ألمانيا لنجدة الصليبيين ويخشى من اشتداد الأمر على المسلمين الذين لازموا القتال سنوات طويلة وهم فى مواجهة الصليبيين ، وكان يخشى مقاتلة الصليبيين المحصورين ويقضى عليهم فيمتنع من فى دمياط من الصليبيين ويرفضون تسليمها له (ويحتاج الحال إلى منازلتها مدة ، فإنها كانت ذات أسوار منيعة . وزاد الفرنج عندما استولوا عليها فى تحصينها ، ولا يؤمن فى طول محاصرتها أن يفد ملوك الفرنج نجدة لمن فيها ، وطلباً للثأر من قتل من أكابرهم هذا . وقد ضجرت عساكر المسلمين ، وملت من طول الحرب . فإنها مقيمة فى محاربة الفرنج ثلاث سنين وأشهراً)(١) .

واستطاع الكامل محمد إبرام اتفاقية مع الصليبيين تقضى بتسليم دمياط للمسلمين ورحيل العدو عن مصر فى مقابل تأمين حياة الصليبيين الذين حصرهم المسلمون من جميع الجهات ، وطلب الكامل من الصليبيين أن يبعثوا رهائن من ملوكهم — لا من أمرائهم — إلى أن يسلموا دمياط ؛ فطلب الفرنج أن يكون ابن الملك الكامل عندهم رهينة إلى أن تعود إليهم رهائنهم)(٢) . فأرسل الصليبيون رهائنهم وعددهم عشرون ملكاً من بينهم الملك الصليبي حنا دى برين والمندوب البابوى بلاجيوس ، وأرسل الكامل محمد ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ومعه جماعة ليكونوا رهينة عند الصليبيين حتى يتم تنفيذ الاتفاق (واستقرت القاعدة والأيمان سابع رجب من سنة ثمانى عشرة وستمائة)(٣) وعندما قدم ملوك الفرنج الرهائن (جلس لهم الملك الكامل مجلساً عظيماً ، ووقف الملوك من إخوته وأهل بيته بين يديه

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٨) ، وانظر ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٣٠ — ٣٣١) ، انظر أيضاً :

Setton Vol, 2, p 426–427 .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٨) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٣٣٠) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٢٩ — ١٣٠)، المقريزى: السلوك ج ١ ص (٢٠٨) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٤٢ — ٢٤٣) ، ثم انظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٣٠٠–٣٠١)

بظاهر البرمون ، فى يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب ، فهال الفرنج ما شاهدوا من تلك العظمة وبهاء ذلك الناموس)(١) وكان ملوك الصليبيين هؤلاء قد أرسلوا إلى الصليبيين فى دمياط حتى يسلموها للمسلمين (فلم يمتنع من بها (وسلموها إلى المسلمين فى ١٩/ ٧ / ٦١٨ هـ الموافق ٧/ ٩/ ١٢٢١ م(٢) ودخلها الملك الكامل محمد فى اليوم التالى للاطمئنان على المدينة (ومن العجب أن المسلمين لما تسلموها وصلت للفرنج نجدة فى البحر ، فلو سبقوا المسلمين إليها لامتنعوا من تسليمها ، ولكن سبقهم المسلمون ليقضى الله أمراً كان مفعولا) ، وذكر المقريزى أن النجدة الصليبية وصلت فى نفس اليوم الذى انسحب الصليبيون فيه من دمياط وقال : (فلما تسلمها المسلمون قدم فى ذلك اليوم من الفرنج نجدة عظيمة ، يقال : إنها ألف مركب ، فعد تأخرهم إلى ما بعد تسليمها من الفرنج صنعاً جميلا من الله سبحانه)(٣) وبعد إتمام الاتفاق وجلاء الصليبيين أعاد الملك الكامل الرهائن الصليبيين وقدم الملك الصالح نجم الدين أيوب ومن كان معه من رهائن المسلمين عند الصليبيين (وتقررت الهدنة بين الفرنج وبين المسلمين مدة ثمانى سنين ، على أن كلا من الفريقين يطلق ما عنده من الأسرى وسار بعض الفرنج فى البر وبعضهم فى البحر إلى عكا(وعاد السلطان الكامل محمد إلى قلعة الجبل بالقاهرة(٤) .

وتعتبر الحملة الصليبية الخامسة فاشلة تماماً ، فبعد أن عرض الملك الكامل على الصليبيين أخذ كل البلاد التى فتحها صلاح الدين والقدس فى مقابل انسحابهم من مدينة دمياط ، وكرر عليهم هذا العرض مرات

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٨ - ٢٠٩) ، أبو الفداء : المختصر - ج ٣ ص (١٣٠) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٩) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٣٠) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٤٢ - ٢٤٣) ، ثم انظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٣٠١) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٩) .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٠٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٤٣) ،

Setton : vol, 2, p. 427-428 .

عديدة ، فلم يقبلوا ، بل زادوا عتواً واعتقدوا أنهم يملكون مصر بكاملها ، وعاضدتهم الأمم المسيحية في العالم لدرجة جعلت الملك الكامل يخشى على ضياع مصر ولهذا تقدم لهم بعروضه المغرية ،وكان رفض بعض القوى الصليبية لهذا العرض من البراهين الدالة على مدى غرورهم واعتدادهم بقوتهم من ناحية ويعكس أطماع الصليبيين من ناحية ثانية ، وفي نفس الوقت يدعم الرأى القائل : بأن استقرار الصليبيين بفلسطين مرهون بالاستيلاء على مصر وجعلها قاعدة صليبية ، ولما عجز الكامل محمد عن مناهضتهم بدليل زحفهم نحو القاهرة بعد احتلالهم لمدينة دمياط فإن الله سبحانه أمد المسلمين بقوة من عنده تمثلت في تفكير بعض الجند المسلمين عندما شاهد فيضان النيل ، فعرض فكرة فتح الترع والقنوات لإغراق الأرض ومن ثم لن يستطيع العدو التحرك ، فكان الأمر على ما وصفنا وانقلب الوضع وطلب العدو هذه المرة المهادنة وانسحب من البلاد بلا قيد أو شرط ولم يظفروا بشىء من فتوحات صلاح الدين أو مصر وهذا يعنى عدم اليأس وضرورة الأخذ بالأسباب والنصر مع الصبر والآية الكريمة تقول : **« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »** .

أحوال الملوك الأيوبيين بعد الحملة الخامسة :

عمت البشائر بلاد المسلمين عندما فشلت الحملة الصليبية الخامسة وعودة دمياط للمسلمين في وقت كان التتار قد دمروا ممالك الشرق الإسلامى (وكادت مصر مع الشام يستأصل شأفة أهلها الفرنج ، حتى من الله بجميل صنعه وخفى لطفه ، ونصر عباده المؤمنين ، وأيدهم بجنده، بعد ما ابتلى المؤمنون ، وزلزلوا زلزالا شديداً)(١) ولكن ملوك البيت الأيوبى الذين تعاونوا على الجهاد ضد الصليبيين خلال الحملة الخامسة ، اختلفوا بعد ذلك ، وقام الملك المعظم عيسى صاحب دمشق بمهاجمة حماة ، لأن الملك الناصر صاحب حماة كان قد التزم له بمال يحمله إليه إذا حكم حماة (فلم يف له) فهاجمه وأغلقت حماة أبوابها وجرى بين أهلها والمعظم عيسى قتال ثم تركها

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢١٠) .

وهاجم سلمية واستولى على حواصلها وجعل عليها نائباً من قبله ، ثم سار إلى المعرة فاستولى عليها وقرر أمورها وجعل عليها والياً ثم رجع إلى سلمية وفى خطته أن يعود لأخذ حماة وذلك سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م ، ولذلك سار الملك الأشرف موسى إلى مصر (فأقام بها عند أخيه السلطان الملك الكامل مدة) واتفق مع أخيه الكامل على الكتابة إلى أخيه المعظم عيسى (والإنكار عليه فى ما فعل ، ويطلبون منه الرحيل عن حماة ، فأرسلوا رسولا قال له : السلطان يأمرك بالرحيل ، فقال : السمع والطاعة) ، وتركها ولكنه غضب على أخويه الكامل، والأشرف وخصوصاً بعد أن أعاد المعرة وسلمية إلى الملك الناصر(١) وزادت الشكوك بين الإخوة ، فقد ذكر المقريزى فى حوادث سنة ٦٢٣ هـ اختلاف ملوك البيت الأيوبى وقال : (فيها تأكدت الوحشة بين المعظم وبين أخويه الكامل والأشرف)(٢) ، فأرسل المعظم عيسى لأخيه المظفر غازى صاحب خلاط يحسن له العصيان على أخيه الملك الأشرف (فأجاب الملك المظفر إلى ذلك) وخالف أخاه الأشرف وطمع فيه(٣) ، أما الملك الكامل محمد فقد زاد الشك والوهم فى عسكره ، فإن المعظم أرسل إليه فى جملة كلام :(وإن قصدتنى لا آخذك إلا بعسكرك فوقع فى نفسه الخوف ممن معه ، وهم أن يخرج من مصر ، فلم يجسر)(٤) ، وخرج الملك المعظم سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م وهاجم حمص وخرب قراها ومزارعها ولم ايتمكن من الاستيلاء على قلعتها(لامتناعها هى والمدينة عليه)واضطر إلى لانسحاب ، وترك حمص بسبب موت معظم عسكره ودوابه(٥) . وحدث أن عاد الأشرف موسى من مصر ، ووصل إلى دمشق ، فسر به الملك المعظم (سروراً عظيماً ، وأكرمه إكراماً زائداً)(٦) واستطاع المعظم أن يستميله

---

(١) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٣١ - ١٣٢) فى المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢١٣ - ٢١٤) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢١٩) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٣٤) .

(٣) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٣٤) .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢٠) .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢٠) .

(٦) المقريزى : المصدر السابق ص (٢٢٠) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة - ج ٦ ص (٢٦٦) .

وحلف للمعظم أنه يعاضده على أخيه الملك الكامل وعلى الملك المجاهد صاحب حمص ، والناصر صاحب حماة(١) .

فتأكدت الوحشة بين الكامل محمد وبين أخويه المعظم والأشرف وخاف منهما وخشي الكامل (من انتماء أخيه المعظم إلى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه) ولذلك أرسل الكامل أحد أمرائه إلى الامبراطور الألماني فردريك الثاني يشجعه على القدوم إلى الشرق (ووعده أن يعطيه بعض ما بيد المسلمين من بلاد الساحل ، ليشغل سر أخيه المعظم)(٢) ، فعلم المعظم عيسى بما فعل أخيه الملك الكامل ، فكتب إلى السلطان جلال الدين الخوارزمي يسأله النجدة على أخيه الكامل (ووعده أن يخطب له ، ويضرب السكة باسمه ، فسير إليه جلال الدين خلعة لبسها ، وشق بها دمشق ، وقطع الخطبة للملك الكامل)(٣) فبلغ الملك الكامل خبر ما فعل أخيه المعظم صاحب دمشق ، فخرج من القاهرة بقواته سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م ونزل بلبيس فبعث إليه المعظم : (أنني نذرت لله تعالى أن كل مرحلة ترحلها لقصدي أتصدق بألف دينار ، فإن جميع عسكرك معي وكتبهم عندي وأنا آخذك بعسكرك) (٤) وكتب المعظم مكاتبة بهذا في السر ومعها مكاتبة في الظاهر فيها : (بأني مملوك ، وما خرجت عن محبتك وطاعتك ، وحاشاك أن تخرج وتقابلني ، وأنا أول من أنجدك ، وأحضر إلى خدمتك ، من جميع ملوك الشام والشرق) فأخذ الشك يتغلب على الكامل ، وأظهر ما كتب المعظم إلى الأمراء ورجع إلى القاهرة وقبض على عدد من الأمراء ومماليك أبيه (لمكاتبتهم المعظم) واعتقلهم ثم أنفق الأموال على الجيش واستعد للمسير بهم إلى بلاد الشام(٥) ولكن توفي الملك المعظم عيسى صاحب دمشق يوم الجمعة آخر ذي القعدة ٦٢٤ هـ / نوفمبر ١٢٢٧ م فسر الملك الكامل لوفاته ، وحكم من بعده ابنه

---

(١) السلوك ج ١ ص (٢٢١) ، أبو الفداء : المختصر ٣ ص (١٣٧) .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص (٢٢١ – ٢٢٢) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٣٨) .

(٣) السلوك ج ١ ص (٢٢٢) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٣٧ – ١٣٨) .

(٤) المقريزي : السلوك ج ١ ص (٢٢٢) .

(٥) المقريزي : السلوك ج ١ ص (٢٢٢ – ٢٢٣) .

الملك الناصر داود وعمره إحدى وعشرون سنة ، وأرسل الملك الناصر داود إلى عمه الكامل محمد يخبره بوفاة والده ، فجلس للعزاء وسير إليه الأمير علاء الدين بن شجاع الدين جلدك المظفرى ومعه الخلعة وسنجق السلطنة وكتب معه ما طيب قلبه (فلبس الناصر خلعة الكامل وركب بالسنجق ثم أرسل إليه الكامل يريد منه أن يترك له قلعة الشوبك ليجعلها خزانة له ، فامتنع من ذلك ، وبهذا وقعت الوحشة بينه وبين عمه الكامل)(١) فعزم الكامل على المسير إلى دمشق وأخذها من ابن أخيه الملك الناصر داود ، وكان صاحب دمشق قد ظلم الناس (وأخذ أموالهم ، واشتغل باللهو ، وأعرض عن مصالح الدولة ، فشق ذلك على الكامل ، وجعله سبباً يؤاخذه به)(٢) فاستعد لذلك، بعد أن جعل ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب نائباً عنه فى حكم مصر . وسار الكامل بقواته من القاهرة يوم الأحد ١٩ / ٨ / ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧ م ، فعلم به صاحب دمشق والتجأ إلى عمه الأشرف موسى ، فتقدم الكامل بالقوات إلى تل العجول وبعث منها إلى نابلس والقدس وأعمالها من استولوا على نابلس والقدس ، فاستعد الملك الناصر داود للحرب بعد أن عاضده بعض الملوك الأيوبيين فى بلاد الشام ومنهم الملك الأشرف صاحب البلاد الشرقية الذى حضر إلى دمشق (فتلقاه الناصر فى أخريات رمضان (٦٢٥ هـ) وزين دمشق لقدومه ، فدخل القلعة وعليه شاش علم كبير ، وهو مشدود الوسط بمنديل وقد سر الناصر به سروراً كبيراً ، وحكمه فى بلاده وأمواله فأعجب الأشرف بدمشق وعمل فى الباطن على انتزاعها لنفسه من الناصر)(٣) ولذلك أرسل الأشرف إلى أخيه الكامل يشفع فى الملك الناصر ويطلب منه إبقاء دمشق عليه ويقول : (إنا كلنا فى طاعتك ، ولم نخرج عن موافقتك) فأكرم الملك

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٧١ – ٤٧٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢٤ – ٢٢٥) ، أبو الفداء المختصر ج ٣ ص (١٤٠) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٦٧) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢٥) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢٦ – ٢٢٧) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٤٠) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٧٩ – ٤٨٠ ، ٤٨٢ – ٤٨٣) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٢٣) .

الكامل رسول الملك الأشرف - ثم سار الأشرف ومعه الناصر من دمشق (يريدان ملاقاة الملك الكامل و الترامى عليه ، ليصلح الأشرف الأمر بينهما) فلما بلغ السلطان مسيرهما شق عليه ذلك ، وسار من نابلس يريد العودة إلى القاهرة ، فنزل الأشرف والناصر بنابلس ، فأقام بها الناصر وسار الأشرف إلى أخيه الكامل فى تل العجول ، فتقابلا (ونزلا فكان الاتفاق بينهما على انتزاع دمشق من ابن أخيهما الناصر داود)(١) واتفقا أيضاً على إعطاء الناصر داود حران والرها والرقة ورأس عين من بلاد الملك الأشرف على أن يأخذ مدينة دمشق وما معها إلى عقبة فيق ويكون للملك الكامل ما بين عقبة فيق وغزة من البلاد والحصون ، واتفقا أيضاً على أن تنتزع بعلبك من الأمجد بهرام وتعطى لأخيهما العزيز عثمان وأن تنتزع حماة من الملك الناصر قليج أرسلان ابن المنصور وتعطى للمظفر تقى الدين محمود بن المنصور ، وأن تؤخذ من المظفر سلمية وتضاف إلى المجاهد صاحب حمص(٢) ورجع الملك الأشرف إلى الملك الناصر داود وأخبره أنه اجتمع بالملك الكامل للإصلاح بينهما ، وأنه اجتهد وحرص (على أن يرجع عنك فامتنع ، وأبى إلا أن يأخذ دمشق وأنت تعلم أنه سلطان البيت وكبيرهم ، وصاحب الديار المصرية ، ولا يمكن الخروج عما يأمر به . وقد وقع الاتفاق على أن تسلم إليه دمشق ، وتعوض عنها من الشرق كذا)(٣) ولكن ما أن فرغ الأشرف من كلامه حتى قام الأمير عز الدين أيبك وهو أكبر أمير مع الناصر داود ، وقال : (لا كيد ولا كرامة ، ولا نسلم من البلاد حجراً واحداً ، ونحن قادرون على دفع الجميع ومقاومتهم ، ومعنا العساكر المتوافرة)(٤) ودخل الناصر داود دمشق واستعد للحصار (وقام معه أهل البلد ، لمحبتهم فى أبيه) فى حين زحف الملك الأشرف بمن معه من العساكر وحاصر دمشق وقطع عنها مصادر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٨٠) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢٧) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٤٠) .

(٢) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٤٠) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢٧) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢٩) .

(٤) السلوك ج ١ ص (٢٢٩) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٨٤) .

المياه ، فخرج إليه العسكر من دمشق ومعهم أهل البلد وحاربوه(١) واستمر هذا الوضع من الانشقاق والاختلاف بين ملوك البيت الأيوبى حتى داهم البلاد العدو الصليبي فيما يعرف بالحملة الصليبية السادسة . وكان لا بد من ترك أسباب الاختلاف والبحث عن عوامل الوفاق والائتلاف .

الصليبيون بعد الحملة الخامسة :

انتهت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل ، وأعقب ذلك فترة من الاضطراب فى الإمارات الصليبية فى بلاد الشام ، فبدأ التفكير من جديد يتجه نحو الغرب الأوروبى عموماً والبابوية خصوصاً من أجل إرسال حملة صليبية جديدة ترد إلى الصليبيين اعتبارهم وتزيد من قوتهم وتبعث الأمل فى نفوسهم وترفع معنوياتهم ، ولكن الغرب الأوروبى فى القرن الثالث عشر الميلادى كان يعانى من مشاكل محلية تمثلت فى الخلاف بين البابوية والامبراطورية المقدسة ، وحاول كل طرف أن يظهر بمظهر صاحب السيادة العليا على شئون البلاد ، واشتد الصراع بين الكنيسة ممثلة فى البابوية ورجال الدين وبين الامبراطورية ويمثلها أشخاص الأباطرة والحكام وحاول كل طرف أن تكون الكلمة العليا فى العالم المسيحى له ، جرى هذا فى الوقت الذى كان العالم المسيحى يشن حرباً صليبية ضد المسلمين فى جميع الاتجاهات . فقد هاجموا المسلمين فى بلاد الأندلس والشمال الإفريقى من ناحية وهاجموا الشرق الأدنى الإسلامى من ناحية ثانية ، فكان من الطبيعى أن تتأثر الحرب الصليبية بما يجرى فى واقع الغرب الأوروبى من مشاكل وصراعات بين الامبراطور والبابا .

ولقد كان للصراع بين الامبراطور الألمانى فردريك الثانى والبابا أسوأ الأثر على الحركة الصليبية فى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى (النصف الأول من القرن السابع الهجرى) وعلى الرغم من أن الامبراطور مدين للبابوية فى اعتلائه عرش الامبراطورية والتخلص من خصمه أوتو الرابع سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤ م ولكن الامبراطور لما تمكن من السيطرة على

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢٩ — ٢٣٠) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٤١ — ١٤٢) ، ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٨٤) .

ألمانيا بسط نفوذه على صقلية وجنوبى إيطاليا فهدد بذلك مصالح البابوية فى إيطاليا لاسيما عندما حاول مد سلطانه إلى شمال إيطاليا، فخاف البابا على أملاك البابوية الواقعة فى إيطاليا وخصوصاً فى وسطها ، وزاد فى خوف البابوية أن الامبراطور الألمانى لم يف بوعوده التى قطعها على نفسه للبابا أنوسنت الثالث سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م بأنه سيقوم بحملة صليبية على الشرق ، ولكنه لم يفعل بل جدد هذا الوعد سنة ١٢٢٠ م وعندما توج امبراطورا فى الكنيسة القديس بطرس بروما،ولكنه لم يفعل،ومما زاد فى انتقاد الامبراطور فردريك الثانى تلك النتائج التى انتهت إليها الحملة الصليبية الخامسة ، وفشلها الذريع فى تحقيق أهداف الصليبيين فى احتلال مصر ، ويدل على سوء أحوال الصليبيين أن حنا دى برين ملك مملكة بيت المقدس الصليبية سار سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م إلى إيطاليا ليشرح للبابا والامبراطور حقيقة أحوال الصليبيين فى الشرق ، ويطلب منهما سرعة إرسال النجدات والإمدادات ، ولم يكتف بذلك بل قام بجولة سريعة فى فرنسا وانجلترا وأسبانيا ليطلب من قادتها المساعدات الحربية السريعة لمواجهة المسلمين فى بلاد الشام(١) .

وكان حنا دى برين قد زوج ابنته يولاند للامبراطور فردريك الثانى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م من أجل تقوية الروابط مع الامبراطور الذى تعهد للبابا أن يقوم بحملته الصليبية سنة ١٢٢٧ م وتعهد أيضاً بدفع مائة ألف أوقية من الذهب تكون رهينة فى خزينة البابوية بمدينة روما وليس له حق استردادها إلا إذا قام بحملته الصليبية،ولكن الامبراطور لم يفعل شيئاً،بل أظهر أنه يريد فرض القيود على الكنيسة ورجالها والحد من نفوذهم ، وأدى هذا إلى توتر العلاقات بين الطرفين مما أعاق سير الامبراطور إلى الشرق ولو إلى حين(٢) .

الحملة الصليبية السادسة واتفاقية يافا سنة ١٢٢٩ م وموقف المسلمين منها :

مما تقدم يمكن مقارنة أحوال المسلمين واختلاف الملوك الأيوبين فيما بينهم بما كان بين الامبراطور الألمانى والبابا من الخلافات وسوء النية التى ظهرت

---

(١) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص (٩٩٣ – ٩٩٤) .

(٢) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص (٩٩٤– ٩٩٥) .

واضحة فى تصرفاتهما ، وعلى الرغم من أن فردريك الثانى إمبراطوراً لدولة أوربية مسيحية ، فإن السلطان الكامل محمد كان يرى ضرورة الاستعانة به ضد خصومه من الأيوبيين ، ولذلك بعث الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه إلى الامبراطور فردريك الثانى (يريد منه أن يقدم إلى عكا ، ووعده أن يعطيه بعض ما بيد المسلمين من بلاد الساحل ، ليشغل سر أخيه المعظم)(١) فى حين طلب الملك المعظم النجدة من السلطان جلال الدين الخوارزمى وتحالف معه حتى يواجه أخيه الكامل وحليفه الامبراطور الألمانى ، مما زاد فى اشتعال الفتنة بين الأخوين ، فاستغل هذا الظرف الامبراطور فردريك الثانى ، وأرسل بهدية للسلطان الكامل الذى أكرم رسل الامبراطور إكراماً زائداً ، فرغب الامبراطور فى القدوم إلى الشرق ويشجعه على ذلك أيضاً محاولات البابا جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١ م) المستمرة فى الضغط على الامبراطور من أجل المسير إلى الشرق ، وفعلا خرج امبراطور ألمانيا قاصداً بلاد الشام ولكنه توقف فجأة مدعياً المرض فأصدر البابا ضده قرار الحرمان فى ٢٩/ ٩/ ١٢٢٧ م ولكن القوات التى خرجت من صقلية والغرب واصلت تقدمها إلى بلاد الشام (فكثر جمعهم) واشتد ساعدهم وانتظروا الامبراطور الذى وصل إلى عكا سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م (٢) فى وقت كانت مملكة بيت المقدس فى حاجة إليه ، فقد توفيت زوجته يولاند فى إبريل عام ١٢٢٨ م وبعد أن أنجبت ولداً من الامبراطور اسمه كونراد ، فكان الامبراطور بذلك وصياً على عرش ابنه الصغير صاحب الحق الشرعى فى حكم مملكة بيت المقدس الصليبية ، أما جده الملك حنادى برين فقد غادر الشام إلى القسطنطينية للقيام بالوصاية على الامبراطور الصغير بلدوين الثانى(٣) . وقد اشتد الصليبيون بوصول الامبراطور فردريك الثانى إليهم (وقوى طمعهم ، واستولى فى طريقه على جزيرة قبرص وملكها ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢١ - ٢٢٢) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٧٧ - ٤٧٨ ، ٤٨٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢٢ - ٢٢٣) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٤١) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٢٣) .

(٣) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص (١٠٠١ - ١٠٠٢) .

وسار منها إلى عكا ، فارتاع المسلمون لذلك(١) وكان المعظم عيسى صاحب دمشق قد مات فى شهر ذى القعدة سنة ٦٢٤ هـ / نوفمبر سنة ١٢٢٧ م ، فتغير الموقف فى بلاد الشام بوفاته ، واتفق الكامل والأشرف على اقتسام بلاد المعظم ، وكان هذا يعنى أن الأمل الذى جاء من أجله الامبراطور وهو تقديم المساعدة للملك الكامل ضد أخيه المعظم فى مقابل حصوله على القدس قد انتهى إلى فشل ، ولكن الامبراطور فردريك الثانى قدم إلى عكا (باستدعاء الملك الكامل له)(٢) والحقيقة أن الاستعانة بغير المسلمين ضد المسلمين فى أمور ليس للإسلام بها مصلحة يعتبر ذلك مجانباً للصواب ولا تقره أحكام الشريعة الإسلامية .

فإذا عرفنا أن الصليبيين الذين وصلوا من الغرب فى الحملة السادسة قد ازدحموا فى مدن الساحل الشامى الصليبية (وظهروا من عكا وصور وبيروت إلى مدينة صيدا ، وكانت مناصفة بينهم وبين المسلمين ، وسورها خراب ، فعمروها ، واستولوا عليها)(٣) وذلك فى أواخر سنة ٦٢٥ هـ / نوفمبر سنة ١٢٢٨ م فى وقت كان الملك الكامل يرابط بقواته على تل العجول والامبراطور فردريك الثانى بعكا (والرسل تتردد بينهما)(٤) .

وكان امبراطور ألمانيا لما وصل إلى عكا بعث رسوله إلى الملك الكامل ، وأمره أن يقول له : (الملك يقول لك كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء ، ولا أجيء إليهم ، والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي — فى زمن حصار دمياط — الساحل كله ، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية ، وما فعلنا ، وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم ، وإعادتها إليكم ، ومن نائبي ؟ إن هو إلا أقل غلماني . فلا أقل من إعطائى ما كنتم بذلتموه له)(٥) وهذا يوضح أن الامبراطور لم يقدم إلى الشرق بهدف مساعدة الملك الكامل وإنما كان ذلك

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٧٨) .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢٨) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٤١) .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٧٨) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢٩) .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٨٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢٩) .
(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢٨ — ٢٢٩) .

سبباً ثانوياً ، ومظهراً لا حقيقة ، ويدل على ذلك أن السلطان الكامل تحير فى الإجابة على سؤاله (ولم يمكنه دفعه ولا محاربته ، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق ، فراسله ولاطفه ، وسفر بينهما الأمير فخر الدين بن الشيخ)(١) لأن العلاقة بين الملوك الأيوبيين مضطربة واستمرت الاتصالات والمراسلات بين السلطان الكامل والامبراطور ، وكان سفراء الكامل فى هذه المفاوضات الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ والشريف شمس الدين الأرموى قاضى العسكر ، وطال أمد المفاوضات بين الجانبين ، لأن طلب الصليبيين لمدينة القدس كان من الأمور التى يصعب التفريط بها ، ولما فشلت هذه المفاوضات فى مرحلتها الأولى زحف الامبراطور بقواته إلى يافا سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م وحصنها ، بهدف إشعار الكامل بأن الصليبيين على وشك مهاجمة بلاده إذا لم يستجب لطلب الامبراطور ، ولكن ظروف الامبراطور لم تكن فى مصلحته فقد وصلته أخبار تفيد بأن البابا أصدر ضده قرار الحرمان للمرة الثانية . وأباح لرعاياه الاعتداء على ممتلكاته ، وأشاعت البابوية فى الغرب بأن الامبراطور مات ، ومن ثم أصبح للبابا الحق فى الوصاية على الامبراطورية ، فترك هذا أسوأ الأثر على الامبراطور وجعله يفكر فى الرجوع إلى بلاده ولكن بعد أن يحقق شيئاً يمكنه أن يفخر به أمام الصليبيين ، فإن عاد بدون ذلك فإن موقفه سيكون حرجاً أمام شعبه ولذلك أرسل خطاباً للملك الكامل جاء فيه ما يدل على الاستعطاف من أجل تحقيق مآربه فقد جاء فى كتابه للكامل (وأنا مملوكك وعتيقك ، وليس لى عما تأمره خروج ، وأنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر ، وقد علم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى ، فإن رجعت خايباً انكسرت حرمتى بينهم ، وهذا القدس فهى أصل اعتقادهم وضجرهم ، والمسلمون قد أخربوها فليس لها دخل طائل ، فإن رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه ! ويرتفع رأسى بين ملوك البحر)(٢) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٢٩).

(٢) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص (١٠١٠) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٣٢٩) ،

Setton ; vol, 2, p, 454

وخاف الكامل من رفض مطالب الامبراطور (وذلك أن الكامل تورط مع ملك الفرنج ، وخاف من غائلته عجزاً عن مقاومته(١) ولذلك استجاب فى نهاية الأمر ووقع اتفاق مدينة يافا ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م وتضمن هذا الاتفاق أن يأخذ الصليبيون مدينة القدس من المسلمين ، وأن تبقى على ما هى عليه من الخراب (ولا يجدد سورها ، وأن يكون سائر قرى القدس للمسلمين ، لا حكم فيها للفرنج ، وأن الحرم - بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى - يكون بأيدى المسلمين ، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط ، ويتولاه قوام من المسلمين ، ويقيمون فيه شعار الإسلام من الأذان والصلاة ، وأن تكون القرى التى فيها بين عكا وبين يافا ، وبين لد وبين القدس ، بأيدى الفرنج ، دون ما عداها من قرى القدس)(٢) وكان الكامل يعتقد بفعله هذا أنه أرضى الامبراطور ، وصار يقول : (إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدر خراب ، والمسجد على حاله وشعار الإسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع)(٣) ولما اتفقا على ما تقدم (عقدت الهدنة بينهما ، مدة عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوماً)(٤) تبدأ فى ٢٨ / ٣ / ٦٢٦ هـ / ١٨ / ٢ / ١٢٢٩ م وعقب الاتفاق اعتذر الامبراطور فردريك الثانى للأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ الذى كان ينوب عن الكامل فى إجراء المفاوضات وقال : (بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ، ما كلف السلطان شيئاً من ذلك ، ما له غرض فى القدس ولا غيره ، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج)(٥) وبعد ذلك تم حلف الايمان من الطرفين ، فقد حلف الملك الكامل والامبراطور على الاتفاقية (وبعث السلطان فنودى بالقدس بخروج المسلمين منه وتسليمه

---

(١) المقريزى: السلوك ج ١ ص(٢٣٠) .

(١) المقريزى : السلوك ح ١ ص (٢٣٠) ، رنسيمان : تاويخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٣٣٠) .

Setton : vol, 2, p. 455 .

(٢) المقريزى : السلوك : ج ١ ص (٢٣٠) .

(٣) المصدر السابق ص (٢٣٠) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٧١) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٣٣١) .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٣٠) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٣٣٠) .

إلى الفرنج ، فاشتد البكاء ، وعظم الصراخ والعويل ، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل ، وأذنوا على بابه فى غير وقت الأذان ، فعز عليه ذلك ، وأمر بأخذ ما كان معهم من الستور والقناديل الفضة والآلات وزجرهم ، وقيل لهم : (امضوا إلى حيث شئتم) فعظم على أهل الإسلام هذا البلاء ، واشتد الإنكار على الملك الكامل ، (وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار)(١) ، ووصف أبو المحاسن أحوال المسلمين لما سمعوا بتسليم القدس إلى الامبراطور بقوله (فقامت قيامة الناس لذلك ووقع أمور)(٢) وخصوصاً فى وقت كان الأشرف بأمر من الملك الكامل يحاصر دمشق لانتزاعها من ابن أخيهما الذى انتقد تصرف الكامل وتسليمه القدس للصليبيين ، واشتد (تشنيع الملك الناصر داود بدمشق على عمه الملك الكامل بتسليمه القدس للفرنج ؛ فنفرت قلوب الرعية ، وجلس الحافظ شمس الدين سبط ابن الجوزى بجامع دمشق ، وذكر فضائل بيت المقدس ، وحزن الناس على استيلاء الفرنج عليه ، وبشع القول فى هذا الفعل ، فاجتمع فى ذلك المجلس ما لا يحصى عدده من الناس ، وعلت أصواتهم بالصراخ ، واشتد بكاؤهم ، . . . فلم ير بدمشق أكثر بكاء من ذلك اليوم)(٣) وذكر ابن الأثير تسليم القدس للصليبيين وأثره على المسلمين بقوله : (واستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ، ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه) ولم يكتف(٤) الامبراطور فردريك بما حصل عليه ، بل أرسل بعد ذلك إلى الكامل يطلب منه (تبنين وأعمالها) فسلمها السلطان له ، فبعث يستأذن فى دخول القدس ، فأجابه إلى ما طلبه وسير القاضى شمس الدين قاضى نابلس فى خدمته ليقوم بتسليمه القدس فسار معه إليها ودخلها فى ١٧ / ٣ / ١٢٢٩ م / ٦٢٦ هـ وطاف معه

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٣١) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٧٢) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٢٣) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٣٣) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ - ص (١٤١ - ١٤٢) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٢٨٣) .

فى القدس من المزارات (وأعجب الامبراطور بالمسجد الأقصى وبقبة الصخرة . . .)(١) .

وجدير بالذكر هنا أن المسلمين أنكروا على الملك الكامل تسليم القدس وفتوحات السلطان صلاح الدين للامبراطور الألمانى صفواً وعفواً بدون قتال ، وعلى الرغم من أن السلطان دافع عن تصرفاته وقلل من أهمية اتفاقية يافا ؛ فإنه جانب الصواب حينما فعل ذلك ، وأن المحافظة على مكانة الامبراطور وسمعته لم تكن تشفع للسلطان فيما فعل ، وأن ضعفه العسكرى لم يكن موجباً لهذا الاتفاق مهما كانت الظروف والأحوال ، وإذا كان التولى والهرب من ميدان الجهاد من الكبائر التى لا تقبل الشفاعة والمغفرة ، فإن تنازل السلطان عن القدس وبلاد إسلامية طواعية واختياراً لعدو المسلمين كان من الأمور التى يرفضها الإسلام والمنطق السليم .

وهكذا حقق الامبراطور فردريك الثانى باتفاقه مع الملك الكامل ما لم تحققه الحملات الصليبية الثالثة والرابعة والخامسة،فقد استرد القدس من المسلمين دون عناء.واعترفت البابوية أخيراً بفضل الامبراطور عند ما رفعت عنه قرار الحرمان سنة ٦٢٨ م / ١٢٣٠ هـ ودخلت معه فى صلح سان جرمانو فخف الصراع الذى استمر بين البابوية والامبراطور أكثر من عشر سنوات(٢) .

استيلاء الملك الكامل على دمشق سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م :

قال أبو الفداء (ولما عقد الملك الكامل الهدنة مع الامبراطور وخلا سره من جهة الفرنج سار إلى دمشق)(٣) وكان الملك الأشرف محاصراً لها إلى أن وصل إليه الملك الكامل (فحينئذ اشتد الحصار ، وعظم الخطب على أهل البلد ، وبلغت القلوب الحناجر)(٤) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٣١) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٣٣٣) .

(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٣٣١ - ٣٣٢) ، د. سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص(١٠١٦ - ١٠١٧) .

(٣) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٤٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص(٢٣٣-٢٣٤)

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٨٤) .

وجد الملك الكامل والأشرف فى حصار دمشق (حتى اشتد عطش الناس فى دمشق ، لانقطاع الأنهار عنهم ، ومع ذلك فالحرب بينهم قائمة فى كل يوم (ثم ارتفعت الأسعار) ونفذت أموال الناصر ، وفارقه جماعة من أصحابه ، وصاروا إلى الكامل والأشرف ، فأخذ الناصر فى ضرب أوانيه من الذهب والفضة دنانير ودراهم ، وفرقها حتى نفذ أكثر ما كان عنده من الذخائر ، وناصحته العامة مناصحة كبيرة ،وأبلوا فى عسكر الكامل والأشرف بلاء عظيما)(١) .

وذكر ابن الأثير أن أموال الناصر داود كانت قليلة (فاحتاج إلى أن باع حلى نسائه وملبوسهن، وضاقت الأمور عليه،فخرج إلى عمه الكامل وبذل له تسليم دمشق وقلعة الشوبك على أن يكون له الكرك والغور وبيسان ونابلس)(٢)

وقال المقريزى أن الملك الناصر داود خرج ليلا من قلعة دمشق (ومعه نفر يسير ، وألقى نفسه على باب مخيم الكامل ، فخرج إليه الكامل وأكرمه إكراماً زائداً ، وباسطه وطيب قلبه ، بعد عتب كثير) واتفق على أن يترك دمشق ويأخذها الكامل على أن يعطيه الشوبك وأعمالها والكرك وأعمالها . مع الصلت والبلقاء والأغوار جميعها ؛ ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل ، ثم تنازل الملك الناصر داود عن الشوبك لعمه الملك الكامل فقبلها منه (وصار للكامل مع الشوبك بلد الخليل عليه السلام ، وطبرية وغزة ، وعسقلان والرملة ولد ، وما بأيدى المسلمين من الساحل)(٣) وفتحت أبواب دمشق فى ١ / ٨ / ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م فشق ذلك على أهل دمشق ، وتأسفوا على مفارقة الناصر ، وكثر بكاؤهم (ثم تسلمها الملك الأشرف الذى تنازل عن بلاده الشرقية لأخيه الملك الكامل عوضاً عن دمشق فتسلم نواب الكامل) حران والرها وسروج ورأس عين والرقة وغير ذلك)(٤) . وسار الملك الناصر

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص(٢٣٤) .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ص (٤٨٤) .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٨٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٣٤ - ٢٣٥) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٤٢) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٢٧٢) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ١٢ ص (٤٨٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٣٥) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٤٢) .

داود إلى الكرك فى حين سار الملك الكامل إلى البلاد الشرقية . وقطع الفرات ودخل قلعة جعبر ثم توجه إلى الرقة (وخافه ملوك الشرق) وبعد أن قرر قواعد البلاد وأقام بها العساكر لحمايتها عاد إلى مصر (١). وكانت الحروب مع الصليبيين فى مملكة بيت المقدس قد توقفت بسبب هدنة يافا ١٢٢٩ م واقتصرت فى هذه الفترة العمليات العسكرية الإسلامية على المناطق الشمالية وخصوصاً نحو أنطاكية وبلاد الأرمن الذين كثيراً ما أغاروا على منطقة حلب ، كما فعلوا ذلك سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م عندما أغاروا على بلاد حلب . فتصدى لهم جيش حلب فولوا منهزمين (وكثر فيهم القتل والأسر وعاد عسكر حلب بالأسرى ورءوس الفرنج ، وكانت هذه الوقعة من أجل الوقائع)(٢)

واستحكمت الوحشة بين الأخوين الكامل والأشرف من جديد سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م ، ولكن وفاة الملك الأشرف موسى فى المحرم ٦٣٥ هـ / سبتمبر سنة ١٢٣٧ م وضعت حداً لهذا الخلاف . فقد سار الملك الكامل إلى دمشق ومعه الناصر داود صاحب الكرك يريدان أخذ دمشق من الملك الصالح إسماعيل الذى حكم دمشق بعد وفاة أخيه الأشرف وحاصر الكامل دمشق فاضطر الملك الصالح إسماعيل إلى التنازل عن دمشق لأخيه الكامل وعوضه عنها بعلبك والبقاع وبصرى بعد أن توسط الخليفة المستنصر بينهما فى النزاع(٣) . ولم تمض أيام حتى مرض الملك الكامل فى دمشق وتوفى فى ٢١ / ٧ / ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م بعد أن حكم مصر عشرين سنة نائباً عن والده العادل وعشرين سنة سلطاناً بعد وفاة والده(٤) ، وحلف الأمراء للملك العادل ابن الملك الكامل سلطاناً الذى كان نائباً عن والده فى مصر وأجبروا الملك الناصر داود على العودة إلى الكرك وكان لوفاة الملك الكامل أثر سئ على الأيوبيين فى مصر والشام إذ ظهرت الخلافات بينهم من جديد وشغلتهم عن الجهاد ضد المعتدين بعض الوقت (٥).

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٣٥ – ٢٤٠) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٤٤) .

(٢) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٥٩) .

(٣) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٥٩ – ١٦٠) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٥٦ – ٢٥٧) ، ابن كثير البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٤٦) .

(٤) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٦١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٥٨) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٤٦ – ١٤٧) .

(٥) أبو الفداء : المختصر ج٣ ص(١٦١ – ١٦٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٦١) .

الفصل الثامن

جهاد السلطان الصالح نجم الدين الأيوبى ضد الصليبيين

تطور الأحوال فى الدولة الأيوبية - استرداد القدس من الصليبيين سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م - الحملة الصليبية سنة ١٢٣٩ - ١٢٤١ م - موقف خيانة للإسلام والمسلمين - موقف علماء الإسلام من محالفة حاكم دمشق للعدو الصليبي - هزيمة الصليبيين قرب غزة سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م - تحالف أمير دمشق مع الصليبيين سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م - الخوارزميون يحررون القدس سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م - موقعة غزة سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م - استيلاء الصالح أيوب على دمشق - الحملة الصليبية السابعة على مصر - تقدم القوات الصليبية من قبرص نحو مصر واحتلال دمياط سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م - نتائج سقوط دمياط فى أيدى الصليبيين - موقف بلاد الشام من الحملة الصليبية السابعة - استيلاء السلطان الصالح أيوب على الكرك سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م - استمرار الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين فى مصر - وفاة السلطان الصالح أيوب - موقف الصليبيين بعد وفاة السلطان الصالح - موقعة شار مساح - قدوم المعظم تورانشاه وتوليته السلطنة فى مصر - المعظم تورانشاه يواجه الصليبيين - تراجع الصليبيين إلى دمياط - أسر الملك لويس التاسع وفشل حملته - نهاية السلطان المعظم تورانشاه - الموقف فى مصر بعد مقتل المعظم تورانشاه - نهاية الحملة الصليبية السابعة .

* * *

الفصل الثامن

جهاد السلطان الصالح نجم الدين الأيوبى ضد الصليبيين

تطور الأحوال فى الدولة الأيوبية :

بعد وفاة السلطان الكامل محمد بايع الأمراء ابنه الملك العادل المعروف بالصغير أو الثانى تميزاً له عن جده الملك العادل شقيق صلاح الدين ، والسبب فى مبايعته بالسلطنة على الرغم من أنه أصغر سناً من أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل . إنما يرجع لأسباب منها أن العادل كان ينوب عن والده فى حكم مصر فى حين كان الصالح (نائب أبيه الملك الكامل على الشرق وإقليم ديار بكر) وبعد إجراء مشاورات كثيرة بين الأمراء استقر رأيهم على مبايعة العادل سلطاناً على مصر والشام (وأن يكون نائبه بدمشق ابن عمه الملك الجواد يونس ، وأن يكون أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب على ممالك الشرق على حاله)(١) وتمت بيعة العادل فى ٢٢/ ٧/ ٦٣٥ هـ مارس سنة ١٢٣٨ م وخطب له بالقاهرة ومصر (وهو السلطان السابع من بنى أيوب بديار مصر) وشرع السلطان الجديد فى التقرب إلى الرعية والإحسان إلى الناس (وحط الملك العادل المكوس ووسع فى العطاء وفى الأرزاق على كل أحد)(٢) ولما بلغ الملك الصالح نجم الدين خبر اختيار أخيه العادل سلطاناً على مصر والشام (عظم عليه ذلك ، كونه كان هو الأكبر) ولذلك سار بقواته إلى دمشق ودخلها فى جمادى الآخرة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٩ م (فخرج

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٠٣ – ٣٠٤) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٤٩ – ١٥٠) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٦١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٦٧) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٦٧ – ٢٦٨) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٠٣ – ٣٠٥) .

إليه الملك الجواد والتقاه ، واتفق معه على مقايضة دمشق بسنجار وعانه)(١) وسبب ذلك أن الملك الجواد يونس قد ظهر عجزه عن القيام بأمور مملكة الشام من ناحية وعدم قدرته على مقاومة العادل وخوفه منه (وظن أنه يأخذ دمشق منه)(٢) من ناحية أخرى ، وخطب فى دمشق باسم الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الكامل ، وضربت السكة باسمه ، وعلى الرغم من أن الملك الجواد يونس ندم على مافعل وأراد التراجع عن اتفاقه مع الملك الصالح ؛ إلا أنه لم يستطع عمل شئ (وكان قد أساء السيرة فى أهل دمشق) فتركها بعد أن لعنه أهل دمشق فى وجهه لسوء أثره فيهم وظلمه للرعية واستقر فى بلاده .(٣)

وكان الملك الصالح نجم الدين يتطلع إلى أخذ البلاد المصرية من أخيه العادل ، فكاتب عمه صاحب بعلبك الملك الصالح إسماعيل بن العادل وطلب معاضدته ، وسار بقواته إلى مدينة نابلس فاستولى عليها وعلى بلاد الناصر داود صاحب الكرك الذى ذهب إلى مصر ودخل فى خدمة الملك العادل وطمع فى الاستيلاء على مصر ، والقضاء على العادل الذى أكرمه ورفع من مكانته .(٤)

وأقام الملك الصالح نجم الدين بنابلس ينتظر مجىء عمه الصالح إسماعيل صاحب بعلبك حتى يسير معه لأخذ البلاد المصرية (فلم يلتفت الملك الصالح إسماعيل إلى ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب هذا)(٥) وكان الصالح إسماعيل قد طمع فى أخذ دمشق من الصالح نجم الدين ، فاتفق مع أسد الدين شيركوه صاحب حمص . وسارا إليها ودخلوها يوم الثلاثاء ٢٧ / ٢ / ٦٣٧ هـ أواخر

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٦٩ - ٢٧٤) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٦٣) ، وانظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٠٥) ، أما بلدة عانة فهى بلد مشهورة بين الرقة وهيث وهى من أعمال الجزيرة وهى مشرفة على الفرات

انظر : المصدر نفسه ص (٣٠٥) حاشية ٣ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٠٥ - ٣٠٦) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٦٣) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٧٩) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٥٢) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٧٩ - ٢٨٠) .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٥٢) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٠٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٧٥) .

(٥) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٠٦) ، وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٥٢) .

سنة ١٢٣٩ م بينما كان الملك الصالح نجم الدين مقيما بنابلس فلما علم أمراء الصالح نجم الدين بما جرى على دمشق اضطربوا (فنفر بنو أيوب بأسرهم وخافوا على أولادهم وأهلهم بدمشق ، وكان الفساد قد لعب فيهم ، فتركوا الصالح أيوب وتوجهوا إلى دمشق ، وبقى الصالح فى مماليكه وغلمانه لا غير)(١) فاستغل الملك الناصر داود صاحب الأردن والكرك سوء أحوال الملك الصالح نجم الدين أيوب وتفرق أصحابه عنه (فأرسل إليه من أخذه من نابلس مهاناً على بغلة بلا مهماز ولا مقدمة ، فاعتقله عنده سبعة أشهر)(٢) ولما علم الملك العادل صاحب مصر بما جرى على أخيه الصالح نجم الدين أيوب اغتبط كثيراً (فأظهر الفرح ودقت الكوبات وزينت القاهرة (وأرسل العادل إلى الناصر داود يطلب منه الملك الصالح نجم الدين (ويعطيه مائة ألف دينار فما أجاب) (٣) ثم كاتبه الملك الصالح صاحب بعلبك وصاحب حمص أسد الدين شيركوه فى إرساله إلى الملك العادل إلى مصر (كل ذلك والعادل فى قلق من جهة الصالح) ولكن الناصر داود لم يستجب لكلامهم ، وكان العادل صاحب مصر يريد القضاء على أخيه من أجل أن يهنأ بالحكم من بعده . ولكن الناصر داود اتفق مع الصالح نجم الدين وهو فى الحبس (على شىء ما يقوم به أحد من الملوك ، وهو أنه يأخذ له دمشق وحمص وحماة وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر ونصف ديار مصر ونصف ما فى الخزائن من المال والجواهر والخيل والثياب وغيرها ، فحلف الصالح على هذا كله وهو تحت القهر والسيف)(٤) وأفرج عن الملك الصالح نجم الدين أيوب فى ١٧ / ٩ /

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٠٦ – ٣٠٧) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٥٣ – ١٥٤) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٦٣ – ١٦٥) .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٥٤) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٦٥) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٨٩) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٠٩ – ٣١٠) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٥٤) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٦٥) ، وذكر المقريزى أن العادل عرض أن يعطيه أربعمائة ألف دينار مصرية مقابل أن يرسل له الصالح نجم الدين فى قفص حديد . انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٩٠) .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣١٠) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٥٤) . أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٦٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٩٣) .

٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م . فاجتمع عليه مماليكه وأصحابه الذين كانوا عند الناصر داود ، وكان الملك العادل قد اضطربت أحواله فى مصر ، واستوحش منه (الأمراء الأكابر) وذلك لتقريبه الشباب والترابى(١) وإعطائهم الأموال والإقطاعات والاقتداء بآرائهم ولكثرة تحجبه واشتغاله باللهو عن مصالح الدولة)(٢) .

وتحرك الصالح أيوب ومعه الملك الناصر داود إلى غزة ووصلت الأخبار بذلك إلى الملك العادل بمصر (فانزعج وأمر بخروج الدهليز السلطانى والعساكر) وتقدم إلى بلبيس فى منتصف شهر ذى القعدة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م وأرسل إلى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل أن يخرج بعساكر دمشق لمقاتلة الصالح نجم الدين ، فخرج بقواته من دمشق إلى الفوار (فخاف الملك الصالح والملك الناصر من التقاء عساكر مصر والشام عليهما ، ورجعا من غزة إلى نابلس ، ليتحصنا بالكرك)(٣) وكان العادل (قد شره فى اللعب ، وأكثر من تقديم الصبيان والمساخر(٤) وأهل اللهو ، حتى حسبت نفقاته فى هذا الوجه خاصة ، فكانت ستة آلاف ألف وعشرين ألف ألف درهم)(٥) .

وكان من أثر سوء أحوال الملك العادل أن اتفق بعض الأمراء على خلعه بزعامة أحد الأمراء اسمه عز الدين أيبك الأسمر ، وحاط هؤلاء بمعسكر السلطان العادل (ورموه وقبضوا عليه ، ووكلوا به من يحفظه فلم يتحرك أحد لنصرته) وخلع بذلك من السلطنة فى يوم الجمعة ٩ / ١٠ / ٦٣٧ هـ آخر

---

(١) أطلق هذا اللفظ أيام الدولة الفاطمية بمصر على الأطفال من أسرى الحروب إذ كان يدفع بهم إلى الأستاذين فيربونهم ، ويتعلمون الكتابة والرماية ويقال لهم : الترابى وفيهم من صار أميراً كبيراً .

انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٧٥) حاشية ١ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٧٥) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٩٤) .

(٤) جمع مسخرة وهو الشخص الذى تسخر الناس منه ، أو المبهلول الذى يلعب لإضحاك النظارة .

انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٩٤) حاشية ٢ .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٩٤) .

مايو سنة ١٢٤٠ م(١) واتفق الأمراء على استدعاء الملك الصالح نجم الدين إلى مصر حتى يتولى السلطنة (فأتته كتبهم ، وقد بلغ هو والناصر داود غاية من الخوف وزلزلا زلزالا شديداً ، لضعفهما عن مقاومة عساكر مصر والشام ، فأتاهما من الفرج ما لم يسمع بمثله وقاما لوقتهما . وسارا إلى مصر) . وخطب للملك الصالح فى مصر وجلس على كرسى الحكم سنة ٦٣٧ هـ / ١٩ /٦/ ١٢٤٠ واعتقل أخاه العادل وأخذ فى تحليف الأمراء على مبايعته وطاعته (وزينت القاهرة ومصر وظواهرهما وقلعة الجبل زينة عظيمة ، وسر الناس به سروراً كثيراً لنجابته وشهامته)(٢) ووصلت له من الخليفة العباسى الخلع والتقليد بالحكم بصحبة رسول الخليفة ابن الجوزى الذى قرأ تقليد الملك الصالح . وأصبح صاحب الحكم الشرعى فى البلاد فى حين بقى الملك العادل فى سجنه(٣) ؛ ولم تلبث الوحشة أن ظهرت بين الملك الناصر داود صاحب الكرك والملك الصالح نجم الدين أيوب ، بسبب عدم وفاء الصالح للناصر بما تعهد به قبل إطلاق سراحه والإفراج عنه ولذلك (تخوف السلطان من الناصر داود ، لكثرة ما بلغه عنه من اجتماعه بالأمراء سراً ، ولأنه سأل أن يعطيه قلعة الشوبك فامتنع السلطان من ذلك ، واستوحش الناصر فطلب الإذن بالرحيل إلى الكرك فخرج من القاهرة وهو متغيظ)(٤) .

ولم تتوقف الخلافات بين الأسرة الأيوبية ، فقد اشتد النزاع بين الملك الصالح نجم الدين صاحب مصر وبين الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، ولم يقف باقى الملوك الأيوبيين موقف الحياد ، بل شاركوا فى إشعال نار الفتنة وانضموا إلى أحد طرفى النزاع ومن هؤلاء الملوك صاحب حمص وحماة

---

(١) ذكر أبو الفداء أن الصالح أيوب حضر إلى مصر يوم ٦٣٧/١٠/٢٤ هـ فى حين قبض الأمراء على العادل يوم ٦٣٧/١٠/٨ هـ ، المختصر ج ٣ ص (١٦٦) فى حين ذكر أبو المحاسن : أن الصالح أيوب ملك مصر وقبض على أخيه العادل فى يوم الاثنين ٦٣٧/١٢/٢٥ هـ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٩٦ - ٢٩٧) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٦٦) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٥٤) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٩٨) .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٩٨ - ٢٩٩) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٥٤) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٦٦) .

والكرك ، وسبب هذا الموقف كثيراً من الارتباك والحرج فى الدولة الأيوبية فى وقت كانت فى أمس الحاجة إلى التعاون والتعاضد لمواجهة الأخطار الداخلية والتهديد الخارجى الذى تمثل فى الوجود الصليبى من ناحية والتتار الذين اقتربوا من بلاد الشام من ناحية أخرى .

إسترداد القدس من الصليبيين سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م :

كان من أثر اختلاف الملوك الأيوبيين أن استغل العدو الصليبى الموقف لصالحه وعمروا فى القدس قلعة (وجعلوا برج داود أحد أبراجها) وكان الملك الكامل محمد لما سلمهم القدس سنة ١٢٢٩ م اتفق معهم على عدم إقامة تحصينات جديدة أو بناء أسوار القدس التى دمرها الملك المعظم عيسى حتى لا يستفيد منها العدو فى المستقبل ، ولما أنشأ العدو قلعة فى القدس خالف بذلك نص اتفاقية يافا المعقودة سنة ١٢٢٩ م بين الامبراطور فردريك الثانى والملك الكامل محمد (فلما بلغ الناصر داود عمارة هذه القلعة سار إلى القدس ، ورمى عليها بالمجانيق حتى أخذها ، بعد أحد وعشرين يوماً — فى يوم تاسع جمادى الأولى — عنوة بمن معه من عسكر مصر) أما برج داود فى القدس فقد استمر فى المقاومة حتى دخله المسلمون صلحاً فى ١٥ / ٥ / ٦٣٧ هـ أواخر سنة ١٢٣٩م بعد أن أعطى الصليبيين الأمان على أنفسهم دون أموالهم ، وهدم الناصر داود صاحب الكرك والأردن برج داود (واستولى على القدس ، وأخرج منه الفرنج ، فساروا إلى بلادهم)(١) .

الحملة الصليبية سنة ١٢٣٩ — ١٢٤١ م :

عندما أوشكت المعاهدة التى عقدها الملك الكامل مع الامبراطور الألمانى فردريك الثانى على الانتهاء فى سنة ١٢٣٩ م / ٦٣٧ هـ ، بدأت القوى الصليبية فى الاستعداد لمواجهة المسلمين ، ونشطت البابوية فى الدعوة إلى حملة صليبية

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٩١) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٣٧٦ — ٣٧٧) .

Setton : vol. 2, p. 477-478 .

جديدة . واستجاب لهذه الدعوة فى فرنسا عدد كبير من الرجال والفرسان وكبار الأمراء مثل الأمير ثيبوت الرابع أمير شامبنى الذى قاد جموع الصليبيين إلى الشرق ، فوصل إلى عكا على رأس قوة مكونة من ألف وخمسمائة فارس بالإضافة إلى عدد كبير من المشاه وذلك فى سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م . الوقت الذى تمكن فيه الملك الناصر داود صاحب الأردن والكرك من أخذ مدينة القدس ، وطرد الصليبيين منها فاجتمع قادة الحملة الصليبية الفرنسية مع الأمراء الصليبيين فى الشام للنظر فى الموقف ، ووضع خطة جديدة لمواجهة المسلمين . ولكن القادة الصليبيين انقسموا فيما بينهم حول الجهة التى يقصدونها ، منهم من رأى المسير إلى مصر باعتبارها المركز الرئيسى للقوة الإسلامية الأيوبية ، وإذا أخذوها مكنهم استرداد القدس ، ورأى فريق آخر أن يسير الصليبيون إلى دمشق ورأى ثالث إلى صفد لتكوين قاعدة صليبية تخدمهم فى الأعمال الحربية ضد دمشق والقدس بينما رأى بعض الزعماء أن تتجه الحملة إلى القدس مباشرة واستردادها من المسلمين ، ولكن الصليبيين لم يفعلوا شيئاً من هذا ، بل قصدوا عسقلان بهدف الاستيلاء عليها ثم المسير إلى دمشق لانتزاعها من أيدى المسلمين ، وكان الملوك الأيوبيين فى اختلاف فيما بينهم ، ومع ذلك لم يتركوا الموقف بدون معالجة ، فقد اهتم صاحب دمشق الملك الصالح إسماعيل بتحصين دمشق ، أما العادل الثانى صاحب مصر ، فقد أرسل فرقة من الجيش إلى غزة للدفاع عن عسقلان ، وكان الصليبيون بقيادة ثيبوت الرابع قد تقدموا نحو عسقلان واستولوا فى طريقهم على قافلة إسلامية محملة بالبضائع فى طريقها إلى دمشق ، وتابع العدو الزحف نحو غزة وهم يريدون القضاء على الجيش المصرى الذى أرسله العادل الثانى ؛ والتقى الجيشان بالقرب من غزة فى يوم الأحد ١٤/ ٣/ ٣٣٧ هـ الموافق ١٣/ ١١/ ١٢٣٩ م ، وجرى قتال شديد بين الجانبين ، انتصر فيه المسلمون (وانكسر فيها الفرنج) وذكر المقريزى ذلك بقوله (وقتل منهم ألف وثمانمائة ، ولم يقتل من المسلمين غير عشرة)(١) كما وقع فى الأسر بعض قادتهم (وثمانون

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٩٢) ، ثم انظر د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص (١٠٣٣ - ١٠٣٦) .

فارساً ، ومائتان وخمسون راجلا ، وصلوا إلى القاهرة)(١) أما عن شهداء المسلمين فى تلك المعركة ، فكانوا قليل (ولم يقتل من المسلمين غير عشرة)(٢)

وكان خبر الهزيمة سيئاً للغاية على باقى القوات الصليبية التى سارت نحو عسقلان ، ودليل ذلك أنهم ارتدوا إلى مدينة يافا ومنها عادوا إلى عكا دون أن يظفروا بشىء(٣) وكان فى الإمكان مطاردة الصليبيين بواسطة القوات الأيوبية المصرية ولكن سوء أحوال الملوك الأيوبيين واختلافهم فى هذا الوقت ، جعل القوات الأيوبية تكتفى بالنصر المذكور ولم تلاحق الصليبيين الذين انسحبوا إلى عكا . ومن دلائل اختلاف الملوك الأيوبيين أن صاحب حماة الملك المظفر تقى الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب طلب معونة الأعداء الصليبيين ضد خصومه الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، والملك المنصور إبراهيم بن شيركوة صاحب حمص(٤) ، كما أن العلاقات بين الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق والناصر داود صاحب الأردن والكرك والملك العادل بن الكامل صاحب مصر كانت فى غاية السوء ، واستمرت تلك الخلافات تعوق الجهاد ضد الصليبيين إلى أن تم اعتقال العادل الثانى فى صيف سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م وقيام السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى حكم مصر (٥) .

موقف خيانة للإسلام والمسلمين :

غضب حاكم دمشق الملك الصالح إسماعيل لاعتقال الملك العادل الثانى وسلطنة الملك الصالح أيوب الذى وعد الملك الناصر داود بأخذ دمشق من

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٩٢) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٩٢) .

(٣) Setton, vol, s, pp. 476-477

(٤) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٦٤ – ١٦٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٠٢ – ٣٠٤) .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٢٩٢ – ٢٩٣) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣١٩ – ٣٢٢)

الصالح إسماعيل وتسليمها له ، ولكن صاحب مصر لم يف بما تعهد به للملك الناصر داود . فاستغل الصالح إسماعيل سوء التفاهم بينهما (وأرسل إلى الناصر داود واتفق معه على عداوة صاحب مصر . وكذلك رجع صاحب حلب وصاحب حمص عنه ، وصاروا كلمة واحدة عليه)(١) . وأصبح هؤلاء فى حلف ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولم يكتف صاحب دمشق بهذا العداء فى وقت كان المسلمون فى حاجة إلى التعاضد والمعاونة لمواجهة عدوهم المشترك ، بل فعل ما لم يسمح به الإسلام وهو الدخول فى تحالف مع العدو الصليبى فى سبيل مصالحه الذاتية (فكاتب الفرنج ، واتفق معهم على معاضدته ومساعدته ، ومحاربة صاحب مصر ، وأعطاهم قلعة صفد وبلادها وقلعة الشقيف وبلادها ، ومناصفة صيدا وطبرية وأعمالها وجبل عاملة(٢) وسائر بلاد الساحل(٣) .

ولم يكتف الصالح إسماعيل صاحب دمشق بذلك بل أعاد مدينة القدس للصليبيين بالإضافة إلى عسقلان(٤) .

موقف علماء الإسلام من محالفة حاكم دمشق للعدو الصليبى :

وسمح الصالح إسماعيل للصليبيين بدخول دمشق وشراء السلاح (فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق ، فأنكر المسلمون ذلك ، ومشى أهل الدين منهم إلى العلماء واستفتوهم ، فأفتى الشيخ عز الدين ابن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج ، وقطع من الخطبة بجامع دمشق الدعاء للصالح إسماعيل ، وصار يدعو فى الخطبة بدعاء منه : « اللهم أبرم

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص(٣٠٢)

(٢) يطلق هذا الاسم على جهة جبلية قرب الساحل فى إقليم صفد ويوجد بها حصن الشقيف . انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٠٣) حاشية ٤ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٠٣) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٥٥) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٢) .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣١٤ - ٣١٥) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٨٠) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٢) ، الإنس الجليل ج ٢ ص (٣٦١ - ٣٦٢) ، السلامى : مختصر التواريخ ورقة (٦٤) .

لهذه الأمة إبرام رشد ، تعز فيه أولياءك ، وتذل فيه أعداءك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عهد معصيتك » والناس يضجون بالدعاء)(١) .

واستاء المسلمون فى مصر وبلاد الشام بسبب تحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين وتسليمهم القدس وبلاد المسلمين صفواً عفواً بلا ضربة ولا طعنة . وذلك لمعاضدته ضد الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر ، ولم يسكت علماء الإسلام على هذا الموقف بل أنكروه صراحة وجهراً ، ومنهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام خطيب دمشق ، والشيخ أبى عمرو بن الحاجب شيخ المالكية فى دمشق الذى أنكر ما فعل الصالح إسماعيل ، فأمر صاحب دمشق باعتقالهما ولكنه اضطر إلى الإفراج عنهما (وألزم ابن عبد السلام بملازمة داره ، وألا يفتى ، ولا يجتمع بأحد البتة ، فاستأذنه فى صلاة الجمعة ، وأن يعبر إليه طبيب أو مزين ، إذا احتاج إليهما ، وأن يعبر الحمام، فأذن له فى ذلك)(٢) ، ثم سمح لهما بمغادرة دمشق ، فسارا سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م إلى الملك الناصر داود صاحب الكرك ، فاستقر الشيخ أبى عمرو بن الحاجب عنده فى حين سار الشيخ ابن عبد السلام إلى مصر (فتلقاه صاحبها أيوب بالاحترام والإكرام ، وولاه خطابة القاهرة ، وقضاء مصر)(٣) وقال أبو الفداء : إن المسلمين أنكروا معاضدة الصالح إسماعيل للعدو وتسليم البلاد لهم (وأن يكونوا معه على ابن أخيه الصالح أيوب فعظم ذلك على المسلمين ،وأكثر الشيخ عز الدين بن عبد السلام التشنيع على الصالح إسماعيل بسبب ذلك)(٤) .

وذكر أبو المحاسن أن القاضى جمال الدين ابن واصل أثناء مروره بمدينة القدس سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م رأى أن الصليبيين قد غيروا طابع المدينة الإسلامى وقال : (وسافرت أنا إلى مصر ، ودخلت القدس فرأيت الرهبان

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٠٤) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٥٥) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٠٤) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٥٥) .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٥٥) ، أبو الفداء : المختصر - ج ٣ ص (١٦٩) .

(٤) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٦٩) .

على الصخرة ، وعليها قناني الخمر ، ورأيت الجرس في المسجد الأقصى وأبطل الأذان بالحرم وأعلن الكفر)(١) .

هزيمة الصليبيين قرب غزة سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م :

لم يكتف الصالح إسماعيل بما قدم للصليبيين من بلاد الإسلام ،وخصوصاً مدينة القدس ، بل قاتل الملك الناصر داود صاحب الأردن والكرك (وانكسر الناصر ، وانهزم إلى الكرك ، وأخذ الصالح أثقاله ، وأسر جماعة من أصحابه وكان الناصر داود قد استرد القدس من أيدي الصليبيين ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م ، ولم يتوقف صاحب دمشق عن تدعيم علاقاتهمع العدو الصليبي (فبعث يطلب نجدات الفرنج ، على أنه يعطيهم جميع ما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف)(٢) ، وذكر أبو المحاسن أن الصالح إسماعيل وعدهم (إذا ملك مصر أعطاهم بعضها ، فتجمعوا وحشدوا وسارت عساكر الشام إلى غزة)(٣) واجتمعت بذلك القوات الشامية مع الصليبيين قرب غزة يريدون الهجوم على مصر والاستيلاء عليها ، ولكن الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر لما بلغه خبر تحركات القوات الشامية ومعاضدتها للصليبيين أرسل قواته من مصر إلى غزة لقتالهم (وعندما تقابل العسكران ساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة ومالوا جميعاً على الفرنج ، فهزموهم وأسروا منهم خلقاً لا يحصون)(٤) ، وكان جند الشام من المسلمين الذين ارتاعوا وأنكروا على أنفسهم الوقوف إلى جانب الصليبيين ضد إخوانهم المسلمين المصريين ، فتركوا مواضعهم وانضموا إلى جانب القوات المصرية على الرغم من بقاء قادتهم إلى جانب العدو وهذا موقف لابد منه ، إذ أن الوقوف إلى جانب الأعداء ضد المسلمين أمر غير مقبول في الإسلام علاوة على منافاته للروابط التي تجمع المسلمين وتجعل منهم أمة واحدة .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٢ – ٣٢٣) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٢) .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص (٣٠٤) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٢)

(٤) المقريزي : السلوك ج ١ ص (٣٠٤ – ٣٠٥) .

وكان من نتائج هذه الموقعة إن تراجعت القوات الصليبية إلى عسقلان وبدأت الاتصالات مع الملك الصالح نجم الدين أيوب من أجل إبرام اتفاقية مهادنة . وتم عقد الهدنة مع الصليبيين سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م وأطلق الأسرى من الصليبيين الذين كانوا بمصر ، وكان الصالح نجم الدين يريد بذلك تجنب الدخول فى معارك مع الصليبيين وهو فى نفس الوقت على خلاف مع صاحب دمشق وبعض ملوك الأيوبيين فى الشام،وحتى لا يعطى العدو فرصة التحالف مع بعض خونة المسلمين ، ولكى يستفيد من المصالحة مع العدو فى إعداد القوة اللازمة للجهاد ، والعمل على إقرار الأحوال فى داخل البلاد(١) وخصوصاً أن حملة صليبية إنجليزية وصلت إلى عكا فى ١١/ ١٠/ ١٢٤٠ م / ٦٣٨ هـ بقيادة ريتشارد كورنوول ــ أخو هنرى الثالث ملك إنجلترا(٢) : الذى بدأ فى تحصين البلاد الصليبية عموماً وعسقلان خصوصاً لتقوية استحكامها باعتبارها من المواقع الرئيسية التى تواجه أى جيش قادم من جهة مصر ، وشعر الملك الصالح نجم الدين أيوب بخطورة هذه التحصينات ولذلك اعترف (بحق الصليبيين فى ملكية الشقيف أرنون وإقليم الجليل وبيت المقدس وبيت لحم ومجدل يابا وعسقلان ، وهذه البلاد تنازل عنها الصالح إسماعيل ملك دمشق وأعطاها للصليبيين فى مقابل مساعدته ضد الصالح نجم الدين أيوب فى مصر . وأقام ريتشارد كورنوول فى فلسطين حتى ٣/ ٥/ ١٢٤١ م / ٦٣٩ هـ ثم غادرها إلى بلاده . ولم يلبث الخلاف أن نشب من جديد بين الصليبيين ، إذ رفض الفرسان الداوية أن يلتزموا بالمعاهدة التى انعقدت مع الصالح أيوب ، فأغاروا فى ربيع سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م على مدينة الخليل الإسلامية ،وقام الملك الناصر داود صاحب الكرك بعمل انتقامى ضد الصليبيين ، بأن أرسل العساكر لقطع الطريق المؤدى إلى بيت المقدس . ولجباية الرسوم من الحجاج والتجار الذين يجتازونه ، فأثار هذا العمل فرسان الداوية المتعصبين وخرجوا بقواتهم وهاجموا نابلس فى يوم الجمعة الموافق ٤ / ٥ / ٦٤٠هـ / ٣٠ / ١٠ / ١٢٤٢ م واستباحوها (فأحرقوا المسجد الجامع وقتلوا عدداً كبيراً من السكان (ولم يكن السلطان الصالح أيوب

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٠٥) .
(٢) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص (١٠٣٩) .

مستعداً للقتال ، فاكتفى بإرسال جيش قوى حاصر يافا فترة من الزمن ، وذلك إنذاراً للصليبيين لما يجرى فى المستقبل ، وخصوصاً أن الانقسام بين الصليبيين ينذر بالخطر . فالمنازعات بين فرسان الداوية وفرسان الاسبتارية لم تتوقف وتصرفت الطوائف الدينية العسكرية على أنها جمهوريات مستقلة ، فأحدث ذلك اضطراباً فى البلاد الصليبية(١) .

تحالف أمير دمشق مع الصليبيين سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م :

لم يتوقف الصالح إسماعيل أمير دمشق عن معاداة الصالح أيوب صاحب مصر ، وعلى الرغم من وجود العدو الصليبى فى بلاد الإسلام ، فإن الاختلاف استمر سنوات طويلة حتى كانت سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م وفيها تكررت الاتصالات والمراسلات بين دمشق والقاهرة من أجل وضع حد لتلك المنازعات ، واتفق أخيراً : (على أن تكون دمشق وأعمالها للصالح إسماعيل ومصر للصالح أيوب ، وكل من صاحب حمص وحماة وحلب على ما هو عليه وأن تكون الخطبة والسكة فى جميع هذه البلاد للملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأن يطلق الصالح إسماعيل الملك المغيث فتح الدين عمر ابن الملك الصالح نجم الدين من الاعتقال . . . وأن ينتزع الصالح إسماعيل الكرك من الملك الناصر داود)(٢) وسار من القاهرة إلى دمشق الخطيب أصيل الدين الاسعردى — إمام السلطان — فى جماعة من الأمراء ، وخطب للسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بجامع دمشق وبحمص ، وأفرج عن المغيث عمر ابن السلطان ، وأرسل الصالح إسماعيل وصاحب حمص وصاحب حلب سفراءهم إلى القاهرة لإبرام الاتفاق النهائى بين الملوك الأيوبيين (فقدموا على الملك الصالح نجم الدين ، ولم يقع اتفاق ، وعادت الفتنة بين الملوك)(٣).

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣١٠ — ٣١١) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٣٨٠ — ٣٨٥) .
Sotton, vol, 2, pp,480- 484,

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣١٤) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٦٢) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣١٤) .

واتفق الناصر داود صاحب الكرك مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق (على محاربة الملك الصالح نجم الدين) وتحالف هؤلاء مع الصليبيين وأرسلوا الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص نائباً عنهم للتفاوض مع الصليبيين وليعرض عليهم بالنيابة عن الحلفاء نصيبهم فى مصر، حينما تحل الهزيمة بالصالح نجم الدين أيوب وتسقط مصر فى أيدى الحلفاء (وجرى استقبال الأمير المسلم (صاحب حمص) بكل مظاهر التشريف) وكان فرسان الداوية يحرضون أمراء الصليبيين على الوقوف إلى جانب الصالح إسماعيل صاحب دمشق ضد صاحب مصر، ورحبوا بالتعاون مع خونة المسلمين ولهذا (تكفل الداوية بمعظم الضيافة) لأمير حمص الذى حضر بنفسه إلى عكا لإبرام هذا الاتفاق(١).

الخوارزميون يحررون القدس سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م :

علم صاحب مصر بما جرى بين الصليبيين وبعض ملوك الإسلام فى بلاد الشام من اتفاق على محاربته، فاضطر إلى البحث عن حليف قوى فوجد فى الخوارزميين ما يحقق هذا الغرض. وكان الترك الخوارزميين ظلوا منذ وفاة السلطان جلال الدين خوارزمشاه يجوبون بلاد الجزيرة فى العراق وشمال بلاد الشام، هرباً من التتار وتعاون ملوك الشام على الوقوف فى طريقهم والقضاء عليهم لما اتصفوا به من تدمير وتخريب أثناء مسيرهم إلى الغرب، واستطاع حلف من أمراء الأيوبيين بالشام أن يوقع بهم هزيمة كبيرة سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م بموضع قريب من الرها. غير أن الخوارزميين أقاموا لهم مراكز فى القرى الواقعة بين الرها وحران، ولا زالوا مستعدين لأن يعرضوا خدماتهم على كل من يبذل لهم الأرزاق، وكان الصالح نجم الدين على صلة بهم، ويراسلهم، فدعاهم أخيراً للإغارة على بلاد دمشق وفلسطين للانتقام من أعدائه، فقطعوا نهر الفرات (وهم زيادة على عشرة آلاف مقاتل)(٢)، فسارت منهم فرقة على بقاع بعلبك، وفرقة على غوطة دمشق،

---

(١) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٣٨٩ - ٣٩٠)، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣١٤ - ٣١٥)، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٢).

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص(٣١٦)، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣(١٦٢).

وتحصن الصالح إسماعيل بدمشق وضم عساكره إليه بعد ما كانت قد وصلت غزة تريد قتال الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ثم زحف الخوارزميون نحو مدينة القدس بعد أن اجتازوا نابلس ، وأدرك الصليبيون فجأة ما يحيق بهم من الخطر ، وأرسلوا التعزيزات الدفاعية لمدينة القدس ، ولكن المجاهدين الخوارزميين اقتحموا مدينة القدس فى يوم ١١/٧/١٢٤٤ م / الموافق صفر ٦٤٢ هـ ووقع القتال فى الشوارع ، وبذل المجاهدون السيف فى كل من فى القدس من النصارى (حتى أفنوا الرجال وسبوا النساء والأولاد) وقتل حاكم المدينة الصليبي ومقدم فرسان الاسبتارية وعدد كبير من الرهبان والراهبات الذين شاركوا فى القتال ، وكان أن انقطعت الإمدادات عن مدينة القدس من جانب الصليبيين ، فاستغاث حاكم القدس الصليبي بالملك الناصر داود صاحب الكرك (أقرب الخلفاء المسلمين إليهم) على أن الناصر لم يكن يميل للصليبيين ، وكره الحاجة إلى التحالف معهم فلم ينجدهم ، فاضطرت حامية مدينة القدس التى اعتصمت بالقلعة إلى الاستسلام ، وفى ٢٣/٨/١٢٤٤ م / ٦٤٢ هـ غادر القدس حوالى ستة آلاف من المسيحيين من الرجال والنساء والأطفال (وتركوها للخوارزمية) وحاول بعضهم العودة إلى القدس عندما رأوا بعض أعلام الصليبيين ترفرف فوق أبراج القدس ، واعتقدوا أن نجدة صليبية قد وصلت إليهم ، غير أن الذين رجعوا تحت هذا الوهم وقعوا فى كمين تحت أسوار المدينة ، أعده المسلمون ، فهلك نحو ألفين منهم ، ومن هرب نجا بنفسه فلم يصل إلى يافا منهم سوى ثلاثمائة رجل ، وبهذا تم تحرير مدينة القدس على أيدى المجاهدين الخوارزميين ولم يدخل أبوابها جيش مسيحى إلا بعد حوالى سبعة قرون أثناء الحرب (١) العالمية الأولى .

موقعة غزة سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م :

تابع الخوارزميون تقدمهم بعد تحرير القدس ، وساروا إلى غزة للاجتماع مع القوات المصرية ، وأرسلوا يخبرون الصالح نجم الدين أيوب

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣١٦) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٦٤) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٣٩٠ – ٣٩٣) .

بقدومهم . وكان قد دعاهم للقدوم إليه (لنصرته على عمه الصالح إسماعيل (فأمرهم بالإقامة فى غزة ووعدهم ببلاد الشام بعد ما خلع على رسلهم (وسير إليهم الخلع والخيل والأموال)(١) واجتمعت القوات الخوارزمية مع الجيش المصرى فى غزة فى حين أعد الصالح إسماعيل (عسكراً من دمشق عليه الملك المنصور صاحب حمص (لقتال جيش الصالح نجم الدين أيوب ، وتقدم الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص بالقوات الشامية . وسار إلى مدينة عكا (وأخذ الفرنج ليحاربوا معه عساكر مصر ، وساروا نحو غزة ، وأتتهم نجدة الناصر داود صاحب الكرك (٢) ووعدوا الصليبيين بجزء من بلاد مصر إذا ما تم الاستيلاء عليها ، فخرج الصليبيون معهم (بالفارس والراجل) وسارت القوات المتحالفة نحو الجنوب فى ٤/ ١٠/ ١٢٤٤ م / ٦٤٢ هـ وقد سلكت الطريق الساحلى ، فالتقى الجيشان فى يوم ١٧/ ١٠/ ١٢٤٤ م / ٦٤٢ هـ قرب غزة ، وكان فى ميمنة العدو القوات الصليبية . وفى الميسرة عسكر الكرك ، وفى القلب الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص . وهاجمت قوات الحلفاء الجيش المصرى والخوارزميين . فقام الجيش المصرى برد هجوم الصليبيين فى حين هاجم الخوارزميون قوات المسلمين المحالفين للصليبيين (ودارت بين الفريقين حرب شديدة) فانكسر الملك المنصور إبراهيم وفر الوزيرى قائد جيش الكرك (وأحاط الخوارزمية بالفرنج ، ووضعوا فيهم السيف حتى أتوا عليهم قتلا وأسراً ، ولم يفلت منهم إلا من شرد ، فكان عدة من أسر منهم ثمانمائة رجل ، وقتل منهم ومن أهل الشام زيادة على ثلاثين ألفاً)(٣) .

---

(١) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٢) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣١٦) ، أبوالمحاسن: النجوم الزاهرة ج٦ ص(٣٢٣) ، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٣ص(٣٩٣).

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣١٦ – ٣١٧) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣١٧) ، وانظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٣) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٢) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٦٥) ، انظر أيضاً : تراجم رجال القرنين ص (١٧٤) ، الإنس الجليل ج ٢ ص (٣٦٢) ، الذهبى : دول الإسلام ج ٢ ص (١١٢) ، السلامى : مختصر التواريخ — ورقة (٦٤ أ – ٦٤ ب) ، ثم انظر :
sêtton, vol, 2 p, 489, Rothelin : p, 564; Eracles, pp, 429-430,

وعلى الرغم من أن جيش الصليبيين فى هذه الموقعة يعتبر أضخم جيش مسيحى اجتمع فى ساحة القتال بعد موقعة حطين ، فإن الكثرة لم تغنى عنهم شيئاً (ففى ساعات قليلة تحطم كل جيشهم) وقتل معظم قادتهم وأسر بعضهم وهرب من استطاع إلى ذلك سبيلا(١) ومن بين الذين هربوا الملك المنصور صاحب حمص ، ورجع إلى دمشق وقال ابن واصل : (حكى لى عن المنصور أنه قال : والله لقد قصدت ذلك اليوم ، ووقع فى قلبى أنه لا ننتصر لانتصارنا بالفرنج — قلت : عليه من الله ما يستحقه من الخزى . وإيش يفيد تقصيره . بعد أن صار هو والفرنج يداً واحدة على المسلمين ؟ قال : ووصلت عسكر دمشق معه فى أسوأ حال)(٢) ، وذكر المقريزى أن الصليبيين رفعوا (الصلبان على عسكر دمشق . وفوق رأس المنصور صاحب حمص ، والأقسة تصلب وبأيديهم أوانى الخمر تسقى الفرسان)(٣) وهذا موقف غريب من المسلمين الذين حالفوا الصليبيين . وقد جانبوا الصواب بفعلهم هذا ، واستنكر المسلمون ذلك لأن تحالفهم ضـــد المسلمين من الأمور التى تحرمها الشريعة الإسلامية .

أما عن الغنائم ، فقد حاز (الخوارزمية من الأموال ما يجل وصفه) وقدمت على الصالح أيوب أخبار الانتصار على الصليبيين فى غزة ، فدقت البشائر فى ١٥/٥/٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م ، وأمر بزينة القاهرة ومصر وظواهرها وقلعتى الجبل والروضة (فبالغ الناس فى الزينة ، وضربت البشائر عدة أيام ، وقدمت أسرى الفرنج ورءوس القتلى ومعهم الظهير بن سنقر (أحد قادة جيش الكرك) وعدة من الأمراء والأعيان ، وقد أركب الفرنج الجمال .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣١٨) ، د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (٥٠) ، رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٣٩٤ — ٣٩٥) ، وراجع أيضاً : Matt, paris : I, p, 491-496

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٣ — ٣٢٤) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣١٧) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٦٥) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣١٧) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٦٤ — ١٦٥) .

ومن معهم من المقدمين على الخيول ، وشقوا القاهرة فكان دخولهم يوماً مشهوداً ، وعلقت الرءوس على أبواب القاهرة وملأت الحبوس بالأسرى)(١).

وكانت مواكب الانتصار تدل على الكارثة التى لحقت بالصليبيين فى موقعة غزة ، والتى أطلق عليها اسم حطين الثانية ، إذ فقد العدو معظم قواته (ومن الذين لقوا مصرعهم مقدم فرسان الداوية الصليبيين ومارشالهم ، ورئيس أساقفة صور ، وأسقف الرملة ، وسيدا البترون ، ووقع فى الأسر ، كونت يافا ، ومقدم الاسبتارية ، وكند سطبل طرابلس ولاذ بالفرار إلى عسقلان ، فيليب مونتفورت والبطريرك ، ولحق بهما من بقى على قيد الحياة من فرسان الطوائف الدينية العسكرية ، منهم ثلاثة وثلاثون من الداوية ، وسته وعشرون من الاسبتارية)(٢) .

ومن نتائج موقعة غزة أن تقدمت القوات المصرية بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى الصالحى(٣) ومعه الأمير ابن أبى على وهاجموا عسقلان ، (فامتنعت عليهم لحصانتها) ، ثم ساروا إلى نابلس (واستولت نواب الملك الصالح نجم الدين على غزة والسواحل ، والقدس والخليل ، وبيت جبريل والأغوار ، ولم يبق بيد الناصر داود سوى الكرك والبلقاء والصلت ، وعجلون)(٤) .

استيلاء الصالح أيوب على دمشق :

رأى السلطان الصالح أيوب ضرورة تأديب الصالح إسماعيل لمحالفته الصليبيين ، فبعد هزيمة الصليبيين وحلفائهم من المسلمين فى موقعة غزة ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣١٧) ، وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٦٥) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٤) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٢) ، تراجم رجال القرنين ص (١٧٤) ، الإنس الجليل ج ٢ ص (٣٦٢) ، السلامى : مختصر التواريخ ورقة (٦٤ أ) .

(٢) رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص (٣٩٥ — ٣٩٦) ، انظر :
Rothelin: p. 564.

(٣) ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى هو غير بيبرس البندقدارى الظاهرى ، وإنما هذا أيضاً على اسمه وشهرته ، وهذا أكبر من الظاهر بيبرس وأقدم ، وقبض عليه الملك الصالح بعد ذلك وأعدمه .

انظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٢) .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣١٨) .

خرجت القوات من مصر بقيادة معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ (وأقامه السلطان مقام نفسه) ورفع من مكانته وكتب إلى الخوارزمية أن يسيروا فى خدمته فانضاف إليه الخوارزمية فى غزة. وسار الجميع إلى بيسان ثم تقدموا إلى دمشق لحصارها (فبعث الصالح إسماعيل إلى ابن شيخ الشيوخ بسجادة وإبريق وعكاز، وقال له: (اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بقتال الملوك)، فلما وصل ذلك إليه جهز إلى الصالح إسماعيل جنكاً وزمراً وغلالة حرير. وقال: (السجادة والإبريق والعكاز يليقون بى، وأنت أولى بالجنك والزمر والغلالة) وحاصر معين الدين دمشق وضايقها (إلى أن أحرق قصر حجاج فى ثانى محرم سنة (٦٤٣ هـ) ورمى بالمجانيق وألح بالقتال(١). فأحرق الصالح إسماعيل فى ثلاثة (محرم) عدة مواضع، ونهبت أموال الناس. وجرت شدائد(٢)، فاضطر الصالح إسماعيل ومعه المنصور صاحب حمص إلى طلب الصلح شريطة أن يسلم الصالح إسماعيل دمشق (على أن يخرج منها هو والمنصور بأموالهم ولا يعترض لأحد من أصحابهم ولا لشىء مما معهم، وأن يعوض الصالح عن دمشق ببعلبك وبصرى وأعمالها وجميع بلاد السواد، وأن يكون للمنصور حمص وتدمر والرحبة) فأجابها معين الدين ابن شيخ الشيوخ قائد جيش الصالح نجم الدين أيوب وحلف لهم (فخرج الصالح إسماعيل والمنصور من دمشق)(٣) ودخل معين الدين دمشق فى يوم الاثنين ٨/٥/٦٤٣ هـ — أواخر سبتمبر ١٢٤٥ م ومنع القوات الخوارزمية من دخول دمشق (ودبر الأمر أحسن تدبير وأقطع الخوارزمية الساحل بمناشير كتبها لهم، ونزل فى البلد، وتسلم الطواشى شهاب الدين رشيد القلعة، وخطب بها وبجامع دمشق وعامة أعمالها للملك الصالح

(١) وهو محلة كبيرة فى ظاهر باب الجابية من مدينة دمشق. وترجع نسبتها إلى حجاج ابن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، ياقوت: معجم البلدان ج ٤ ص (١١٠).

(٢) المقريزى: السلوك ج ١ ص (٣١٩ — ٣٢٠)، أبو الفداء: المختصر ج ٣ ص (١٧٤)، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٦٦)، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٤).

(٣) المقريزى: السلوك ج ١ ص (٣٢١)، أبو الفداء: المختصر ج ٣ ص (١٧٤)، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٤)، ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٦٦).

نجم الدين ، وسلم أيضاً الأمير سيف الدين على بن قلج قلعة عجلون لأصحاب الملك الصالح ، وقدم إلى دمشق) ولما علم الصالح أيوب بالاتفاق المذكور وخروج الصالح إسماعيل من دمشق غضب على الأمراء وأنكر عليهم (كيف مكنوا الصالح إسماعيل من بعلبك)(١) .

ولكن المشكلة الخطيرة التي واجهت السلطان الصالح نجم الدين عقب أخذه دمشق تمثلت في الخوارزمية (فإنهم ظنوا أن السلطان إذا انتصر على عمه الملك الصالح إسماعيل يقاسمهم البلاد ، فلما منعوا من دمشق . وصاروا في الساحل وغيره من بلاد الشام ، تغيرت نياتهم ، واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان)(٢) وسار الخوارزمية إلى داريا(٣) وانتهبوها (وكاتبوا الأمير ركن الدين بيبرس وهو على غزة بعسكر جيد من عسكر مصر . وحسنوا له أن يكون معهم يداً واحدة وزوجوه منهم ، فمال إليهم . وكاتبوا الناصر داود صاحب الكرك ، فوافقهم ونزل إليهم واجتمع بهم وتزوج منهم وعاد إلى الكرك واستولى على ما كان بيد الأمير حسام الدين بن أبي علي(٤) من نابلس والقدس والخليل ، وبيت جبريل والأغوار)(٥) وهذا يعني تشكيل تحالف معادى للسلطان الصالح أيوب صاحب مصر من ناحية ، وضياع البلاد التي أخذها في بلاد الشام وخصوصاً القدس من ناحية ثانية وخطورة موقف دمشق من ناحية ثالثة ، لا سيما أن الصالح إسماعيل كاتب الخوارزمية وقدم إليهم وطلب منهم المحالفة والمعونة (فحلفوا له على القيام

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٢١) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٢٢) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٤٣٤) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٦٦ - ١٦٧) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٤) .

(٣) داريا وهي قرية كبيرة بالغوطة من قرى دمشق ، ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ص (٥٣٦) .

(٤) نائب السلطان الصالح أيوب في بلاد الشام ويتولى حفظ دمشق بعد وفاة الصاحب معين الدين ابن شيخ الشيوخ بدمشق في ٦٤٣/٩/٢٢ هـ .

انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٢١ - ٣٢٢) .

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٢٢) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٤) .

بنصرته ونازلوا دمشق) ولكن الأمير حسام الدين بن أبي على قام بحفظ البلد أحسن قيام ، وشدد الصالح إسماعيل والخوارزمية الحصار على دمشق وضايقوها (وقطعوا عنها الميرة فاشتد الغلاء بها ، وبلغت الغرارة القمح إلى ألف وثمانمائة درهم فضة ومات كثير من الناس جوعاً ، وباع شخص داراً قيمتها عشرة آلاف درهم بألف وخمسمائة درهم اشترى بها غرارة قمح . فقامت عليه فى الحقيقة بعشرة آلاف درهم ، وأبيع الخبز كل أوقية وربع بدرهم واللحم كل رطل بسبعة دراهم . ثم عدمت الأقوات بالجملة . وأكل الناس القطاط والكلاب والميتات ، ومات شخص بالسجن فأكله أهل السجن وهلك عالم عظيم من الجوع والوباء ، واستمر هذا البلاء ثلاثة أشهر)(١) .

وعلى الرغم من الأزمة الاقتصادية فى دمشق والوباء والحصار الشديد فإن النائب بها لم يفكر فى الاستسلام ، وكان الصالح أيوب مجتهد (فى أعمال الحيل والتدبير ، وما زال بالمنصور إبراهيم صاحب حمص حتى مال إليه . واتفق أيضاً مع الحلبيين على محاربة الخوارزمية (، فخرج السلطان الصالح أيوب من القاهرة بعساكر مصر) فلما بلغ الخوارزمية مسير السلطان من مصر ، ومسير الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص بعساكر حلب ، رحلوا عن دمشق يريدون لقاء المنصور فوجد أهل دمشق برحيلهم فرجاً ، ووصلت إليهم الميرة وانحل السعر)(٢) .

وأرسل السلطان الصالح أيوب سنة ٦٤٤ هـ / ١٢٤٦ م القاضى نجم الدين محمد بن سالم النابلسى المعروف بابن قاضى نابلس إلى مماوكه الأمير ركن الدين بيبرس من أجل مصالحته (فما زال يخدعه ويمنيه ، حتى فارق الخوارزمية ، وقدم معه إلى ديار مصر ، فاعتقل بقلعة الجبل ، وكان آخر

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٢٢) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٦٦ - ١٦٧) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٤) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٥) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٢٣) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٦٧) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٥) .

العهد به)(١) وبهذا التدبير استطاع السلطان الصالح نجم الدين أن يضعف جانب خصومه ، الملك الصالح إسماعيل والخوارزمية ، وأخيراً استطاع الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص وعساكر حلب (وقد انضم إليهم عرب كثير وتركمان ، نصرة للملك الصالح نجم الدين) أن يهاجم الخوارزمية فى المحرم سنة ٦٤٤ هـ / مايو ١٢٤٦ م بظاهر حمص (فكانت بينهم وقعة عظيمة انهزم فيها الخوارزمية هزيمة قبيحة ، تبدد منها شملهم ، ولم تقم لهم بعدها قائمة)(٢) وقتل مقدمهم بركة خان وأسر كثير منهم وهرب بعضهم إلى جهة التتار وبعضهم انضم إلى الملك الناصر داود صاحب الكرك ، وسار بعضهم إلى نابلس فاستولوا عليها ، وسار الملك الصالح إسماعيل حليفهم إلى حلب ومعه جماعة من الخوارزمية ، فأنزله الملك الناصر يوسف بن العزيز بن الظاهر غازى صاحب حلب وأكرمه ، وقبض على من قدم معه من الخوارزمية(٣). ووصلت البشائر بهذه الهزيمة إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى المحرم سنة ٦٤٤ هـ / مايو ١٢٤٦ م (فزينت القاهرة ومصر والقلعتان)(٤) .

وتم الصلح بين الملك الصالح نجم الدين أيوب وبين الملك المنصور إبراهيم ابن شركوه صاحب حمص والملك الناصر يوسف صاحب حلب وأما الملك الصالح إسماعيل فلم يبق بيده (بلد يأوى إليه ولا أهل ولا ولد ولا مال ، بل أخذت جميع أمواله ونقلت عياله تحت الحوطة إلى الديار المصرية) فى حين

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٢٣) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٥) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٢٣ - ٣٢٤) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٦٧) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٥) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٥) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٢٤) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٦٧) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٥) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٥ - ٣٢٦) .

(٤) يقصد بالقلعتان : قلعة الجبل ، وقلعة الروضة بالقاهرة وانظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٢٤) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٦) .

بقى الصالح إسماعيل فى ضيافة ابن أخته الملك الناصر يوسف بن العزيز ابن الظاهر غازى صاحب حلب (فآواه وأكرمه واحترمه)(١) .

وأما نائب دمشق فإنه سار إلى بعلبك وبصرى وتسلمها (وصفت البلاد للملك الصالح . وبقى الملك الناصر داود بالكرك فى حكم المحصور) وأرسل الملك الصالح نجم الدين بعض القوات لقتاله . واستطاعت هذه القوات إلحاق الهزائم بالناصر داود فى الصلت فى ٢٧/ ٤/ ٦٤٤ هـ – سبتمبر سنة ١٢٤٦ م وهرب إلى الكرك فحاصرها الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ قائد قوات الصالح أيوب وخرب ما حولها ، واستولى على البلقاء (وأضعف الناصر حتى سأله الأمان) بعد أن سيطر جيش الملك الصالح أيوب على كل بلاده وخضعت لنوابه . وبهذا دانت ، بلاد الشام للسلطان الصالح نجم الدين أيوب(٢) . وقام بزيارة لبلاد الشام والقدس ودعم تحصيناتها وأقر الأمور فى البلاد ، وكان خليفة بغداد قد أرسل له تقليداً بالبلاد التى تحت حكمه فزاد ذلك من مكانته بين المسلمين (٣) .

ولم يتوقف السلطان عن الجهاد ضد الصليبيين ، بل أخذ فى توجيه الضربات الشديدة إلى باقى ممتلكات الصليبيين فى بلاد الشام . واستغل سوء أحوال الصليبيين واختلافهم (فى سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م أرسل الصالح أيوب الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالعسكر إلى طبرية وعسقلان ، فنازلها وأخذها من الفرنج) وهدم ما استجده الفرنج بهما من القلاع والحصون(٤) .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٦٧ – ١٦٨) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٢٤) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٢٤ – ٣٢٥) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٦) ، ثم انظر أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٥) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٢٣ – ٣٢٧) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٧٣) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ض (٣٢٥) .

(٤) د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (٥٠ – ٥١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٢٧ – ٣٢٨) ، انظر أيضاً تراجم رجال القرنين ص (١٨٠) ، ابن خلدون : العبر ج ٥ ص (٣٥٨ – ٣٥٩) ، الإنس الجليل ج ٢ ص (٣٦٣) ، الذهبى : دول الإسلام ج ٢ ص (١٥١) ، مخطوط عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٢٨٨) ، العمرى : مسالك الأبصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة (٢٦٤) ، وانظر : Röthelin : p. 565

الحملة الصليبية السابعة على مصر :

كان من آثار انتصار المسلمين على الصليبيين فى غزة وتبديد القوات الصليبية وقوات الشام المتحالفة معهم ، وسقوط مدينة بيت المقدس فى أيدى المسلمين سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م ، واستسلام طبرية وعسقلان أن ثار شعور بعض الأوربيين فى الغرب ، وبدأوا يفكرون فى وسيلة لاسترداد القدس وتأديب المسلمين والثأر منهم وبعث القوة الصليبية فى الشرق من جديد . وزاد فى حماسة هؤلاء ما سمعوه من أخبار من أن الخوارزمية عذبوا النصارى وهدموا المعابد والكنائس ونبشوا قبور الموتى ، فكان كل ذلك باعثاً على فزع لويس التاسع ملك فرنسا وأهل الغرب ، وسبباً فى إثارة شعورهم ودفعهم للانتقام والثأر من المسلمين ، وخصوصاً أن باقى الممتلكات الصليبية فى الشام باتت مهددة بالسقوط فى أيدى المسلمين .

وكان لويس التاسع المعروف بحماسته الدينية وتقواه وورعه حتى أطلق عليه المعاصرون اسم القديس ، قد تعهد بحمل الصليب والمسير لغزو الأراضى المقدسة وانقاذ الصليبيين ، بعد أن أرسل الصليبيون فى الشرق رسلهم إلى الغرب يطلبون النجدات وإلا فإن باقى ممتلكاتهم فى الشرق لن يكتب لها البقاء طويلا . كذلك أنفذ روبرت بطريق بيت المقدس إلى أمراء الغرب سفارة برئاسة والبران أسقف بيروت تستحثهم بالنهوض بحملة صليبية ضد المسلمين فى الشرق وتمكن رسل الصليبيين من نشر أبلغ دعاية للحرب الصليبية وخصوصاً فى فرنسا ، وأصدر البابا أنوسنت الرابع المراسيم البابوية لحض الناس على الاشتراك فى حملة صليبية ، ووعد كل من يشارك فى الحرب فى سبيل الأراضى المقدسة بالغفران التام عن خطاياه والتكفير عن آثامه وذنوبه بمجرد انضمامه إلى سلك الحرب الصليبية(١) .

وبدأت الاستعدادات فى فرنسا من أجل القيام بالحملة ، ولكن الامبراطور الألمانى فردريك الثانى الذى تربطه مع السلطان الصالح أيوب علاقة طيبة كما كان مصافياً للملك الكامل محمد من قبله . فقد أرسل سراً يخبر الملك

---

(١) د . جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص ص (٤٩ - ٥٦) ، ثم انظر :
Rohtelin : p. 565

الصالح بحركة الصليبيين ، وأن لويس التاسع عازم على المسير بقواته الكثيرة إلى مصر لامتلاكها باعتبارها مركز قوة المسلمين ، وذكر ابن أيبك أن الامبراطور بعث برسالة إلى السلطان(يعرفه بوصول الفرنسيس إليه وطالب لثغر دمياط) ومعه خلق كثير ويشير فى رسالته أنه بذل جهوده من أجل رده عن قصده (وخوفته فلم يرجع لقولى . فكن منه على حذر)(١) حدث هذا من الامبراطور على الرغم من أنه كان يمد لويس التاسع والصليبيين بالمساعدات المادية ، وكانت علاقته مع لويس التاسع طيبة (ويرغب فى الاستيلاء على الأراضى المقدسة . أما عن موقفه بإفشاء أسرار الحملة فسببه العلاقة الطيبة التى كانت بينه وبين الملك الكامل محمد وابنه الصالح أيوب من بعده . والتى كانت قائمة على الود وحسن التفاهم(٢) .

ومهما كان الأمر فإن السلطان الصالح أيوب علم بحركة الصليبيين وهو فى بلاد الشام وأنهم يقصدون مصر ، فعاد مسرعاً إليها ونزل بأشموم طناح(٣) فى يوم الثلاثاء ٣ / ٢ / ٦٤٧ هـ الموافق ١٨ / ٥ ١٢٤٩ م (ليكون فى مقابلة الفرنج إذا وصلوا إلى دمياط)(٤) وبدأ فى الاستعداد لمواجهة العدو وأعداد المجاهدين للدفاع عن البلاد ، وحصن مدينة دمياط باعتبارها هدفاً للصليبيين فى الحملات السابقة التى قصدوا فيها مصر . وباعتبارها قفل الديار المصرية من هذه الناحية (وجمع فى دمياط من الأقوات والأسلحة شيئاً كثيراً ، وبعث إلى الأمير حسام الدين بن أبى على نائبه بالقاهرة أن يجهز الشوانى (الأسطول) من صناعة مصر . فشرع فى تجهيزها ، وسيرها شيئاً بعد شىء) وهذا يدل على إدراك السلطان لأهمية القوات البحرية فى مواجهة العدو ودور الأسطول الإسلامى فى حماية الشواطئ الإسلامية ، ولم يكتف السلطان بهذا

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ج ٧ ورقة (٣٦٤ - ٣٦٥) ، وانظر أيضاً :
Grousset : Crois, II1,p. 427

(٢) د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (٧٨ - ٧٩) .

(٣) أشموم طناح إحدى المدن المصرية القديمة وهى تقع على الشاطىء الشرقى للبحر الصغير الذى كان يسمى وقتذاك بحر أشموم نسبة إلى هذه المدينة .

انظر : د . جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص (٨١) حاشية ٤ .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٢ - ٣٣٣) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٨-٣٢٩) .

بل (عهد إلى طائفة بنى كنانة ، وهم قوم مشهورون بالشجاعة والإقدام ، بحماية المدينة من الداخل والدفاع عنها ضد غائلة المعتدين)(١) وقال أبو المحاسن (فشحنت دمياط وأحكمت الشوانى) وكان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ قد نزل بالعساكر على البر الغربى لمدينة دمياط فى انتظار العدو (٢) . وصار النيل يفصل بين دمياط وقوات الأمير فخر الدين ، وكان المرض قد اشتد على السلطان ولم يقدر على الحركة ونودى فى مصر : (من كان له على السلطان أو عنده له شئ . فليحضر ليأخذ حقه) . فطلع الناس وأخذوا ما كان لهم ، وكان عند مغادرته دمشق إلى الديار المصرية فى المحرم ٦٤٧ هـ / إبريل ١٢٤٩م قد نادى المنادى فى دمشق : (من له عندنا شئ فيأت ، فاجتمع خلق كثير بالقلعة ، فدفعت إليهم أموالهم)(٣) لأن فى رد الحقوق إلى أصحابها قوة للسلطان فى مواجهة العدو ومغفرة وسعادة فى الآخرة .

تقدم القوات الصليبية من قبرص نحو مصر واحتلال دمياط :

اجتمعت القوات الصليبية فى قبرص ، وبقيت بها ثمانية أشهر تقريباً على الرغم من رغبة الملك الفرنسى لويس التاسع فى التقدم السريع إلى مصر واحتلالها حتى يفتح الطريق بعدها لأخذ القدس وبلاد الشام ، ولكنه أمضى فترة الشتاء فى قبرص فى انتظار وصول باقى القوات الصليبية التى تأخرت فى الوصول ، كما اتصل التتار بالملك لويس التاسع ، إذ أرسل جغطاى أحد أيلخانات التتار فى وسط فارس إلى الملك الفرنسى سفيرين من المسيحيين يحملون رسالة إلى الملك الفرنسى يعرض فيها ملك التتار استعداده للتعاون مع الصليبيين من أجل انتزاع بيت المقدس وفلسطين من أيدى المسلمين ، وأظهر فى رسالته رغبته فى التحالف مع الصليبيين ضد أعدائهم المسلمين(٤) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٣) ، د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (٨٢ - ٨٣) .
(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٣٠) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٣)
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٣) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ١ ص (٣٧٧) .
(٤) د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (٦٨ - ٦٩ (، ثم انظر :
Atiya : Crusade in the la ter Middle ASes, p 242.

وعلى الرغم من أن هذه السفارة لم تأت بنتائج عملية ، فإن الملك لويس التاسع أكرم السفيرين ورحب بفكرة التعاون مع التتار ، وسمح للسفيرين بالعودة إلى بلادهم فى ٢٧ / ١ / ١٢٤٩ م / ٦٤٦ هـ وأرسل معهما بعثة مكونة من ثلاثة أشخاص وحملهم هدية ثمينة إلى أيلخان التتار ، والهدف من ذلك ضم التتار إلى المسيحية من ناحية والتعاون معهم ضد المسلمين من ناحية أخرى ، ولكن تطور الأحوال فى بلاد التتار عقب وفاة جيوك كبير التتار ، وقيام حالة من الفوضى فى البلاد أفقد البعثة الصليبية أهميتها ، ولم تعد إلا فى سنة ١٢٥١ م بعد انتهاء حملة لويس على مصر ورحيله إلى فلسطين(١).

وخلاصة الموقف أن الجيش الصليبى مكث فى قبرص مدة طويلة استهلك خلالها الكثير من المؤن ثم أقلعت الحملة من جزيرة قبرص يوم الخميس ١٣/ ٥/ ١٢٤٩ م — أواخر محرم ٦٤٧ هـ متجهة إلى مصر ، وتكون أسطولها من حوالى ١٨٠٠ قطعة بحرية كبيرة وصغيرة تحمل نحو خمسين ألف مقاتل من مشاة وفرسان ومعهم عدتهم وسلاحهم ومؤنهم وخيولهم(٢) ووصل الصليبيون فى الساعة الثانية من يوم الجمعة ٢١/٢/٦٤٧هـ - الموافق ٤/ ٦/ ١٢٤٩ م إلى الفرع الشرقى للنيل وأرست بالبر الغربى تجاه دمياط (وكان هذا البر الغربى يسمى فى المراجع العربية بحيرة دمياط ، أو الجزيرة وهى تسمية مجازية لأن مياه البحر المتوسط تحيط به شمالا ومياه النيل تحيط به شرقاً ، كما كان يسمى أيضاً جيزة دمياط ، والجيزة فى اللغة الناحية ، أو لعله سمى كذلك لأنه يجاز إليه من دمياط)(٣).

وكان أول عمل قام به لويس التاسع أن أرسل إلى السلطان الصالح رسالة جاء بها : (أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنى أقول أنك أمين الأمة المحمدية ، وأنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم

---

(١) د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (٧١ — ٧٢) .

(٢) د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (٨٧ — ٨٨) ، وانظر

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٣ — ٣٣٤) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٣٠) ، د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (٨٩ — ٩٠) .

Lane poole, History of Egypt, p.232

الرجال ونرمل النساء، ونستأثر البنات والصبيان، ونخلى منهم الديار، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لى بكل الإيمان، ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان، ما ردنى ذلك عن الوصول إليك، وقتالك فى أعز البقاع عليك، فإن كانت البلاد لى، فيا هدية حصلت فى يدى. وإن كانت البلاد لك والغلبة على، فيدك العليا ممتدة إلى وقد عرفتك وحذرتك، من عساكر قد حضرت فى طاعتى، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى. وهم مرسلون إليك بأسياف القضا)(١).

فلما وصل هذا الإنذار للسلطان الصالح أيوب وقرئ عليه (أغرورقت عيناه بالدموع واسترجع) (إنا لله وإنا إليه راجعون) فكتب الجواب بخط القاضى بهاء الدين زهير بن محمد كاتب الإنشاء ونسخته بعد البسملة وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين: (أما بعد فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه ولا بغى علينا باغ إلادمرناه. فلو رأت عيناك أيها المغرور! حد سيوفنا، وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وأخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولا بد أن تزل بك القدم، فى يوم أوله لنا وآخره عليك، فهنالك تسئ بك الظنون، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون. فإذا قرأت كتابى هذا، فكن فيه على أول سورة النحل: أتى أمر الله فلا تستعجلوه، وكن على آخر سورة ص: «ولتعلمن نبأه بعد حين، ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين، وإلى قول الحكماء: (أن الباغى له مصرع، وبغيك يصرعك، وإلى البلاء يقلبك والسلام)(٢).

ويوم السبت ٢١/٢/٦٤٧ هـ/٥/٦/١٢٤٩ م نزلت القوات الصليبية فى الجانب الغربى للنيل حيث توجد القوات الإسلامية، وأقام العدو خيمة

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٤).
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٤ - ٣٣٥).

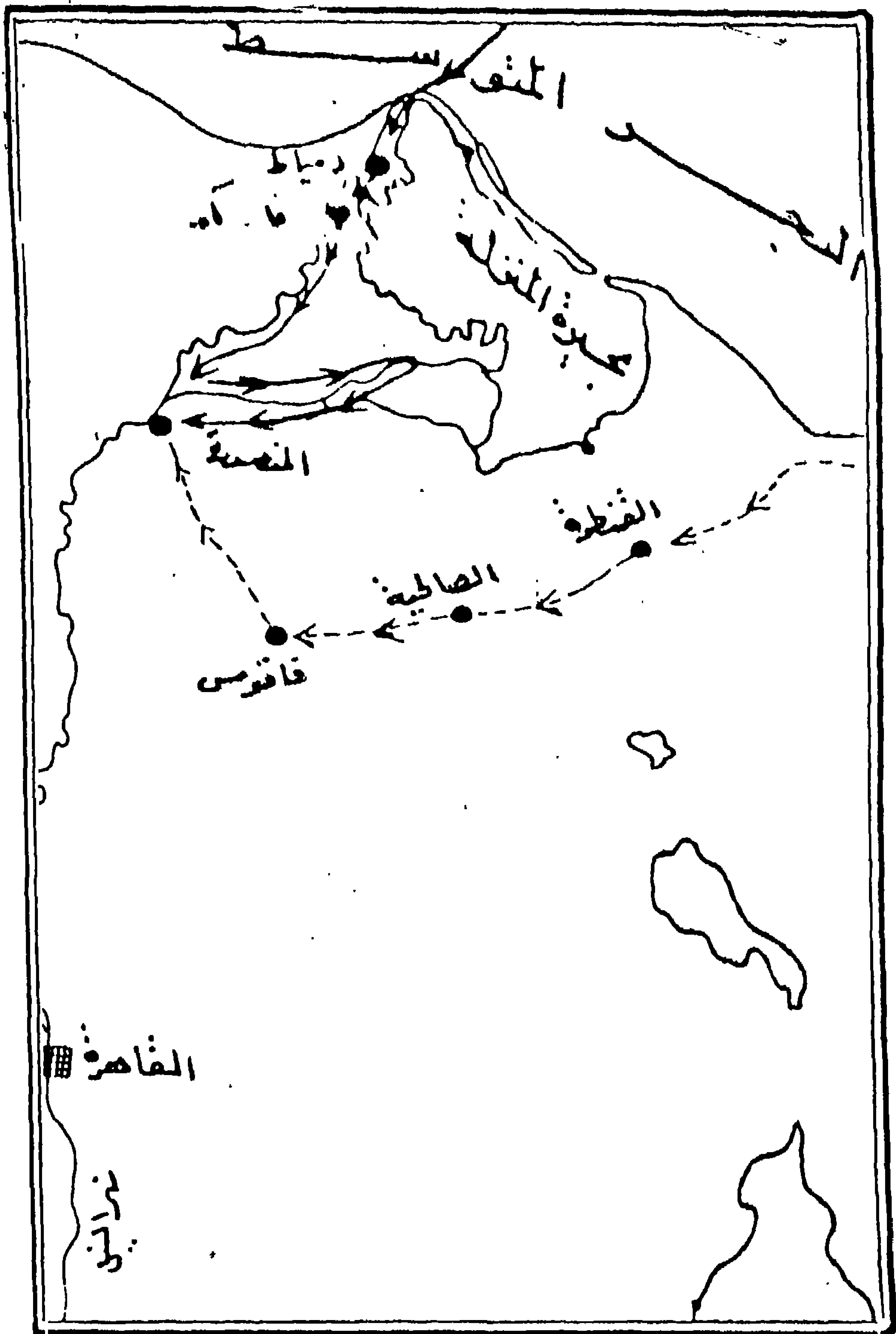
كبيرة للملك لويس التاسع (فناوشهم المسلمون الحرب) واستشهد بعض المسلمين (فلما أمسى الليل رحل الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ بمن معه من عساكر المسلمين ، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقى ، الذى فيه مدينة دمياط ، وخلا البر الغربى للفرنج (وسار الأمير فخر الدين بالعسكر يريد أشموم طناح حيث يقيم السلطان الصالح ، ولكن عملية التراجع من جانب القوات الإسلامية وانسحابهم إلى الجانب الشرقى للنيل وتركهم للجسر (جسر من السفن) على النيل دون أن يدمروه ، كل ذلك أعطى العدو معنوية قوية وإحساساً بأن المسلمين فى حالة ضعف فتقدموا بسرعة واحتلوا الجسر الذى يربط بين الشاطئين الشرقى والغربى ، وانفتح أمامهم الطريق إلى مدينة دمياط ؛ وكان هذا التصرف من الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ سبباً فى اتهامه بالخيانة والجبن وسوء التصرف لارتداده ،بالقوات عن دمياط(١) فى اليوم الأول لوصول العدو . مما أتاح للصليبيين فرصة الاستيلاء على المدينة وقال أبو الحسن : (فترحل فخر الدين ابن الشيخ بالناس ، وقطع بهم الجسر إلى البر الشرقى الذى فيه دمياط ، وتقهقر إلى أشموم طناح ، ووقع الخذلان على أهل دمياط ، فخرجوا منها طول الليل على وجوههم حتى لم يبق بها أحد ، وكان هذا من قبيح رأى فخر الدين)(٢) . والمعروف فى الإسلام أن انسحاب القوات العسكرية بدون مبرر شرعى يخدم الخطة الحربية لا يجوز بل يعتبر من الكبائر التى لا تهاون فيها .

ومهما كانت الظروف والأحوال ، فإن تراجع القوات الإسلامية بهذه السرعة أضعف الروح المعنوية عند أهل دمياط ولذلك (خرجوا كأنما يسحبون على وجوههم طول الليل ، ولم يبق بالمدينة أحد البتة ، وصارت دمياط فارغة من الناس جملة ، وفروا إلى أشموم مع العسكر ، وهم حفاة

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٥) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٣٠) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٨ - ١٧٩) ، د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (٩٦ - ١٠٣) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٣٠) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٥) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٥٩) ، الإسحاقى ص (١٢٤) .



الحملة الصليبية السابعة

عراة جياع فقراء، حيارى بمن معهم من الأطفال والنساء . وساروا إلى القاهرة فنهبهم الناس فى الطريق ، ولم يبق لهم ما يعيشون به)(١) .

وكان فى مدينة دمياط قوم من بنى كنانة وهم جنود الحامية الذين أنزلهم بها السلطان الصالح أيوب للدفاع عن دمياط إذا ما تعرضت لهجوم من العدو ، (فلم يغن ذلك شيئاً) وهرب بنو كنانة أيضاً مع الذين غادروا دمياط تاركين المدينة بكل ما فيها من المؤونة والأسلحة وآلات الحرب . ولكنهم تمكنوا قبل فرارهم من إحراق الزردخاناه(٢) كما أحرقوا سوق المدينة حيث تكدست البضائع ، وفى بعض الدور الكبرى حتى لا تقع بما فيها من الخيرات والعتاد فى أيدى الصليبيين)(٣) .

وفى يوم الأحد ٢٢ / ٢ / ٦٤٧ هـ الموافق ٦ / ٦ / ١٢٤٩ م قصد الصليبيون مدينة دمياط (فعندما رأوا أبوابها مفتحة ولا أحد يحميها ، خشوا أن تكون مكيدة ، فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها ، فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤنة حصار ، واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية ، والأسلحة العظيمة والعدد الكثيرة ، والأقوات والأزواد والذخائر ، والأموال والأمتعة وغير ذلك صفواً وعفواً)(٤) .

---

(١) عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣٠١) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٥) ، د . حبشى : حملة القديس لويس ص (٤١) ، ثم انظر :

Heyd ; Histoire du commenre I.p. 409 ;
Savary : letter on Fgypt, I.p.341.

(٢) الزردخاناة فهى دار السلاح أو بيت الزرد لما فيها من الدروع والزرد والسيوف والنشاب والرماح وغير ذلك من الأسلحة ، وفيها صناع مقيمين لإصلاح العدد وتجديد المستعملة منها.

انظر : صبح الأعشى ج ٤ ص (١١ – ١٢) ، ابن مماتى : قوانين الدواوين ص (٣٥٤) .

(٣) Matt. paris. II,p, 361

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٦) ، مخطوط عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣٠١) ، مرآة الزمان ج ٨ لوحة (٥١) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٩) ، تراجم رجال القرنين ص (١٨٣) ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص (٦٤٧) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٧٧) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص(٣٣٠) ، وراجع أيضاً : Eracles, p, 437.

نتائج سقوط دمياط فى أيدى الصليبيين :

ولما علم أهل القاهرة ومصر باستيلاء العدو على مدينة دمياط وهرب العساكر والأهالى بدون قتال كان لذلك وقعاً سيئاً على البلاد ، (فانزعج الناس انزعاجاً عظيما ، ويئسوا من بقاء كلمة الإسلام بديار مصر ، لتملك الفرنج مدينة دمياط ، وهزيمة العساكر ، وقوة الفرنج بما صار إليهم من الأموال والأزواد والأسلحة ، والحصن الجليل الذى لا يقدر على أخذه بقوة — مع شدة مرض السلطان ، وعدم حركته)(١) .

ومع أن السلطان كان يعانى من شدة المرض ، فإنه لم يترك أمر الجهاد . بل كان مرابطاً فى أشموم طناح على مقربة من العدو . فلما وصلته أنباء دمياط تملكه الجزع وثار على الذين تركوا الجهاد وانسحبوا من دمياط ووصف المقريزى الحال بقوله : (وعندما وصلت العساكر إلى أشموم طناح ، ومعهم أهل دمياط ، اشتد حنق السلطان على الكنانيين ، وأمر بشنقهم فقالوا : زوما ذنبنا إذا كانت عساكره جميعهم وأمراؤه هربوا . وأحرقوا الزردخاناه فأى شئ نعمل نحن ؟)فشنقوا لكونهم خرجوا من المدينة بغير إذن ، حتى تسلمها الفرنج ، فكانت عدة من شنق زيادة على خمسين أميراً من الكنانية . وكان فيهم أمير حشيم ، وله ابن جميل الصورة ، فقال أبوه : (بالله اشنقونى قبل ابنى) فقال السلطان : (لا ! بل اشنقوه قبل أبيه (فشنق الابن ، ثم شنق الأب من بعده . بعد أن استفتى السلطان الفقهاء ، فأفتوا بقتلهم)(٢) لأنهم تركوا المصابرة والقتال ، ولم يقوموا بواجبهم فى الجهاد ، لأن الانسحاب بدون ضرورة وبدون موافقة القيادة يعتبر هرباً لا مبرر له والآثار المترتبة عليه

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٦) ، ثم انظر الإسحاق : لطائف أخبار ص (١٢٤) .

Davis : Invasion of Egypt, p. 6; savary, I, p. 341-342 .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٦) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٣٠) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٧٧) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٩) ، مرآة الزمان ج ٨ لوحة (٥١٣) ، عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣٠٢) ، ابن شاكر : عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة (١٧) ، ابن بهادر : فتوح النصر ورقة (٢٥٥) ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة (٨٨) ، الإسحاقى ص (١٢٤) .

قد لا يمكن علاجها . وقد صلب أمراء الكنانية على النخل كما هم بثيابهم وملابسهم جزاء على هربهم بدون إذن أو قتال(١) وشاهدهم الناس حتى يكونوا عبرة لمن يفكر فى الهرب أو يهمل فى الجهاد ضد أعداء البلاد والإسلام ، كما أن فى هذا ما يشير إلى عزم السلطان على القتال ، وأن قواته قادرة على مواجهة العدو .

واشتد غضب السلطان على الأمير فخر الدين بسبب رجوعه بالعسكر عن دمياط وتفريطه فى أمرها ، بل أشاع بعمله هذا الخوف والاضطراب بين الأهالى وقلق الناس على مصيرهم ، فارتدوا عن المدينة فأخذها العدو بدون خسائر أو قتال . ولذلك فإن السلطان تغير عليه وقال : (أما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج ؟ هذا وما قتل منكم إلا هذا الضعيف الشيخ نجم الدين)(٢) وكاد السلطان يأمر بقتل الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ(٣) وكان الوقت لا يسع إلا الصبر والتغاضى ، وقامت الشفاعة من كل أحد على الأمير فخر الدين ، فخاف كثير من الأمراء وغيرهم سطوة السلطان ، وهموا بقتله . فأشار عليهم فخر الدين بالصبر ، حتى يتبين أمر السلطان : (فإنه على خطة ، وإن مات كانت الراحة منه ، وإلا فهو بين أيديكم)(٤) .

ومن النتائج التى ترتبت على سقوط دمياط أن اضطرب الجش الإسلامى ، وأمر السلطان بالرحيل إلى المنصورة لأنها أكثر حصانة (وحمل فى حراقة حتى أنزل بقصر المنصورة على بحر النيل ، واستقر بها فى يوم الثلاثاء الموافق ٢٤/٢/٦٤٧ هـ — ٨/٦/١٢٤٩ م ، وشرع الجيش فى تجديد الحصون والمبانى ونصبوا الأسواق وأصلحوا سور المدينة من ناحية النيل

---

(١) مرآة الزمان ج ٨ لوحة (٥١٣) ، ابن دقماق : الجوهر الثمين ورقة (١٠٢) ، عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣٠٢) ، ابن شاكر : عيون التواريخ ج ٢ لوحة ١٧ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٦) ، مرآة الزمان ج ٨ لوحة (٥١٤) ، عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣٠٢) ، وانظر : Matt. pâris. II. p. 36

(٣) مرآة الزمان ج ٨ لوحة (٥١٤) ، عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣٠٢) .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٦) ، مرآة الزمان ج ٨ لوحة (٥١٣) ، الجوهر الثمين ورقة (١٠٢ — ١٠٣) ، عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة (١٧) ، عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣٠٢) ، شذرات الذهب ج ٥ ص (٢٣٧) .

(وقدمت الشوانى المصرية بالعدد الكاملة والرجالة ، وجاءت الغزاة والرجال من عوام الناس الذين يريدون الجهاد ، من كل النواحى)(١) . واهتم السلطان بدفع العدو ونادى فى المسلمين من أجل الجهاد (ووقع النفير العام فى المسلمين ، فاجتمع بالمنصورة أمم لا يحصون من المطوعة والعريان ، وشرعوا فى الإغارة على الفرنج ومناوشتهم وتخطفهم ، واستمر ذلك أشهراً ، والسلطان يتزايد والأطباء قد آيسته لاستحكام المرض به)(٢) فى حين زاد طمع العدو فى البلاد (وحصن الفرنج أسوار دمياط وشحنوها بالمقاتلة)(٣) .

موقف بلاد الشام من الحملة الصليبية السابعة :

كانت معظم بلاد الشام تخضع للسلطان الصالح أيوب صاحب مصر ، (ولما بلغ أهل دمشق أخذ الفرنج لمدينة دمياط ساروا منها ، وأخذوا صيدا من الفرنج بعد حصار وقتال (ووردت أخبار هذا النصر إلى مصر يوم الجمعة الموافق ٢٤/٤/٦٤٧ هـ — ٦/٨/١٢٤٩ م (فسر الناس بذلك)(٤) وهجوم جيش دمشق على البلاد الصليبية فى الشام والاستيلاء على صيدا ، كان الهدف منه إما الانتقام من العدو الذى هاجم دمياط وأخذ مدينة صيدا منه ، أو على الأقل تحويل أنظار الصليبيين عن مصر (وصرفهم عنها) والمعروف أن المسلمين كانوا يهاجمون العدو الصليبى من جهة الجبهة المصرية إذا هاجم البلاد الشامية . وجيش الشام يهاجم الصليبيين إذا هاجموا البلاد المصرية ، ولقد جرى مثل هذا التنسيق فى العصر الأيوبى بهدف الضغط على العدو فى أكثر من جهة ، ودفعه إلى توزيع قواته فى أكثر من ناحية ،

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٧) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٩) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٣٠) ويقصد بالشوانى قطع الأسطول وهى جمع شونة أو شينى أو شينيةوهى أهم القطع التى كان يتألف منها الأسطول الإسلامى فى مصر ، وهى نوع من السفن الحربية الكبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجاً وقلاعاً للدفاع والهجوم .

انظر المقريزى : الخطط ج ٢ ص (١٩٤ — ١٩٥) .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٣٠) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٧) .

(٣)،(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٧) .

استيلاء السلطان الصالح أيوب على الكرك سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م :

وأما الملك الناصر داود صاحب الكرك فإنه لما ضاقت به الأمور جعل ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى نائبه فى الكرك ، وسار هو بأمواله إلى حلب مستجيراً بالملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز صاحب حلب (فأنزله وأكرمه) ولكن ولدا الناصر داود وهما الملك الظاهر شادى والملك الأمجد حسن أنكرا على أبيهما ، لكونه قدم عليهما المعظم مع أنه الأصغر سناً ، وبعد سفر أبيهما قبضا على أخيهما المعظم عيسى ، وسار الأمجد حسن إلى الملك الصالح أيوب وهو مريض على المنصورة ، ووصل الأمجد المنصورة يوم السبت ٩/ ٦/ ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م وبشر السلطان بأنه هو وأخوه الظاهر أخذا الكرك له ، فأحسن إليه الصالح أيوب (وأعطاهما اقطاعاً أرضاهما) وأرسل إلى الكرك وتسلمها يوم الاثنين ، ١٨/ ٦/ ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م (وفرح الملك الصالح بالكرك فرحاً عظيماً مع ما هو فيه من المرض لما كان فى خاطره من صاحبها)(١) .

استمرار الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين فى مصر :

بعد أن وطد العدو الصليبي أقدامه فى دمياط ، توقفت الأعمال الحربية فترة من الزمن ، وظل الجيش الصليبي مقيما فى دمياط فترة تقرب من خمسة أشهر ونصف دون القيام بأى عمل جدى ، ولم يشرعوا فى التقدم نحو الجنوب . ولهذا تجرأ جند الإسلام على مناوشة الصليبيين ومنح السلطان الصالح مبلغاً من المال عن كل رأس من رؤوس الصليبيين يأتيه بها أحد جنوده(٢) ولهذا نشطت الأعمال الفدائية وحرب العصابات ويقول جوانفيل (وكان المسلمون يدخلون معسكرنا - كل ليلة - مترجلين ويقتلون من يجدونهم نائمين من رجالنا ، وقد حدث أن قتلوا حارس لورد كورتني وتركوه على إحدى

---

(١) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٧ - ٣٣٨) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٣٠ - ٣٣١) .

(٢) Mat paris, II, p. 36 ; Rothelin, p 592

د . جوزيف نسيم العدوان الصليبى على مصر ص (١٢٦) .

المناصد بعد أن جزوا عنقه وأخذوها معهم. وقد حملهم على ذلك العمل أن السلطان كان يعطى ديناراً من الذهب لكل من يأتيه برأس نصرانى)(١) ولهذا لحق بالعدو الكثير من الخسائر . ولجأ الصليبيون إلى تشديد الحراسة على معسكرهم وجعلوا طائفة من الجند تقوم بالحراسة كل ليلة على ظهور الجياد (فكان المسلمون إذا أرادوا دخول المعسكر انتظروا حتى يهدأ صوت الجياد ويسكت صوت الجند ، ثم يتسللون إلى المعسكر فيصيبون ما يصيبون ثم يغادرونه قبل انبلاج غرة الصباح ، لذلك أمر الملك أن تترجل الفرقة الموكل إليها الحراسة ليكون كل ما بالمعسكر فى أمان ، لأن الحراس من رجالنا يكون بعضهم إلى جوار البعض الآخر)(٢) .

وكان المجاهدون يهاجمون العدو مهما كانت احتياطاته ، ويأخذون الأسرى ويقتلون الكثيرين ، فى آخر شهر ربيع الأول ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م وصل إلى القاهرة من أسرى الصليبيين (ستة وثلاثون أسيراً) منهم فارسان وفى الخامس من شهر ربيع الآخر وصل سبعة وثلاثون أسيراً (وفى سابعه وصل إثنان وعشرون أسيراً . وفى سادس عشر وصل خمسة وأربعون أسيراً ، منهم ثلاثة من الخيالة)(٣) وكان لوصول هؤلاء الأسرى الأثر الطيب على نفوس الأهالى وارتفاع معنوياتهم وبعث حماستهم لمواصلة الجهاد ، وذكر المقريزى أيضاً ، أن المسلمين واصلوا عملياتهم الحربية وفى ثالث عشر من شهر رجب وصل إلى القاهرة سبعة وأربعون أسيراً من الفرنج ، وأحد عشر فارساً منهم ، وظفر المسلمون بعد أيام بمسطح(٤) للفرنج فى البحر ، فيه مقاتله بالقرب من نستراوة)(٥) .

---

(١) جوانفيل : القديس لويس ص (١٠١) .
(٢) المصدر السابق ص (١٠١) .
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٧) ، ثم انظر : د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (١٢٦ - ١٢٧) .
(٤) مسطح : نوع من السفن الحربية الكبيرة ، جمعه مسطحات ، والغالب أنه سمى بذلك لأنه كان له سطح ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٩) حاشية ١ ، انظر قوانين الدواوين ص (٣٤٠) .
(٥) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٩) ، ونستراوة وتسمى أيضاً نسترو وكانت تطلق فى تلك العصور على بلدة البرلس الحالية وعلى بحيرة البرلس أيضاً . المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٩) حاشية ٢ .

وأصبح العدو فى شدة من كثرة هجمات المجاهدين المسلمين ، ومؤونتهم بدأت تنفذ ، والعواصف أخذت تتعاقب على الوجه البحرى ، حتى لقد تحطمت للصليبيين مائتان وأربعين سفينة كانت راسية على الشاطئ بقرب دمياط حيث دفعتها العواصف بعيداً ، وكانت الخسائر كثيرة ، وبقى هذا الوضع حتى وصل من فرنسا أحد القادة واسمه كونت بواتييه مع بقية الجيش الصليبى وذلك فى ٢٤/ ١٠/ ١٢٤٩ م / ٦٤٧ هـ ، وعقد لويس التاسع مجلساً للتشاور لاختيار الطريق الذى يسلكونه بعد مغادرتهم مدينة دمياط وكانت الآراء إما أن يسيروا إلى مدينة الإسكندرية أم يسيرون إلى مدينة القاهرة ، وبعد المناقشات الطويلة اتفق رأى الصليبيين على المسير مباشرة إلى القاهرة ، فإن استولوا عليها أمكنهم أخذ باقى البلاد ، وفى ٢٠/ ١١/ ١٢٤٩ م / ١٢/ ٨/ ٦٤٧ هـ ، تحركت القوات الصليبية من دمياط متقدمين نحو القاهرة وساروا فى الطريق الذى حاولت الحملة الخامسة منذ ثلاثين سنة أن تسير فيه(١)

وفاة السلطان الصالح أيوب :

بدأ زحف القوات الصليبية على القاهرة فى الوقت الذى تزايد فيه المرض على السلطان وهو فى المنصورة (فى مقابلة الفرنج) وفى ليلة الاثنين نصف شعبان ٦٤٧ هـ — ٢٣/ ١١/ ١٢٤٩ م ، توفى السلطان الملك الصالح (٢) وقال

---

(١) د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (١٣٠ - ١٣٢)
Rothelin p. 597; Eracles, p. 37
على أن المصادر العربية تقول إن الصليبيين ساروا من دمياط بعد أن وصلتهم أخبار موت السلطان الصالح نجم الدين أيوب فى ١٤ شعبان سنة ٦٤٧ هـ الموافق ٢٢/١١/١٢٤٩ م .
انظر ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر ج ٧ ورقة (٣٧٥) ، العينى ، عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣٠٦) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٤٦) ، ولكن الرأى الأقرب إلى الحقيقة ما ذكره الدكتور جوزيف نسيم يوسف من أن الصليبيين غادروا دمياط على شكل دفعات متوالية بدأت قبل موت السلطان بيومين فلما علموا بوفاته وهم فى الطريق إلى المنصورة تشجعوا على مواصلة الزحف نحو القاهرة ، د . جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص (١٣٢) حاشية ١ .
(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٩) ، فى حين ذكر أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٧٩) أن وفاته كانت ليلة الأحد ١٤/٨/٦٤٧ هـ وذكر ابن كثير : أن وفاته كانت ليلة النصف من شعبان أى يوم ١٤ شعبان وليلة النصف من الشهر نفسه وبذلك لا يكون خلاف بين المؤرخين ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٧٧) .

أبو المحاسن : (ولو لم يكن من محاسنه إلا تجلد على مقابلة العدو بالمنصورة ، وهو بتلك الأمراض المزمنة المذكورة ، وموته على الجهاد ، والذب عن المسلمين — والله يرحمه — ما كان أصبره وأغزر مروءته)(١) .

وكانت الظروف لا تسمح بإعلان نبأ وفاته ، حتى لا يتجرأ العدو على مهاجمة البلاد، ومات ولم يوص بالملك إلى أحد(٢) ولم يكن راضياً على تولية ابنه المعظم تورانشاه لأنه لايصلح للملك(٣) وهذايدل على إيثار مصلحة الإسلام والمسلمين ، ولذلك أبعد ابنه المعظم تورانشاه إلى حصن كيفا ، فلما مات السلطان أخفت جاريته أم خليل شجرة الدر خبر موته (وأظهرت أنه مريض، مدنف لا يوصل إليه وبقيت تعلم عنه بعلامته سواء)(٤) وكان يكتبها خادم يقال له السهيلى فلا يشك أحد فى أنه خط السلطان(٥) ، فى حين حمل جثمان السلطان فى تابوت إلى قلعة الروضة بالقاهرة (وأخفى موته فلم يشتهر إلى ثانى عشرى رمضان (٢٢ رمضان) ثم نقل بعد ذلك بمدة إلى قبره بجوار المدارس الصالحية بالقاهرة)(٦) ولم يعلم بوفاته سوى الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ والطواشى جمال الدين محسن اللذين كانا موضع ثقة شجر الدر ، ونجحت فى إخفاء خبر وفاة زوجها وأظهرت فى هذا قدرة فائقة على سياسة الأمور وحسن التدبير(٧) ولما أعلمتهما شجر الدر بموت السلطان ووصتهما بكتمان موته خوفاً من الفرنج ، وكان الأمير

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٣٧) .

(٢) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٨٠) .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٢٨) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٤٢ – ٣٤٤ (، جوانفيل : القديس لويس (ص ١٣٩) .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٧٧) ، فى حين ذكر المقريزى أن الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أخذ تواقيع السلطان قبل موته لاستخدامها عند الضرورة (يستعان بها فى المكاتبات على كتمان موته حتى يقدم ابنه تورانشاه من حصن كيفا) السلوك ج ١ ص (٣٣٩)

(٥) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٨٠) .

(٦) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٣٩) ، مرآة الزمان ج ٨ لوحة (٥١٥) ، عقد الجمان ج ١٨ لوحة (٣٠٥) ، الإسحاقى ص (١٢٤) ، السخاوى : تحفة الأحباب ورقة (٧١–٧٢)

(٧) المقريزى : الخطط ج ١ ص (٢٢٠) ، عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٢٠٥) ، المنهل الصافى ج ٢ ورقة (١٧٥ ب) ، ابن بهادر : فتوح النصر ورقة (١٥٢) ، مسالك الأبصار ج ٢٧ مجلد ٣ لوحة (٢٦٩) ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٤٢) .

فخر الدين عاقلا مدبراً . خليقاً بالملك . جواداً محبوباً إلى الناس ، فاتفقا مع شجرة الدر على القيام بتدبير المملكة ، إلى أن يقدم الملك المعظم تورانشاه . فأحضرت شجر الدر الأمراء الذين بالمعسكر ، وقالت لهم : (أن السلطان قد رسم بأن تحلفوا له ولابنه الملك المعظم غياث الدين تورانشاه صاحب حصن كيفا أن يكون سلطاناً بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدمة على العساكر والقيام بالأتابكية وتدبير المملكة (فقالوا كلهم سمعاً وطاعة ، ظناً منهم أن السلطان حى ، وحلفوا بأسرهم ، وحلفوا سائر الأجناد والمماليك السلطانية)(١) كما كتبت شجرة الدر إلى الأمير حسام الدين نائب السلطنة فى القاهرة فى ذلك ، فحلف الأمراء والعسكر فى القاهرة وأصبح يخطب للمعظم تورانشاه بعد أبيه على المنابر كما نقش اسمه على الدراهم والدنانير بعد اسم أبيه ، وجرى كل ذلك ولم يكن قد أعلن موت السلطان ، والرسل تتابع لاستدعاء المعظم تورنشاه من حصن كيفا إلى مصر حتى يتولى الحكم فى ظرف شديد الخطورة ، حيث يهدد العدو الصليبى البلاد (٢) . فلما وصل رسل مصر إلى الملك المعظم بحصن كيفا ، وعلم بوفاة والده ، خرج من حصن كيفا ليلة السبت ١١/ ٩/ ٦٤٧ هـ / أواخر ١٢٤٩ م وكاد يهلك من العطش أثناء الطريق (هذا وشجرة الدر تدبر الأمور حتى لم يتغير شىء)(٣) .

موقف الصليبين بعد وفاة السلطان الصالح :

وعلى الرغم من حسن تدبير شجرة الدر والأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وإخفاء خبر وفاة السلطان عن العساكر الإسلامية ، فإن الصليبيين فهموا أن السلطان قد مات ، فخرجوا من دمياط (فارسهم وراجلهم ونزلوا على فارس كور)(٤) فى ٢٤/ ٨/ ٦٤٧ هـ / ٢/ ١٢/ ١٢٤٩ م وشوانيهم فى

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٤٣) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص(٣٦٤) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٤٣ - ٣٤٥) ، عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣٠٥ - ٣٠٦) ، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٣٣) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص(١٧٧) ، جوانفيل: القديس لويس ص(١٤٠) ، أبو الفداء: المختصر ج ٣ ص (١٨٠) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٤٦) .

(٤) قرية من قرى الدقهلية وهى الآن من مراكز محافظة الدقهلية ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٤٦) حاشية ٢ .

بحر النيل تحاذيهم دون أن تواجههم مقاومة جدية من جانب القوات الإسلامية، وتقدم العدو نحو المسلمين الذين أدركوا خطورة الموقف ، فأرسل الأمير فخر الدين من المنصورة كتاباً إلى القاهرة وصلها يوم الجمعة ٢٥ شعبان ٣ من ديسمبر فيه حض الناس على الجهاد أوله (انفروا خفافاً وثقالا . وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) وكان كتاباً بليغاً فيه مواعظ جمة فقرئ على الناس فى القاهرة (وحصل عند قراءته من البكاء والنحيب وارتفاع الأصوات بالضجيج ما لا يوصف وارتجت القاهرة ومصر لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للمسير فخرج من البلاد والنواحى لجهاد الفرنج عالم عظيم ، وقد اشتد كرب الخلائق من تمكن الفرنج وقوتهم وأخذهم البلاد ، مع موت السلطان)(١).

موقعة شار مساح :

استغل العدو الصليبى وفاة السلطان الصالح أيوب وعدم وجود سلطان، إذ لم يكن المعظم تورانشاه قد وصل البلاد ، فتقدموا حتى دخلوا مع المسلمين فى معركة حامية فى أول أيام شهر رمضان سنة ٦٤٧ هـ — ٨ ديسمبر ١٢٤٩ م ، وجرى القتال بين الطرفين فيما بين فارسكور وشارمساح(٢) فاستشهد من المسلمين أحد الأمراء الكبار وجماعة من العسكر ، وقتل من العدو جماعة ، ولكن العدو تغلب على المسلمين وأخذ شار مساح فى نفس اليوم(٣). وزحف الصليبيون فى يوم الثلاثاء السابع من رمضان ١٤ ديسمبر إلى البرمون ، واقتربوا بذلك من عساكر المسلمين التى تقيم جنوبى بحر أشموم (فاشتد الكرب ؛ وعظم الخطب لدنوهم وقربهم من المعسكر)(٤)وفى يوم الثلاثاء ١٤ من رمضان

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٤٦ - ٣٤٧) ، عقد الجمان ج ٨ قسم ٢ لوحة (٣٠٦) ، خطط المقريزى ج ١ ص (٢٢٠) .

(٢) شار مساح قرية كبيرة فى محافظة الدقهلية بينها وبين دمياط خمسة فراسخ .

انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ص (١٥٣) ، ياقوت : معجم البلدان ج ٥ ص (٢١٢) ، ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٥ ص (٧٣) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٤٧) ، بو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٨٩) ، تتمة المختصر ج ٢ ص (١٨٢) ، د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (١٤٧) .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٤٧) .

٦٤٧ هـ - الموافق ٢١ ديسمبر ١٢٤٩ م وصل الصليبيون إلى طرف بر دمياط (ونزلوا تجاه المنصورة ، وصار بينهم وبين المسلمين بحر أشموم (وكان الجيش الإسلامى فى المنصورة معظمه فى البر الشرقى للمنصورة ، وأما البقية كانت موجودة بالبر الغربى ، فى حين استقر الصليبيون فى موضعهم قبالة المسلمين (وخندقوا عليهم خندقاً وأداروا سوراً وستروه بالستائر ونصبوا المجانيق ليرموا بها على معسكر المسلمين ، ونزلت شوانيهم بإزائهم فى بحر النيل . ووقفت شوانى المسلمين بإزاء المنصورة ووقع القتال بين الفريقين براً وبحراً (١) .

وكان جند الإسلام لا يكفون عن مهاجمة الصليبيين ، ويستخدمون أساليب مختلفة للإيقاع بعدوهم (وما من يوم إلا ويقتل من الفرنج ويؤسر ، وقد لقوا من عامة المسلمين وسوالهم(٢) نكاية عظيمة ، وتخطفوا منهم وقتلوا كثيراً وكانوا إذا شعروا بالفرنج ألقوا أنفسهم فى الماء وسبحوا إلى أن يصيروا فى بر المسلمين ، وكانوا يتحيلون فى خطفهم بكل حيلة : حتى أن شخصاً أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه ، وغطس فى الماء إلى أن قرب من الفرنج فظنوه بطيخة ، فما هو إلا أن نزل أحدهم فى الماء ليتناولها إذ اختطفه المسلم وعاد به حتى قدم به إلى المسلمين)(٣) .

وبعد أن استولى المسلمون على قطعة بحرية صليبية فيها نحو مائتى رجل من الصليبيين وأحد أمرائهم الكبار وذلك فى ٧ شوال رأى الأمير فخر الدين ضرورة مقاتلة العدو ، فى يوم الخميس النصف من شوال (ركب الفرنج والمسلمون) وقرر الأمير فخر الدين ضرورة اقتحام الماء ومواجهة الصليبيين فى معسكرهم (فدخل المسلمون إليهم البر الذى هم فيه ، وقاتلوهم قتالا شديداً ، قتل فيه من الفرنج أربعون فارساً ، وقتلت خيولهم وفى يوم الجمعة تاليه (١٦ شوال) وصل إلى القاهرة سبعة وستون أسيراً من الفرنج ، منهم ثلاثة

---

(١) لمقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٤٧) ، عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣٠٧) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ورقة (٣٧٦) ، المقريزى : الخطط ج ١ ص (٢١) .

(٢) سوالم أو الحرافشة وهم أتباع المعسكرات الذين لا ينتمون لفرقة معينة أو لقائد خاص ، المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٤٨) حاشية ٢ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص(٣٤٨) ، الخطط ج ١ ص (٢٢١) ، عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣٠٧) ، ابن أيبك ، كنز الدرر ج ٧ لوحة (٣٧٦) .

من أكابر الداوية ، وفي يوم الخميس (٢٢ شوال) أحرقت للفرنج مرمة(١) عظيمة في البحر واستظهر عليهم استظهاراً عظيما)(٢) واستمر القتال بين الجانبين أياماً طويلة ، ولكن النيل يفصل بين المعسكرين . ويمنع التحام الجيشين . وكان الجيش الإسلامي يستخدم نوعاً من المدافع التي تطلق قذائف من النار تحرق الأبراج والخيام وما تسقط عليه وذكر جوانفيل استخدام المسلمين لهذا السلاح فقال : (فلما أخذوا في إطلاق النار انطرحنا أرضاً على معاصمنا وركبنا كما علمنا ، وسقطت القذيفة الأولى بين برجينا القائمين بحراسة الطرق المقفلة ، واستقرت أمامنا في الحفرة التي كان الجيش يعمل على إطفاء النار بها ، وكان المسلمون لا يستطيعون إصابة هدفهم مباشرة لوجود جناحي الجيش اللذين أمر بهما الملك ، فكانوا يطلقون قذائفهم نحو السحاب فتسقط القذائف على رأس رجال المطافئ . وكانت النار الإغريقية تأتي من الأمام أشبه ما تكون ببرميل كبير من القار ذات ذنب يقارب الرمح طولا ، وكان يصحبها صوت هائل كدوي الرعد ، وكأنها طائر في الجو تشع بنور كبير يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شئ كأنه في وضح النهار ، وقد أطلق المسلمون النيران علينا من مدافعهم ثلاث مرات تلك الليلة ، وأربع مرات بواسطة الأقواس المتحركة)(٣) وتمكن المسلمون من إحراق البرجين مرتين وأصبح العدو في حيرة من أمره ، وفكر الملك لويس مع قادته بضرورة اقتحام النهر والدخول في معركة مع المسلمين يكونون فيها وجهاً لوجه ، ولكن عملية اقتحام الماء إلى البر الغربي حيث

---

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص (٣٤٨) ، ويقصد بالمرمة هنا البرجين المتحركين اللذين ابتناهما الملك لويس التاسع حين ذاك على الضفة الشمالية لبحر أشموم لوقاية الجنود والعمال المستخدمين في إقامة جسر هناك عبر المجرى ، وقد سلط المسلمون عليهما النار الإغريقية ، وألحوا في الرمي حتى أحرقوها .

انظر جوانفيل : القديس لويس ص (١١١ - ١١٣) ، المقريزي : السلوك ج ١ ص (٣٤٨) حاشية ٦ .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص (٣٤٨) ، الخطط ج ١ ص (٢٢١) ، ابن أيبك ، كنز الدرر ج ٧ ورقة (٣٧٧) .

(٣) جوانفيل : القديس لويس ص (١١٠) .

يوجد المعسكر الإسلامى كان من الأمور الصعبة بسبب قوة المدافعين المسلمين وحذرهم الشديد أثناء الحراسة .

موقف خيانة للإسلام والمسلمين :

وما زال الأمر على ذلك إلى أن كان يوم الثلاثاء الخامس من ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ (دل بعض منافق(١) أهل الإسلام الفرنج على مخائض فى بحر أشموم) وقرر الملك الفرنسى اقتحام تلك المخاضة فى صبيحة اليوم التالى ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م – ذو القعدة ٦٤٧ هـ بعد أن وضع خطة عسكرية فى اليوم السابق تهدف إلى احتلال المنصورة وإبادة الجيش الإسلامى ، كما تقرر الشروع فى بناء جسر يربط بين البر الشرقى والبر الغربى وذلك بعد أن يستولى لويس التاسع على المعسكر الإسلامى فى المنصورة لتعبر باقى القوات الصليبية ، ويكون الاتصال بين المعسكر الصليبى والمنصورة . وفى ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م / ٣ ذى القعدة ٦٤٧ هـ عبر الصليبيون المخاضة (فلم يشعر الناس إلا والفرنج معهم فى المعسكر ، وكان الأمير فخر الدين فى الحمام فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد هجموا على المعسكر ، فخرج مدهوشاً وركب فرسه من غير اعتداد ولا تحفظ ، وساق لينظر الخبر ويأمر الناس بالركوب وليس معه سوى بعض مماليكه وأجناده ، فلقيه طلب الفرنج الداوية (٢) وحملوا عليه ، ففر من كان معه وتركوه وهو يدافع عن نفسه ، فطعنه واحد برمح فى جنبه واعتورته السيوف من كل ناحية فمات رحمه الله . ونزل الفرنج على جديلة(٣) وكانوا ألفاً وأربعمائة فارس (ومقدمهم شقيق الملك

---

(١) المراجع العربية تختلف فى تعيين من دل الفرنج على هذه المخائض ، فى ابن واصل أن بعض المسلمين دلوا الفرنج على مخاضة بسلمون وفى العينى أن الفرنج خاضوا من مخاضة فى بحر أشموم يقال لها : مخاضة سلمون ، دلهم عليها قوم من سلمون ليسوا بمسلمين ، وأشار جوانفيل أن بدوياً عرض أن يدل الفرنج على مخاضة ، فى مقابل خمسين قطعة من نقودهم وذكر الإسحاقى أن بعض من لا دين له ممن يظهر الإسلام دل الفرنج عليها .

انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٤٩) حاشية ١ ، الإسحاقى : لطائف أخبار الأول ص (١٢٤) ، الخطط ج ١ ص (٢٢١) .

(٢) كان ملك فرنسا قد رتب الجيوش على أن تكون فئة فرسان الداوية طليعة ، وأن تليها الفرقة التى يقودها أخوه .

انظر المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٤٩) حاشية ٢ .

(٣) المقريزى : السلك ج ١ ص (٣٤٩ – ٣٥٠) .

لويس التاسع ، وتقهقرت القوات الإسلامية بسبب هذه المفاجأة ومقتل قائد الجيش الأمير فخر الدين ، وهرب بعض العسكر إلى داخل المنصورة للاحتماء بها من ضربات الأعداء الذين قتلوا النساء والشيوخ والأطفال ؛ وكانوا يقتلون كل من يصادفونه فى طريقهم دون رحمة أو هوادة(١) ووصف المقريزى الكارثة : (وما هو إلا أن قتل الأمير فخر الدين ، وإذا بالفرنج اقتحموا على المنصورة ، فتفرق الناس وانهزموا يمينا وشمالا ، وكادت الكسرة أن تكون ، فإن الملك ريدا فرنس (لويس التاسع) وصل بنفسه إلى باب قصر السلطان ، إلا أن الله تدارك بلطفه ، وأخرج إلى الفرنج الطائفة التركية التى تعرف بالبحرية والجمدارية وفيهم ركن الدين بيبرس البندقدارى . . . فحملوا على الفرنج حملة زعزعوهم بها ، وأزاحوهم عن باب القصر ، فلما ولوا أخذتهم السيوف والدبابيس ، حتى قتل منهم فى هذه النوبة نحو ألف وخمسمائة من أعيانهم وشجعانهم)(٢) واستعد المسلمون من من جديد لمواجهة العدو فى ثبات وقد وصف ابن أيبك هذه المعركة : « . . . قال بعض من حضر هذه الوقعة : والله كنت أسمع زعقات الترك كالرعد القاصف ، ونظرت إلى لمعان سيوفهم وبريقها كالبرق الخاطف . فلله درهم ، لقد أحيوا فى ذلك اليوم الإسلام من جديد بكل أسد من الترك قلبه أقوى من الحديد ، فلم تكن إلا ساعة وإذا بالفرنج قد ولوا على أعقابهم منهزمين ، وأسود الترك لأكتاف خنازير الفرنج ملتزمين)(٣) .

وقد انتهت المعركة بالقضاء على فرقة الفرسان التى كانت تؤلف مقدمة الجيش الصليبى قضاء مبرماً تقريباً بعد قتال شديد بين الجانبين ومن بين قتلى العدو كونت ارتوا شقيق لويس التاسع وثلاثمائة من فرسانه ، ومات

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٤٩) ، د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (١٦٢ – ١٦٤) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٥٠) ، ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ورقة (٣٧٧) الخطط ج ١ ص (٢٢١) ، عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣٠٧) ، تراجم رجال القرنين ص (١٨٣) ، الإسحاق : لطائف أخبار الأول ص (١٢٤) ، ثم انظر :

(٣) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٧ ورقة (٣٧٧ – ٣٣٨) .

جميع الفرسان الداوية الذين اشتركوا فى المعركة إذ قتل منهم مائتان ، وخمس وثمانين فارساً ولم يسلم منهم سوى أربعة أو خمسة بينما لم يفقد من الجيش الإسلامى سوى ثلاثين نفساً(١) . وذلك بعد أن يئس المسلمون من النصر فى أول اللقاء ، بعد مقتل الأمير فخر الدين قائد الجيش وظنوا أن العدو لا يقهر وأرسلوا رسالة مع الحمام الزاجل إلى القاهرة تفيد بهزيمة المسلمين (فانزعج الناس انزعاجاً عظيماً ، وقدم المنهزمون من السوقة والعسكر ، فلم تغلق أبواب القاهرة فى ليلة الأربعاء لتوارد المنهزمين) ولكن ثبات طائفة جند المماليك البحرية التى أنشأها السلطان الصالح أيوب وشجاعتهم أدت إلى تغيير الموقف وحولوا الهزيمة إلى انتصار رائع على العدو ، كما بينا ، ولذلك أرسل المسلمون فى المنصورة رسالة فى صبيحة يوم الأربعاء مع بريد الحمام الزاجل (تبشر بالنصرة على الفرنج ، فزينت القاهرة وضربت البشائر بقلعة الجبل ، وكثر فرح الناس وسرورهم)(٢) وهنا ينبغى الإشارة إلى أمر هام وهو أن الدولة وقادتها لم يكونوا ينكرون أخبار المعارك ، بل يقومون بإبلاغ الأمة والأهالى بالأخبار أولا بأول وبصدق وأمانة فإن كانت الهزيمة كتبوا بذلك بالبريد الجوى الذى يقوم به الحمام وإن كانت النتائج تبشر بالنصر على العدو أخبروا بذلك ، لأن قلوب الرعية مرتبطة بجيشها وقواتها وقادتها فلا يجدى بين الحاكم والمحكومين إلا الصدق .

وخلاصة معركة المنصورة الأولى ٤ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ — ٨ فبراير ١٢٥٠ م أن الصليبيين استولوا على المعسكر الإسلامى الواقع جنوبى بحر أشموم وكان هذا هو المكسب الوحيد الذى أحرزوه فى معارك هذا اليوم بعد أن فقدوا الكثير من القتلى والأسرى والجرحى ، وقال المقريزى معبراً عن نتائج هذه المعركة : (بأنها كانت أول ابتداء النصر على الفرنج)(٣) .

---

(١) د . جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبى على مصر ص (١٦٩ — ١٧٠) ؛ تراجم رجال القرنين ص (١٨٣) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٥١) ، الخطط ج ١ ص (٢٢١) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٥١) ، د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (١٧٥ — ١٧٧) .

قدوم المعظم تورانشاه وتوليته السلطنة فى مصر :

وصل المعظم تورانشاه فى يوم الجمعة ٢١ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ — الموافق ٢٥ فبراير ١٢٥٠ م إلى مدينة المنصورة ، ونزل فى قصر أبيه (ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولم يكن أحد قبل هذا اليوم ينطق بموته ، بل كانت الأمور على حالها . . . وشجرة الدر تدبر أمور الدولة وتقول : (السلطان مريض ، وما إليه وصول) فتسلم المعظم مملكة مصر وأصبح سلطان البلاد ، ويقع عليه تدبير شئون الحرب ، ومواجهة العدو الصليبى الذى يحتل جزءا من البلاد المصرية(١) .

المعظم تورانشاه يواجه الصليبيين :

لقد كان الاتصال حتى ذلك الوقت بين دمياط والمعسكر الصليبى جنوبى بحر أشموم غير مقطوع ، وكانت السفن الصليبية تنقل المؤن والإمدادات من دمياط إلى المعسكر الصليبى عن طريق فرع دمياط ، ولذلك شرع تورانشاه على الفور بوضع خطة للقضاء على العدو ، وأمر بصنع سفن (فصنع المسلمون عدة مراكب ، وحملوها وهى مفصلة على الجمال إلى بحر المحلة ، وطرحوها فيه وشحنوها بالمقاتلة بعد أن أعيد تركيبها ، وكانت أيام زيادة النيل . فلما جاءت مراكب الفرنج لبحر المحلة ، وهذه المراكب مكمنة فيه ، خرجت عليها بغتة وقاتلتها ، وللحال قدم أسطول المسلمين من جهة المنصورة فأخذت مراكب الفرنج أخذاً وبيلا ، وكانت اثنتين وخمسين مركباً ، وقتل منها وأسر نحو ألف إفرنجى ، وغنم سائر ما فيها من الأزواد والأقوات ، وحملت الأسرى على الجمال إلى العسكر ، فانقطع المدد من دمياط عن الفرنج ، ووقع الغلاء عندهم ، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب ، واستضرى المسلمون عليهم وطمعوا

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٥١ – ٣٥٣) ، الخطط ج ١ ص (٢٢١) ، تراجم رجال القرنين ص (١٨٣) ، مرآة الزمان ج ٨ لوحة (٥١٤) ، عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣٠٧ – ٣٠٨) ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٧ لوحة (٩٣) .

فيهم)(١) وكان ذلك النصر من أثر خطة الملك المعظم تورانشاه . ولكن العدو الصليبي دخل فى معركة بحرية مع الأسطول الإسلامى يوم الاثنين مستهل ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ - ٧ مارس ١٢٥٠ م . استولى فيها العدو على سبع حراريق من سفن المسلمين التى كانت موجودة فى بحر المحلة وتمكن من فيها من الهرب والنجاة بأنفسهم(٢) . ولكن القيادة الإسلامية فى المنصورة لم تسكت عن هـذه المعركة ، فى يوم عرفه ٦٤٧/١٢/٩ هـ - مارس ١٢٥٠ م اشتبكت السفن الإسلامية مع السفن الصليبية عند مسجد النصر ، استولى فيها المسلمون على اثنتين وثلاثين مركباً ، منها تسع شوانى (فاشتد الغلاء عند الفرنج)(٣) وصاروا محصورين لا تصلهم الإمدادات (فوهنت قوة الفرنج وتزايد الغلاء عندهم وشرعوا فى طلب الهدنه من المسلمين)ووصل رسلهم يطلبون الهدنة ، فاجتمع برسلهم الأمير زين الدين أحد الأمراء الكبار وقاضى القضاة بدر الدين السنجارى . وعرض الملك الفرنسى على المسلمين أن ينسحب بقواته من مصر ويسلم دمياط للمسلمين فى مقابل أن يتنازل لهم السلطان المعظم تورانشاه عن مدينة القدس وبعض بلاد الساحل (فلم يجابوا إلى ذلك)(٤) ورفض المسلمون الاقتراح الصليبى ، لأن المسلمين كانوا يعلمون حقيقة وضع الصليبيين وضعفهم بعد أن أحكم الأسطول الإسلامى حصارهم وقطع طريق الإمدادات عنهم . ولهذا انقطعت المفاوضات بين الجانبين(٥) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٥٣ - ٣٥٤) ، الخطط ج ١ ص (٢٢١ - ٢٢٢) ، كنز الدرر ج ٧ ورقة (٣٧٩) ، فتوح النصر ورقة (١٥٩) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٥٤) ، الخطط ج ١ ص (٢٢٢) . د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (١٩٢) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٥٤) ، الخطط ج ١ ص (٢٢٢) .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٥٤) ، الخطط ج ١ ص (٢٢٢) .

(٥) عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣٠٨) ، مسالك الأبصار ج ٢٧ مجلد ٣ لوحة (٢٧٠) ابن خلدون : العبر ج ٥ ص (٣٦٠) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٨٩) ، تتمة المختصر ج ٢ ص (١٨٢) ،

Davis, Invasion of Egypt, p. 47 .

تراجع الصليبيين إلى دمياط :

ازدادت أحوال الصليبيين سوءاً بمرور الأيام . وانقطعت عنهم الإمدادات وقلت عندهم الأقوات . وانقطعت مفاوضات الصلح ، ولذلك يئس العدو من البقاء . وفي يوم الجمعة ٢٦ ذي الحجة سنة ٦٤٧ هـ – أول إبريل ١٢٥٠ م (أحرق الفرنج ما عندهم من الخشب وأتلفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط) . كما جمعوا مرضاهم وجرحاهم على الشاطىء لنقلهم إلى دمياط في السفن الباقية لهم بعد المعارك البحرية التي اشتبكوا فيها مع الأسطول الإسلامي . وانسحب العدو إلى الضفة الشمالية لبحر أشموم . وتحركوا متجهين نحو دمياط . فسار القادرون منهم بمحاذاة الشاطىء الأيمن للفرع الشرقي للنيل بينما سارت باقي سفنهم قبالتهم في النيل وهي تحمل المرضى والجرحى وقد تركوا وراءهم كميات كثيرة من الخيام والأسلحة والأطعمة غنيمة باردة للمسلمين)(١) .

أسر الملك لويس التاسع وفشل حملته :

بعد المعارك الكثيرة في البر والبحر بين المسلمين والصليبيين والتي شهدتها مدينة المنصورة وفارسكور والمناطق المجاورة وبعد يئس العدو في تحقيق النصر الذي يريده وهو الاستيلاء على البلاد المصرية تراجعت القوات الصليبية نحو مدينة دمياط بهدف الاعتصام بها حيناً من الدهر . ولكن القوات الإسلامية كانت لهم بالمرصاد ، ترقب تحركاتهم وتأتي بأخبارهم . لأن في معرفة أخبار العدو ما يعين على محاربته . ولذلك ما أن تحركوا يريدون دمياط حتى تحركت القوات الإسلامية بقيادة الأمير بيبرس البندقداري ، وعبر المسلمون جسر بحر أشموم . وكان الصليبيون وقد انسوا تحطيم هذا الجسر . فعبر المسلمون منه وهاجموا العدو وطاردوه طوال ليل الثلاثاء إلى صباح الأربعاء حتى وصلا قرية فارسكور (وقد أحاط بهم المسلمون) وجرى بين الجانبين قتال شديد . وبذل المسلمون سيوفهم في العدو (واستولوا عليهم قتلا وأسراً) وبلغ عدد القتلى سبعة آلاف في

---

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص (٣٥٤ – ٣٥٦) ، الخطط ج ١ ص (٢٢٢) ، كنز الدرر ج ٧ ورقة (٣٨٢) ، ابن شاكر : عيون التواريخ ج ٢ لوحة (٢٢) ، د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبي على مصر ص (١٩٩ – ٢٠٠) .

قول المقل وثلاثين ألفاً فى قول المكثر (وأسر من خيالة الفرنج ورجالتهم المقاتلة وصناعهم وسوقتهم ما يناهز مائة ألف إنسان وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثره ، واستشهد من المسلمين نحو مائة رجل ، وأبلت الطائفة البحرية — لا سيما بيبرس البندقدارى ، فى هذه النوبة بلاء حسناً وبان لهم أثر جميل)(١) .

وبعد أن وهن الملك الفرنسى وضعف حاله بسبب الهزائم التى لحقت بقواته أرسل أحد رسله إلى القادة المسلمين يعرض عليهم إخلاء مدينة دمياط وقبول شروط المسلمين مقابل إيقاف القتال وعقد الصلح ، ولكن حدث أن أحد جند الجيش الصليبى تقدم إلى قادة الحملة والجند وخاطبهم قائلا : إنه موفد من قبل الملك لويس التاسع (الذى طلب منهم أن يستسلموا للجيش الإسلامى دون قيد أو شرط حتى لا يعرضوا حياته للخطر) فرفع الجيش الصليبى راية الاستسلام يوم الأربعاء ٢ محرم سنة ٦٤٨ هـ — الموافق ٦ إبريل ١٢٥٠ م فكانت فرصة للمسلمين بالقبض على الصليبيين الذين ألقوا سلاحهم فى حين أحاط المسلمين بالملك لويس التاسع ومن معه فطلب الأمان فى حين أن حوالى خمسمائة من الصليبيين الذين كانوا مع الملك رفضوا الاستسلام فأحاط بهم المسلمون واشتدوا فى قتالهم حتى أبادوهم عن آخرهم تقريباً . ثم قبضوا على الملك لويس التاسع وأخذوه أسيراً . ووضع فى قيد حديد . واعتقل بدار القاضى ابن لقمان بالمنصورة ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى واعتقل معه أخوه وأجرى عليه راتب فى كل يوم(٢) .

أما عن الصليبيين الذين سلكوا طريق النيل فقد لاحقتهم القوات الإسلامية ولم ينج أحد ممن كان فى سفن الصليبيين ووقعوا جميعاً بين قتيل وأسير ما عدا

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٥٥ — ٣٥٦) ، الخطط ج ١ ص (٢٢٢) ، راجم رجال القرنين ص (١٨٤) ، عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣١٢) ، د . جبشى حملة القديس لويس ص ٩٦ ، أبو المحاسن . : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٦٦ ، مرآة الجنان ج ٤ ص (١١٧) ، شذرات الذهب ج ٥ ص (٢٣٩) ، قلادة النحر ج ٣ قسم ١ لوحة (٩٠١) ، د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (٢٠١ — ٢٠٢) .
Davis, Invasion of Egyp , p. 50 .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٥٥ — ٣٥٦) ، الخطط ج ١ ص (٢٢٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٦٥ ، عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة (٢٣) ، قلادة النحر ج ٣ قسم ٢ لوحة (٩٠١) ، شذرات الذهب ج ٥ ص (٢٣٩) .

سفينة واحدة تمكنت من الإفلات إلى دمياط(١) وأرسلت البشائر بهذا النصر إلى البلاد وعمت الأفراح مختلف أرجاء البلاد المصرية .

نهاية السلطان المعظم تورانشاه :

ورحل السلطان من المنصورة ونزل بفارسكور وعمل برجاً من خشب (وأقام على لهوه) وأخذ المعظم فى إبعاد رجال الدولة والإساءة إليهم . وأرسل إلى شجرة الدر يتهددها ويطالبها بمال أبيه وما تحت يدها من الجواهر . فداخلها منه خوف كثير ، لما بدا منه ، من الهوج والخفة ، وكاتبت المماليك البحرية بما فعلته فى حقه ، من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حضر وتسلم المملكة ، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها ، فأنفوا لها . وحنقوا من أفعال السلطان (وخصوصاً أن المعظم تنكر للأمراء الكبار وأعرض عن مماليك أبيه الذين كانوا عنده لمهماته (وأطرح الأمراء الأكابر أهل الحل والعقد . . .) واختص بجماعته الذين قدموا معه من حصن كيفا (وولاهم الوظائف السلطانية . وقدم الأراذل)(٢) ، ولم يكتف بذلك بل هدد المماليك السلطانية الذين كان لهم فضل الانتصارات على الملك لويس التاسع (وصار إذا سكر فى الليل جمع ما بين يديه من الشمع ، وضرب رؤوسها بالسيف حتى تتقطع ، ويقول : (هكذا أفعل بالبحرية) وسمى كل واحد منهم باسمه ، واحتجب عن الناس (مع الانهماك على الفساد بمماليك أبيه) وصار مع هذا جميع الأمر والنهى فى الدولة لأصحابه الذين قدموا معه (فنفرت قلوب البحرية منه واتفقوا على قتله) ، ففى يوم الاثنين ٢٨ المحرم سنة ٦٤٨ هـ — ٢ مايو ١٢٥٠ م مد الملك المعظم تورانشاه السماط فى سرادقه المقام على ضفة النيل فى فارشكور ، وتناول الطعام مع بعض الأمراء ، وعندما فرغوا من تناول الطعام ، قام المعظم من مجلسه ودخل خيمته ، فتقدم إليه الأمير بيبرس البندقدارى وضربه بالسيف فتلقاه المعظم

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٦٥) ، مرآة الجنان ج ٤ ص (١١٧) ، عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة (٢٢) ، قلادة النحر ج ٣ قسم ١ لوحة (٩٠٠ — ٩٠١) ، ثم انظر : Rothelin, p. 616 .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٥٧ — ٣٥٩) ، الخطط ج ١ ص (٢٢٢) .

بيده فقطع أصابعه والتجأ إلى البرج الخشب الذى نصب له بفارسكور وهو يصيح (من جرحنى ؟ قالوا : الحشيشية . فقال لا والله إلا البحرية ! والله لا أبقيت منهم بقية ! (واستدعى المزين ليداوى يده ، فقال البحرية بعضهم لبعض : تمموه وإلا أبادكم) فدخلوا عليه بالسيوف . ففر المعظم إلى أعلى البرج وأغلق بابه ، والدم يسيل من يده ، فاضرموا النار فى البرج ، ورموه بالنشاب فألقى نفسه من البرج . وتعلق بأذيال الفارس أقطاى . واستجار به فلم يجره . ومر المعظم هارباً إلى البحر . وهو يقول : (ما أريد ملكاً ، دعونى أرجع إلى الحصن يا مسلمين ما فيكم من يصطنعنى ويجيرنى ؟) وكان جميع العسكر واقفون (فلم يجبه أحد . والنشاب يأخذه من كل ناحية ، وسبحوا خلفه فى الماء ، وقطعوه بالسيوف قطعاً ، حتى مات جريحاً حريقاً غريقاً)(١) . ولم يتجاوز من العمر ثلاثين سنة وتركت جثته ملقاة على ضفة النهر دون أن يجسر أحد على دفنها ثم شفع فيه رسول خليفة بغداد . فدفن بعد أن حكم أحداً وسبعين يوماً(٢) . وكان الملك الصالح يعتقد بعدم صلاحية ابنه للحكم ، فكان الأمر كما توقع .

الموقف فى مصر بعد مقتل المعظم تورانشاه :

قال المقريزى : (وبقتل المعظم انقرضت دولة بنى أيوب من أرض مصر ، وكانت مدتهم إحدى وثمانين سنة ، وعدة ملوكهم ثمانية)(٣) وبعد مقتل المعظم اجتمع الأمراء والمماليك البحرية وأعيان الدولة للتشاور فى أمر

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٥٩ - ٣٦٠) ، الخطط ج ١ ص (٢٢٣) ، ابو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٨١) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ص (١٧٧) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٦٠) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص(٣٢٨) ، تراجم رجال القرنين ص (١٨٥) ، مرآة الزمان ج ٨ لوحة (٥٢٠) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٦١) ، ثم انظر : نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة (٩٥) ، أبو حامد ، دول الإسلام الشريفة البهية ورقة (١٩) ، خطط المقريزى : ج ٢ ص (٢٣٦) ، أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج٦ ص (٣٦٤) وهناك مؤرخين ذكروا أن شجرة الدر هى آخر ملكة فى الدولة الأيوبية باعتبارها زوجة الملك الصالح أيوب ، انظر الإسحاقى : لطائف أخبار الأول ص (١٢٦) ، ورأى يقول : إن شجرة الدر تعتبر من المماليك وعلى هذا الأساس تكون شجر الدر أول سلاطين المماليك بمصر ، وتوجد فئة من المؤرخين المسلمين ترى أن الملك الصبى=

الدولة، واتفقت الآراء على تنصيب شجرة الدر سلطانة على مصر وأن يكون مقدم العسكر الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالحي . وأقسم الأمراء والعساكر اليمين ، وذهب أحد الأمراء واسمه عز الدين أيبك الرومي — إلى القاهرة حيث أبلغ شجرة الدر بقرار أعيان البلاد باختيارها سلطانة للبلاد ، فوافقت على ذلك مبديه رضائها وإرتياحها (١) وصارت الأمور كلها موكوله إليها ، وخرجت المراسيم والتواقيع وعلامتها عليها (والدة خليل) وخطب لها على منابر مصر والقاهرة ، ونقش اسمها على السكة ومثاله (المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين) واستقرت الأحوال لها(٢) .

نهاية الحملة الصليبية السابعة :

وبعد أن استقرت الأحوال بسلطنة شجرة الدر ، بدأت المفاوضات مع الصليبيين . وقد ندب الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي للكلام مع الملك لويس التاسع في حين كان نائب الجانب الصليبي وليم أمير الأراضي الواطئة وجان كونت سواسون ، وبلدوين دبلين وشقيقه جي دبلين(٣) .

وجرت المفاوضات بين الجانبين ، وبعد مفاضات ومحاورات ومراجعات اتفق الطرفان على عقد معاهدة الصلح التي تضمنت بنوداً منها أن يرد الملك لويس التاسع دمياط إلى المسلمين وأن يطلق سراح الأسرى المسلمين وشرطوا عليه أيضاً ألا يقصد سواحل الإسلام مرة أخرى ، وأن يدفع مبلغ ثمانمائة ألف دينار وذلك فدية عنه وعن الأسرى المسيحيين من جهة وعوضاً

=الأشرف موسى هو آخر ملوك الدولة الأيوبية بمصر . انظر القرماني: أخبار الدول ورقة (٦٥ ب) مرعى بن يوسف : نزهة الناظرين ورقم (٢٢٩) ، ويقول أبو المحاسن ج ٦ ص (٣٧٤) : (إنه لا عبرة بولاية الأشرف في سلطنة الملك المعز ايبك التركماني) .

(١) المقريزي : السلوك ج ١ ص (٣٦١ — ٤٦٢) ، الخطط ج ١ ص (٢٢٣) .

(٢) المقريزي : السلوك ج ١ ص (٣٦٢) ، الخطط ج ١ ص (٢٢٣) ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٧٣) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٩٠) ، تتمة المختصر ج ٢ ص (١٠٣) ، عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣١٦-٣١٧) ، نهاية الأرب ج ٢٧ لوحة (٩٥ — ٩٦) .

(٣) المقريزي : السلوك ج ١ ص (٣٦٢) ، النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٦٨) ، عقد الجمان ج ١٨ قسم ٢ لوحة (٣١٧) ، د . جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر ص (٢٣٢) .

عما أحدثوه بدمياط من النهب خلال إقامتهم بها من جهة أخرى واتفق على أن يدفع الملك لويس التاسع نصف الفدية قبل إطلاق سراحه والنصف الآخر بعد مغادرته مصر ووصوله إلى عكا وتعهد الجانب الإسلامى برعاية مرضى الصليبيين الذين بدمياط والمحافظة على معدات الصليبيين وأثقالهم بالمدينة حتى يمكن نقلها . وقد حددت هذه المعاهدة بمدة عشر سنوات(١) . وبعث الملك لويس التاسع إلى الصليبيين فى دمياط يأمرهم بتسليم المدينة للمسلمين (فأبوا وعاودهم مراراً) فسلموها للمسلمين (بعد جهد جهيد من كثرة المراجعات فى يوم الجمعة ثالث صفر سنة ٦٤٨ هـ / ٦/٥/١٢٥٠ م ورفع العلم السلطانى على سورها ، وأعلن فيها بكلمة الإسلام وشهادة الحق بعدما أقامت بيد الفرنج أحد عشر شهراً وسبعة أيام)(٢) وأفرج عن لويس التاسع وأخيه وزوجته ومن بقى من أصحابه وسائر الأسرى الذين بمصر والقاهرة ، ممن أسر فى هذه الواقعة ومن أيام العادل والكامل والصالح ، وكانت عدتهم اثنى عشر ألف أسير ومائة أسير وعشر أسارى(٣) وانتقل الأسرى إلى البر الغربى لدمياط وكان يحيط بالملك لويس قوة كبيرة من القوات الإسلامية ، وركب الملك ومعه كبار الصليبيين فى سفينة وركب الأسرى فى سفن صليبية أخرى أقلعت فى يوم الأحد ٤ صفر سنة ٦٤٨ هـ الموافق ٨ مايو ١٢٥٠ م من ميناء دمياط قاصدة عكا ، تحمل آثار الفشل والهزيمة(٤) .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٦٢ - ٣٦٣) ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص (٣٤) ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص (٣٦٨) ، الجوهر الثمين ورقة (١٠٦) ، عيون التواريخ ج ٢٠ لوحة (٢٥) ، دول الإسلام ج ٢ ص (١١٧) ، د . جوزيف نسيم : العدوان الصليبى على مصر ص (٢٣٢ - ٢٣٣) .

(٢) المقريزى : الخطط ج ١ ص (٢٢٣) ، السلوك ج ١ ص (٣٦٣) .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٦٣) ، الخطط ج ١ ص (٢٢٣) .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ ص (٣٦٣) ، الخطط ج ١ ص (٢٢٣) ، مسالك الأبصار ج ٢٧ قسم ٣ لوحة (٢٧٢ - ٢٧٣) ، أبو الفرج : تاريخ مختصر الدول ص (٣٥٥) ، أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٨٢) ، جوانفيل : القديس لويس ص (١٧٣ - ١٧٤) .

وهكذا باءت حملة لويس التاسع الصليبية على مصر بالفشل دون أن تحقق الهدف الذى جاءت من أجله ووردت البشرى بهذا الفتح العظيم إلى سائر الأقطار (١) .

وانتهت الدولة الأيوبية بعد أن قامت بالجهاد ضد أعداء الإسلام وقامت من خلالها دولة المماليك لترفع راية الجهاد ، وتواصل القتال ضد أعداء الإسلام والمسلمين .

* * *

(١) أبو الفداء : المختصر ج ٣ ص (١٨٢) ، المقريزى : الخطط ج ١ ص (٢٢٣) .

المصـــارد والمــراجع

أولا : المخطوطات العربية .

ثانيـاً : المصادر العر بية الأصلية .

ثالثـاً : المراجع الثانوية العربية والمعربة .

رابعاً : المصادر والمراجع الأوروبية .

• • •

المصــادر والمــراجع

أولا : المخطوطـات :

١ – ابن أيبك : (توفى سنة ٧٣٢ هـ – ١٣٣١ م) أبو بكر بن عبد الله :
(أ) (كنز الدرر وجامع الغرر) – دار الكتب المصرية رقم ٤٦٤٣ تاريخ ٩٠ ج .

(ب) (درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان) – دار الكتب المصرية رقم ٤٤٠٩ تاريخ .

٢ – ابن بهادر : (عاش فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى) محمد بن محمد بن بهادر : (فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر) – دار الكتب المصرية رقم ٤٩٧٧ تاريخ .

٣ – ابن الجوزى : (سبط) (توفى سنة ٦٥٤ هـ – ١٢٥٧ م) أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلي : (مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان) ٨ ج – دار الكتب المصرية رقم ٢١٨١ تاريخ . (طبع زنكوغراف) .

٤ – ابن دقماق : (توفى سنة ٨٠٩ هـ – ١٤٠٧ م) صارم الدين إبراهيم ابن محمد بن أيدمر العلائى : (الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين) دار الكتب المصرية رقم ١٥٢٢ تاريخ .

٥ – أبو حامد : (توفى سنة ٨٨١ هـ – ١٤٧٦ م) محمد أبو حامد : (دول الإسلام الشريفة البهية . وذكر ما ظهر لى من حكم الله الخفية فى جلب طائفة الأتراك إلى الديار المصرية) – دار الكتب المصرية رقم ١٠٣٣ تاريخ .

٦ – أبو المحاسن : (توفى سنة ٨٧٤ هـ – ١٤٦٩ م) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى : (المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ٣ ج) – دار الكتب المصرية رقم ٢٣٥٥ تاريخ .

٧ — بامخومة : (عاش فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى) أبو محمد بن عبد الله بن أحمد بن على : (قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر) ٦ ج — دار الكتب المصرية رقم ٤٤١٠ تاريخ .

٨ — الذهبى : (توفى سنة ٧٤٨ هـ — ١٣٤٨ م) أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن عثمان قايماز شمس الدين : (تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام) — دار الكتب المصرية رقم ١٤٥٢ تاريخ .

٩ — السلامى : (تاريخ الوفاة غير معروف) شهاب الدين أحمد : (مختصر التواريخ) — دار الكتب المصرية رقم ١٤٣٥ تاريخ .

١٠ — السخاوى : (توفى سنة ٩٠٢ هـ — ١٤٩٧ م) شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن : (تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات) — مكتبة بلدية الإسكندرية رقم ١٤٨٦ ب .

١١ — العمرى : (توفى سنة ٧٤٨ هـ — ١٢٤٨ م) ابن فضل الله : (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) ٢٧ ج فى ٤ مجلدات — دار الكتب المصرية رقم ٥٦٠ معارف عامة (تصوير شمسى) .

١٢ — العينى : (توفى سنة ٨٥٥ هـ — ١٤٥١ م) بدر الدين : (عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (٢٣ ج فى ٦٩ مجلداً — دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ (تصوير شمسى) .

١٣ — القرمانى : (توفى سنة ١٠١٩ هـ — ١٦١١ م) أبو العباس أحمد : (أخبار الدول وآثار الأول) — دار الكتب المصرية رقم ١٩٢١ تاريخ .

١٤ — الكتبى : (توفى سنة ٧٦٤ هـ — ١٣٦٣ م) محمد بن شاكر ابن أحمد بن عبد الرحمن فخر الدين : (عيون التواريخ) ١٦ مجلداً . يهمنا منها مجلد مكتوب عليه أنه الجزء العشرون ، ويبدأ من سنة ٦٤٥ هـ — وينتهى إلى سنة ٦٧٠ هـ — دار الكتب المصرية رقم ١٤٩٧ تاريخ (تصوير شمسى) .

١٥ — النويرى : (توفى سنة ٧٣٢ هـ — ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد : (نهاية الأرب فى فنون الأدب) ٥٥ مجلداً — دار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة (تصوير شمسى) .

ثانياً : المصادر العربية الأصلية .

١ ــ ابن الأثير : (توفى سنة ٦٣٠ هـ ـــ ١٢٣٤ م) أبو الحسن على ابن أبى الكرم الملقب عز الدين :
(أ) (التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل) ـــ نشر وتحقيق أحمد طليمات ـــ القاهرة سنة ١٩٦٣ م .
(ب) (الكامل فى التاريخ) ، ١٢ ج ـــ بيروت سنة (١٣٨٦ هـ ـــ ١٩٦٦ م) ـــ دار صادر للطباعة والنشر .

٢ ــ ابن خلدون : (توفى سنة ٨٠٨ هـ ـــ ١٤٠٦ م) عبد الرحمن محمد : (العبر وديوان المبتدأ والخبر) ٧ ج ـــ القاهرة (بولاق) سنة ١٢٨٤ هـ

٣ ــ ابن دقماق : (توفى سنة ٨٠٩ هـ ـــ ١٤٠٦ م) صارم الدين إبراهيم ابن محمد بن أيدمر : (الانتصار لواسطة عقد الأمصار) الجزئين ٤ ، ٥ فى مجلد واحد ـــ القاهرة (بولاق) سنة ١٣٠٩ ـــ ١٣١٠ هـ .

٤ ــ ابن الساعى : (توفى سنة ٦٧٤ هـ ـــ ١٢٧٥ م) أبى طالب على ابن انجب تاج الدين المعروف بابن الساعى الخازن : (الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير) الجزء التاسع وقد بلغ فيه إلى سنة ٦٥٦ هـ ـــ ١٢٥٨ م . طبع فى بغداد سنة ١٣٥٣ هـ ـــ ١٩٣٤ م .

٥ ــ ابن شداد : (توفى سنة ٦٣٢ هـ ـــ ١٢٣٨ م) القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم (سيرة صلاح الدين الأيوبى ، المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) ـــ تحقيق د . جمال الدين الشيال ـــ الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤ م . الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٦ ــ ابن العماد : (توفى سنة ١٠٨٩ هـ ـــ ١٦٧٩ م) أبو الفلاح عبد الحى ابن على بن محمد : (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) عدد الأجزاء ٨ ـــ مكتبة القدس بجوار الأزهر الشريف القاهرة سنة ١٣٥١ هـ .

٧ ــ ابن كثير القرشى : (توفى سنة ٧٧٤ هـ ـــ ١٣٧٣ م) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر : (البداية والنهاية فى التاريخ) ١٤ ج ـــ مطبعة السعادة / مصر سنة ١٣٥١ ـــ ١٣٥٨ هـ .

٨ — ابن واصل : (توفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل : (مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب) — تحقيق د . جمال الدين الشيال مطبوعات إدارة إحياء التراث القديم — مطبعة جامعة فؤاد الأول القاهرة .

٩ — ابن الوردى : (توفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م) أبو حفص زين الدين عمر : (تتمة المختصر فى أخبار البشر) ٢ ج — المطبعة الوهبية / القاهرة سنة ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م .

١٠ — ابن مماتى : (توفى سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) أبو المكارم أسعد ابن الخطير : (كتاب قوانين الدواوين) — جمعه ونشره وعلق عليه الدكتور عزيز سوريال عطية القاهرة سنة ١٩٤٣ م .

١١ — أبو الفداء : (توفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) عماد الدين إسماعيل ابن على : (المختصر فى أخبار البشر) ويعرف بتاريخ أبى الفداء ٤ ج — دار المعرفة للطباعة والنشر — بيروت — لبنان .

١٢ — أبو اليمن العليمى : (توفى سنة ٩٢٧ هـ / ١٥٢١م) أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد بن مجير الدين : (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل) ٢ ج — القاهرة / المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٣ هـ .

١٣ — أبو شامة : (توفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن إسماعيل ابن إبراهيم عثمان : (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) نشره السيد عزت العطار الطبعة الأولى — القاهرة سنة ١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م .

١٤ — أبو الفرج الملطى (توفى سنة ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون المعروف بابن العبرى : (تاريخ مختصر الدول) بيروت (المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين) سنة ١٨٩٠ م .

١٥ — أبو المحاسن : (عاش من سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م) جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى : (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية / وزارة الثقافة والإرشاد القومى .

١٦ - الذهبي : (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان قايماز شمس الدين : (دول الإسلام) ٢ ج - مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة بمدينة حيدر آباد الدكن - الهند سنة ١٣٣٧ هـ .
١٧ - الإسحاقي : (عاش في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي) محمد بن عبد المعطي بن أبي الفتح بن أحمد : (لطائف أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول) ويعرف بتاريخ الإسحاقي - القاهرة سنة ١٣١٠ هـ .
١٨ - السيوطي : (توفي سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) أبو الفضل عبد الرحمن ابن الكمال أبي بكر جلال الدين السيوطي : (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) ٢ ج - القاهرة سنة ١٣٢٧ هـ .
١٩ - الشهابي : الأمير حيدر أحمد الشهابي : (كتاب الغرر الحسان في تواريخ حوادث الأزمان) ٣ ج - مطبعة السلام بالقاهرة سنة ١٩٠٠ م
٢٠ - الشرقاوي : (توفي سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م) عبد الله بن حجازي ابن إبراهيم : (تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين) - طبع بهامش لطائف أخبار الأول للإسحاقي - مصر سنة ١٣١٠ هـ .
٢١ - الأصفهاني : (توفي سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) عماد الدين أبو عبد الله محمد بن صفي الدين : (الفتح القسي في الفتح القدسي » - تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح - الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٥ م .
٢٢ - المقريزي : (توفي سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) أحمد بن علي المقريزي :
(أ) السلوك لمعرفة دول الملوك - تحقيق د . محمد مصطفى زيادة - الجزء الأول طبعة ثانية سنة ١٩٥٦ م . لجنة التأليف والترجمة والنشر .
(ب) (كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية) ٢ ج - القاهرة - بولاق سنة ١٢٧٠ هـ .
٢٣ - اليافعي اليمني : (توفي سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧ م) أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي : (مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة

ما يعتبر من حوادث الزمان) ٤ ج ـ الهند ـ مطبعة دائرة المعارف النظامية سنة ١٣٣٧ هـ .

٢٤ ـ روبرت كلارى : (فتح القسطنطينية على يد الصليبيين) ترجمها من الفرنسية القديمة وقدم لها الدكتور حسن حبشي ـ القاهرة سنة ١٩٦٤ م

ثالثاً : المراجع العربية والمعربة الثانوية :

١ ـ (الامبراطورية البيزنطية) تعريب د . مصطفى طه بدر ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

٢ ـ جوانفيل (جان دى) : (القديس لويس : حياته وحملاته على مصر والشام) ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشي ـ القاهرة ـ دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨ م .

٣ ـ جوزيف نسيم يوسف (الدكتور) : (العدوان الصليبى على مصر) هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور ـ دار الكتب الجامعية سنة ١٩٦٩ م . طبعة أولى .

٤ ـ حسن حبشي (الدكتور) : (حملة القديس لويس على مصر والشام) ـ القاهرة مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٩ م .

٥ ـ ستيفن رنسيمان : (تاريخ الحروب الصليبية) ترجمة د . السيد الباز العرينى ـ بيروت سنة ١٩٦٩ م رقم ٢٠٧٩٩ ب ـ مكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية .

٦ ـ سرهنك : إسماعيل : (حقائق الأخبار عن دول البحار) جزءان ـ الطبعة الأولى ببولاق سنة ١٣١٢ هـ .

٧ ـ سعيد عاشور (الدكتور) : (الحركة الصليبية) ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٧١ ـ مكتبة الإنجلو المصرية .

٨ ـ ديل (شارل) : (البندقية جمهورية ارستقراطية) ترجمة د : أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق إسكندر ـ القاهرة سنة ١٩٤٨ م .

٩ ـ ياقوت الرومى الحموى (توفى سنة ٦٢٦ هـ ـ ١٢٢٨ م) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الملقب شهاب الدين : (معجم البلدان) ١٠ أجزاء ـ القاهرة ـ مطبعة السعادة سنة ١٣٢٣ ـ ١٣٢٥ هـ .

١٠ ـ فايد حماد عاشور (الدكتور) : (العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامى فى العصر الأيوبى) ـ دار المعارف ـ الإسكندرية سنة ١٩٨٠ م .

رابعاً : المصادر والمراجع الأجنبية :

Guillaume de Tyré (G. T.)

مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية / جامعة الإسكندرية ـ المكتبة العامة .

Rothelin :

Continuation de Guillaume de t)re dite du manuscrit do Rothelin. (1229-1261) C. F. R. H. C. H. oco., t II, Paris, 1859.

Eracles,

L' Estoire de Eracles Empereur. et La Conqueste de la Terre d' outremer. C.F. R. H. C. - H. occ., t. II Se Partie. Paris. 1859 .

Paris, Matthew.

Matt, Paris English History from the year 1235 to 1273, t:ans from the latin by T. A. Giles. 2 vols, London, 1852-1853.

Villehardown. Geoffery ;

Lo Conquete de Constantinople. 2 vols. Paris. 1938-1939

Archer, T. Kings ford. C.,

(The crusades) London 1894.

Brehier (L.).

L' Eglise et L' orient au Moyen Age, Les Croisades. Paris 1928 .

Balzani. Ugo.,

(Early Chroniclers of Europe) London. 1883 .

Brawn, H., :

The Venetian Republic. London .

Bury. T. B. Bury: M. A.,

The Cambridge Medieval History Vols; 4, 5, London 1936.

Crawford. f. M.,

Cleanings from Venetian History. Vol, 1; London 1905 .

Diehl. ch.,

Byzantine Empire .

Prenceton, 1925 .

Duggan, A.,

The story of the Crusades, (1097-1291) London 1963.

Davis. E. J.

The invasion of Egypt in A.D. 1249 - (A.H. 647) by Louis Ix of France (st. Louis) and a history of the contemporary sultans Egypt. London 1897.

Grousset, Renè .,

Histoire des Croisades et du Reyaume Franc de Jerusalem, 3 vols. Paris 1934-1936 .

Henry. H.M.,

History of Latin christianity. The pope, velume 3. London 1854 and volume 4 London 1855 .

Heyd, Guillaume .

Histoire du Commence du Levant au Moyen Age. Leipzig 1923 .

Hodgson, F.C., Hodgson, M.A.,

The Early History of venice From the Foundation to the Conquest of constantinople. A.D.1204. London, 1901 .

Lane Poole· Stanley :

1 - Mohammudan Dynasties

Paris 1911.

2 - Saladin and the Fall of Jerusalem New York, London 1898 .

Michel le Syrien ;

Extrait de la chronique ds Michel le Syrien (R.H.C. Doc, Arm, I, paris 1869, (pp,311-407) ,

Okey, T.

1 - The Story of Venice, London 1905 .

2 - Venice and its Story, London 1930 .

Oliphant :

(The makers of venice) .

Lendon 1898 ,

Oman, C.

(A History of the Art of war in the middle Ages, 2 vols 2nd ed, revised and enlarged, London 1924 ,

Pirenne, H.

1 - (Histoire Economique de l'oceident Medieval, 1951 ,

2 - (Medieval Cities) New-Jercy .

Schlumberger, Gustave :

(Les campagne du roi Amoury ler de Jerusalem en Egypte, paris, 1906 .

Savory, H,

Letters on Egypt, trans in to English from the French of M, savory 2 vole, 2 nd, ed, London 1787 .

Setton, (K.M.) :

(A History of the Crusades) Pansylvania 1958 .

Stevenson, w, B

(The Crusades in the East) Combridge, 1907 .

Tout, T, F,

The Empire and the papacy (918-1270) London 1909,

Vasilieve, A,

History of the Byzantine Empire, 2 vols, Madison, 1961,

Wiel :

1 - Navy of Venice - London 1910 .

2 - Venice, London 1894 .

* * *

فهرس الكتاب

الموضــــوع	الصفحة من – إلى

الفصل الأول

ظهور صلاح الدين الأيوبى

المقـــدمة ... ... ٥ – ١٠

مولده ونسبه – مواظبة صلاح الدين على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية – مواظبته على الصلاة – صلاح الدين وصوم رمضان – صلاح الدين والحج – صلاح الدين وتعظيمه للأحاديث النبوية الشريفة – جلوسه للقضاء وعدله – صلاح الدين الأيوبى والكرم فى العطاء – شجاعة صلاح الدين الأيوبى – اهتمامه بأمر الجهاد – صلاح الدين والصبر احتساباً فى سبيل الله – اهتمامه ومحافظته على أسباب المروءة – صلاح الدين وعفوه وحلمه – صلاح الدين ومسيره إلى مصر مع عمه أسد الدين شيركوه – تولية أسد الدين شيركوه منصب الوزارة للخليفة العاضد – وفاة أسد الدين وانتقال منصب الوزارة إلى صلاح الدين – أثر تولية صلاح الدين الوزارة فى مصر – مؤامرة أنصار الفاطميين مع الصليبيين ضد صلاح الدين – عودة المذهب السنى إلى مصر – وفاة الخليفة العاضد وانتهاء الدولة الفاطمية – أول غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية – ابتداء الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين – هجوم صلاح الدين على الكرك والشوبك سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٣ م – وفاة نور الدين محمود وقيام الدولة الأيوبية ... ... ١١ – ٤٤

الصفحة

الموضـــوع | من — إلى

الفصل الثانى

جهاد السلطان صلاح الدين قبل موقعة حطين

استراتيجية صلاح الدين بعد وفاة نور الدين — التآمر فى مصر ضد صلاح الدين — حصار بانياس من قبل الصليبيين سنة ٥٦٩ هـ — هجوم أسطول صقلية الصليبية على الإسكندرية سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م — ثورة الكنز أحد قادة الفاطميين فى الصعيد سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م — تحالف الباطنية مع الصليبيين. تحرك صلاح الدين إلى الشام سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م — تحالف أهل حلب مع الملاحدة والصليبيين ضد صلاح الدين — صلاح الدين يطلب تفويضاً من الخليفة العباسى بالحكم — تحالف أهل الموصل مع الحلبيين ضد صلاح الدين — استيلاء صلاح الدين على قلعة بقرين سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م — التحالف بين حلب والموصل ضد صلاح الدين — حصار صلاح الدين لمدينة حلب سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٦ م — موقف صلاح الدين من مملكة بيت المقدس فى الفترة من سنة (٥٧٣—٥٧٦ هـ/ ١١٧٧ — ١١٨٠ م) — موقعة الرملة سنة ٥٧٣ هـ/ ١١٧٧ م — عودة صلاح الدين إلى الشام سنة ٥٧٤ هـ/ ١١٧٨ م — هجوم الصليبيين على حماة سنة ٥٧٤ هـ/ ١١٧٨ م — موقعة مرج العيون وفتح حصن بيت الأحزان سنة ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩ م — جهود صلاح الدين من أجل توحيد المسلمين — السلطان صلاح الدين يغزو بلاد الأرمن بسبب اعتدائهم على المسلمين — موقف صلاح الدين من أرناط ومحاولاته الصليبية — محاولة صلاح الدين الاستيلاء على بيروت سنة ١١٨٢ م — قتال صلاح الدين ضد حلب والموصل من أجل الجهاد ضد الصليبيين —

الموضـــوع	الصفحة من – إلى
الاستيلاء على سنجار – الراعى مسئول عن رعيته – تحالف أمراء المسلمين مع الصليبيين ضد صلاح الدين – غارة صلاح الدين على الصليبيين فى بيسان سنة ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣ م – هجوم الصليبيين على الحجاز سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م – السلطان صلاح الدين يهاجم الصليبيين فى حصن الأكراد	٤٥–١١٣

الفصل الثالث

انتصارات إسلامية وهزائم صليبية

تنظيم الدولة الأيوبية قبل حطين – أثر وفاة بلدوين الرابع ملك مملكة بيت المقدس الصليبية – مقدمة موقعة حطين – فتح طبرية – موقعة حطين سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م – فتح قلعة طبرية سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م – فتح مدينة عكا سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧ م – فتح مجدليابة – فتح مدينة نابلس – فتح مدينة يافا وإذلال الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م – فتح تبنين – سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م – فشل المحاولات الإسلامية لأخذ مدينة صور – فتح عسقلان – فتح صيدا – فتح بيروت – تسليم جبيل سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م وما يجاورها سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧ م فتح بيت المقدس سنة٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م – هجوم صلاح الدين على صور سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م هزيمة المسلمين فى حصن الكوكب بسبب الغفلة سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م – فتح حصن هونين سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م – استيلاء صلاح الدين على أنطرطوس سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م – جهاد السلطان صلاح الدين ضد إمارتى طرابلس وأنطاكية سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨ م – فتح قلعة صهيون – فتح الشغر وبكاس سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م – فتح سرمينيه سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م – فتح قلعة برزية – سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م – استسلام قلعة درب ساك سنة ٥٨٤هـ/

الموضـــوع	الصفحة من – إلى
١١٨٨ م – الهدنة مع إمارة أنطاكية الصليبية سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م – فتح صفد سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م – سقوط حصن كوكب الصليبي سنة ٥٨٤ هـ/ ١١٨٨ م – استيلاء المسلمين على حصن الشقيف سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م	١١٧–١٧٤

الفصل الرابع
المسلمون والحملة الصليبية الثالثة

تطور أحوال الصليبيين بعد انتصارات المسلمين – الدعاية الصليبية من أجل قتال المسلمين – القتال حول مدينة عكا – الوقعة الكبرى حول مدينة عكا سنة ٥٨٥ هـ/ ١١٨٩ م – عودة صلاح الدين إلى قتال الصليبيين حول عكا – تحالف الغرب الأوروبي على قتال المسلمين – تفوق الصليبيين على المسلمين حول عكا – الصليبيون يشددون الحصار على عكا – الصليبيون يحاولون اقتحام عكا – سقوط عكا في يد الصليبيين للمرة الثانية سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١ م – نتائج سقوط عكا في يد الصليبيين – بدء الاتصالات بين الصليبيين والمسلمين لعقد الهدنة – تخطيط ريتشارد لأخذ القدس – موقعة الجيش المصري سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م وخيانة الأعراب – هدنة الرملة مع الصليبيين سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢ م	١٧٧–٢٤٤

الفصل الخامس
أحوال الدولة الأيوبية بعد وفاة السلطان صلاح الدين

الخلاف بين الملك الأفضل وأخيه الملك العزيز سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٤ م – ظهور الخلاف بين دمشق والقاهرة سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م – استيلاء الملك العزيز على دمشق – استيلاء الملك العادل على دمشق وأعمالها وقتاله للصليبيين – وفاة الملك العزيز عثمان وأثره – استيلاء العادل على مصر سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩	٢٤٥–٢٧٤

الموضـــوع	الصفحة من – إلى

الفصل السادس
جهاد السلطان العادل ضد الصليبين

غارة الصليبيين على حماة سنة ٦٠١ هـ/ ١٢٠٤ م – غارة الصليبيين على جبلة واللاذقية سنة ٦٠١ هـ/ ١٢٠٥ م – الدعوة للحملة الصليبية الرابعة – أهداف الحملة الصليبية الرابعة – قيام الحملة الرابعة ونتائجها – هجوم السلطان العادل على الصليبيين سنة ٦٠٣ – ٦٠٤ هـ تجدد الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين سنة ٦١١ هـ/ ١٢١٤ م – تحالف الغرب الأوروبي على قتال المسلمين سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧ م – الحملة الصليبية الخامسة هدفها مصر ٢٧٥–٣٠٤

الفصل السابع
موقف السلطان الكامل محمد من الصليبيين

السلطان الكامل محمد ومواصلة الجهاد ضد الصليبيين – المؤامرة ضد السلطان الكامل محمد – استيلاء الصليبيين على دمياط – استرداد دمياط من الصليبيين – أحوال الملوك الأيوبيين بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة – الصليبيون بعد الحملة الخامسة – الحملة الصليبية السادسة واتفاقية يافا – سنة ١٢٢٩ م وموقف المسلمين منها – استيلاء الملك الكامل على دمشق سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩ م ٣٠٥–٣٣٧

الفصل الثامن
جهاد السلطان الصالح نجم الدين أيوب ضد الصليبيين

تطور الأحوال في الدولة الأيوبية – استرداد القدس من الصليبيين سنة ٦٣٧ هـ/ ١٢٣٩ م – الحملة الصليبية سنة ١٢٣٩-

الصفحة

الموضوع | من — إلى

١٢٤١ م — موقف خيانة للإسلام والمسلمين موقف علماء الإسلام من محالفة حاكم دمشق للعدو الصليبي — هزيمة الصليبيين قرب غزة سنة ٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠ م — تحالف أمير دمشق مع الصليبيين سنة ٦٤١ هـ/١٢٤٣ م — الخوارزميون يحررون القدس سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م — موقعة غزة سنة ٦٤٢ هـ/ ١٢٤٤ م — استيلاء الصالح أيوب على دمشق — الحملة الصليبية السابعة على مصر — تقدم القوات الصليبية من قبرص نحو مصر واحتلال دمياط سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م — نتائج سقوط دمياط فى أيدى الصليبيين — موقف بلاد الشام من الحملة الصليبية السابعة — استيلاء السلطان الصالح أيوب على الكرك — سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م — استمرار الاشتباكات بين المسلمين والصليبيين فى مصر — وفاة السلطان الصالح أيوب — موقف الصليبيين بعد وفاة السلطان الصالح — موقعة شارمساح — قدوم المعظم تورانشاه وتوليته السلطنة فى مصر — المعظم تورانشاه يواجه الصليبيين — تراجع الصليبيين إلى دمياط — أسر الملك لويس التاسع وفشل حملته — نهاية السلطان المعظم تورانشاه — الموقف فى مصر بعد مقتل المعظم تورانشاه — نهاية الحملة الصليبية السابعة ... ... ٣٤١—٣٩٤

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب : ٦٤٤٤ / ١٩٩٣

الترقيم الدولى ٥ - ٠٥٨ - ١٤٢ - ٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية

١٢ ش الشاطى - شبرا مصر

دار الإعتصام

8 شارع حسين حجازى - تليفون ٢٦٠٣١ / ٣١٧٤٨ - ص ب ٤٧٠ - القاهرة

للطبع والنشر والتوزيع

